



۲۷۰

الأمم

في تفسير كتاب الله العز

في تفسير كتاب الله العز

الأستاذ الأجل

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

مجلد اول

الأستاذ الأجل

أبي بكر

مؤسسة النشر الإسلامية

بمطبعة دار الحديث في قم



Princeton University Library



32101 057499350

Princeton University Library

This book is due on the latest date
stamped below. Please return or re-
new by this date.

--	--

D4tar
Inu# 72/5/19



الْأَمْتَلِكُ

فِي نَفْسِ بَرَكَاتِ كِتَابِ اللَّهِ الْمُنَزَّلِ

لِحَبِيبِ الْبَيْتِ الْبَارِئِ الْفَرِيدِ

الْأَسْنَادِ الْمُحَقَّقِ

السَّيِّحِ نَاصِرِ مَكَّارِ الشِّيرَازِيِّ

لِلْجُزْءِ الْأَوَّلِ

نَفْحَةٌ وَأَحْرَجَةٌ

الْأَسْنَادِ مُحَمَّدِ عَلِيِّ آذْرُشَبِّ

مُؤَيَّدَةِ النُّشْرِ الْإِسْلَامِيِّ (التَّابِعَةُ)

بِمَجَاهِدِ الْمَدْرَسَةِ الْمُشْرِقَةِ (أَيْرَانِ)

(RECAP)

BP130

. 4

. M343

Jul 1

أعضاء لجنة التأليف

الأساتذة:

محمد رضا آشتياني

جعفر إمامي

داود إلهامي

أسد الله إيماني

عبد الرسول حسيني

سيد حسين شجاعبي

سيد نور الله طباطبائي

محمود عبد الله

محسن قرائبي

محمد محمدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

ما هو التفسير؟

التفسير في اللغة الإبانة وإمطة اللثام.

وهل يحتاج القرآن الى إبانة وإمطة لثام... وهو «النور» و«الكلام المبين»؟! لا، ليس على وجه القرآن لثام أو نقاب.. بل إننا بالتفسير ينبغي أن نزيل اللثام عن روحنا، ونزيع الستار المسدول على بصيرتنا، كي ندرك مفاهيم القرآن ونعيش أجواءه.

من جهة أخرى، ليس للقرآن بُعد واحد... نعم، له بُعد عام ميسر للجميع، ينير الطريق، ويهدي البشرية الى سواء السبيل.

وهناك أيضاً أبعاداً أخرى، للعلماء والمفكرين، لأولئك الطامحين الى مزيد من الارتواء... وهؤلاء يجدون في القرآن ما يروي ظمأهم الى الحقيقة، ويغرفون من بحره قدر سعة آنيتهم... وتتسع الآنية باتساع دائرة السعي والجهد والإخلاص. هذه الأبعاد أطلقت عليها الأحاديث اسم «البطون»... بطون القرآن... وهي لا تتجلى للجميع، أو بعبارة أدق، لا تقوى كلُّ العيون على رؤيتها.

والتفسير يمنح العيون قوة، ويزيل من أمامها الحجب والأستار، ويمكنها من رؤية تلك الأبعاد بدرجة وأخرى.

وبعض أبعاد القرآن تنجلي بمرور الزمان من خلال نضج التجارب البشرية و نمو الكفاءات الفكرية، وهذا ما أشار إليه «ابن عباس» إذ قال: «القرآن يفسره الزمان».

أضف الى ذلك أنّ «القرآن يفسر بعضه بعضاً»، وهذا لا يتنافى مع كونه نوراً

وكلاماً مبيناً، لأنه كلٌّ لا يتجزأ، يشكّل بمجموعه النور والكلام المبين.

* * *

متى بدأ تفسير القرآن؟

تفسير القرآن بالمعنى الحقيقي بدأ من عصر رسول الله صلى الله عليه وآله، بل من بدء نزول الوحي، لكنّه بدأ بشكل «علم مدوّن» من زمن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كما تجمع على ذلك الروايات، ورجال هذا العلم يصلون بسلسلة أسانيدهم إليه، ولا عجب في ذلك فهو باب مدينة علم رسول الله صلى الله عليه وآله.

و مئآت التفاسير كتبت على مرّ التاريخ الإسلامي، بلغات مختلفة، وبأساليب ومناهج متنوعة، منها الأدبي، والفلسفي، والأخلاقي، والروائي، والتاريخي، والعلمي، وكلّ واحد منها تناول القرآن من زاوية تخصّص صاحبه.

بستان مثمر مزدان مزدهر... ولجه من ولج، واحدٌ شُغف بمناظره الشعريّة

الخلابة.

وآخر عكف على ما فيه من علوم طبيعيّة ترتبط بتكوين النبات ونشاطه.

وثالث ألفت نظره المواد الغذائية المستفادّة منه.

ورابع أتجه الى دراسة الخواصّ العلاجيّة في نباتاته.

وخامس اهتم بعطور أوراده.

وهكذا رواد طريق التفسير القرآني، عكس كلٌّ منهم بما يملكه من مرآة خاصّة،

مظهرًا من مظاهر جمال القرآن وأسراره.

واضح أنّ كلّ هذه تفاسير للقرآن، ولكن ليست تفسيراً للقرآن، لأنّ كلّ واحد

منها يميّط اللثام عن بُعد من أبعاد القرآن، لا عن كلّ الأبعاد، ولو جمعناها لتجلى من

خلالها بعض أبعاد القرآن لاجممع أبعاده.

ذلك لأنّ القرآن كلامُ الله، و فيض من علمه اللامتناهي، وكلامه مظهرٌ

لعلمه، وعلمه مظهرٌ لذاته، وكلّها لامتناهية.

من هنا، لا ينبغي أنّ نتوقع استطاعة البشر أن يروا كلّ أبعاد القرآن، لأنّ الكوز

لا يسعّ البحر.

طبعاً، ممّا لاشكّ فيه أنّنا نستطيع أنّ نعرف من هذا البحر الكبير... الكبير جداً... بقدر سعة آنية فكرنا، ومن هنا كان على العلماء فرض أن لايتوانوا في كلّ عصر وزمان عن كشف مزيد من حقائق القرآن الكريم، وأن يبذلوا جهودهم المخلصة في هذا المجال ما استطاعوا، عليهم أن يستفيدوا ممّا خلفه الأسلاف رضوان الله عليهم في هذا المجال، ولكن لايجوز لهم أن يكتفوا به، فرسول الله صلّى الله عليه وآله قال عن كتاب الله العزيز: «لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه».

* * *

خطر التفسير بالرأي:

أخطر طريقة في تفسير القرآن هي أنّ يأتي المفسّر الى كتاب الله العزيز معلماً، لا تلميذاً.

أي يأتي إليه ليفرض أفكاره على القرآن، و ليعرض أحكامه الناتجة عن البيئة والتخصّص العلمي، والاتّجاه المذهبيّ الخاص، والذوق الشخصي، باسم القرآن، و بشكل تفسير للقرآن، مثل هذا الشخص لا يتخذ القرآن هادياً وإماماً، بل يتخذه وسيلة ل طرح كلامه و تبرير ذوقه وأفكاره.

هذا اللون من تفسير القرآن - أو قلّ تفسير الأفكار الشخصية بالقرآن - راجع بين جماعة، وليس وراءه إلاّ الإنحراف... الإنحراف عن طريق الله... والانزلاق في متاهات الضلال.

هذا ليس بتفسير و إنّما هو قسر وفرض و تحميل... ليس باستفتاء و إنّما هو إفتاء... ليس بهداية و إنّما هو الضلال... إنّهُ مسخ و تفسير بالرأي، و نحن في منحنى التفسيري سوف لا نتّجه - بإذن الله - الى ذلك، بل نتّجه بكلّ قلوبنا وأفكارنا نحو القرآن لتتلمذ عليه، لا غير.

* * *

متطلبات العصر:

لكلّ عصر خصائصه و ضروراته و متطلّباته، وهي تنطلق من الأوضاع الإجتماعية والفكرية السائدة في ذلك العصر.

ولكلّ عصر مشاكله وملايساته الناتجة عن تغيير المجتمعات والثقافات، وهو تغيير لا ينفك عن مسيرة المجتمع التاريخية.

المفكر الفاعل في الحياة الاجتماعية هو ذلك الذي فهم الضرورات والمتطلبات، وأدرك المشاكل والملايسات... وبعبارة أخرى هو الذي استوعب مسائل عصره. أما أولئك الذين لا يدركون هذه المسائل إطلاقاً، أو لا يتفاعلون معها بسبب عدم انتمائهم الى عصرهم، أي بسبب فقدانهم عنصر «المعاصرة»، فهم الهامشيون الذين لا يقدرّون على التأثير ولا على المعالجة، بل يقفون دوماً متأسفين ومتحسرين وشاكين ومنتقدين، ويزداد تشاؤمهم وياسهم باستمرار حتى يقفوا في طامة «الانزواء الاجتماعي».

ذلك لأنهم ما استطاعوا، أو ما أرادوا أن يستوعبوا احتياجات عصرهم ومشاكله.

هؤلاء يعيشون في ظلام مطبق، وبسبب عدم تفهّمهم لأسباب (الحوادث) وعللها ونتائجها، يفقدون أنفسهم أمام هجوم هذه الحوادث ويرتبكون ويخافون ويظنون دون خطة للمواجهة والدفاع، وإن أرادوا اتخاذ خطوة يزلقون ويزلّون، لأنّ مسيرتهم في الظلام، وما أجمل ما قاله الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللواسب».

رسالة العلماء في كلّ عصر أن يدركوا بوعي كامل هذه المسائل... هذه الاحتياجات، وهذا الفراغ الروحي والفكري والاجتماعي، وأن يسعوا لمعالجتها بشكل صحيح كي لا يفسحوا المجال للاطروحات المنحرفة أن تدخل الساحة وتملأ الفراغ و تقدّم الحلول الكاذبة.

من المسائل التي تلمّسناها بوضوح عطش الجيل الراهن لدرك المفاهيم الإسلامية والمسائل الدينية، وخلافاً لما يرده اليائسون والمتشائمون إنّ هذا الجيل لا يتوقّ الى الفهم حسب، بل يتلهف الى أنّ يرى التطبيق العملي لهذه المفاهيم والمسائل.

من الواضح أنّ أمام هذا الجيل التوقّ مسائل غامضة ونقاط إبهام ومواضع تساؤل كثيرة، والخطوة الأولى لتلبية هذه الحاجات إعادة كتابة التراث العلمي والفكري

الإسلامي بلغة العصر، و تقديم كلّ هذه المفاهيم السامية عن طريق هذه اللغة الى روح الجليل وعقله.

والخطوة الاخرى، استنباط الاحتياجات والمتطلبات الخاصة بهذا الزمان من مبادئ الإسلام العامة.

وهذا التفسير دوّن على أساس هذين الهدفين.

* * *

الأمثل بين التفاسير:

واجهنا دوماً أسئلة وردت إلينا من مختلف الفئات وخاصة الشباب المتعطش إلى نبع القرآن عن التفسير الأفضل.

هذه الأسئلة تنطوي ضمناً على بحث عن تفسير يبيّن عظمة القرآن عن تحقيق لا تقليد، ويحيب على ما في الساحة من احتياجات وتطلّعات وآمال... تفسير يجدي كلّ الفئات ويخلو من المصطلحات العلميّة المعقّدة.

في الواقع نحن نفتقر الى مثل هذا التفسير، فالأسلاف والمعاصرون رضوان الله عليهم كتبوا في حقل التفسير كثيراً، لكنّ بعضها مكتوب بإسلوب خاصّ بعصرها لا يستفيد منه إلاّ العلماء والادباء، وبعضها مدوّن بمستوى علمي لا يدركه سوى الخواص، وبعضها تناول جانباً معيّناً من القرآن، وكأنّها باقة ورد اقتطفت من بستان مزدان، فهي قبس من هذا البستان، وليست البستان... وهكذا.

من هنا لم نجد أمام هذه الأسئلة المتدفقة علينا جواباً مقنعاً يرضي هذه الأرواح المتعطشة التوّاقة.

آلينا على أنفسنا أنّ نجيب على هذا السؤال عملياً، فالكلام لا يرضي السائلين. لكننا وجدنا أنفسنا في خِصَمّ الأشغال المتزايدة من جهة، و أمام القرآن... البحر الذي لا ساحل له... من جهة اخرى، فأنتى لنا أن نخوض عبابه دون عدّة ووقت و استعداد فكري ونفسي، لذلك وقفنا على ضفاف هذا البحر المواجه لنا نظراً اليه بحسرة. و فجأة، هدانا الله الى طريق الحلّ، وانقذت في الذهن فكرة العمل الجماعي، فكان أن اجتمع معنا على الطريق عشرة من الفضلاء المخلصين الواعين كانوا حقاً مصداق

«عشرة كاملة»، فبذلت المساعي الدائبة ليلاً ونهاراً لتثمر خلال مدة أقصر مما توقعناها هذا الذي يراه القارئ الكريم.

* * *

ولكي لا تبقى نقطة غموض أمام القارئ الكريم نشرح باختصار منهج عملنا في

هذا التفسير.

فُتِّمَت الآيات الكريمة أولاً في الفروع المختلفة بين الاخوة، وبتوجيه موحد ودرسوا المصادر المختلفة في التفسير لكبار المفسرين، مثل:

- ١ - مجمع البيان للشيخ الطبرسي
- ٢ - أنوار التنزيل للقاضي البيضاوي
- ٣ - الدر المنثور لجلال الدين السيوطي
- ٤ - البرهان للمحدث البحراني
- ٥ - الميزان للعلامة الطباطبائي
- ٦ - المنار، تقرير دروس للشيخ محمد عبده
- ٧ - في ظلال القرآن للاستاذ سيد قطب
- ٨ - تفسير المراغي لأحمد مصطفى مراغي
- ٩ - مفاتيح الغيب للفخر الرازي
- ١٠ - روح الجنان لأبي الفتوح الرازي
- ١١ - اسباب النزول للواحيدي
- ١٢ - تفسير القرطبي لمحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي
- ١٣ - تفسير روح المعاني للعلامة شهاب الدين الألوسي
- ١٤ - نور الثقلين لعبد علي بن جمعة الحويزي
- ١٥ - الصافي للملا محسن الفيض الكاشاني
- ١٦ - التبيان للشيخ الطوسي

وتفاسير أخرى...

ثم جمعنا ما عندنا من مفاهيم تتناسب مع متطلبات عصرنا واحتياجاته، و

في الجلسات العامة التي عقدناها يومياً أضفنا الى كلّ ذلك ما استجدّ في الأذهان من مسائل قرآنية، و بعد دراسات و مشاورات حول المباحث المختلفة، و مراجعة المصادر المختلفة، املتت الموضوعات و دوّنها الاخوان بسرعة، ثمّ راجعنا الكتابات و دقّقنا فيها بصبر و سعة صدر، و أعددناها للطبع، و بعد الطبع أعيد النظر فيها. و كانت نتيجة هذه الجهود ما يراه القارئ العزيز، و نرجو أن يكون بإذن الله نافعاً مفيداً للجميع.

* * *

خصائص هذا التفسير:

لكي يدخل القراء الأعزاء الى هذا التفسير بنظرة أوضح، و ليجدوا فيه ما يريدونه بشكل أيسر، نذكر باختصار خصائص هذا التفسير و مزاياه:

١ - لما كان القرآن «كتاب حياة» فإننا لم نركّز - في التفسير - على المسائل الأدبية و العرفانية، بل بدلاً من ذلك عالجنا المسائل الحياتية المادية و المعنوية و خاصة المسائل الإجتماعية، و سعينا الى إشباعها بحثاً و تحليلاً، و خاصة ما يرتبط من قريب بحياة الفرد و المجتمع.

٢ - في ذيل كلّ آية تناولنا تحت عنوان (وقفات) المسائل المطروحة في الآية، بشكل مستقل، كالربا، و الرق، و حقوق المرأة، و فلسفة الحج، و أسرار تحريم القمار، و الخمر، و لحم الخنزير، و مسائل الجهاد الاسلامي، و أمثالها من الموضوعات، كي يستغني القارئ عن مراجعة الكتب الأخرى في هذه المجالات.

٣ - عرّفنا عن تناول البحوث ذات الفائدة القليلة، و أعطينا الأهمية لمعاني الكلمات و أسباب النزول ممّا له تأثير في الفهم الدقيق لمعنى الآية.

٤ - عرضنا التساؤلات و الشبهات و الاعتراضات المطروحة حول اصول الإسلام و فروعه بمناسبة كلّ آية و ذكرنا الجواب عليها باختصار مثل شبهة الآكل و المأكول، و المعراج، و تعدد الزوجات، و سبب الاختلاف بين إرث المرأة و الرجل، و دية المرأة و الرجل، و الحروف المقطعة في القرآن، و نسخ الأحكام، و الغزوات الإسلامية، و الاختبارات الالهية، و عشرات المسائل الأخرى، كي لا تبقى آية علامة استفهام عند

مطالعة تفسير الآيات.

٥ - أعرضنا عن استعمال المصطلحات العلمية المعقدة التي تجعل الكتاب خاصاً بفتة خاصة من القراء، ولدى الضرورة تناولنا ذلك في هامش الكتاب من أجل استفادة المتخصصين.

نسأل الله سبحانه أن يأخذ بأيدينا لما فيه رضاه، ويوفق كل العاملين لخدمة كتابه العظيم.

الصحة الإسلامية المعاصرة وزيادة الحاجة الى تفسير القرآن:

تشهد أمتنا الإسلامية خلال هذه الأعوام صحة إسلامية عامة، تتمثل في رفض كلّ المستوردات الفكرية والعودة الى الاسلام، لإقامة حياتها على أساس أحكام الرسالة الخاتمة.

هذه الصحة تعود الى فشل كلّ الاطروحات الكافرة في تحقيق ما لوّحت به من تقدمية و تحرّر و سعادة كما تعود أيضاً الى العواطف الإسلامية المتوغلة في أعماق أبناء الأمة.

ويتحمّل العلماء الواعون في هذه المرحلة الحساسة مسؤوليات كبرى تفرض عليهم أن يعمّقوا هذا التحرك الواعي بين صفوف الأمة ويجذّروه ويوصلوه، كي تكون المسيرة على بصيرة في حركتها وعلى يقظة في اتّخاذ قراراتها، وعلى ثقة من أنّها تسلك الطريق نحو أهدافها الإسلامية الكبرى دون زيغ أو انحراف أو التقاط.

و كتاب الله هدى و نور، فيه الإطار العامّ للمسيرة وفيه الزاد اللازم لمواصلة الطريق المستقيم نحو ربّ العالمين.

نسأل الله سبحانه أن نكون بهذا التفسير قد ساهمنا في إعلان كلمة القرآن بشأن واقعنا، وبشأن مستقبلنا، وبشأن ما يجب أن نفعله للخروج من الواقع المؤلم الذي نعيشه أمتنا.

ونسأله سبحانه أن يوفق كلّ العاملين على إعلاء راية القرآن في العالم ويسدّد

خطاهم وينصرهم على أعدائهم.

نسأله جلّ وعلا أن يوفق العلماء والمفكرين الواعين الملتزمين الى قيادة هذا التحرك الإسلامي المتصاعد في كلّ أرجاء العالم الإسلامي، قيادة أصيلة قائمة على هدى القرآن والسنة.

و نتضرّع اليه أن يوفقنا لإكمال بقية أجزاء هذا التفسير و أن يتقبل من كلّ العاملين عليه، إنّه تعالى سميع مجيب.
وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

ناصر مكارم الشيرازي

قم - الحوزة العلمية ١٤٠٤ هـ

الجزء الأول من القرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحمد

خصائصها:

لهذه السورة مكانة خاصة بين سائر سور القرآن الكريم وتميز بالخصائص التالية:
١ - سياق السورة- تختلف سورة الحمد عن سائر سور القرآن في لحنها و سياقها. فسياق السور الاخرى يعبر عن كلام الله و سياق هذه السورة يعبر عن كلام عباد الله. و عبارة اخرى شاء الله في هذه السورة ان يعلم عباده طريقة خطابهم له و مناجاتهم اياه تبدأ هذه السورة بحمد الله و الثناء عليه
و تستمر في اقرار الايمان بالمبدأ و المعاد (بالله و اليوم القيامة) و تنتهى بالتضرع و الطلب.

الانسان الواعى المتيقظ يحسّ و هو يقرأ هذه السورة بانه يعرج على اجنحة الملائكة و يسمو في عالم الروح و المعنوية و يدنو باستمرار من رب العالمين
هذه السورة تعبر عن اتجاه الاسلام في رفض الوسطاء بين الله و الانسان هؤلاء الوسطاء الذين افتعلتهم المذاهب الزائفة المنحرفة، و تُعلم البشر ان يرتبطوا بالله مباشرة دونما واسطة. فال مخلوق لا يرى في مضامين آيات السورة، سوى الله يخاطبه .. يناجيه .. يتضرع اليه .. دونما واسطة حتى وان كانت الواسطة نبياً مرسلأ او ملكاً مقرباً. و من العجيب أن يحتل هذا الارتباط المستقيم بين الخالق و المخلوق مكان الصدارة في كتاب الله العزيز!

* * *

٢ - سورة الحمد أساس القرآن - فقد روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال لجابر بن عبد الله الانصاري: «أَلَا أَعْلَمُكَ أَفْضَلَ سُورَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ؟» قَالَ جَابِرٌ: بَلَى يَا أَبَايَ أَنْتَ وَ أُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمْنِيهَا. فَعَلَّمَهُ الْحَمْدَ أُمَّ الْكِتَابِ، وَقَالَ: هِيَ

شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ، إِلَّا السَّامَ، وَالسَّامُ الْمَوْتُ»^١.

وروي عنه (صلى الله عليه وآله) أيضاً أَنَّهُ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَةِ، وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلَهَا، وَهِيَ أُمُّ الْكِتَابِ.^٢

سبب أهمية هذه السورة يتضح من محتواها، فهي في الحقيقة عرض لكل محتويات القرآن. جانب منها يختص بالتوحيد وصفات الله، وجانب آخر بالمعاد و يوم القيامة، وقسم منها يتحدث عن الهداية والضلال باعتبارهما علامة التمييز بين المؤمن والكافر. وفيها أيضاً اشارات الى حاكمية الله المطلقة، و الى مقام ربوبيته، ونعمه اللامتناهية العامة والخاصة (الرحمانية والرحيمية)، و الى مسألة العبادة والعبودية واختصاصها بذات الله دون سواه.

إنها تتضمن في الواقع توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الافعال، و توحيد العبادة.

وبعبارة اخرى: تتضمن هذه السورة مراحل الايمان الثلاث: الاعتقاد بالقلب، والاقرار باللسان، والعمل بالاركان. ومن المعلوم أن لفظ «الأم» يعني هنا الاساس والجذر.

ولعل ابن عباس ينطلق من هذا الفهم إذ يقول:
إن لكل شيء اساساً... وأساس القرآن الفاتحة.

ومن هذا المنطلق أيضاً قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيما روي عنه:
أَيُّمَا مُسْلِمٍ قَرَأَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ كَأَنَّما قَرَأَ ثُلْثِي الْقُرْآنِ، وَأُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ كَأَنَّما تَصَدَّقَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ»^٣.

تعبير (ثُلْثِي الْقُرْآنِ)، ربما كان إشارة الى أن القرآن ينطوي على ثلاثة أقسام: الدعوة الى الله، والإخبار بيوم الحساب، والفرائض والاحكام. و سورة الحمد تتضمن القسمين الاولين. وتعبير (أم القرآن) إشارة الى أن القرآن يتلخص من وجهة نظر أخرى

(٢١) مجمع البيان، ونورالثقلين، مقدمة سورة الحمد.

(٣) مجمع البيان، بداية سورة الحمد.

في (الايان والعمل) وقد جمعا في سورة الحمد.

٣ - سورة الحمد شرف النبي (صلى الله عليه وآله) - القرآن الكريم يتحدث عن سورة الحمد باعتبارها هبة إلهية لرسوله الكريم، ويقرنها بكل القرآن إذ يقول:

«وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ»^١ (الحجر، ٨٧)

نفس هذا المضمون رواه أمير المؤمنين علي (عليه السلام) عن الرسول (صلى الله عليه وآله) قال: «إِنَّ اللَّهَ أَفْرَدَ الْإِمْتِنَانَ عَلَيَّ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَجَعَلَهَا بِإِزَاءِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَإِنَّ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ أَشْرَفُ مَا فِي كُنُوزِ الْعَرْشِ»^٢.

٤ - التأكيد على تلاوة هذه السورة - مما تقدم نفهم سبب تأكيد السنة بمصادرها الشيعية والسنية على تلاوة هذه السورة. فتلاوتها تبعث الروح والايان والصفاء في النفوس، وتقرب العبد من الله، وتقوي ارادته، وتزيد اندفاعه نحو تقديم المزيد من العطاء في سبيل الله، وتبعده عن ارتكاب الذنوب والانحرافات. ولذلك كانت أم الكتاب صاعقة على رأس ابليس كما ورد عن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام)؛

«رَأَى ابْلِسُ أَرْبَعَ زَنَاتٍ، أَوْلَهُنَّ يَوْمَ لُيْنٍ، وَحِينَ أَهْبِطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَحِينَ يُعْتَبُ مُحَمَّدٌ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) عَلَى حِينِ قَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَحِينَ نَزَلَتْ أُمُّ الْكِتَابِ»^٣

محتوى السورة:

كل واحدة من الآيات السبع في هذه السورة تشير الى حقيقة هامة: «بِسْمِ اللَّهِ...» بداية لكل عمل، وتعلمنا الاستمداد من الباري تعالى لدى البدء

بأي عمل.

(١) سيأتي تفسير «سبعا من المثاني» في ذيل الآية المذكورة. انظر: المجلد الحادي عشر من هذا التفسير.

(٢) تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٦.

(٣) نور الثقلين، ج ١ ص ٤.

«أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» درس في عودة كل نعمة و رعاية الى الله تعالى،
والفات الى حقيقة انطلاق كل هذه المواهب من ذات الله تعالى.

«أَلرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» تبين هذه الحقيقة، وهي: إن خلق الله و رعايته و حاكميته تقوم
على أساس الرحمة والرحمانية. وهذا المبدأ يشكل المحور الاساس لنظام رعاية العالم.
«مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» استحضار للمعاد و يوم الجزاء، و لحاكمية الله على تلك المحكمة
الكبرى.

«إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» تبين التوحيد في العبادة، والتوحيد في الاستعانة بالاسباب.
«إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» توضح حاجة العباد و رغبتهم الشديدة للهداية، وتؤكد حقيقة
أن كل الوان الهداية إنما تصدر منه تعالى.

وآخر آية من هذه السورة ترسم معالم «الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ» و تميّز بين صراط
الذين أنعم الله عليهم، و صراط الذين ضلّوا و الذين استحقوا غضب الله عليهم.
يمكن تقسيم هذه السورة، من منظار آخر، الى قسمين: قسم يختص بحمد الله
و الثناء عليه، و قسم يتضمّن أدعية العباد.

و الى هذا التقسيم يشير الحديث الشريف عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)
قال:

«قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ قَسَمْتُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ بَيْنِي وَ بَيْنَ عَبْدِي فَنِصْفُهَا لِي وَ
نِصْفُهَا لِعَبْدِي وَ لِعَبْدِي مَا سَأَلَ»

إِذَا قَالَ الْعَبْدُ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بَدَأَ عَبْدِي
بِاسْمِي وَ حَقُّ عَلَيَّ أَنِّي أُتِمِّمَ لَهُ أُمُورَهُ وَ أُبَارِكُ لَهُ فِي أَعْوَالِهِ»

«فَإِذَا قَالَ: «أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ، حَمَدَنِي عَبْدِي وَ عَلِمَ
أَنَّ النِّعَمَ الَّتِي لَهُ مِنْ عِنْدِي، وَ أَنَّ الْبَلَايَا الَّتِي دَفَعْتُ عَنْهُ بِتَطَوُّبِي، أَشْهَدُكُمْ أَنِّي أَصِيفُ
لَهُ إِلَى نِعَمِ الدُّنْيَا نِعَمَ الْآخِرَةِ وَ أَدْفَعُ عَنْهُ بَلَايَا الْآخِرَةِ كَمَا رَفَعْتُ عَنْهُ بَلَايَا الدُّنْيَا»

وَ إِذَا قَالَ: «أَلرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ، شَهِدَنِي عَبْدِي أَنِّي أَلرَّحْمَنُ
الرَّحِيمُ أَشْهَدُكُمْ لَأَوْفَرَنَّ مِنْ رَحْمَتِي حَظَّهُ وَ لَأَجْزَلَنَّ مِنْ عَطَائِي نَصِيبَهُ.
فَإِذَا قَالَ: «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَشْهَدُكُمْ كَمَا اعْتَرَفَ بِأَنِّي أَنَا

مَا لِكُ يَوْمِ الدِّينِ لَا تُسَهِّلَنَّ يَوْمَ الحِسَابِ حِسَابَهُ وَلَا تُقَبِّلَنَّ حَسَنَاتِهِ، وَلَا تَجَاوِزَنَّ عَن سَيِّئَاتِهِ»

فَإِذَا قَالَ: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، صَدَقَ عَبْدِي إِتَائِي يَعْْبُدُ أَشْهَدُكُمْ لِأُتَيْبَتِهِ عَلَى عِبَادَتِهِ ثَوَابًا يَغْبِطُهُ كُلُّ مَنْ خَالَفَهُ فِي عِبَادَتِهِ لِي
فَإِذَا قَالَ: «وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» قَالَ اللهُ تَعَالَى: لِي اسْتَعَانَ عَبْدِي، وَإِلَى التَّجَا،
أَشْهَدُكُمْ لِأَعْيِنَتِهِ عَلَى أَمْرِهِ وَلَا غَيْبَتَهُ فِي شِدَائِدِهِ وَلَا خَدَنَ بِيَدِهِ يَوْمَ نَوَائِبِهِ»
فَإِذَا قَالَ: «إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» إِلَى آخِرِ السُّورَةِ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: هَذَا عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ وَقَدِ اسْتَجَبْتُ لِعَبْدِي وَأَعْظَيْتُهُ مَا أَمَلَ وَأَمَنَّتُهُ مِمَّا مِنْهُ وَجِلَّ»^١.

* * *

لماذا سميت فاتحة الكتاب؟

«فَاتِحَةُ الْكِتَابِ»، اسم اتخذته هذه السورة في عصر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، كما يبدو من الاخبار والاحاديث المنقولة عن النبي الاعظم. وهذه المسألة تفتح نافذة على كثير من المسائل الاسلامية، وتلقي الضوء على قضية جمع القرآن، وتوضح أن القرآن جُمع بالشكل الذي عليه الآن في زمن الرسول (صلى الله عليه وآله) خلافا لما قيل بشأن جمع القرآن في عصر الخلفاء، فسورة الحمد ليست أول سورة في ترتيب النزول، وتسميتها بفاتحة الكتاب تعود الى الموضوع الذي اتخذته بين السور في الترتيب القرآني خلال عصر نزول الوحي. وثمة أدلة أخرى تؤيد حقيقة جمع القرآن بالترتيب الذي بأيدينا اليوم في عصر الرسول (ص) وبأمره.

روى علي بن ابراهيم، عن الامام الصادق (عليه السلام)، أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) قَالَ لِعَلِّي (عَلَيْهِ السَّلَامُ):
«يَا عَلِيُّ إِنَّ الْقُرْآنَ خَلْفَ فِرَاشِي فِي الصُّحُفِ وَالْحَرِيرِ وَالْقَرَّاطِيسِ، فَخُذُوهُ وَاجْمَعُوهُ وَلَا تُضَيِّعُوهُ كَمَا ضَيَّعَتِ الْيَهُودُ التَّوْرَةَ، وَأَنْطَلَقَ عَلِيُّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فَجَمَعَهُ فِي

تَوْبٍ أَضْفَرًا، ثُمَّ خَتَمَ عَلَيْهِ»^١.

و يروي (الخوارزمي) في المناقب عن (علي بن رباح) أن علي بن ابي طالب و ابي بن كعب جمعا القرآن في عصر رسول الله (صلى الله عليه وآله).

و روى (الحاكم) في (المستدرک) عن (زيد بن ثابت) قال: «كُنَّا نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرَّقَاعِ»

ويقول السيد المرتضى (رحمه الله): «إِنَّ الْقُرْآنَ كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) مَجْمُوعًا مُؤَلَّفًا عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ الْآنَ»^٢.

و يروي الطبراني وابن عساكر عن الشعبي أن القرآن جمعه ستة من الانصار في عصر النبي (صلى الله عليه وآله)^٣.

و يروي قتادة أنه سأل أنس عن جمع القرآن في عصر النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: أَرْبَعَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ هُمْ أَبُو بِنُ كَعْبٍ، وَمَعَاذُ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَ أَبُو زَيْدٍ؟ وهناك روايات اخرى يطول ذكرها.

على أي حال، اتخاذ سورة الحمد اسم (فاتحة الكتاب) دليل واضح على اثبات هذه المسألة، اضافة الى الادلة الاخرى المستفيضة في مصادر الشيعة والسنة.

* * *

سؤال:

وهنا يثار سؤال حول المشهور بين بعض العلماء بشأن جمع القرآن بعد عصر النبي (صلى الله عليه وآله).

وفي الجواب نقول: ما روي بشأن جمع القرآن على يد علي بعد عصر الرسول، لم

(١) تاريخ القرآن، ابو عبد الله الزنجاني، ص ٤٤.

(٢) مجمع البيان، ج ١ ص ١٥.

(٣) منتخب كنز العمال، ج ٢ ص ٥٢.

(٤) صحيح البخاري، ج ٦، ص ١٠٢.

يكن القرآن وحده، بل مجموعة تتضمن القرآن وتفسيره وأسباب نزول الآيات، وما شابه ذلك مما يحتاجه الفرد لفهم كلام الله العزيز.

وأما ما فعله عثمان في هذا الصدد، فتدل القرائن أنه أقدم على كتابة قرآن واحد عليه علامات التلاوة والاعجام، منعا للاختلاف في القراءات، إذ لم يكن التنقيط معمولاً به حتى ذلك الوقت.

وما نراه من إصرار لدى جماعة على عدم جمع القرآن في عصر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وعلى نسبة هذا الأمر للخليفة عثمان أو للخليفة الأول أو الثاني، فانما يعود الى ظروف وملاسات وعصبيات تاريخية لسنا بصدها الآن.

و اذا رجعنا الى استقصاء طبيعة الاشياء في مجال جمع القرآن، ألفينا أنه من غير المعقول أن يترك النبي (صلى الله عليه وآله) هذه المهمة الكبيرة، بينما نجده يهتم بدقائق الامور المرتبطة بالرسالة.

أليس القرآن دستور الاسلام، وكتاب هداية البشرية، وأساس عقائد الاسلام وأحكامه؟

أليس من الممكن أن يتعرض القرآن - إن لم يجمع في عصر الرسول (صلى الله عليه وآله) الى الضياع، وإلى الاختلاف فيه بين المسلمين؟!

(حديث الثقلين) المروي في المصادر الشيعية والسنية، حيث أوصى رسول الله (صلى الله عليه وآله) بوديعة: كتاب الله، وعترته، يؤكد أيضا أن القرآن كان قد جُمع في مجموعة واحدة في عصر الرسول الاعظم.

أما اختلاف الروايات في عدد الصحابة الذين جمعوا القرآن خلال عصر النبي، فلا يشكل عقبة في البحث، ومن الممكن أن تتجه كل رواية الى ذكر عدد منهم.

الآيات

- ١ - «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»
- ٢ - «أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»
- ٣ - «أَلرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»
- ٤ - «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ»
- ٥ - «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»
- ٦ - «إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»
- ٧ - «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ»

التفسير

- ١ - «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»
دأبت الأمم والشعوب على أن تبدأ كل عمل هام ذي قيمة باسم كبير من رجالها. والحجر الاساس لكل مؤسسة هامة يوضع باسم شخصية مرموقة في نظر أصحابها، أي ان أصحاب المؤسسة يبدأون العمل باسم تلك الشخصية.
ولكن، ما أفضل أن يبدأ العمل باسم وجود خالد قائم لا يعتريه الفناء، لكي يتسم ذلك العمل بالبقاء والخلود!!
فكل ما في الكون يتجه الى الزوال والفناء، الا ما كان مرتبطا بالذات الابدية الخالدة.. ذات الله سبحانه.

خلود ذكر الانبياء سببه ارتباطهم بالله وبالقيم الانسانية الالهية الخالدة كالعدالة والحقيقة، وخلود اسم رجل في التاريخ مثل (حاتم الطائي)، يعود الى ارتباطه

بواحدة من تلك القيم هي (السخاء).

صفة الخلود والابدية يختص بها الله من بين سائر الموجودات، ومن هنا ينبغي أن يبدأ كل شئ باسمه وتحت ظله وبالاستمداد منه. ولذلك كانت البسملة أول آية في القرآن الكريم.

والبسملة لا ينبغي أن تنحصر في اللفظ والصورة، بل لابد أن تتعدى ذلك الى الارتباط الواقعي بمعناها، وهذا الارتباط يخلق الاتجاه الصحيح ويصون من الانحراف، و يؤدي حتما الى نتيجة مطلوبة مباركة. ولذلك جاء في الحديث النبوي الشريف: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ، لَمْ يُدْكَرْ فِيهِ اسْمُ اللَّهِ، فَهُوَ أَبْتَرُ»^١

وَ سَأَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَحْيَىٰ عَلِيًّا (ع) وَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! وَمَا تَفْسِيرُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؟ قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْرَأَ أَوْ يَعْمَلَ عَمَلًا فَيَقُولُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَإِنَّهُ يُبَارَكُ لَهُ فِيهِ»^٢.

ويقول الامام محمد بن علي الباقر (عليه السلام)

«سَرَفُوا آكْرَمَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» وَيَنْبَغِي الْإِثْبَانُ بِهِ عِنْدَ افْتِتَاحِ كُلِّ أَمْرٍ عَظِيمٍ أَوْ صَغِيرٍ لِيُبَارَكَ فِيهِ»^٣.

بعبارة موجزة: بقاء العمل وخلوده، يتوقف على ارتباطه بالله.

من هنا كانت الآية الاولى، التي انزلها الله على نبيه الكريم، تحمل أمرا لصاحب الرسالة أن يبدأ مهمته الكبرى باسم الله: «إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...» (العلق، ١).
ولذلك أيضاً فان نوحا(ع) - حين يركب السفينة في ذلك الطوفان العجيب، و يخرج عباب الامواج الهادرة، و يواجه ألوان الاخطار على طريق تحقيق هدفه - يطلب من اتباعه أن يرددوا البسملة في حركات السفينة وسكناتها. «وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ

(١) بحار الانوار، ج ١٦، باب ٥٨. نقلا عن تفسير البيان، ج ١، ص ٤٦١.

(٢) بحار الانوار جلد ٩٢ باب ٢٩ ص ٢٤٢.

(٣) الميزان، ج ١ ص ٢١.

مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا» (هود، ٤١). وانتهت هذه السفرة المليئة بالاحطار بسلام وبركة كما يذكر القرآن الكريم: «قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ» (هود، ٤٨).

وسليمان (ع) يبدأ رسالته الى ملكة سبأ بالبسملة: «إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ...»^١ و انطلاقاً من هذا المبدأ تبدأ كل سور القرآن بالبسملة، كي يتحقق هدفها الاصيل المتمثل بهداية البشرية نحو السعادة.

و تنفرد سورة التوبة بعدم بدئها بالبسملة، لانها تبدأ باعلان الحرب على مشركي مكة وناكثي الايمان، و اعلان الحرب لا ينسجم مع وصف الله بالرحمن الرحيم.

* * *

تجدر الإشارة الى أن البسملة تقتصر على صيغة «بسم الله» ولا تقول فيها باسم الخالق أو باسم الرزاق وما شابهها من الصيغ. والسبب يعود الى أن كلمة (الله) - كما سيأتي - جامعة لكل أسماء الله و صفاته. أما الاسماء الاخرى لله فتشير الى قسم من كمالاته كالرحمة والخالقية.

اتضح مما سبق أيضاً أن قولنا «بِاسْمِ اللَّهِ» في بداية كل عمل يعنى «الاستعانة» بالله، ويعني أيضاً «البدء» باسم الله. وهذان المعنيان يعودان الى أصل واحد، وان عمد بعض المفسرين الى التفكيك بينها وتقدير كل واحد منهما في الكلام. فالمعنيان متلازمان، اي أبدا باسم الله واستعين بذاته المقدسة.

وطبيعي أن البدء باسم الله الذي تفوق قدرته كل قدرة، يبعث فينا القوة، والعزم، والثقة، والاندفاع، والصمود والامل أمام الصعاب والمشاكل، والاخلاص والنزاهة في الحركة.

وهذا رمز آخر للنجاح، حين تبدأ الاعمال باسم الله. مهما اطلنا الحديث في تفسير هذه الآية فنحن مختصرون فالمعروف عن علي

(عليه السلام) أنه بدأ يفسر لابن عباس آية البسملة في اول الليل، فأسفر الصبح وهو لم يتجاوز تفسير الباء منها. غير أننا ننهي البحث بحديث عنه (ع)، وستكون لنا وقفات اخرى في هذا الصدد خلال بحثنا القادمة

دَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَحْيَىٰ عَلِيَّ امِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَام) وَبَيْنَ يَدَيْهِ كُرْسِيُّ فَأَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ عَلَيْهِ فَجَلَسَ عَلَيْهِ فَمَالَ بِهِ حَتَّى سَقَطَ عَلَى رَأْسِهِ فَأَوْصَحَ عَنْ عَظْمِ رَأْسِهِ وَ سَأَلَ الدَّمَ فَأَمَرَ امِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَام) بِمَاءٍ فَغَسَلَ عَنْهُ ذَلِكَ الدَّمَ ثُمَّ قَالَ أَذُنٌ مِنِّي فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى مَوْصِحَتِهِ أَمَا عَلِمْتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ حَدَّثَنِي عَنْ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ: كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَمْ يُدْكَرْ فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ فَهُوَ آتِرٌ فَقُلْتُ بَلَىٰ يَا بِنْتَ أَنْتِ وَأُمِّي لَا آتِرُكُهَا بَعْدَهَا، قَالَ إِذَا تَحَطَّى بِذَلِكَ وَتَسَعَدُ ١.

وَقَالَ الصَّادِقُ (عَلَيْهِ السَّلَام) وَلَرُبَّمَا تَرَكَ فِي افْتِتَاحِ أَمْرٍ بَعْضُ شِيعَتِنَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَيَمْتَحِنُهُ اللَّهُ بِمَكْرُوهِ لِيُنَبِّهَهُ عَلَى شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَالتَّنَائِ عَلَيْهِ وَيَمْحُوفِهِ عَنْهُ وَصِمَّةٌ تَقْصِرُهُ عِنْدَ تَرْكِهِ قَوْلَ بِسْمِ اللَّهِ ٢.

وقفات

١ - هل البسملة جزء من السورة؟

أجمع علماء الشيعة على أن البسملة جزء من سورة الحمد وكل سور القرآن. وكتابتها في مطالع السور أفضل دليل على ذلك، لأننا نعلم أن النص القرآني مصون عن آية إضافة وذكر البسملة معمول به منذ زمن النبي (صلى الله عليه وآله).

أما علماء السنة فاختلّفوا في ذلك، وصاحب المنار يجمع أقوالهم فيما يلي:

«أجمع المسلمون على أن البسملة من القرآن و أنها جزء آية من سورة النمل. و اختلفوا في مكانها من سائر السور، فذهب الى أنها آية من كل سورة علماء السلف من أهل مكة - فقهاؤهم و قراؤهم - ومنهم: ابن كثير. و أهل الكوفة ومنهم عاصم والكسائي

(١) بحار الانوار، ج ٩٢، الباب ٢٩، ص ٢٤١ و ٢٤٢.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٤٠.

من القراء، و بعض الصحابة والتابعين من أهل المدينة، والشافعي في الجديد و أتباعه، والثوري و أحمد في أحد قولييه، والامامية، ومن المروي عنهم ذلك من علماء الصحابة عليّ وابن عباس وابن عمر وابوهريرة، ومن علماء التابعين سعيد بن جبير وعطاء والزهري وابن المبارك . واقوى حججهم في ذلك اجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها في المصحف أول كل سورة سوى سورة البراءة (التوبة) مع الامر بتجريد القرآن عن كل ما ليس منه . ولذلك لم يكتبوا (آمين) في آخر الفاتحة...»

ثم ينقل عن مالك والحنفية و آخرين، أنهم ذهبوا الى أن البسمة آية مستقلة نزلت لبيان رؤوس السور والفصل بينها.

وعن حمزة من قراء الكوفة وأحمد أنها من الفاتحة دون غيرها من سور القرآن^١ .
نقل هنا طائفة من الروايات المنقولة في هذا الصدد بطرق الشيعة والسنة، بالقدر الذى يتناسب مع هذا البحث التفسيري:

١ - عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَمَّارٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ (عَلَيْهِ السَّلَام): إِذَا قُمْتُ لِلصَّلَاةِ أَقْرَأُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي فَاتِحَةِ الْقُرْآنِ؟ قَالَ «نَعَمْ» قُلْتُ: فَإِذَا قَرَأْتُ فَاتِحَةَ الْقُرْآنِ أَقْرَأُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَعَ السُّورَةِ؟ قَالَ: «نَعَمْ».^٢

٢ - ما اخرجه الدار القطنى بسند صحيح عن علي (عليه السلام): «أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ السَّبْعِ الْمَثَانِي، فَقَالَ: أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّمَا هِيَ سِتُّ آيَاتٍ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ آيَةٌ».^٣

٣ - روى البيهقي بسنده عن ابن جبير، عن ابن عباس، قال: اسْتَرَقَ الشَّيْطَانُ مِنَ النَّاسِ، أَعْظَمَ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. (إشارة الى شيوع عدم قراءتها في مطالع السور)^٤ .

(١) تفسير المنار، ج ١، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢) الكافي، ج ٣، ص ٣١٢ .

(٣) الاتقان جلد ١ الصفحة ١٣٦ نقلاً عن البيان الصفحة ٤٤١ .

(٤) البيهقي، ج ٢، ص ٥٠ .

أضف الى ذلك ، أن سيرة المسلمين جرت دوما على قراءة البسمة في مطالع السور لدى تلاوة القرآن، وثبت بالتواتر قراءة النبي لها. وكيف لا تكون جزءاً من القرآن، والنبي والمسلمون يواظبون على قراءتها لدى تلاوتهم القرآن؟!
وأما ما ذهب اليه بعضهم من احتمال أن البسمة آية مستقلة وليست جزء من سور القرآن، فهو احتمال واه ضعيف، لان مفهوم البسمة يشعر ببداية العمل، ولا يفصح عن معنى منفصل مستقل.
وفي اعتقادنا أن الاصرار على فصل البسمة عن السور تعصّب لا مبرر له ولا ينهض عليه دليل.

يبقى ايراد واحد، هو إن البسمة تحتسب في عدّ آيات سور القرآن (عدا بسمة سورة الحمد)، بل يبدأ العدّ من الآية التالية للبسمة. والجواب على ذلك ما ذكره (الفخر الرازي) في تفسيره الكبير، اذ قال: لا يمنع أن تكون البسمة لوحدها آية في سورة الحمد، وأن تكون جزء من الآية الاولى في سائر سور القرآن (أي إن مطلع سورة الكوثر مثلاً: بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر) يعتبر كله آية واحدة.
والمسألة - على أي حال - واضحة الى درجة كبيرة حتى روي: «أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَلَّى بِالنَّاسِ فِي فِتْرَةِ حُكُومَتِهِ فَلَمْ يَقْرَأِ الْبَسْمَلَةَ، فَصَاحَ جَمْعٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ بَعْدَ الصَّلَاةِ: أَسْرَفْتَ أَمْ نَسِيتَ؟»^١.

٢ - لفظ الجلالة جامع لصفاته تعالى:

كلمة (اسم) اول ماتطالعنا في البسمة من كلمات، وهو في رأي علماء اللغة من (السموّ) على وزن (العلوّ)، ومعناه الارتفاع، ويفهم أن الشيء بعد التسمية يرتفع من مرحلة الخفاء الى مرحلة البروز والظهور، أو إنه يرتفع بالتسمية عن مرحلة الاهمال و يكتسب المعنى^٢.

(١) البيهقي، ج ٢، ص ٤٩. والحاكم في المستدرک ج ١، ص ٢٣٣.

(٢) ذهب بعضهم الى أن (الاسم) من (السمة) على وزن (الهبة) من مادة (وسم) اي وضع علامة. لان

بعد كلمة الاسم نلتقي بكلمة (الله) وهي أشمل اسماء رب العالمين فكل اسم ورد لله في القرآن الكريم و سائر المصادر الاسلامية يشير الى جانب معين من صفات الله. والاسم الوحيد الجامع لكل الصفات والكمالات الالهية، أو الجامع لكل صفات الجلال والجمال هو (الله).

ولذلك اعتبرت بقية الاسماء صفات لكلمة (الله) مثل: (الغفور) و (الرحيم) و (السميع) و (العليم) و (البصير) و (الرزاق) و (ذوالقوة) و (المتين) و (الخالق) و (البارئ).

كلمة (الله) هي وحدها الجامعة، ومن هنا اتخذت هذه الكلمة صفات عديدة في آية كريمة واحدة، حيث يقول تعالى: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ) (الحشر، ٢٣)

أحد شواهد جامعة هذا الاسم أن الايمان والتوحيد لا يمكن اعلانه إلا بعبارة (لا إله إلا الله)، وعبارة (لَا إِلَهَ إِلَّا الْقَادِرُ: أَوْ إِلَّا الْخَالِقُ ... أَوْ إِلَّا الرَّزَّاقُ) لا تفي بالغرض. ولهذا السبب يشار في الاديان الاخرى الى معبود المسلمين باسم (الله) فهذه التسمية الشاملة خاصة بالمسلمين.

* * *

٣ - الرحمة الالهية الخاصة والعامة:

المشهور بين جماعة من المفسرين أن صفة (الرحمن) تشير الى الرحمة الالهية العامة، وهي تشمل الاولياء والاعداء، والمؤمنين والكافرين، والمحسنين والمسيئين، فرحمته تعم المخلوقات، وخوان فضله ممدود أمام جميع الموجودات، وكل العباد يتمتعون بموهبة الحياة، و ينالون حظهم من مائدة نعمه اللامتناهية. وهذه هي رحمته العامة الشاملة لكل الكون ولكل موجودات الكون.

وصفة (الرحيم) اشارة الى رحمته الخاصة بعباده الصالحين المطيعين، قد استحقوها

الاسم علامة المعنى. ولكن اكثر علماء اللغة رفضوا هذا الاشتقاق لان الواو لا تظهر في الجمع والتصغير (كما تظهر في المثال الواوى عادة) فنقول في الجمع اسماء، في التصغير، سمي، و سميّة. فهو إذن ناقص واوى لامثال واوى.

بإيمانهم وعملهم الصالح. وَحَرَّمَ مِنْهَا الْمُنْحَرِفُونَ وَالْمُجْرِمُونَ.

دليلهم - المفسرين - الوحيد على ذلك ان صفة (الرحمن) ذكرت بصورة مطلقة في القرآن الكريم مما يدل على عموميتها، لكن صفة (الرحيم) ذكرت أحيانا مقيدة، لدلالاتها الخاصة، كقوله تعالى «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا» (الاحزاب، ٤٣)

و في رواية «عن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) قَالَ: «وَاللَّهُ إِلَهُ كُلِّ شَيْءٍ الرَّحْمَنُ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ، الرَّحِيمُ بِالْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً»^١.
من جهة أخرى، كلمة (الرحمن) اعتبروها صيغة مبالغة، ولذلك كانت دليلا آخر على عمومية رحمته. واعتبروا (الرحيم) صفة مشبهة تدل على الدوام والثبات، وهي خاصة بالمؤمنين.

وثمة دليل آخر، هو ان (الرحمن) من الاسماء الخاصة بالله، ولا تستعمل لغيره بينا (الرحيم) صفة تنسب لله ولعباده. فالقرآن وصف بها الرسول الكريم، حيث قال: «عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» (التوبة، ١٢٨)

و الى هذا المعنى اشار الامام الصادق (عليه السلام)، فيما روي عنه: «الرَّحْمَنُ اسْمٌ خَاصٌّ بِصِفَةِ عَاقِمَةٍ، وَالرَّحِيمُ اسْمٌ عَامٌّ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ»^٢
ومع كل هذا، نجد كلمة (الرحيم) تستعمل أحيانا كوصف عام. وهذا يعني أن التمييز المذكور بين الكلمتين لا يخلو من استثناء.

في دعاء عرفة - المنقول عن الحسين بن علي (ع) - وردت عبارة: «يَا رَحْمَنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا».

نختتم هذا الموضوع بحديث عميق المعنى، «عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ مِائَةَ رَحْمَةٍ، وَإِنَّهُ أَنْزَلَ مِنْهَا وَاحِدَةً إِلَى الْأَرْضِ، فَقَسَمَهَا بَيْنَ خَلْقِهِ، بِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَيَتَرَاحَمُونَ، وَأَخْرَجْنَا تِسْعًا وَتِسْعِينَ لِنَفْسِهِ يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^٣.

(١) الكافي، وتوحيد الصدوق، ومعاني الاخبار (نقلًا عن الميزان)

(٢) مجمع البيان، ج ١، ص ٢١. (٣) نفس المصدر.

لِمَ لَمْ تَرِدْ بَقِيَّةَ صِفَاتِ اللَّهِ فِي الْبَسْمَلَةِ؟

في البسملة ذكرت صفتان لله فقط هما: الرحمانية والرحيمية، فما هو السبب؟
الجواب يتضح لو عرفنا أن كل عمل ينبغي أن يبدأ بالاستمداد من صفة تعم
آثارها جميع الكون وتشمل كل الموجودات، وتنقذ المستغيثين في اللحظات الحساسة.
هذه حقيقة يوضحها القرآن إذ يقول: «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» (اعراف،
١٥٦)، ويقول على لسان حملة العرش: «رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً» (المؤمن، ٧)
ومن جانب آخر نرى الانبياء واتباعهم يتوسلون برحمة الله في المواقف الشديدة
الحاسمة. فقوم موسى تضرعوا الى الله أن ينقذهم من تجر فرعون وظلمه، وتوسلوا اليه
برحمته فقالوا: «وَوَجَّئْنَا بِرَحْمَتِكَ» (يونس، ٨٦)
و بشأن هود و قومه، يقول القرآن: «فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا»
(الاعراف، ٧٢)

من الطبيعي أننا - حين نتضرع الى الله - نناديه بصفات تتناسب مع تلك الحاجة.
فيعيسى (عليه السلام) حين يطلب من الله مائدة من السماء، يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ
عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ... وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» (المائدة، ١١٤).
و نوح عليه السلام يدعو الله في حط رحاله: «رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَ
أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» (المؤمنون، ٢٩).
و زكريا نادى ربه لدى طلب الولد الوارث قال: «رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ
خَيْرُ الْوَارِثِينَ» (الانبياء، ٨٩).

للبدء بأي عمل ينبغي - اذن - أن نتوسل برحمة الله الواسعة، رحمته العامة ورحمته
الخاصة. وهل هناك أنسب من هذه الصفة لتحقيق النجاح في الاعمال، وللتغلب على
المشاكل والصعاب!؟

والقوة التي تستطيع أن تجذب القلوب نحو الله و تربطها به هي صفة الرحمة، إذ
لها طابعها العام مثل قانون الجاذبية. و ينبغي الاستفادة من صفة الرحمة هذه لتوثيق
العرى بين المخلوقين والخالق.

المؤمنون الحقيقيون يطهرون قلوبهم بذكر البسملة في بداية كل عمل من كل

علقة و ارتباط، و يرتبطون بالله وحده و يستمدون منه العون، و يتوسلون اليه برحمته التي وسعت كل شئ.

والبسملة أيضاً تعلمنا أن أفعال الله تقوم أساساً على الرحمة. والعقاب له طابع استثنائي لا ينزل إلا في ظروف خاصة، كما نقرأ في الادعية المروية عن آل بيت رسول الله: «يَا مَنْ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ»^١.

المجموعة البشرية السائرة على طريق الله ينبغي أن تقيم نظام حياتها على هذا الاساس أيضاً، وان تفرق مواقفها بالرحمة والمحبة، وان تترك العنف الى المواضع الضرورية، ١١٣ سورة من مجموع ١١٤ سورة قرآنية تبدأ بالتأكيد على رحمة الله، و سورة التوبة وحدها تبدأ باعلان الحرب والعنف بدل البسملة.

* * *

الآية

٢- «أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»

التفسير

العالم مغمور في رحمته

بعد البسمة، أول واجبات العباد أن يستحضروا دوماً مبدأ عالم الوجود، ونعمه اللامتناهية، هذه النعم التي تحيطنا وتغمر وجودنا، وتهدينا الى معرفة الله، وتدفعنا على طريق العبودية.

النعم دافعة على طريق العبودية، لان الانسان مفطور على أن يبحث عن صاحب النعمة، حينما تصله النعمة، ومفطور على أن يشكر المنعم على انعامه.

من هنا فان علماء الكلام (علماء العقائد) يتطرقون في بحوثهم الاولية لهذا العلم الى «وجوب شكر المنعم» باعتباره أمراً فطرياً وعقلياً دافعا الى معرفة الله سبحانه.

وانما قلنا إن النعم تهدينا الى معرفة الله، لأن أفضل طريق واشمل سبيل لمعرفة

سبحانه، دراسة أسرار الخليقة وخاصة ما يدور حول ارتباط وجود النعم بحياة الانسان.

مما تقدم ابتدأت سورة الحمد بعبارة «أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»

ولفهم عمق هذه العبارة وعظمتها يلزمنا توضيح الفرق بين «الحمد» و«المدح»

و«الشكر» والنتائج المترتبة على ذلك:

١- «الحمد» في اللغة الثناء على عمل أو صفة طيبة مكتسبة عن اختيار، أي حينما

يؤدي شخص عملاً طيباً عن وعي. أو يكتسب عن اختيار صفة تؤهله لاعمال الخير فاننا نحمله ونثني عليه.

و «المدح» هو الثناء بشكل عام، سواء كان لامر اختياري أو غير اختياري، كمدحنا جوهرة ثمنية جميلة. ومفهوم المدح عام، بينما مفهوم الحمد خاص. أما مفهوم «الشكر» فإخص من الاثنين، ويقتصر على ما نبديه تجاه نعمة تغدق علينا من منعم عن اختياراً.

ولو علمنا أن الالف واللام في (الحمد) هي لاستغراق الجنس، لعلمنا أن كل حمد وثناء يختص بالله سبحانه دون سواه.

ثناؤنا على الآخرين ينطلق من ثنائنا عليه لأن مواهب الواهبين كالانبياء والمصلحين والصالحين والمعلمين والاطباء المعالجين إنما هي في الاصل من ذاته المقدسة. وعبارة أخرى حمد هؤلاء هو حمد لله والثناء عليهم ثناء على الله تعالى.

وهكذا الشمس حين تغدق علينا بأشعتها، والسحب بامطارها، والارض ببركاتها، كل ذلك، منه سبحانه، ولذلك فكل الحمد له.

عبارة أخرى، جملة (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، إشارة الى توحيد الذات، والصفات، والافعال (تأمل بدقة).

٢ - وصف (الله) بانه (رَبِّ الْعَالَمِينَ) هو من قبيل ذكر الدليل بعد ذكر الادعاء. وكان سائلاً يقول: لم كان كل حمد لله؟ فيأتي الجواب لانه (رب العالمين). وفي موقع آخر يقول القرآن عن الباري سبحانه: «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ...»^٢

ويقول أيضاً: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا»^٣

٣ - استفاد من (الحمد) أن الله سبحانه واهب النعم عن ارادة واختيار، خلافاً لاولئك القائلين إن الله كالشمس مجبر على أن يفيض بالعطاء!!

(١) «الشكر»، من وجهة نظر أخرى أوسع إطاراً، لأن الشكر يؤدي بالقول أحياناً وبالعمل أخرى. أما الحمد والمدح فيالقول غالباً.

(٢) السجدة، ٧

(٣) هود، ٦

٤ - جدير بالذكر أن الحمد ليس هو بداية كل عمل، بل هو نهاية كل عمل أيضاً كما يعلمنا القرآن.

يقول سبحانه بشأن أهل الجنة «دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ، وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (يونس، ١٠).

٥ - أما كلمة «رب» ففي الاصل بمعنى مالك و صاحب الشيء الذي يهتم بتربيته و إصلاحه. وكلمة «ربيبة» وهي بنت الزوجة، مأخوذة من هذا المفهوم للكلمة. لان الربيبة تعيش تحت رعاية زوج أمها.

والكلمة بلفظها المطلق تعنى رب العالمين، وإن أطلقت على غير الله لزم أن تضاف، كأن نقول: رب الدار، و رب السفينة.^١

وذكر صاحب تفسير (مجمع البيان) معنى آخر للرب، وهو السيد المطاع، ولكن لا يبعد أن يعود المعنيان الى أصل واحد.^٢

٦ - كلمة «عالمين» جمع «عالم»، والعالم: مجموعة من الموجودات المختلفة ذات صفات مشتركة، أو ذات زمان ومكان مشتركين، كان نقول: عالم الانسان، و عالم الحيوان، و عالم النبات. أو نقول عالم الشرق و عالم الغرب، و عالم اليوم، و عالم الامس. فكلمة العالم وحدها تتضمن معنى الجمع، وحين تجمع بصيغة «عالمين»، فيقصد منها كل مجموعات هذا العالم.

و يلفت النظر هنا أن كلمة عالم جُمعت هنا جمعاً مذكراً سالماً، و نعرف أن جمع المذكر السالم يستعمل في العاقل عادة، و من هنا ذهب بعض المفسرين الى أن كلمة «عالمين» اشارة الى المجموعات العاقلة في الكون كالبشر و الملائكة. والجن. ولكن قد يكون هذا الاستعمال للتغليب، أي لتغليب المجموعات العاقلة على غير العاقلة.

٧ - صاحب المنار يقول: (و يؤثر عن جدنا الامام جعفر الصادق عليه الرضوان أن

(١) قاموس اللغة، ومفردات الراغب، وتفسير مجمع البيان، وتفسير البيان.

(٢) لا بد من الالتفات الى أن (رب) من مادة (رَبَب)، لا من (رَبُو)، أي إنه مضاعف لاناقص.

المراد بـ (العالمين) الناس فقط^١.

ولكن، لو استعرضنا مواضع استعمال (عالمين) في القرآن، لرأينا أن هذه الكلمة وردت في كثير من الآيات بمعنى بني الانسان، بينما وردت في مواضع أخرى بمعنى أوسع يشمل البشر وسائر موجودات الكون الأخرى، كقوله تعالى: «فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (الجنّة، ٣٦) و كقوله سبحانه: قال فرعون: «وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» (الشعراء، ٢٣، ٢٤).

وعن الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) في تفسير (رب العالمين) قال: «رَبُّ الْعَالَمِينَ هُمُ الْجَمَاعَاتُ، مِنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ مِنَ الْجَمَادَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ»^٢.

كلمة عالمين يمكن فهمها في إطارها الكوني الأوسع، ويمكن فهمها في إطار عالم (الانسان) - كما ورد في رواية الامام الصادق (عليه السلام) لان الكائن البشري أشرف المخلوقات، ولان الانسان هو الهدف الاساسي من هذه المجموعة الكبرى. وليس بين الفهمين أي تناقض.

٨ - جدير بالذكر أن هناك من قسم العالم الى: عالم صغير وعالم كبير. والمقصود من العالم الصغير هو الانسان، لانه لوحده ينطوي على مجموعة من نفس القوى المتحكمة في هذا الكون الفسيح. والانسان - في الواقع - عينية مصغرة لكل هذا العالم. الذي دعانا الى التوسّع في مفهوم كلمة (العالم) هو أن عبارة «رب العالمين» جاءت وكأنها دليل على عبارة (الحمد لله)، أي إننا نقول في سورة الفاتحة: إن الحمد مختص بالله تعالى لانه صاحب كل كمال ونعمة وموهبة في العالم.

وقفتان

١ - رفض الآلهة:

شهد التاريخ البشري ألوان الانحرافات عن خط التوحيد، والصفة البارزة في

(١) المنار، ج ١، ص ٥١.

(٢) تفسير نورالثقلين، ج ١، ص ١٧.

هذه الانحرافات هو الاعتقاد بوجود آلهة متعددة لهذه العالم. وفكرة التعدد انطلقت من ضيق نظرة أصحابها الذين راحوا يعيّنون لكل جانب من جوانب الكون والحياة الها، وكان ربوبية العالمين لا يمكن إناطتها لمصدر واحد!! وراحت بعض الامم تصنع الآلهة لامور جزئية كالحب والعقل والتجارة والحرب والصيد.

اليونانيون مثلاً كانوا يعبدون اثنتي عشرة إلهةً وضعوها على قه (أولمپ) وكل واحدة منها تمثل جانباً من صفات البشر! ١.

والكلدانيتون اعتقدوا بإله الماء وإله القمر وإله الشمس وإله الزهرة، وأطلقوا على كل واحد منها اسماً معيناً، واتخذوا فوق ذلك «مردوخ» الهاً أكبر لهم.

والروم تعددت آلهتهم أيضاً، وراج سوق الشرك عندهم أكثر من أية أمة أخرى. فقد قسموا الآلهة الى مجموعتين: آلهة الأسرة وآلهة الحكومة. ولم يكونوا يكونون ولاء لآلهة الحكومة، (لعدم ارتياحهم من حكومتهم!)

ورد في التاريخ أن الروم اتخذوا لهم ثلاثين ألفاً لكل مظهر من مظاهر الكون المشهودة إله، مثل إله الزراعة، وإله المطبخ، وإله مستودع الطعام، وإله البيت، وإله النار، وإله الفاكهة، وإله الحصاد، وإله شجرة العنب، وإله الغابة، وإله الحريق، وإله بوابة روما، وإله بيت النار. ٢

وفي عصر نزول القرآن كان في الجزيرة العربية وفي كثير من مناطق العالم، آلهة تُعبد من دون الله. كما كانت عبادة الافراد رائجة، و الى ذلك يشير القرآن في خطابه لليهود والنصارى إذ يقول: «إِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» (التوبة، ٣١).
بعبارة موجزة، حين تنحرف البشرية عن خط التوحيد تتورط في أوهاام وخرافات ذات ألوان متعددة، فقد اتخذ هذا الانحراف فيما مضى صورة عبادة الآلهة المتعددة وعبادة الرهبان والاحبار، ويتخذ اليوم صوراً أخرى. وتتميز كل الصور بتشتت المجموعة البشرية وتمزقها، وانحطاطها في العقل والارادة.

(١) اعلام قرآن، ص ٢٠٢.

(٢) تاريخ «ألبرماله» ج ١، الفصل الرابع.

خط التوحيد الذى دعا اليه الانبياء يتميز بنبذ الآلهة المتعددة، وهداية البشرية نحو الاله الواحد الاحد، وبذلك ينشأ المجتمع الموحد الموحد. وانطلاقاً من هذه لأهمية القصوى للقضاء على الآلهة المتعددة جاء التأكيد القرآني يقول: (أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). هذا التأكيد يتلوه الانسان المسلم عشر مرات في صلواته اليومية - على الاقل - لترسخ فكرة التوحيد، وفكرة رفض ربوبية كل الارباب والآلهة، غير ربوبية الله رب العالمين.

* * *

٢- ربوبية الله طريق لمعرفة الله

كلمة (الرب)، وإن كانت تعني في الاصل المالك والصابغ، تتضمن معنى الصاحب المتعهد بالتربية.

إمعان النظر في المسيرة التكاملية للموجودات الحية، وفي التغييرات والتحويلات التي تجري في عالم الجماد، وفي الظروف التي تتوقّر لتربية الموجودات، وفي تفاصيل هذه الحركات والعمليات، هو افضل طريق لمعرفة الله. والتنسيق اللإرادي بين أعضاء جسدنا هو نموذج حيّ لذلك.

لو واجهنا في حياتنا - مثلاً - حادثة هامة تتطلب منا أن نهض أمامها بقوة وحزم، فإنّ أوامر منسقة تصدر خلال لحظة قصيرة الى جميع أجزاء جسدنا بشكل لا إرادي. وبسرعة خاطفة يشتد ضربان قلبنا وتنفسنا، وتتجهز كل قوانا، وتتدفق المواد الغذائية والاكسجين - المحمولة عن طريق الدم - الى جميع الخلايا، وتناهب الاعصاب والعضلات للعمل والحركة السريعة، وترتفع قدرة تحمل الانسان للمتاعب والآلام، ويغادر النوم العيون، ويزول التعب من الاعضاء، ويزول الاحساس بالجوع.

من الذي أوجد هذاالتنسيق العجيب في هذه اللحظة الحساسة، وبهذه السرعة، بين جميع أجزاء وجودالانسان؟ هل هذه العناية والتربية ممكنة من غيرالله العالم القادر؟! آيات القرآن الكريم تكثّر من عرض نماذج لهذه التربية الالهية، سنتعرض لها في مكانها إن شاءالله تعالى، وكل واحدة منها دليل واضح على معرفة الله.

* * *

الآية

٣- «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ»

التفسير

معنى (الرَّحْمَنُ) و (الرَّحِيمُ) واتساع مفهومها والفرق بينهما، شرحناه في تفسير البسملة، ولاحاجة الى التكرار. وما نضيفه هنا هو أن هاتين الصفتين تتكرران في البسملة والحمد، «والملتزمون» بذكر البسملة في السورة بعد الحمد يكررون هاتين الصفتين في صلواتهم اليومية الواجبة ثلاثين مرة. وبذلك يصفون الله برحمته ستين مرة يومياً.

وهذا في الواقع درس لكل جماعة بشرية سائرة على طريق الله، وتوافقاً للتخلق بأخلاق الله. إنه درس يبعد البشرية عن تلك الحالات التي شهدها تاريخ الرق في ظل القياصرة والاكاسرة والفرانجة.

القرآن يركز على علاقة الرحمة والرفقة بين رب العباد والعباد، حيث يقول: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا» (الزمر، ٥٣)

هذه العلاقة نستحضرها مرات يومياً إذ نقول: (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)، لربِّي انفسنا تربية صحيحة في علاقتنا بالله، وفي علاقتنا بأبناء جنسنا.

* * *

الآية

٤- «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ»

التفسير:

مبدأ الإيمان بيوم القيامة:

هذه الآية تلفت الانظار الى أصل هام آخر من أصول الاسلام، هو يوم القيامة: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، وبذلك يكتمل محور المبدأ والمعاد، الذي يعتبر أساس كل

إصلاح أخلاقي واجتماعي في وجود الانسان.

تعبير (مالك) يوحى بسيطرة الله التامة وهيمنته المستحكمة على كل شيء وعلى كل فرد، في ذلك اليوم، حيث يحضر البشر في تلك المحكمة الكبرى للحساب، وتقف أمام مالكيها الحقيقي للحساب، وترى كل مافعلته وقاتله بل وحتى ما فكرت به حاضراً، فلا يضيع أي شيء - مهما صغر - ولا يُنسى، والانسان - وحده - يحمل أعباء نتائج أعماله، بل نتائج كل سنة استنها في الارض أو مشروع أقامه.

مالكية الله في ذلك اليوم، هي دون شك ليست ملكية اعتبارية، نظير ملكيتنا نحن للاشياء في هذا العالم. ملكيتنا هذه عقد يبرم بموجب تعامل ووثائق، وينسخ بموجب تعامل آخر ووثائق أخرى. لكن ملكية الله لعالم الكون ملكية حقيقية، تتمثل في ارتباط الموجودات ارتباطاً خاصاً بالله. ولو انقطع هذا الارتباط لحظة لزالَت الموجودات تماماً مثل زوال النور من المصابيح الكهربائية، حين ينقطع اتصالها بالمولد الكهربائي. بعبارة أخرى: مالكية الله نتيجة خالقيته وربوبيته. فالذي خلق الموجودات ورعاها وربّاهَا، وأفاض عليها الوجود لحظة بلحظة، هو المالك الحقيقي للموجودات.

نستطيع أن نرى نموذجاً مصغراً للمالكية الحقيقية، في مالكتنا لأعضاء بدننا، نحن نملك ما في جسدنا من عين وأذن وقلب وأعصاب، لا بالمعنى الاعتباري للملكية، بل بنوع من المعنى الحقيقي القائم على أساس الارتباط والاحاطة.

وقد يسأل سائل فيقول: لماذا وصفنا الله بأنه (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) بينما هو مالك

الكون كله؟

والجواب هو إن الله مالك لعالم الدنيا والآخرة، لكن مالكيته ليوم القيامة أبرز وأظهر، لأن الارتباطات المادية والملكيات الاعتبارية تنسخ كلها في ذلك اليوم، وحتى الشفاعة لا تتم يومئذ الا بأمر الله: «يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ سَيِّئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ» (الانفطار، ١٩).

بتعبير آخر: قد يسارع الانسان في هذه الدنيا لمساعدة انسان آخر، ويدافع عنه بلسانه، ويحميه بأمواله، وينصره بقدرته وأفراده. وقد يشمله بحمايته من خلال مشاريع ومخططات مختلفة. لكن هذه الالوان من المساعدات غير موجودة في ذلك اليوم. من هنا

حين يوجه هذا السؤال الى البشر: (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ)؟ يجيبون: (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) (المؤمن، ١٦).

الايان بيوم القيامة، وبتلك المحكمة الالهية الكبرى التي يحصى فيها كل شي إحصاءً دقيقاً، له الاثر الكبير في ضبط الانسان أمام الزلات، ووقايته من السقوط في المنحدرات وأحد أسباب قدرة الصلاة على أن تنهى عن الفحشاء والمنكر هو أنها تذكر الانسان بالمبدأ المطلع على حركاته وسكناته، وتذكره أيضاً بمحكمة العدل الالهي الكبرى.

التركيز على مالكية الله ليوم القيامة يقارع من جهة أخرى معتقدات المشركين ومنكرى المعاد، لان الايمان بالله عقيدة فطرية عامة، حتى لدى مشركي العصر الجاهلي، وهذا ما يوضحه القرآن إذ يقول: (وَلَوْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) (لقمان، ٢٥) بينما الايمان بالمعاد ليس كذلك، فهؤلاء المشركون كانوا يواجهون مسألة المعاد بعناد واستهزاء ولجاج: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّنْكُمْ أَنَّكُمْ لَبِئَ خَلْقٍ جَدِيدٍ، أَفَتُرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ) (سبأ، ٨).

وروي عن علي بن الحسين السجاد (عليه السلام): «أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَ (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) يُكْرِّرُهَا حَتَّىٰ يَكَادَ أَنْ يَمُوتَ»^١.

أما تعبير (يَوْمِ الدِّينِ)، فحيثما ورد في القرآن يعني يوم القيامة، وتكرر ذلك في أكثر من عشرة مواضع من كتاب الله العزيز، وفي الآيات ١٧ و ١٨ و ١٩ من سورة الانفطار ورد هذا المعنى بصراحة.

وأما سبب تسمية هذا اليوم بيوم الدين، فلان يوم القيامة يوم الجزاء، و (الدين) في اللغة (الجزاء)، والجزاء أبرز مظاهر القيامة، ففي ذلك اليوم تكشف السرائر ويحاسب الناس عما فعلوه بدقة، ويرى كل فرد جزاء ما عمله صالحاً أم طالحاً.

وفي حديث عن الامام جعفر بن محمد الصادق يقول: «يَوْمُ الدِّينِ هُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ»^٢ (والدين) استناداً الى هذه الرواية يعني (الحساب)، وقد يكون هذا التعبير

(٢) جمع البيان، ذيل الآية: مالك يوم الدين.

(١) تفسير نورالثقلين، ج ١، ص ١٩.

من قبيل ذكر العلة و ارادة المعلول. لان الحساب دوما مقدمة للجزاء.
من المفسرين من يعتقد أن سبب تسمية (يَوْمَ الدِّينِ) يعود الى أن كل إنسان
يوم القيامة يتلقى جزاء ازاء دينه و معتقده. لكن المعنى الاول (أَلْحِسَابُ وَالْجَزَاءُ) يبدو
أقرب الى الصحة.

* * *

الآية

٥ - «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

التفسير

الانسان بين يدي الله

في هذه الآية يتغيّر لحن السورة، إذ يبدأ فيها دعاء العبد لربه والتضرّع إليه.
الآيات السابقة دارت حول حمد الله والثناء عليه، والاقرار بالايان والاعتراف بيوم
القيامة، وفي هذه الآية يستشعر الانسان - بعد رسوخ أساس العقيدة ومعرفة الله في نفسه
حضوره بين يدي الله.. يخاطبه ويناجيه، يتحدث اليه اولا عن تعبده، ثم يستمد العون
منه وحده دون سواه: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

بعبارة أخرى: عند ما تتعمق مفاهيم الآيات السابقة في وجود الانسان، وتتنور
روحه بنور رب العالمين، ويدرك رحمة الله العامة والخاصة، ومالكيته ليوم الجزاء، يكتمل
الانسان في جانبه العقائدي. وهذه العقيدة التوحيدية العميقة، ذات عطاء يتمثل أولا في
تربية الانسان العبد الخاص لله، المتحرر من العبودية للآلهة الخشبية والبشرية والشهوية،
ويتجلّى ثانيا في الاستمداد من ذات الله تبارك وتعالى.

الآيات السابقة تحدثت في الواقع عن توحيد الذات والصفات، وهذه الآية

تحدثت عن توحيد العبادة وتوحيد الافعال.

توحيد العبادة: يعني الاعتراف بأن الله سبحانه هو وحده اللائق بالعبادة والطاعة
والخضوع، وبالتشريع دون سواه، كما يعني تجنب أي نوع من العبودية والتسليم، لغير ذاته

المقدسة.

وتوحيد الافعال: هو الايمان بان الله هو المؤثر الحقيقي في العالم (لا مُؤثِّرَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللهُ). وهذا لا يعني انكار عالم الاسباب، وتجاهل المسببات، بل يعني الايمان بأن تأثير الاسباب، إنما كان بأمر الله، فالله سبحانه هو الذي يمنح النار خاصية الاحراق، والشمس خاصية الانارة، والماء خاصية الإحياء.

ثمرة هذا الاعتقاد أن الانسان يصبح معتمدا على (الله)، دون سواه، ويرى أن الله هو القادر العظيم، ويرى ماسواه زائلاً لا حول له ولا قوة، وهو وحده سبحانه اللائق بالاعتقاد والاعتماد عليه في كل الامور.

هذا التفكير يحرر الانسان من الانشداد بأي موجود من الموجودات، ويربطه بالله وحده. وإن تحرك هذا الانسان على طريق البحث في عالم الاسباب، فانما يتحرك بأمر الله تعالى، ليرى فيها تجلّي قدرة الله، وهو «مُسَبَّبُ الْأَسْبَابِ» هذا المعتقد يسمو بروح الانسان ويوسع آفاق فكره، ليرتبط بالابدية واللانهاية، ويحرر الكائن البشري من الاطر الضيقة الهابطة.

* * *

وقفات

١ - هو المستعان وحده

تقدم المفعول على الفاعل يفيد الحصر - كما يذكر اصحاب اللغة، وتقدم «إِيَّاكَ» على «نَعْبُدُ» يدل على الحصر، أي اننا نعبدك دون سواك، ونتيجة هذا الحصر، هي توحيد العبادة وتوحيد الافعال،

نعم نحن محتاجون الى مساعدته حتى في العبودية والطاعة، ولذلك ينبغي أن نستعين به في ذلك أيضاً، كي لا يتسرب الى أنفسنا انحراف العجب والرياء وامثالها من الانحرافات فتقضي على عبوديتنا.

بعبارة أخرى: حين نقول «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» فان هذه الجملة يشم منها رائحة الاستقلالية، لذلك نتبعها مباشرة بعبارة «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، كي نجسّم حالة الامرين

الامرین (لا جَبْرَ وَلَا تَقْوِيضَ)، في عبادتنا، ومن ثم في كل أعمالنا.

* * *

٢ - استعمال صيغ الجمع في تعبير الآيات، مثل: «نَعْبُدُ» و «نَسْتَعِينُ» تشير الى أن العبادة - خاصة الصلاة - تقوم على أساس الجمع والجماعة. على العبد أن يستشعر وجوده ضمن الجمع والجماعة، حتى حين يقف على صعيد التضرع الى الله، فما بالك بالاصعدة الاخرى!

وهذا الاتجاه في العبادة يعني رفض الاسلام لكل ألوان الفردية.

والانغزال.

الصلاة خاصة - ابتداء من اذانها وإقامتها حتى تسليمها - تدل على أن هذه العبادة هي في الاصل ذات جانب إجتماعي، أي أنها ينبغي أن تؤدَّى بشكل جماعية. صحيح أن الصلاة فرادى صحيحة في الاسلام، لكن العبادة الفردية ذات طابع فرعي ثانوي.

* * *

٣ - الاستعانة به في كل الامور

يواجه الانسان في مسيرته التكاملية قوى مضادة داخلية (في نفسه)، وخارجية (في مجتمعه)، ويحتاج في مقاومة هذه القوى المضادة الى العون والمساعدة. ومن هنا يلزم على الانسان أن يكرر صباحاً ومساءً عبارة «إِنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا نَسْتَعِينُ» ليعترف أولاً بعبوديته لله سبحانه، وليستمد العون منه في مسيرته الطويلة الشاقة. والانسان المستعين حقاً، هو الذي تتضاءل أمام عينيه كلّ القوى المتجبرة المتغترسة، وكل الجواذب المادية الخادعة، وذلك ما لا يكون إلا حيناً يرتفع الانسان الى مستوى القول: «إِنَّ صَلَاتِي وَ نُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (الانعام، ١٦٢).

* * *

الآية

٦ - «إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ».

التفسير

السير على الصراط المستقيم

بعد أن يقتر الانسان بالتسليم لرب العالمين، ويرتفع الى مرحلة العبودية لله والاستعانة به تعالى، يتقدم هذا العبد بأول طلب من باريه وهو الهداية الى الطريق المستقيم، طريق الظهور والخير، طريق العدل والاحسان، طريق الايمان والعمل الصالح، ليهبه الله نعمة الهداية بعد أن وهبه جميع النعم الاخرى.

الانسان في هذه المرحلة مؤمن طبعاً وعارفاً بربه، لكنه معرض دوماً بسبب العوامل المضادة الى سلب هذه النعمة و الى الانحراف عن الصراط المستقيم. من هنا كان عليه لزاماً أن يكرر عشر مرات في اليوم على الاقل طلبه من الله أن يقيه العثرات والانحرافات.

أضف الى ما تقدم أن الصراط المستقيم هو دين الله، وله مراتب و درجات ومهماسها الانسان في مراتبه فثمة مراتب أخرى أبعد وأرقى، والانسان المؤمن تواق دوماً الى السير حثيثاً على هذا السلم الارتقائي، وعليه أن يستمد العون من الله في ذلك.

ثمة سؤال يتبادر الى الازهان عن سبب طلبنا من الله الهداية الى الصراط المستقيم، تُرى هل نحن ضالون كى نحتاج الى هذه الهداية؟ وكيف يصدر مثل هذا الامر عن المعصومين وهم نموذج الإنسان الكامل؟! وفي الجواب نقول:

أولاً: الانسان معرض في كل لحظة الى خطر التعثر والانحراف عن مسير الهداية - كما اشرنا الى ذلك - ولهذا كان على الانسان أن يستمد العون من الله ليثبت قدمه على الصراط المستقيم.

ينبغي أن نتذكر دائماً أن نعمة الوجود وجميع المواهب الالهية، تصلنا من المبدأ

العظيم تعالى لحظة بلحظة. و ذكرنا من قبل أننا وجميع الموجودات (بلحاظ معين) مثل مصابيح كهربائية. النور المستمر في هذه المصابيح يعود الى وصول الطاقة اليها لحظة بلحظة من المولد الكهربائي. فهذا المولد ينتج كل لحظة طاقة جديدة و يرسلها عن طريق الاسلاك الى المصابيح لتتحول الى نور.

وجودنا يشبه نور هذه المصابيح. هذا الوجود، و إن بدا ممتدا مستمرا، هو في الحقيقة وجود متجدد باستمرار يصل لحظة بلحظة من مصدر الوجود الخالق الفياض.

هذا التجدد المستمر في الوجود، يتطلب باستمرار هداية جديدة، ولو حدث خلل في الاسلاك المعنوية التي تربطنا بالله، كالظلم والخبث.. فان ارتباطنا ينقطع بالله، و نحرف فجأة عن الصراط المستقيم.

نحن نتضرع الى الله في صلواتنا أن لا يعتري ارتباطنا به مثل هذا الخلل، و أن نبقى ثابتين على الصراط المستقيم.

ثانيا: الهداية هي السير على طريق التكامل، وهذا السير تدريجي، يقطع فيه الانسان مراحل النقضان ليصل الى المراحل العليا. و طريق التكامل - كما هو معلوم - غير محدود وهو مستمر حتى اللانهاية.

ما تقدم نفهم سبب تضرع حتى الانبياء والائمة لله أن يهديهم «الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»، فالكمال المطلق لله تعالى، وجميع ما سواه يسرون على طريق التكامل، فإ الغرابة في أن يطلب المعصومون من ربهم درجات أعلى؟!!

نحن نصلي على محمد وآل محمد، والصلاة تعني طلب رحمة الهية جديدة لمحمد وآل محمد، ومقام أعلى لهم.

والرسول (صلى الله عليه وآله) قال: «رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا». (طه، ١١٤)

والقرآن الكريم يقول: «وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى» (مريم، ٧٦).

و يقول: «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ» (محمد، ١٧).

ولمزيد من التوضيح نذكر الحديثين التاليين:

١ - عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، قال في تفسير «إِهْدِنَا الصِّرَاطَ

الْمُسْتَقِيمَ»: أي «أدوم لنا توفيقك الذي أطعناك به في ما مضى من أيامنا، حتى نطيعك في

مُسْتَقْبَلِ أَعْمَارِنَا»^١

٢ - وقال الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام): «يَعْنِي أَرْشِدُنَا لِلزُّومِ الطَّرِيقِ الْمُوَدِّيِّ إِلَى مَحَبَّتِكَ، وَالْمُبْلِغِ إِلَى جَنَّتِكَ، وَالْمَانِعِ مِنْ أَنْ تَتَّبِعَ أَهْوَاءَنَا فَنَعْطَبَ، أَوْ أَنْ نَأْخُذَ بِأَرَائِنَا فَنَهْلِكَ»^٢.

ما هو الصراط المستقيم؟

هذا الصراط كما يبدو من تفحص آيات الذكر الحكيم، هو دين التوحيد والالتزام بأوامر الله. ولكنه ورد في القرآن بتعابير مختلفة.

فهو الدين القيم ونهج إبراهيم كما جاء في قوله تعالى: «قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (الانعام، ١٦١).

وهو أيضاً رفض عبادة الشيطان والاتجاه الى عبادة الله وحده، كما في قوله: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَإِنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» (يس، ٦١-٦٢).

كما عبر القرآن عن الهداية الى الصراط المستقيم بأنها الاعتصام بالله: «وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (آل عمران، ١٠١).

يلزمنا أن نذكر أنّ الطريق المستقيم هو طريق واحد لا أكثر، لانه لا يوجد بين نقطتين أكثر من خط مستقيم واحد، يشكل أقصر طريق بينهما. من هنا كان الصراط المستقيم في المفهوم القرآني، هو الدين الالهي في الجوانب العقائدية والعملية، ذلك لان هذا الدين أقرب طريق للارتباط بالله تعالى. ومن هنا أيضاً فان الدين الحقيقي واحد لا أكثر «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» (آل عمران، ١٩).

سنرى فيما بعد إن شاء الله أن للاسلام معنى واسعاً يشمل كل دين توحيدى في عصره، أي قبل أن ينسخ بدين جديد.

(١) معاني الاخبار، وتفسير الامام الحسن العسكري، نقلا عن تفسير الصافي ذيل الآية المذكورة.

(٢) معاني الاخبار وتفسير الامام الحسن العسكري، نقلا عن تفسير الصافي.

من هذا يتضح أن التفاسير المختلفة للصرط المستقيم، تعود كلها الى معنى واحد.
فقد قالوا: انه الاسلام.
وقالوا: انه القرآن.
وقالوا: انه الانبياء والائمة.
وقالوا: انه دين الله، الذي لا يقبل سواه.
وكل هذه المعاني تعود الى نفس الدين الإلهي في جوانبه الاعتقادية والعملية.
والروايات الموجودة في المصادر الاسلامية في هذا الحقل، تشير الى جوانب
متعددة من هذه الحقيقة الواحدة، وتعود جميعاً الى أصل واحد منها:
عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): «إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الْأَنْبِيَاءِ،
وَهُمُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»^١.
وعن جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) - في تفسير الآية: «إِهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ» قال: «الطَّرِيقُ هُوَ مَعْرِفَةُ الْإِمَامِ»^٢.
وعنه أيضاً: «وَاللَّهِ نَحْنُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ»^٣.
وعنه أيضاً: «الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ» (عليه السلام)^٤.
ومن الواضح أن النبي (صلى الله عليه وآله) وعليه (عليه السلام)، وائمة
اهل البيت (عليهم السلام)، دعوا جميعاً الى دين التوحيد الالهي، والالتزام به عقائدياً و
عملياً.

و «الراغب» يقول في مفرداته: الصراط المستقيم، فكلمة الصراط تنطوي على
معنى الاستقامة. ووصفه بالمستقيم تأكيد على هذه الصفة.

* * *

الآية

٧- «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ».

التفسير:

خطان منحرفان!

هذه الآية تفسير واضح للصرط المستقيم المذكور في الآية السابقة، إنه صراط المشمولين بأنواع النعم (مثل نعمة الهداية، ونعمة التوفيق، ونعمة القيادة الصالحة، ونعمة العلم والعمل والجهاد والشهادة) لا المشمولين بالغضب الالهي، ولا الضالعين التائبين نتيجة انحراف أفكارهم وسوء فعلهم: «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ».

في هذه الآية حثٌ ضماني للإنسان على طلب طريق «الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»، وعلى اجتناب طريق «الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» وطريق «الضَّالِّينَ»، وبذلك يتبين للإنسان طريق الهداية بوضوح.

* * *

وقفنا

١- من هم «الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»؟

الذين أنعم الله عليهم، تبينهم الآية الكريمة إذ تقول: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» (النساء، ٦٩).

والآية - كما هو واضح - تقسم الذين أنعم الله عليهم على أربع مجاميع: الانبياء، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

لعل ذكر هذه المجاميع الأربع، إشارة إلى المراحل الأربع لبناء المجتمع الانساني السالم المتطور المؤمن:

المرحلة الاولى - مرحلة نهوض الانبياء بدعوتهم الالهية.

والثانية- مرحلة نشاط الصديقين، الذين تنسجم أقوالهم مع أفعالهم، لنشر الدعوة.

والثالثة- مرحلة الكفاح بوجه العناصر المضادة الخبيثة في المجتمع. و في هذه المرحلة يقدم الشهداء دمهم لازواء شجرة التوحيد.

والمرحلة الرابعة- هي مرحلة ظهور «الصالحين» باعتباره نتيجة للمساعي والجهود المبذولة.

نحن - إذن - في سورة الحمد نطلب من الله - صباحاً مساءً - أن يجعلنا في خط هذه المجموع الاربع: خط الانبياء، وخط الصديقين، وخط الشهداء، وخط الصالحين. ومن الواضح أنّ علينا أن ننهض في كل مرحلة زمنية بمسؤوليتنا ونؤدي رسالتنا.

* * *

٢- من هم «الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» ومن هم «الضَّالِّينَ»؟

يتضح من الآية الكريمة أن «الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» و «الضَّالِّينَ» مجموعتان لاجمموعة واحدة، واما الفرق بينهما ففيه ثلاثة أقوال:

١- يستفاد من استعمال التعبيرين في القرآن أن «المغضوب عليهم» أسوأ وأحظ من «الضالين»، أي إن الضالين هم التائبون العاديون، والمغضوب عليهم هم التائبون المتعنتون أو المنافقون و لذلك استحقوا لعن الله و غضبه.

قال تعالى: «وَلَكِنَّ مَن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ»

(النحل، ١٠٦).

وقال سبحانه: «وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ ذَاتُ السَّوْءِ وَاللَّهُ غَضِبَ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ» (الفتح، ٦).

«الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» إذن يسلكون - اضافة الى كفرهم - طريق اللجاج والعناد ومعاداة الحق، ولا يألون جهدا في توجيه ألوان التنكيل والتعذيب لقادة الدعوة الالهية.

يقول سبحانه: «وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ

اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ إِذْ كَانُوا يَكْفُرُونَ» (آل عمران، ١١٢)

٢ - ذهب جمع من المفسرين الى أن المقصود من «الضَّالِّينَ» المنحرفون من النصارى، و «الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» المنحرفون من اليهود.

هذا الفهم ينطلق من مواقف هذين الفريقين تجاه الدعوة الاسلامية. فالقرآن يصرح مراراً أن المنحرفين من اليهود كانوا يكونون عداً وحقداً عميقين للاسلام.

مع إن علماء اليهود كانوا من مبشري ظهور الاسلام، لكنهم تحولوا الى اعداء الذاء للاسلام لدى انتشار الدعوة، لاسباب عديدة لاجمال لذكرها، منها تعرّض مصالحهم المادية للخطر. (تماماً مثل موقف الصهاينة اليوم من الاسلام والمسلمين).

تعبير «الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» ينطبق تماماً على هؤلاء اليهود، لكن هذا لايعني حصر مفهوم المغضوب عليهم بهذه المجموعة من اليهود، بل هو من قبيل تطبيق الكلي على الفرد.

أما منحرفو النصارى فلم يكن موقفهم تجاه الاسلام يبلغ هذاالتعنت، بل كانوا ضالين في معرفة الحق. والتعبير عنهم بالضالين هو أيضاً من قبيل تطبيق الكلي على الفرد.

الاحاديث فسرت «الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» باليهود، و «الضَّالِّينَ» بمنحرفي النصارى، والسبب في ذلك يعود الى ما ذكرناه.^١

٣ - من المحتمل أن «الضَّالِّينَ» إشارة الى التائهين الذين لا يصرون على تضليل الآخرين، بينما «الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» هم الضالون المضلون الذين يسعون الى جر الآخرين نحو الانحراف.

الشاهد على ذلك حديث القرآن عن أولئك «الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»، (هود، ١٩) إذ يقول: «وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ» (الشورى، ١٦).

و يبدو أن التفسير الاول أجمع من التفسيرين التاليين، بل إن التفسيرين التاليين مصداقان للتفسير الاول. ولا دليل لتحديد نطاق المفهوم الواسع للآية

والحمد لله رب العالمين

(نهاية سورة الحمد)

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

مدنية، وعدد آياتها ٢٨٦ آية

محتوى سورة البقرة:

هذه السورة اطول سور القرآن، ومن المؤكد أنها لم تنزل مرة واحدة. بل في مناسبات عديدة، حسب متطلبات المجتمع الاسلامي في المدينة. و تتميز بشمولها لمباني العقيدة ولكثير من الاحكام العملية (العبادية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية).
ففي هذه السورة:

- ١- موضوعات حول التوحيد ومعرفة الخالق، عن طريق استقراء أسرار الكون.
 - ٢- جولات في عالم المعاد والبعث والنشور مقرونة بأمثلة حسية، مثل قصة ابراهيم و احياء الطير، وقصة العزيز.
 - ٣- آيات ترتبط باعجازالقرآن وأهمية كتاب الله العزيز.
 - ٤- سرد مطول حول وضع اليهود والمنافقين ومواقفهم الخاصة من القرآن والاسلام وشدة ضررهم في هذا المجال.
 - ٥- استعراض لتاريخ الانبياء، وخاصة ابراهيم وموسى (عليهما السلام)
 - ٦- بيان لاحكام اسلامية مختلفة مثل: الصلاة، والصوم، والجهاد، والحج، والقبلة، والزواج والطلاق، والتجارة والدين، والربا، والانفاق، والقصاص، وتحريم بعض الاطعمة والاشربة، والقمار، والوصية، وأمثالها.
- وأما تسميتها بالبقرة، فأخوذة من قصة بقرة بنى إسرائيل، التي سيأتي شرحها في الآيات ٦٧ - ٧٣ إن شاء الله.

فضيلة هذه السورة:

وردت في فضيلة هذه السورة بل في أفضليتها نصوص عديدة منها:
روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أَنَّهُ سُئِلَ أَيُّ سُورِ الْقُرْآنِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:

«الْبَقْرَةَ» قِيلَ: أَيُّ آيَةِ الْبَقْرَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «آيَةُ الْكُرْسِيِّ»^١.

أفضلية هذه السورة تعود على ما يبدو الى جامعيتها. وأفضلية آية الكرسي تعود الى محتواها التوحيدي، وسيأتي ذكر ذلك في تفسيرها باذن الله. وهذا لا يتنافى مع أفضلية سور أخرى من جهات أخرى. و روى علي بن الحسين (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله) أَنَّهُ قَالَ:

«قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): مَنْ قَرَأَ أَرْبَعَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ الْبَقْرَةِ، وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ، وَآيَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِهَا، لَمْ يَرَفِ نَفْسِهِ وَمَالِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ وَلَا يَقْرُبُهُ الشَّيْطَانُ، وَلَا يَنْسَى الْقُرْآنَ»^٢.

من اللازم هنا أن نعيد التأكيد على هذه الحقيقة، وهي إن ما ذكر من ثواب و فضيلة وجزء لتلاوة بعض السور والآيات الخاصة، لايعني -اطلاقاً-قراءتها بشكل أوراد، ولا الاكتفاء بترديد ألفاظها، بل التلاوة للفهم، والفهم من أجل التفكير، والتفكير لغرض العمل. ومن الملاحظ أن كل فضيلة ذكرت لآية أو سورة إنما تتناسب كثيراً مع محتوى تلك السورة والآية.

ففي فضيلة سورة النور ذكر أن من يواظب على قرائتها يصونه الله واولاده من (الزنا) وذلك لان محتوى هذه السورة يتضمن تعاليم في حقل مكافحة الانحرافات الجنسية، مثل حث العزاب على الزواج، والامر بالحجاب وبغض الابصار عما يثير الشهوة، والتحذير من اشاعة الفاحشة والقذف، وكذلك الامر باجراء الحد الشرعي على الزاني والزانية.

ومن الطبيعي أن محتوى هذه السورة - ان دخل حيز التنفيذ - يصون المجتمع والاسرة من الزنا. وهكذا تلك الآيات المذكورة من سورة البقرة، ستكون لها تلك الفضائل حتماً إن قرأها الانسان وتشبعت نفسه بمحتواها، خاصة وانها جميعا تدور حول محور التوحيد والايان بالغيب ومعرفة الله، والحذر من وساوس الشيطان.

صحيح أن قراءة القرآن عمل مثاب عليه في أي حال من الاحوال، لكن الثواب الاساس يترتب على التلاوة المقرونة بالتفكير والعمل.

الآيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - «التم».

٢ - «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ».

التفسير:

تحقيق في الحروف المقطعة في القرآن:

تسع وعشرون سورة من سور القرآن تبدأ بحروف مقطعة، وهذه الحروف - كما هو واضح من اسمها - لا تشكل كلمة مفهومة.

هذه الحروف من أسرار القرآن، وذكر المفسرون لها تفاسير عديدة، وأضاف لها العلماء المعاصرون تفاسير جديدة من خلال تحقيقاتهم.

جدير بالذكر أن التاريخ لم يحدثنا أن عرب الجاهلية والمشركين عابوا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وجود هذه الحروف المقطعة في القرآن. ولم يتخذوا منها وسيلة للطعن والاستهزاء. وهذا يشير إلى أنهم لم يكونوا جاهلين تماما بأسرار وجود الحروف المقطعة.

اخترنا من التفاسير الكثيرة لهذه الحروف، عددا من التفاسير باعتبار مسنديتها وانسجامها مع آخر الدراسات في هذا المجال. وسنذكر هذه التفاسير بالتدرج في بداية هذه السورة، وسورة آل عمران، وسورة الاعراف، ان شاء الله. ونبدأ الآن بأهمها:

هذه الحروف اشارة الى أن هذا الكتاب السماوي، بعظمته وأهميته التي حيرت فصحاء العرب وغير العرب، وتحدث الجن والانس في عصر الرسالة وكل العصور، يتكون من نفس الحروف المتيسرة في متناول الجميع.

ومع أن القرآن يتكون من هذه الحروف الهجائية والكلمات المتداولة، فإن ما

فيه من جمال العبارة وعمق المعنى يجعله ينفذ الى القلب والروح، ويملاً النفس بالرضا والاعجاب، ويفرض احترامه على الافكار والعقول.

في القرآن من الفصاحة والبلاغة مالا يخفى على أحد، وليس هذا مجرد ادعاء، فخالق الكون تحدى بهذا الكتاب جميع (الجن والانس)، ليأتوا بمثله «وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»، (الاسراء، ٨٨) ولكنهم عجزوا جميعا عن ذلك، وتلك دلالة على أن هذا الكتاب لم يصدر عن فكر بشري.

وكما إن الله تعالى خلق من التراب موجودات، كالانسان بما فيه من أجهزة معقدة محيرة، وكانواع الطيور الجميلة الرائقة، والاحياء المتنوعة، والنباتات والزهور المختلفة، وكما إننا ننتج من هذا التراب نفسه ألوان المصنوعات، كذلك الله سبحانه خلق من هذه الحروف الهجائية المتداولة، موضوعات ومعان سامية، في قوالب لفظية جميلة، وعبارات موزونة، واسلوب خاص مدهش معجز، وهذه الحروف الهجائية موجودة تحت تصرف الانسان، لكنه عاجز عن صنع جمل وعبارات شبيهة بالقرآن.

* * *

الادب في العصر الجاهلي :

من المهم أن نذكر هنا أن العصر الجاهلي كان عصرا ذهبيا للادب العربي. فالوثائق المتوفرة بأيدينا تشير الى أن العرب الحفاة الجفاة الجاهليين، كانوا يتمتعون بذوق أدبي رفيع. وما وصلنا من شعر ونثر من تلك الفترة، يشير الى قدرة أولئك على التعبير الجميل الدقيق، ويحتل دروة الفصاحة في الادب العربي.

وكان للادب سوق رائجة تدلّ على اهتمام العرب بلغتهم وآدابها، و (سوق عكاظ) وأمثالها من الاسواق الادبية تعكس هذا الاهتمام بوضوح.

والسوق المذكور كان يشهد - اضافة الى المعاملات الاقتصادية والقضايا الاجتماعية - حركة ادبية تعرض خلالها افضل مقطوعات الشعر والنثر، ويتم فيها انتخاب أفضل ما قيل من النظم خلال العام، و (المعلقات السبع) أو (العشر) نموذج لذلك، وكانت القصيدة الفائزة تعدّ فخراً كبيراً للشاعر ولقبيلته.

في مثل هذا العصر من الانتعاش الادبي، يتحدى القرآن الناس أن يأتوا بمثله،

ولكنهم عجزوا (سند كرمزيدا من اعجاز القرآن في مجال التحدي لدى تفسير الآية ٢٣ من هذه السورة)

* * *

شاهد ناطق:

الشاهد الناطق على هذا المنحى من تفسير الحروف المقطعة، حديث عن الامام علي بن الحسين السجاد (عليه السلام) حيث يقول: «كَذَّبَ قُرَيْشٌ وَالْيَهُودُ بِالْقُرْآنِ وَ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ، تَقَوَّلَهُ، فَقَالَ اللهُ: «أَلَمْ، ذَلِكَ الْكِتَابُ...»: أَيَّ يَا مُحَمَّدُ، هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلْتُهُ إِلَيْكَ هُوَ الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ الَّتِي مِنْهَا أَلِفٌ وَلَا مٌ وَمِيمٌ، وَهُوَ بِلُغَتِكُمْ وَحُرُوفٍ هِجَائِكُمْ فَأَتُوا بِمِثْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ...»^١.

و ثم شاهد آخر عن الامام علي بن موسى الرضا في قوله: «ثُمَّ قَالَ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ بِهِذِهِ الْحُرُوفِ الَّتِي يَتَدَاوَلُهَا جَمِيعُ الْعَرَبِ، ثُمَّ قَالَ: فُلْنِ لِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ...»^٢.

وهناك ملاحظة تؤيد ما ذهبنا اليه في تفسير معنى الحروف المقطعة، وهي ان هذه الحروف في السور الاربع والعشرين التي ذكرناها، يتلوها مباشرة ذكر لعظمة القرآن، وهذا يدل على الارتباط بين الحروف المقطعة وعظمة القرآن. وعلى سبيل المثال نذكر الآيات التالية:

١ - «الر، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (هود: ١-٢)

٢ - «طس، تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ» (النمل: ١-٢)

٣ - «آم، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ» (لقمان: ١-٢)

٤ - «المص، كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ» (الاعراف: ١-٢)

* * *

بعد البسملة وذكر الآية الاولى من سورة البقرة يقول تعالى: «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا

(١) تفسير البرهان، ج ١، ص ٥٤.

(٢) توحيد الصدوق، ص ١٦٢، ط سنة ١٣٧٥ هـ.ق

رَيْبَ فِيهِ» قد يشير هذا التعبير الى أن الله وعد نبيّه أن ينزل عليه كتاباً يهتدي به من طلب الحق، ولا يشك فيه من كان له قلب أو التى السمع وهو بصير، وها هو سبحانه قد وفى بوعده الآن.

وقوله «لَا رَيْبَ فِيهِ» ليس ادعاءً، بل تقريراً لحقيقة قرآنية مشهودة، هي إن القرآن يشهد بذاته على حقانيته. وبعبارة اخرى فان مظاهر الصدق والعظمة والانسجام والاستحكام وعمق المعاني وحلاوة الالفاظ والعبارات وفصاحتها من الوضوح بدرجة تبعد عنه كل شك.

من المشهود أن مرّ العصور وكرّ الدهور لم يقلل من طراوة القرآن، بل إن حقائق القرآن، ازدادت وضوحاً بتطور العلوم وبانكشاف أسرار الكائنات. وكلما ازداد العلم تكاملاً ازدادت آيات القرآن جلاءً وسطوعاً. سنوضح هذه الحقيقة أكثر باذن الله في مواضع أخرى من هذا التفسير.

* * *

وقفات

١ - لماذا الاشارة الى البعيد؟

نعلم أن كلمة (ذلك إشارة الى البعيد في لغة العرب. وقرب القرآن من أيدي الناس يقتضى أن تكون الاشارة للقريب.

السبب في استعمال اسم الاشارة للبعيد يعود الى بيان سمو القرآن ورفعته، حتى كأنه - في عظمته - يحتل نقطة الذروة في هذا الوجود. ومثل هذا الاستعمال شائع في سائر اللغات ايضاً حين يراد الاشارة الى شخص ذي منزلة كبيرة مثلاً.

في بعض مواضع القرآن وردت أيضاً كلمة (تلك)، وهي اسم إشارة للبعيد ايضاً، مثل: «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ» (تقمان، ٢). والسبب فيه ما ذكرنا

* * *

٢ - معنى الكتاب:

«الكتاب» يعني المكتوب والمخطوط، ولا شك أن المراد منه في الآية كتاب الله الكريم.

وهنا يثار سؤال حول سبب استعمال كلمة الكتاب للقرآن وهو آتئذ لم يكتب كله.

وفي الجواب نقول: استعمال هذه الكلمة لا يستلزم أن يكون القرآن كله مكتوباً. لان اسم القرآن يطلق على كل هذا الكتاب، وعلى أجزائه أيضاً.

أضف الى ذلك أن «الكتاب» يطلق أحياناً بمعنى أوسع، ليشمل كل ما يليق أن يكتب ويظهر مكتوباً، وإن لم يكتب حين اطلاق اسم الكتاب عليه. ففي آية أخرى نقرأ: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ» (ص، ٢٩). ومن المؤكد أن القرآن لم يكن بشكل كتاب مدون بين الناس قبل نزوله.

وثمة احتمال آخر وهو إن التعبير بالكتاب يشير الى كتابة القرآن في «اللوح المحفوظ»^١.

٣- ماهي الهداية؟

كلمة (الهداية) لها عدة معاني في القرآن الكريم، وكلها تعود أساساً الى معنيين:
١ - الهداية التكوينية: وهي قيادة رب العالمين لموجودات الكون، وتتجلى هذه الهداية في نظام الخليفة والقوانين الطبيعية المتحكمة في الوجود. وواضح أن هذه الهداية تشمل كل موجودات الكون.

يقول القرآن على لسان موسى (عليه السلام): «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» (طه، ٥٠).

٢ - الهداية التشريعية: وهي التي تتم عن طريق الانبياء والكتب السماوية، وعن طريقها يرتفع الانسان في مدارج الكمال، وشواهدا في القرآن كثيرة منها قوله تعالى: «وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا» (الانبياء، ٧٣).

(١) راجع المجلد الحادي عشر من هذا التفسير، ذيل الآية ٣٩ من سورة الرعد.

٤ - لماذا اختصت هداية القرآن بالمتقين؟

واضح أن القرآن هداية للبشرية جمعاء، فلماذا خصت الآية الكريمة المتقين بهذه الهداية؟

السبب هو أن الانسان لا يتقبل هداية الكتب السماوية ودعوة الانبياء، ما لم يصل الى مرحلة معينة من التقوى (مرحلة التسليم أمام الحق وقبول ما ينطبق مع العقل والفطرة).

بعبارة أخرى: الافراد الفاقدون للإيمان على قسمين:

قسم يبحث عن الحق، ويحمل مقدارا من التقوى يدفعه لأن يقبل الحق أنني وجدته.

وقسم لجوج متعصب قد استفحلت فيه الالهواء، لا يبحث عن الحق، بل يسعى في إطفاء نوره حيثما وجدته.

ومن المسلم به أن أفراد القسم الاول هم الذين يستفيدون من القرآن أو أي كتاب سماوي آخر، أما القسم الثاني فلا حظ لهم في ذلك.

وبعبارة ثالثة: كما إن «فاعلية الفعل» شرط في الهداية التكوينية وفي الهداية التشريعية، كذلك «قابلية القابل» شرط أيضا.

الارض السبخة لا تثمر وإن هطل عليها المطر آلاف المرات، إذ لا بد أن تكون الارض مستعدة لاستثمار ماء المطر المحيي.

وساحة الوجود الانساني لا تتقبل بذر الهداية ما لم تنظف من اللجاج والتعصب والعناد. ولذلك قال سبحانه في كتابه العزيز انه: «هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ»

الآيات

٣- «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ».

٤- «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ».

٥- «أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

التفسير

في بداية هذه السورة قسم القرآن الناس حسب ارتباطهم بخط الاسلام على ثلاثة أقسام:

١- المتقون: وهم الذين تقبلوا الاسلام في جميع أبعاده.

٢- الكافرون: ويقعون في النقطة المقابلة للمتقين، ويعترفون بكفرهم، ولا يأبون أن يظهروا عداؤهم للاسلام في القول والعمل.

٣- المنافقون: وهم ذوو الشخصيتين: شخصية اسلامية أمام المسلمين، وشخصية معادية للاسلام أمام أعداء الدين. شخصيتهم الاصلية هي الكفر طبعاً، وإن تظاهروا بالاسلام.

المجموعة الثالثة تضرّ بالاسلام - دون شك- اكثر من المجموعة الثالثة، ولذلك فإن القرآن يقابلهم بشدة اكثر كما سنرى.

هذه المسألة لا تختص بالاسلام طبعاً، كل المذاهب في العالم لها مؤمنون معتقدون، او معارضون صريحون، او منافقون محافظون. كما أنها لا تختص بزمان معين، بل هي سارية في كل العصور.

الآيات المذكورة تدور حول المجموعة الاولى وتطرح خصائصهم في خمسة عناوين هي:

١- الإيمان بالغيب

«الغيب والشهود» نقطتان متقابلتان. عالم الشهود هو عالم المحسوسات، وعالم

الغيب هو ما وراء الحس. لان «الغيب» في الاصل يعني ما بطن وخفي. وقيل عن عالم ما وراء المحسوسات «غيب» لحفائه عن حواسنا. التقابل بين العالمين المذكور في آيات عديدة كقوله تعالى: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» (الحشر، ٢٢).

الإيمان بالغيب هو بالضبط النقطة الفاصلة الاولى بين المؤمنين بالأديان السماوية، وبين منكري الخالق والوحي والقيامة. ومن هنا كان الإيمان بالغيب في رأس قائمة خصائص المتقين.

المؤمنون خرجوا طوق العالم المادي، واجتازوا جدرانها. إنهم بهذه الرؤية الواسعة مرتبطون بعالم كبير لا متناه. بينما يصّر معارضوهم على جعل الانسان مثل سائر الحيوانات، محصورا في موقعه العالم المادي. وهذه الرؤية المادية تقمّصت في عصرنا صفات العلمية والتقدمية والتطورية!

لو قارنا بين فهم الفريقين ورؤيتهما، لعرفنا أن: «المؤمنين بالغيب» يعتقدون أن عالم الوجودا كبيرا وأوسع بكثير من هذا العالم الذي نحسه، وخالق عالم الوجود هذا له مالا نهاية له من العلم والقدرة والادراك، وانه ازلّي وابدّي. وانه صمّم هذا العالم وفق تخطيط دقيق مدروس. ويعتقدون أن الانسان - بما يحمله من روح إنسانية - يسمو بكثير على سائر الحيوانات. وأن الموت ليس بمعنى العدم والفناء، بل هو مرحلة من مراحل التكامل الانساني، ونافذة تطل على عالم أوسع واكبر.

بينما الانسان المادي يعتقد أن عالم الوجود محدود بهذا الذي نحسه ونراه. وأن العالم وليد مجموعة من القوانين الطبيعية العمياء الخالية من أي هدف أو تخطيط أو عقل أو شعور. والإنسان جزء من الطبيعة، ينتهي وجوده بموته، يتلاشى بدنه، وتندمج أجزاؤه مرة أخرى بالمواد الطبيعية. فلا بقاء للانسان، وليس ثمة فاصلة كبيرة بينه وبين سائر الحيوانات.^١

ما أكبر الهوة التي تفصل بين هاتين الرؤيتين للكون والحياة! وما أعظم الفرق بين ما تفرزه كل رؤية، من حياة اجتماعية وسلوك ونظام!

(١) نقلا عن: «محمد والقرآن»

الرؤية الاولى تربّي صاحبها على أن ينشد الحق والعدل والخير ومساعدة الآخرين، والثانية لا تقدم لصاحبها أي مبرر على ممارسة هذه الامور اللهم الا ما كان له منها فائدة في حياته المادية. من هنا يسود في حياة المؤمنين الحقيقيين التفاهم والاخوة والظّهر والتعاون، بينما تهيمن على حياة الماديين روح الاستعمار والاستغلال وسفك الدماء والنهب والسلب. ولهذا السبب نرى القرآن يتخذ من «الايان بالغيب» نقطة البداية في التقوى.

يدور البحث في كتب التفسير عن المقصود بالغيب، أهو إشارة الى ذات الباري تعالى، أم انه يشمل - أيضاً - الوحي والقيامة وعالم الملائكة وكل ما هو وراء الحس؟ ونحن نعتقد أن الآية أرادت المعنى الشامل لكلمة الغيب، لان الايمان بعالم ما وراء الحس - كما ذكرنا - أول نقطة افتراق المؤمنين عن الكافرين، إضافة الى ذلك، تعبير الآية مطلق ليس فيه قيد يحدده بمعنى خاص.

بعض الروايات المنقولة عن أهل البيت (عليهم السلام) تفسّر الغيب في الآية ، بالمهدي الموعود المنتظر (سلام الله عليه) وهذا لا ينافي ما ذكرناه بشأن معنى الغيب. لان الروايات الواردة في تفسير الآيات تبين غالباً مصاديق خاصة، للآيات، دون أن تحدد الآيات بهذه المصاديق الخاصة، وسنرى في صفحات هذا التفسير امثلة كثيرة لذلك . والروايات المذكورة بشأن تفسير معنى الغيب، تستهدف في الواقع توسيع نطاق معنى الايمان بالغيب، ليشمل حتى الايمان بالمهدي المنتظر (عليه السلام) ويمكننا القول أن الغيب له معنى واسع قد نجد له بمرور الزمن مصاديق جديدة.

* * *

٢- الارتباط بالله:

الصفة الاخرى للمتقين هي إنهم «يُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ».

«الصلاة» باعتبارها رمز الارتباط بالله، تجعل المؤمنين المنفتحين على عالم ما وراء الطبيعة، على ارتباط دائم بالخالق العظيم. هؤلاء المؤمنون لا ينحنون الا أمام الله. ولا يستسلمون الا لرب السماوات والارض، أي لا يخضعون للاوثان، ولا يستسلمون أمام

الجباورة والطواغيت.

مثل هذا الانسان يشعر أنه أسمى من جميع المخلوقات الاخرى، إذ إنه منح لياقة الحديث مع رب العالمين، وهذا الاحساس اكبر عامل في تربية الموجود البشري. الانسان الذى يقف خمس مرات يومياً أمام الله، يتضرع اليه ويناجيه، ينطبع فكره وعمله وقوله بطابع إلهي، ومثل هذا الانسان لا يهتج طريقاً فيه سخط الله (على أن يكون تضرعه لله صادراً عن أعماق قلبه ومنطلقاً من تمام وجوده)^١.

* * *

٣- الارتباط بالناس:

المتقون - اضافة الى ارتباطهم الدائم بالخالق - لهم ارتباط وثيق ومستمر بالمخلوقين، ومن هنا كانت الصفة الثالثة التي يبيتها لهم القرآن أنهم «مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ».

يلاحظ أن القرآن لا يقول: ومن أموالهم ينفقون، بل يقول: «مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ»، وبذلك، وسع نطاق الإنفاق ليشمل المواهب المادية والمعنوية. فالمتقون لا ينفقون أموالهم فحسب، بل ينفقون من علمهم ومواهبهم العقلية وطاقاتهم الجسمية ومكانتهم الاجتماعية، وبعبارة أخرى ينفقون من جميع إمكانياتهم لمن له حاجة إلى ذلك، دون أن يترقبوا من إنسان جزاءً.

الملاحظة الاخرى: أن الإنفاق قانون عام في عالم الخليقة، وخاصة في التركيب العضوي لكل موجود حي. قلب الانسان لا يعمل لنفسه فقط، بل ينفق ما عنده لجميع خلايا البدن. الدماغ والرئة وسائر أجهزة البدن تنفق دائماً من ثمار عملها، والحياة الجماعية - أساساً - لامفهوم لها دونما إنفاق.^٢

الارتباط بالناس - هو في الحقيقة - نتيجة للارتباط بالله. فالانسان المرتبط بالله

(١) بشأن أهمية الصلاة وآثارها التربوية الكبرى، راجع تفسير الآية ١١٤ من سورة هود (في المجلد التاسع

من هذا التفسير)

(٢) راجع بشأن الإنفاق وأهميته وآثاره المجلد الثاني من هذا التفسير، ذيل الآيات ٢٦١ - ٢٧٤ من سورة

يؤمن أن كل ما لديه من نِعَم إنما هي مواهب إلهية مودعة لديه لفترة زمنية معينة. ومن هنا فلا يزعبه الإنفاق بل يسره ويفرحه، لانه بالانفاق قَسَمَ مال الله بين عباد الله، وبقيت له نتائج هذا العمل وبركاته المادية والمعنوية. وهذا التفكير يطهر روح الانسان من البخل والحسد ويحول الحياة من ساحة لتنازع البقاء الى مسرح للتعاون حيث يشعر كل فرد بأنه مسؤول أن يضع ما لديه من مواهب تحت تصرف كل المحتاجين، مثل شمس تفيض بأشعتها على الموجودات دون أن تتوقع من أحد جزاء.

في حديث عن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) بشأن تفسير الآية (وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) يقول: «إِنَّ مَعْنَاهُ وَمِمَّا عَلَّمْنَاهُمْ يَبْتُونَ»^١.

بديهي أن الرواية لا تريد أن تجعل الإنفاق مختصا بالعلم، بل إن الامام الصادق يريد، بذكر هذا اللون من الانفاق، أن يوسع مفهوم الانفاق كي لا يكون مقتصرًا على الجانب المالي كما يتبادر الى الاذهان لاول وهلة.

ومن هنا يتضح ضمناً أن الانفاق المذكور في الآية، لا يقتصر على الزكوات الواجبة والمستحبة، بل يتسع معناه ليشمل كل مساعدة بلامقابل.

* * *

٤ - الخاصية الرابعة للمتقين، الايمان بجميع الانبياء ورسالاتهم الالهية؛ «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ» وفي هذا التعبير القرآني إشارة الى أن المتقين يؤمنون بعدم وجود أي اختلاف في مبادي دعوة الانبياء وأسس رسالاتهم، وبأنهم جميعاً هداة بشرية نحو صراط مستقيم واحد، جاء الواحد منهم ليكمل الشوط الذي قطعه سلفه في قيادة البشرية نحو كماها المرسوم. هؤلاء المتقون يرفضون أن تكون الأديان الالهية وسيلة للتفرقة والنفاق، بل على العكس من ذلك يؤمنون بأنها وسيلة للإرتباط والإنشاد بين أبناء البشر.

هؤلاء الذين يحملون مثل هذه الرؤية ومثل هذا الإدراك، يطهرون أرواحهم من التعصب، ويؤمنون بما جاء به جميع الانبياء لهداية البشر وتكاملهم، ويحترمون كل

(١) مجمع البيان، ونورالتقلين، في تفسير الآية المذكورة.

دعاة وهداة طريق التوحيد.

الايان برسالات الانبياء السابقين، لا يمنع طبعاً من انتهاج رسالة آخر الانبياء في الفكر والعمل، لأن هذه الرسالة هي آخر حلقة من السلسلة التكاملية للاديان، وعدم انتهاجها يعني التخلف عن المسيرة التكاملية للبشرية.

٥- «الايان بيوم القيامة» آخر صفة في هذه السلسلة من الصفات التي قررها القرآن للمتقين. «وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ».

إنهم يوقنون بأن الانسان لم يخلق هملاً وعبثاً. فالخليقة عينت للكائن البشري مسيرة تكاملية لا تنتهي إطلاقاً بموته، إذ لو كان الموت نهاية المسير لكانت حياة الانسان عبثاً لا طائل تحته.

وإنهم يقرّون بأن عدالة الله المطلقة في انتظار الجميع، ولا شئ من أعمال البشر في هذه الدنيا يبقى بدون جزاء.

هذا اللون من التفكير يبعث في نفس حامله الهدوء والسكينة، ويجعله يتحمل أعباء المسؤولية ومشاقها بصدر رحب، ويقف أمام الحوادث كالطود الاشم، ويرفض الخضوع للظلم. وهذا التفكير يملأ الانسان ثقة بأن الأعمال - صالحها وطالحها - لها جزاء وعقاب، وبأنه ينتقل بعد الموت الى عالم أرحب خال من كل ألوان الظلم، يتمتع فيه برحمة الله الواسعة والطافه الغزيرة.

الايان بالآخرة يعني افتراق حاجز عالم المادة والدخول الى عالم أسمى. ويعني أن عالمنا هذا مزرعة لذلك العالم الاسمي ومدرسة اعدادية له، وأن الحياة في هذا العالم ليست هدفاً نهائياً، بل تمهيد وإعداد للعالم الآخر.

الحياة في هذا العالم شبيهة بجياة المرحلة الجنينية، فهي ليست هدفاً لخلقة الانسان، بل مرحلة تكاملية من أجل حياة أخرى. ومالم يولد هذا الجنين سالماً خالياً من العيوب، لا يستطيع أن يعيش سعيداً في الحياة التالية.

الايان بيوم القيامة له أثر عميق في تربية الانسان. يهبه الشجاعة والشهامة، لأن اسمي وسام يتقلده الانسان في هذا العالم، هو وسام «الشهادة» على طريق هدف مقدس إلهي والشهادة أحب شئء للانسان المؤمن، وبداية لسعادة أبدية خالدة.

الايان بيوم القيامة يصون الانسان من ارتكاب الذنوب. بعبارة أخرى، يتناسب ارتكابنا للذنوب مع إيماننا بالله واليوم الآخر تناسباً عكسياً، فكلما قوي الايمان قلت الذنوب. يقول الله سبحانه لنبيه داود: «وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ» (سورة ص، آية ٢٦)

نسيان يوم الحساب أساس كل طغيان وظلم وذنوب، وبالتالي أساس استحقاق العذاب الشديد.

* * *

آخر آية تدور حولها بحثنا، تشير الى النتيجة التي يتلقاها المؤمنون ذووالصفات المذكورة، تقول «أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًىٰ مِنْ رَبِّهِمْ... وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»

رب العالمين ضمن هؤلاء هدايتهم وفلاحهم وعبارة (مِنْ رَبِّهِمْ) إشارة الى هذه الحقيقة.

واستعمال حرف (على) في عبارة «عَلَىٰ هُدًىٰ مِنْ رَبِّهِمْ» يوحي بأن الهداية الالهية مثل سفينة يركبها هؤلاء المتقون لتوصلهم الى السعادة والفلاح. (لان حرف - على - يوحي غالباً معنى الاستعلاء).

واستعمال كلمة «هدى» في حالة نكرة يشير الى عظمة الهداية التي شملهم الله بها. و تعبير «هُمُ الْمُفْلِحُونَ» يفيد الانحصار كما يذكر علماء البلاغة، أي إن الطريق الوحيد للفلاح هو طريق هؤلاء المفلحين.^١

وقفتان

١- مواصلة طريق الايمان والعمل:

الآيات المذكورة استعملت دوماً الفعل المضارع، الذي يشير عادة الى الاستمرار

(١) صاحب «المنار» يصر على أن تكرار كلمة «اولئك» في الآية يفيد الاشارة الى مجموعتين: الاولى- أولئك الذين يتصفون بالايمان بالغيب، وباقامة الصلاة، وبالانفاق. والثانية - هم المؤمنون بالوحي السماوي وبالآخرة. نحن نستبعد كثيراً هذا التفسير، لان الصفات الخمس المذكورة مترابطة لا يمكن التفكيك بينها، وكلها تصف مجموعة واحدة.

(يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ - يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ يُنْفِقُونَ - وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ). وهذا يعني أن المتقين والمؤمنين الحقيقيين هم الذين يواصلون مسيرتهم الحياتية بثبات واستمرار، دون تعثر أو تلكؤ أو توقف.

هؤلاء ينطلقون منذ البدء بروح البحث عن الحق، وهذا يؤدي بهم الى تلبية دعوة القرآن، والقرآن بعد ذلك يوجد فيهم الخصائص الخمس المذكورة.

٢ - ماهي حقيقة التقوى؟

التقوى من الوقاية، أي الحفاظ والصيانة^١، وهي عبارة أخرى جهاز الكبح الداخلي الذي يصون الانسان أمام طغيان الشهوات.

لهذا السبب وصف أميرالمؤمنين علي (عليه السلام) التقوى بأنها الحصن الذي يقي الانسان أخطار الانزلاق إذ قال: «إِعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنِ عَزِيزٍ»^٢.

وفي النصوص الدينية والادبية تشبيهات كثيرة تجسم حالة التقوى، فعن علي (عليه السلام) قال: «أَلَا وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا دُلِّلَ، جُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَأُعْطُوا أَزْمَتَهَا، فَأَوْرَدَتْهُمْ الْجَنَّةَ»^٣.

و عبدالله بن المعتز شبه التقوى بحالة رجل يسير على طريق شائكة، ويسعى الى أن يضع قدمه على الارض بتأن وحذر، كي لا تحزّه الاشواك ، أو تتعلق بشيابه، يقول:

خَلَّ الدُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَ كَبِيرَهَا فَهُوَ التُّقَى
وَاضْنَعْ كَمَا شِ فَوْقَ أَرْ ضِ الشَّوْكِ يَحْدَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةَ إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى!

(١) يقول الراغب في مفرداته: الوقاية حفظ الشيء مما يؤذيهِ ويضره، والتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف، لذلك يسمى الخوف تارة تقوى بينما الخوف سبب للتقوى. وفي عرف الشرع، التقوى حفظ النفس عما يُؤثم. و «كمال التقوى» اجتناب المشتبهات.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٦.

(٤) تفسير ابو الفتوح الرازي، ج ٤١، ص ٦٢.

هذا التشبيه يفيد أيضاً أن التقوى لا تعنى العزلة والانزواء عن المجتمع، بل تعني دخول المجتمع، وخوض غماره، مع الحذر من الإصابة ببلوئته إن كان المجتمع ملوثاً. بشكل عام، حالة التقوى والضبط المعنوي، أوضح آثار الايمان بالله واليوم الآخر. ومعيار فضيلة الانسان وافتخاره، ومقياس شخصيته في الاسلام، حتى أضحت الآية الكريمة: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ» (الحجرات، ١٤) شعاراً إسلامياً خالداً. يقول عليّ (عليه السلام): «إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ مِفْتَاحُ سَدَائِدٍ، وَذَخِيرَةٌ مَعَادٍ، وَعَيْتُقُ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ»^١.

جدير بالذكر أن التقوى ذات شعب وفروع، منها التقوى المالية والاقتصادية، والتقوى الجنسية، والاجتماعية، والتقوى السياسية...

الآيتان

٦- «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ».

٧- «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

التفسير

المجموعة الثانية: الكافرون المتعنتون

هذه المجموعة تقف في النقطة المقابلة تماماً للمتقين، والآيتان المذكورتان قبلها بيّنتا باختصار صفات هؤلاء. الآية الاولى تقول إن الإنذار لا يجدي نفعاً مع هؤلاء، فهم متعنتون في كفرهم، على خلاف المجموعة الاولى التي تنصاع لنداء الحق. هذه المجموعة غارقة في ضلالها وترفض الانصياع للحق حتى ولو اتضح لديها. من هنا كان القرآن غير ذي أثر في هؤلاء. وهكذا الوعد والوعيد، لانهم يفتقدون الارضية

الروحية اللازمة لقبول الحق والاستسلام له.

* * *

الآية الثانية تشير الى سبب هذا اللجاج والتعصب وتقول: «حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً»، ولذلك استحقوا أن يكون «لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

أجهزة استقبال الحقائق معطوبة عند هؤلاء.. العين التي يرى المتقون فيها آيات الله، والاذن التي يسمعون بها نداء الحق، والقلب الذي يدركون به الحقائق، كلها قد تعطلت وتوقفت عن العمل لدى الكافرين. هؤلاء لهم عيون وآذان وعقول، لكنهم يفتقدون قدرة «الرؤية» و«الادراك» و«السمع». لان انغماسهم في الانحراف وعنادهم ولجاجهم، كلها عناصر تشكل حجاباً أمام أجهزة المعرفة.

الانسان قابل للهداية طبعاً - إن لم يصل الى هذه المرحلة- مهما بلغ به الضلال. أما حيناً يبلغ في انحرافه درجة يفقد معها حسّ التشخيص «فلات حين نجاة» لانه افتقد أدوات الوعي والفهم، ومن الطبيعي أن يكون في انتظاره عذاب عظيم.

* * *

وقفات

١- سلب قدرة التشخيص ومسألة الجبر

أول سؤال يطرح في هذا المجال يدور حول مسألة الجبر، التي قد تتبادر الى الاذهان من قوله تعالى: «حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً...». فهذا الحتم يفيد بقاء هؤلاء في الكفر إجباراً، دون أن يكون لهم اختيار في الخروج من حالتهم هذه. أليس هذا مجبر؟ وإذا كان جبراً فلماذا العقاب؟

القرآن الكريم يجيب على هذه التساؤلات ويقول: إن هذا الحتم وهذا الحجاب هما نتيجة اصرار هؤلاء ولجاجهم وتعنتهم أمام الحق، و إستمرارهم في الظلم والطغيان والكفر. يقول تعالى: «بَلْ نَطَبَعُ اللَّهُ عَلَيْهَا بُكُورَهُمْ» (النساء، ١٥٥) ويقول: «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ» (المؤمن، ٣٥) ويقول أيضاً: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً» (الجمانية، ٢٣).

كل هذه الآيات تقرر أن السبب في سلب قدرة التشخيص، وتوقف أجهزة

الادراك عن العمل يعود الى الكفر والتكبر والتجبر واتباع الهوى واللجاج والعناد أمام الحق. هذه الحالة التي تصيب الانسان، هي في الحقيقة ردّ فعل لاعمال الانسان نفسه. من المظاهر الطبيعية في الموجود البشري، أن الانسان لو تعود على انحراف واستأنس به، يتخذ في المرحلة الاولى شكلاً «حالة» ثم يتحول الى «عادة» وبعدها يصبح «ملكة» و «جزءاً» من تكوين الإنسان حتى يبلغ أحياناً درجة لا يستطيع الانسان أن يتخلى عنها أبداً. لكن الإنسان اختار طريق الإنحراف هذا عن علم ووعي، ومن هنا كان هوالمسؤول عن عواقب أعماله، دون أن يكون في المسألة جبر. تماماً مثل شخص فقاً عينيه وسدّ أذنيه عمداً، كي لا يسمع ولا يرى.

ولو رأينا أن الآيات تنسب الحتم واسدال الغشاوة الى الله، فذلك لأن الله هو الذي منح الانحراف مثل هذه الخاصية. (تأمل بدقّة).

عكس هذه الظاهرة مشهود أيضا في قوانين الطبيعة، أي إن الفرد السائر على طريق الطهر والتقوى والاستقامة يجد الله تمتد اليه لتقوي حاسة تشخيصه وادراكه و رؤيته، هذه الحقيقة توضحها الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا» (الانفال، ٢٩).

في حياتنا اليومية صور عديدة لأفراد ارتكبوا عملا محرّماً، فتألوا لما فعلوه واعترفوا بذنبهم، لكنهم استأنسوا تدريجياً بفعلهم، وزالت من نفوسهم حساسيتهم السابقة تجاه الذنب، ووصل أمرهم في مراحل تالية الى أنهم يجدون اللذة والانشراح في الانحراف، وقد يصفون عليه صفة الواجب الانساني! أو الواجب الديني!!

وفي تاريخنا الاسلامي ظهر مجرمون سفاكون مولعون بازهاق الارواح والتنكيل بالمسلمين، ومع ذلك كانوا يضعون لأعمالهم الاجرامية تبريرات دينية، كان يقولوا مثلا إن الله سلطنا على هؤلاء الناس المذنبين لنظلمهم، فهم مستحقون لذلك!!

٢ - لماذا يصّر الانبياء على هداية هؤلاء، إذا كانوا لا يهتدون؟

وهذا سؤال آخر يُطرح في اطار الآيات المذكورة. والجواب عليه يتضح لو عرفنا أن العقاب الالهي يرتبط بمواقف الانسان العملية وسلوكه الفعلي، لا بما يُكته في قلبه من زيغ وضلال فقط. من هنا كان لابد من توجيه الدعوة حتى الى هؤلاء الذين لا يهتدون.

بعد ذلك يستحق الفرد العقاب تبعاً لموقفه من الدعوة. بعبارة أخرى لابد من «إتمام الحجّة» قبل العقاب.

بعبارة موجزة: الثواب والعقاب يتوقفان حتماً على العمل بعد إنجازه، لا على الارضية الفكرية والروحية الداخلية للفرد.

أضف الى ما سبق: أن الانبياء بُعثوا للناس جميعاً، وهؤلاء الذين «طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ» قليلون في المجتمع، أما الاكثريّة فهم التائهون الذين يتقبلون الهداية ضمن برنامج تعليمي تربوي صحيح.

* * *

٣- الختم على القلوب

في الآيات المذكورة وآيات أخرى، عبر القرآن عن عملية سلب حسّ التشخيص والادراك الواقعي للأفراد بالفعل «ختم»، وأحياناً بالفعل «طبع» و«ران».

في اللغة، «خَتَمَ» الاناء بمعنى سدّه بالطين أو غيره، وأصلها من وضع الختم على الكتب والابواب كي لا تُفْتَحَ، والختم اليوم مستعمل في الاستيثاق من الشيء والمنع منه، كختم سندات الاملاك والرسائل السريّة الهامة.

و«طبع» بمعنى ختم أيضاً.

أما «ران»، فن «الرين» وهو صبدأ يعلو الشيء الجليّ، واستعمل القرآن هذه الكلمة في حديثه عن قلوب الغارقين في أحوال الفساد والرذيلة: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (المطففين، ١٤).

المهم أن الانسان ينبغي أن يكون حذراً لدى صدور الذنب منه، فيسارع الى غسله بماء التوبة والعمل الصالح، كي لا يتحول الى صفة ثابتة محتوم عليها في القلب.

في حديث عن الامام محمد بن علي الباقر (عليه السلام): «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ، فَإِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا خَرَجَ فِي تِلْكَ النُّكْتَةِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِذَا تَابَ ذَهَبَ ذَلِكَ السَّوَادُ، فَإِنْ تَمَادَى فِي الذُّنُوبِ زَادَ ذَلِكَ السَّوَادَ حَتَّى يُغْطِيَ الْبَيَاضَ، فَإِذَا عُطِيَ الْبَيَاضَ لَمْ يَرْجَعْ صَاحِبُهُ إِلَى خَيْرٍ أَبَدًا، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»^١.

(١) أصول الكافي، ج ٢، باب الذنوب، ح ٢٠٩، ص ٢٠٩.

٤- المقصود من «القلب» في القرآن

لماذا نسب إدراك الحقائق في القرآن الى القلب، بينما القلب ليس بمركز للدراك بل مضخة لدفع الدم الى البدن؟!

الجواب على ذلك، أن القلب في القرآن له معان متعددة منها:

١ - بمعنى العقل والادراك كقوله تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ» (ق، ٣٧).

٢ - بمعنى الروح والنفس كقوله سبحانه: «وَإِذْ زَاغَتْ الْآبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ» (الاحزاب، ١٠).

٣ - بمعنى مركز العواطف، كقوله: «سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّغْبَ» (الانفال، ١٢) وقوله: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» (آل عمران، ١٥٩).

لمزيد من التوضيح نقول:

في وجود الانسان مركزان قويتان هما:

١ - مركز الادراك ، و يتكون من الدماغ وجهاز الاعصاب. لذلك نشعر أننا نستقبل المسائل الفكرية بدماغنا حيث يتم تحليلها وتفسيرها. (وان كان الدماغ والاعصاب في الواقع وسيلة وآلة للروح).

٢ - مركز العواطف، وهو عبارة عن هذا القلب الصنوبري الواقع في الجانب الايسر من الصدر. والمسائل العاطفية تؤثر أول ما تؤثر على هذا المركز حيث تنقذ الشرارة الاولى.

حينما نواجه مصيبة فاننا نحس بثقلها على هذا القلب الصنوبري، وحينما يغمرنا الفرح فاننا نحس بالسرور والانشراح في هذا المركز (لاحظ بدقة).

صحيح أن المركز الاصلي للدراك والعواطف هو الروح والنفس الانسانية، لكن المظاهر وردود الفعل الجسمية لها مختلفة. ردود فعل الفهم والادراك تظهر أولاً في جهاز الدماغ، بينما ردود فعل القضايا العاطفية كالحب والبغض والخوف والسكينة

والفرح والهَمّ تظهر في القلب بشكل واضح و يحسّها الانسان في هذا الموضع من الجسم. مما تقدم نفهم سبب ارتباط المسائل العاطفية في القرآن بالقلب (العضو الصنوبري المخصوص)، وارتباط المسائل العقلية بالقلب (أي العقل أو الدماغ). أضف الى ما تقدم أنّ عضواً للقلب له دور مهم في حياة الانسان وبقائه، وتوقفه لحظة يؤدي الى الموت، فاذا يمنع أن تنسب النشاطات الفكرية والعاطفية اليه؟! *

* * *

٥ - لماذا جاءت «فَلَوْئَهُمْ» و «أَبْصَارُهُمْ» بصيغة الجمع، و «سَمْعُهُمْ» بصيغة

المفرد؟

يتكرر في القرآن استعمال القلب والبصر بصيغة الجمع: قلوب وابصار، بينما يستعمل السمع دائماً بصيغة المفرد، فالسرّ في ذلك؟ قبل الاجابة لا بد من الاشارة الى أن القرآن استعمل السمع والبصر بصيغة المفرد ايضاً كقوله تعالى: «وَوَحَّتْ عَلَيَّ سَمْعِيهِ وَقَلْبِيهِ وَجَعَلَ عَلَيَّ بَصِيرَهُ غِشَاوَةً» (الجنّة، ٢٣). الشيخ الطوسي في تفسير «التبيان» ذكر نقلاً عن لغوي معروف، أن سبب ذلك قد يعود الى أحد أمرين:

أولاً: إن كلمة «السمع» قد تستعمل باعتبارها اسم جمع، ولا حاجة عندئذ الى

جمعها.

ثانياً: إن كلمة «السمع» لها معنى المصدر، والمصدر يدل على الكثير والقليل،

فلا حاجة الى جمعه.

ويمكننا أن نضيف الى ماسبق تعليلاً ذوقياً وعلمياً هو أن الادراكات القلبية والمشاهدات العينية تزيد بكثير على «المسموعات»، والفيزياء الحديثة تقول لنا إن الامواج الصوتية المسموعة معدودة لا تتجاوز عشرات الآلاف، بينما امواج النور والألوان المرئية تزيد على الملايين. (تأمل بدقة).

* * *

الآيات

- ٨ - «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ».
- ٩ - «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ».
- ١٠ - «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ».
- ١١ - «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ».
- ١٢ - «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ».
- ١٣ - «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ».
- ١٤ - «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَاوَا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ».
- ١٥ - «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ».
- ١٦ - «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ».

التفسير

المجموعة الثالثة: المنافقون

هذه الآيات تبين - باختصار وعمق - الخصائص الروحية للمنافقين وأعمالهم. الاسلام واجه في عصر انبثاق الرسالة مجموعة لم تكن تملك الاخلاص اللازم للابمان، ولا القدرة اللازمة للمعارضة.

هذه المجموعة المذبذبة ذات الشخصيتين كانت نافذة في صفوف المسلمين، وكانت تشكل خطراً كبيراً على الإسلام والمسلمين. كان تشخيصهم صعباً لأنهم متظاهرون بالإسلام، غير أن القرآن بين بدقة مواصفاتهم وأعطى للمسلمين في كل القرون والأعصار معايير حيّة لمعرفةهم.

الآيات المذكورة قبلها بيّنت في مطلعها الخط العام للنفاق والمنافقين: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ».

هؤلاء يعتبرون عملهم المذبذب هذا نوعاً من الشطارة والدهاء «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا»، بينما لا يشعر هؤلاء أنهم يسيئون بعملهم هذا إلى أنفسهم، وبيد دون باخراهم هذا طاقاتهم، ولا يجنون من ذلك إلا الخسران والعذاب الإلهي. «وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ».

في الآية التالية يبيّن القرآن أن النفاق في حقيقته نوع من المرض. الإنسان السالم له وجه واحد فقط، وفي ذاته انسجام كامل بين الروح والجسد، لأن الظاهر والباطن، والروح والجسم، يكمل أحدهما الآخر. إذا كان الفرد مؤمناً فالإيمان يتجلى في كل وجوده، وإذا كان منحرفاً فظاهره وباطنه يدلان على انحرافه. وازدواجية الجسم والروح مرض آخر وعلّة إضافية. إنه نوع من التضاد والانفصال في الشخصية الإنسانية: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ».

إقتضت سنة الله في الكون أن يتيسر الطريق لكل سالك، وأن تتوفر سبل التقدم لكل من يجهد أن يضع قدمه على طريق. وبعبارة أخرى: تركيز أعمال الإنسان وأفكاره في خط معين، تدفع هذا الإنسان نحو الانغماس والرسوخ في ذلك الخط «فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا»، والكذب رأس مال المنافقين، يبرزون به ما في حياتهم من تناقضات، وفي ختام الآية إشارة إلى هذه الحقيقة: «وَأَلَّهُمْ عَذَابَ أَلِيمٍ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ».

ثم تستعرض الآيات خصائص المنافقين، وتذكر أولاً أنهم يتشدقون بالإصلاح، بينما هم يتحركون على خط التخريب والفساد: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ».

قَالُوا: إِنَّمَا نَحْنُ مُضِلُّوْنَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ».

ذكرنا سابقاً أنّ الانسان، لوتماذى فى الغى والضلال، يفقد قدرة التشخيص، بل تنقلب لديه الموازين، و يصبح الذنب والاثم جزءاً من طبيعته. والمنافقون أيضاً باصرارهم على انحرافهم يتطبعون بخط النفاق، و تتراعى لهم أعمالهم بالتدريج وكأنها أعمال إصلاحية، ومن هنا جاء التعبير القرآنى: «وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ» ليقرّر هذه الحقيقة.

* * *

علامتهم الاخرى: اعتدادهم بأنفسهم واعتقادهم أنهم ذوا عقل وتدبير، وأن المؤمنين سفهاء وبسطاء: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ، قَالُوا: أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ؟!!».

وهكذا تنقلب المعايير لدى هؤلاء المنحرفين، فيرون الانصياع للحق واتباع الدعوة الالهية سفاهة، بينما يرون شيطنتهم و تذبذبهم تعقلاً و دراية!! غير أن الحقيقة عكس ما يرون: «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ».

أليس من السفاهة أن لا يضع الانسان لحياته خطأ معيناً، و يبقى يتلون بألوان مختلفة؟! أليس من السفاهة أن يضيع الانسان وحدة شخصيته، و يتجه نحو ازدواجية الشخصية و تعدد الشخصيات في ذاته، و يهدر بذلك طاقاته على طريق التذبذب و التآمر و التخريب، و هو مع ذلك يعتقد برجاحة عقله؟!

* * *

العلامة الثالثة لهؤلاء، هي تلونهم بألوان معينة تبعاً لما تفرضه عليهم مصالحهم، فهم انتهازيون يظهرن للولاء للمؤمنين ولأعدائهم من الشياطين: «وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا: إِنَّا مَعَكُمْ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ»!.

يؤكدون لشياطينهم أنهم معهم، وأن ولاءهم للمؤمنين ظاهري، هدفه الاستهزاء.

و بلهجة قوية حاسمة يردّ القرآن الكريم على هؤلاء و يقول: «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ

يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ»^١.

(١) يعمهون، من «العمه» أي التردد في الامر، و أيضاً بمعنى عمى القلب والبصيرة بسبب التحير (راجع:

الآية الاخيرة توّضح المصير الاسود المظلم لهؤلاء المنافقين، وخسارتهم في مسيرتهم الحياتية الضالة: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ».

وقفات

١- ظهور النفاق وأسبابه

حينما تندلع الثورة في منطقة معينة، فان مصالح الفئة الظالمة الناهبة المستبدة تتعرض للخطر حتماً، خاصة إذا كانت الثورة مثل ثورة الاسلام تقوم على أساس الحق والعدالة. هذه الفئة تسعى للاطاحة بالثورة عن طريق السخرية والاستهزاء أولاً، ثم بالاستفادة من القوة المسلحة والضغط الاقتصادية، والتضليل الاجتماعي.

وحيث تبدو في الافق علامات انتصار الثورة، تعتمد فئة من المعارضين الى تغيير مواقفها، فتستسلم ظاهرياً، وتتحول في الواقع الى مجموعة معارضة سرية.

هؤلاء يسمون «منافقين» لانطوائهم على شخصيتين مختلفتين (المنافق مشتقة من النفق: وهو الطريق النافذ في الارض المحفور فيها للاستتار أو الفرار)، وهم أخطر أعداء الثورة، لان مواقفهم غير واضحة، والامة الثائرة لا تستطيع أن تعرفهم و تطردهم من صفوفها، لذلك يتغلغلون في صفوف الناس المخلصين الطيبين، ويتسلمون أحياناً المناصب الحساسة في المجتمع.

ثورة الاسلام في عصرها الاول واجهت مثل هذه المجموعة. فبعد الهجرة المباركة وضعت أول لبنة للدولة الاسلامية في المدينة المنورة، وازداد الكيان الاسلامي الوليد قوة بعد انتصار المسلمين في غزوة «بدر». وهذه الانتصارات عرضت للخطر مصالح زعماء المدينة، وخاصة اليهود منهم، لأن اليهود كانوا يتمتعون في المدينة بمكانة ثقافية واقتصادية مرموقة. وهؤلاء أنفسهم كانوا يبشرون قبل البعثة النبوية المباركة بظهور النبي.

كما كان في المدينة أفراد مرشحون للزعامة والملكية، لكن الهجرة النبوية بددت

آمالهم هؤلاء المتضررون من الدعوة رأوا أن الجماهير تندفع نحو الاسلام، و تنقاد الى النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله) حتى عمّت الدعوة ذويهم و أقاربهم. فانها روا أمام الدين الجديد، ولم يروا بدأً من الاستسلام والتظاهر بالاسلام، تجنباً لمزيد من الاخطار الاقتصادية والاجتماعية وحذراً من الابداء، خاصة وأن قوة العربي تتمثل في قبيلته، والقبائل أسلمت للدين الجديد، لكن هؤلاء راحوا يخططون خفية للاطاحة بالاسلام.

بعبارة موجزة، إن ظاهرة «النفاق» في المجتمع، تعود الى عامل انتصار الثورة وسيطرة الرسالة الثورية على المجتمع، و الى انهزام المعارضين واضطرارهم الى الاستسلام أمام الدعوة.

* * *

٢- ضرورة معرفة المنافقين في كل مجتمع

ظاهرة النفاق والمنافقين لا تختص - دون شك- بعصر الرسالة الاول، بل هي ظاهرة عامة تظهر بشكل وآخر في كل المجتمعات. من هنا لا بد للجماعة المسلمة ان تعرف اوصافهم كما جاء في القرآن، كي تحبط مؤامراتهم وتقف بوجههم. في الآيات السابقة وفي سوره المنافقين وهكذا في النصوص الاسلامية وردت للمنافقين اوصاف مختلفة منها:

١ - كثرة الضجيج والادعاءات الفارغة، أو بعبارة أخرى كثرة القول وقلة العمل المفيد المتزن.

٢ - التلون والتذبذب، فع المؤمنون يقولون «آمننا» ومع المعارضين يقولون «إننا معكم».

٣ - الانفصال عن الامة، وتشكيل الجمعيات السرية وفق خطط مبيتة.

٤ - المكر والخداع والكذب والتلق والنكول والخيانة.

٥ - التعالي على الناس، وتحقيرهم، واعتبارهم بلهاء سفهاء، الى جانب الاعتداد

بالنفس.

على أي حال، إزدواجية الشخصية، والتضاد بين المحتوى الداخلي والسلوك الخارجي في وجود المنافقين، يفرز ظواهر عديدة بارزة مشهودة في أعمالهم وأقوالهم و سلوكهم الفردي والاجتماعي.

وما أجل تعبير القرآن في حق هؤلاء إذ يقول: «(في قلوبهم مَرَضٌ»، و أي مرض أسوأ

من ازدواجية الظاهر والباطن، ومن التعالي على الناس!!!
هذا المرض مثل سائر الامراض، التي تصيب القلب، تظهر علائمه بوضوح على
جميع أعضاء الانسان.

في مجلدات هذا التفسير شرح أوفى لحالة النفاق والمنافقين لدى البحث في الآيات
١٤١- ١٤٣ من سورة النساء (المجلد الرابع).

وفي الآيات ٤٩- ٥٧ من سورة التوبة (المجلد السابع).
وفي الآيات ٦٢- ٨٥ من سورة التوبة أيضاً (المجلد الثامن).

* * *

٣- سعة معنى النفاق

النفاق في مفهومه الخاص - كما ذكرنا - صفة أولئك الذين يظهرون الاسلام، و
يبتنون الكفر. لكن النفاق له معنى عام واسع يشمل كل ازدواجية بين الظاهر والباطن،
وكل افتراق بين القول والعمل. من هنا قد يوجد في قلب المؤمن بعض ما نسميه «خيوط النفاق».

ففي الحديث النبوي: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ
أَنَّهُ مُسْلِمٌ: مَنْ إِذَا اتُّمِّنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ»^١.

الحديث لا يدور هنا طبعاً عن المنافق بالمعنى الخاص، بل عن الذي في قلبه خيوط
من النفاق، تظهر على سلوكه بأشكال مختلفة، وخاصة بشكل رياء، كما جاء في الحديث
عن الامام الصادق (عليه السلام): «الرِّيَاءُ شَجَرَةٌ لَا تُثْمِرُ إِلَّا الشِّرْكَ الخَفِيَّ، وَأَصْلُهَا
التِّفَاقُ»^٢.

وفي نهج البلاغة نصّ رائع في وصف المنافقين عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام)
يقول فيه:^٣

«أَوْصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْذِرْكُمْ أَهْلَ التِّفَاقِ، فَإِنَّهُمْ الضَّالُّونَ

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ٦٠٥.

(٢) سفينة البحار، ج ١، مادة (رئى).

(٣) ننقل نص الخطبة مع هوامشها كما جاءت في نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ص ٣٨١ (م).

الْمُضِلُّونَ، وَالزَّالِيُونَ الْمُرْتُونَ^١، يَتَلَوْنُونَ أَلْوَانًا، وَيَفْتَنُونَ إِفْتِنَانًا^٢، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ، وَيَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ، فُلُوتُهُمْ دَوِيَّةٌ^٣ وَصِيفَاخُهُمْ نَقِيَّةٌ. يَمْشُونَ الْخَفَاءَ^٤، وَيَدِبُونَ الضَّرَاءَ وَضَفُّهُمْ دَوَاءٌ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعِيَاءُ^٥، حَسَدُهُ الرَّخَاءُ^٦، وَمُؤَكِّدُو الْبَلَاءِ، وَمُقْنِطُو الرَّجَاءِ، لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيحٌ^٧ وَالْإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ، وَلِكُلِّ شَجْوَدٍ مَوْعٌ^٨ يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ^٩ وَيَتَرَاقِبُونَ الْجَزَاءَ: إِنْ سَأَلُوا الْحَقُّوْا، وَإِنْ عَدَلُوا كَشَفُوا..»

٤- مؤامرة المنافقين

المنافقون يشكّلون أخطر تجمع معارض، لا على الإسلام فحسب، بل على كل رسالة ثورية تقدمية. هؤلاء ينفذون بين صفوف المسلمين، ويستغلون كل فرصة للتآمر. يتحدّث القرآن عن تآمر هؤلاء في صدر الإسلام ويذكر نماذج من أعمالهم.

(١) الزالون من زلّ أي أخطأ. والمزلون من أزله إذا وقع في الخطأ.

(٢) يفتنون أي يأخذون في فنون من القول لا يذهبون مذهباً واحداً. ويعمدونكم أي يقيمونكم بكل عماد. والعماد: ما يقام عليه البناء. أي إذا ملتم عن أهوائهم أقاموكم عليها بأعمدة من الخديعة حتى توافقوهم. والمرصد محل الإرتقاب. ويرصدونكم: يقعدون لكم بكل طريق ليحوّلوكم عن الإستقامة.

(٣) دويّة أي مريضة من الدوى بالقصر وهو المرض. والصفاح - جمع صفحة -: والمراد منها صفاح وجوههم، ونقاوتها: صفاؤها من علامات العداوة وقلوبهم ملتبة بناراها.

(٤) يمشون مشي التستر. ويدبون: أي يمشون على هيئة ديب الضراء أي يسرون سريان المرض في الجسم أو سريان النقص في الأموال والانسف والثمرات.

(٥) الداء العياء - بالفتح - : الذي اعى الاطباء ولا يمكن منه الشفاء.

(٦) حسدة: جمع حاسد، أي يحسدون على السعة، وإذا نزل بلاء بأحد أكّدوه وزادوه. وإذا رجب أحد شيئاً أوقعوه في القنوط واليأس.

(٧) الصريح: المطروح على الارض، أي إنهم كثيراً ما خدعوا أشخاصاً حتى أوقعوهم في المهلكة.

(٨) الشجوة: الحزن، أي يكون تصنعاً متى أرادوا.

(٩) يتقارضون: كل واحد منهم يثني على الآخر ليثني الآخر عليه، كأن كلاً منهم يسلف الآخر ديناً

ليؤديه إليه، وكل يعمل للآخر عملاً يرتقب جزاءه عليه.

(١٠) ألقوا: بالغوا في السؤال وألحوا. وإن عدلوا أي لاموا كشفوا أي فضحوا من يلومونه.

يذكر مثلاً استهانة هؤلاء بشخصية المؤمنين، وبما يقدمه المؤمنون على قدر طاقتهم من صدقات فيقول: «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (التوبة، ٧٩).

ويتخذون أحياناً في اجتماعاتهم السرية قرارات بشأن قطع مساعدتهم المالية لأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله)، كي يتفرقوا ويتعدوا عن الرسالة والرسول: «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا، وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ» (المنافقون، ٧).

كما يتخذون القرارات باخراج المؤمنين من المدينة: «لَكُنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ» (المنافقون، ٨).

وكانوا يتخلفون عن الجهاد بمبررات مختلفة، و يتركون الرسول في ساعات الشدة. وهم مع ذلك كانوا خائفين من انفضاح أمرهم وانكشاف سرهم. بسبب هذه المواقف العدائية التأميرية ركز القرآن على التنديد بالمنافقين في مواضع عديدة، واحتوت سورة المنافقين عرضاً مفصلاً لوضعهم. كما تضمنت سورة التوبة والحشر وسور أخرى حملات شديدة على المنافقين، وتحدثت ثلاث عشرة آية من سورة البقرة عن صفاتهم وعواقب مكرهم.

* * *

٥- خداع الضمير

المنافقون يشكلون مشكلة كبرى للمسلمين، ذلك لأن المسلمين مكلفون - من جهة - باحتضان كل من يظهر الاسلام وبالامتناع عن تفتيش عقائد الافراد، ومسؤولون - من جهة أخرى - عن الحذر من مؤامرات المنافقين وتحركاتهم المشبوهة التي يستهدفون منها الوقوف بوجه الرسالة، وان اتخذت هذه التحركات صفة إسلامية ظاهرية.

المنافقون يظنون أنهم بعملهم هذا يستطيعون أن يخدعوا المسلمين ويمروا عليهم مؤامراتهم، بينما هؤلاء يخدعون أنفسهم.

التعبير القرآني «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا» يوضح مفهوماً دقيقاً، فكلمة يخادعون تعني الخداع المشترك، وتبين أن هؤلاء المنافقين كانوا يعتقدون - لعمري

بصيرتهم - أنّ النبي خداع توّسل بالدين والنبوة وجمع حوله السّدج من الناس ليكون له حكم وسلطان، ومن هنا راح المنافقون يتوسلون بخدعة لمقابلة خدعة النبي! فالتعبير القرآني المذكور يوضّح إذن لجوء المنافقين الى الخدعة، ويبين كذلك نظرة هؤلاء الخاطئة الى النبي الاعظم (ص).

ثم ترد الآية الكريمة على هؤلاء وتقول: «وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ»، فالفعل «يخدعون» يوضّح أنّ الخداع من جانب المنافقين فقط، وتؤكد الآية أيضاً أنّهم يخدعون أنفسهم دون أن يشعروا، لأنهم يبددون بأفعالهم هذه طاقاتهم العظيمة على طريق الإنحراف، و يجرمون أنفسهم من السعادة التي رسم الله طريقها لهم، و يغادرون الدنيا وهم صفرا ليدين من كل خير، مثقلون بأنواع الذنوب والآثام.

لا يمكن لأحد أن يخدع الله طبعاً لانه سبحانه عالم بالجهر وما يخفى، و تعبیر «يخدعون الله» إما أن يكون المقصود به يخادعون الرسول والمؤمنين، لان من يخدع الرسول والمؤمنين فكانه خدع الله (في القرآن مواضع كثيرة عظم فيها الله رسوله والمؤمنين إذ قرن اسمهم باسمه). وإما أن يكون نقص العقل وسوء الفهم قد بلغ بالمنافقين حدّاً تصور وامعه أنهم قادرون على أن يخفوا على الله شيئاً من أعمالهم (شبيه ذلك ورد في آيات أخرى من كتاب الله العزيز).

على أي حال، الآية المذكورة تشير بوضوح الى حقيقة خداع الضمير والوجدان، وان الانسان المنحرف الملوّث كثيراً ما يعمد الى خداع نفسه ووجدانه للتخلص من تأنيب الضمير، و يصبح بالتدريج مقتنعاً بأن قبائحه ليست عملاً انحرافياً، بل هي أعمال إصلاحية «إِنَّمَا نَحْنُ مُضِلِّحُونَ»، وبذلك يخدعون أنفسهم ويستمرّون في غيهم.

ذكر أنّ أحد القادة الامريكيين وجّه اليه سؤال حول سبب القاء القنبلة الذرية على مدينتي (هيروشيما وناكازاكي) اليابانيتين ممّا أدّى الى مقتل مائة الف انسان برئ أو إصابتهم بالعاهات، فقال: نحن فعلنا ذلك من أجل السلام! ولولم نفع ذلك لطالت الحرب أكثر ولذهب ضحيتها عدد أكبر من القتلى!!

المنافقون في كل عصر وفي عصرنا هذا، يتشبثون بمثل هذه الاقاويل لخداع الناس وخداع أنفسهم، فهذا الزعيم الامريكي يضع أمامه طريقين فقط هما: استمرار

الحرب أو القصف الذري للمدن الآمنة، متناسيا طريقاً ثالثاً وهو الكف عن الاعتداء على الشعوب وعلى ثرواتهم! و مما تقدم يتضح أن-النفاق وسيلة لخداع الضمير وشلّ مفعوله، وما أخطر عملية شل الضمير الانساني، الذي يعتبر الواعظ الداخلي والرقيب اليقظ الامين والمندوب الاهلي في نفس الانسان!!

* * *

٦-التجارة الخاسرة

شبه القرآن الكريم في مواضع عديدة عمل الانسان في الحياة الدنيا بالتجارة. ونحن في الحياة الدنيا تجار نأتي الى هذا المتجر الكبير برأس مال وهبه لنا الله سبحانه، وعناصره العقل والفترة والعواطف والطاقات الجسمية المختلفة ومواهب عالم الطبيعة، ثم قيادة الانبياء. جمع يربحون ويفوزون ويسعدون، وجمع لا يجنون رجماً، بل أكثر من ذلك يفقدون رأس مالهم، ويفلسون بكل ما لهذه الكلمة من معنى. المجاهدون في سبيل الله من أفراد الجمع الأول، ويقول عنهم الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ» (الصف، ١٠٩).

والمنافقون من أبرز نماذج الجمع الثاني، فبعد أن يذكر القرآن أعمالهم التخريبية المتلبسة بظاهر الاصلاح والتعقل يقول عنهم: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ».

كان بمقدور هؤلاء أن ينتخبوا أفضل طريق لحياتهم لانهم كانوا يعيشون الى جانب ينبوع الوحي الصافي وفي جو مفعم بالصدق والاخلاص والايان. لكنهم فوّتوا على أنفسهم هذه الفرصة الفريدة العظيمة، وأضاعوا ما وهبهم الله من هداية فطرية في ذواتهم، ومن هداية تشريعية في إطار نور الوحي، واشتروا الضلالة وسلكوا طريقاً خالوا أنهم يستطيعون به أن يقضوا على الدعوة ويصلوا الى مآربهم الحبيثة.

- وكان في هذه المقايضة الخاطئة خسارتان:

الاولى، ضياع ثرواتهم المادية والمعنوية. والثانية، فشلهم في تحقيق أهدافهم المشؤمة. فالاسلام سرعان ما ضرب بجرانه في أرجاء الارض وانفضحت خطط المنافقين.

الآيات

- ١٧ - «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ».
- ١٨ - «صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَعْمٌ لَا يَرْجِعُونَ».
- ١٩ - «أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ».
- ٢٠ - «يَكَادُ الْبَرْقُ يُخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

التفسير

مثالان رائعان لوصف حالة المنافقين

بعد أن بين القرآن صفات المنافقين وخصائصهم، يقدم مثالين متحركين لتجسيم

وضعهم:

١ - «مَثَلُهُمْ» المنافقين «كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا» في ليلة مظلمة، كي يهتدى بها الى طريق و يبلغ مقصده. «فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ».

لقد ظنّ هؤلاء أنهم قادرون على أن يحققوا أهدافهم بما لديهم من إمكانيات إنارة

محدودة.

لكن نارهم سرعان ما انطفأت بسبب عوامل جوّية، أو بسبب نفاد الوقود،

وظلّوا حائرين لا يهتدون سبيلا.

ثم تضيف الآية الكريمة أن هؤلاء فقدوا كل وسائل فهم الحقائق: «صُمُّ بُكْمٌ

عُمَى فَهَمْ لَا يَرْجِعُونَ».

والمثال المذكور يصور بدقة عمل المنافقين على ساحة الحياة الانسانية. فهذه الحياة مملوءة بطرق الإنحراف والضلال، وليس فيها سوى طريق مستقيم واحد للهداية، وهذا الطريق مليء بالمزالق والأعاصير. ولا يستطيع الفرد أن يهتدي من بين الطرق المتلوية الى الصراط المستقيم، كما لا يستطيع أن يتجنب المزالق ويقاوم أمام الاعاصير، إلا بنور العقل والايان، وبمصباح الوحي الوهاج.

وهل تستطيع الشعلة المحدودة الموقته التي يضيئها الانسان، أن تهدي الكائن البشري في هذا الطريق الشائك الطويل؟!

هؤلاء الذين سلكوا طريق النفاق، ظنوا أنهم قادرون بذلك أن يحافظوا على مكانتهم ومصالحهم لدى المؤمنين والكافرين. وأن ينضموا الى الفئة الغالبة بعد نهاية المعركة. كانوا يخالون أن عملهم هذا ذكاء وحنكة. وأرادوا أن يستفيدوا من هذا الذكاء وهذه الحنكة، كضوء يشق لهم طريق الحياة ويوصلهم الى مآربهم. لكن الله سبحانه ذهب بنورهم وفضحهم، إذ قال لرسوله: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنافِقُونَ قَالُوا: نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكَاذِبُونَ» (المنافقون، ٢١).

والقرآن الكريم يفضح المنافقين لدى الكافرين أيضاً، ويبين كذبهم ونكولهم إذ يقول: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ، وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ أَلْدُبَارَتَهُمْ لَا يُنصَرُونَ» (الحشر، ١١ و١٢).

جدير بالذكر أن القرآن استعمل عبارة «اسْتَوْقَدْنَا ناراً» أي إنهم استفادوا للانارة من «النار» ذات الدخان والرماد والحريق، بينما يستنير المؤمنون بنور الايمان الخالص وبضوئه الساطع.

باطن المنافقين ينطوي على النار، وان تظاهروا بنور الايمان. وإذا كان ثمة نور فهو ضعيف في قوته وقصير في مدته.

هذا النور الضعيف الموقت، إما أن يكون إشارة إلى نور الضمير والفطرة التوحيدية،

أو إشارة إلى إيمان سابق لهؤلاء المنافقين، أسدلت عليه ستائر مظلمة على أثر التقليد الأعمى والتعصب المقيت واللجاج والعداء، فتحولت ساحة حياتهم لا إلى ظلمة، بل إلى «ظلمات» في التعبير القرآني.

وهؤلاء سيفقدون في النهاية قدرة الرؤية الصحيحة والاستماع الصحيح والنطق الصحيح، وهذه نتيجة طبيعية - كما ذكرنا سابقاً - للاستمرار على الإنحراف والإصرار على الغي.

على أي حال هذا التشبيه يوضح واحدة من حقائق النفاق، وهي إن عمر النفاق والتذبذب لا يدوم طويلاً. قد يستطيع المنافقون لمدة قصيرة أن يتمتعوا بمصونية الإسلام والإيمان، وبصداقة الكفار سراً. لكن هذه الحالة مثل شعلة ضعيفة معرضة لانوار العواصف، سرعان ما تنطفئ، ويظهر الوجه الحقيقي للمنافقين، ويظنون منفورين مطرودين حائرين، مثل انسان يتخبط في ظلام دامس.

لابد من الإشارة الى ما ورد في تفسير الآية الكريمة: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا» (يونس، ٥).

عن الامام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) قال: «أَضَاءَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) كَمَا تَضِيءُ الشَّمْسُ، فَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلُ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) الشَّمْسَ وَمَثَلُ الْوَصِيِّ الْقَمَرَ»^١.

وهذا يعني أن نور الايمان والوحي يغمر العالم كله. ولا يمتلك منه المنافقون شيئاً.

في المثال الثاني صور القرآن حياة المنافقين بشكل ليلة ظلماء مخوفة خطيرة، يهطل فيها مطر غزير، وينطلق من كل ناحية منها نور يكاد يخطف الابصار، ويملأ الجو بصوت مهيب مرعب يكاد يمزق الآذان. وفي هذا الجو تمشي مجموعة مسافرة في واد فسيح لا ملجأ فيه ولا ملاذ، لا تستطيع أن تحتمي من المطر الغزير ولا من الرعد والبرق، ولا تهتدي

الى طريق لشدّة الظلام. هذه الصورة يرسمها القرآن على النحو التالي: «أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يُخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا».

هؤلاء يحسون كل لحظة بخطر، لانهم يطوون صحراء لاجبال فيها ولا أشجار تحميهم من خطر الرعد والبرق والصواعق. ونحن نعلم أن خطر الصاعقة يتجه الى كل ارتفاع على الارض. لكن الارض التي يسير عليها هؤلاء خالية من أي ارتفاع سوى مرتفع أجسامهم، ومن هنا فخطر الصاعقة يهددهم كل أن بتحويلهم إلى رماد!

(أهمية هذا المثال تتضح لدى أهل الحجاز- حيث الصحارى المنبسطة- أكثر من وضوحها لدى أهالي المناطق الجبلية).

نعم، هؤلاء حيارى مضطربون، لا يجدون طريقا يسلكونه، ولا دليلاً يهتدون به. خطر صوت الرعد يهدد أسماعهم، ونور البرق يكاد يذهب بأبصارهم «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَدَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

المنافقون مثل هؤلاء المسافرين، يعيشون بين المؤمنين المتزايدين المتدققين كالسيل الهادر وكالمطر الغزير، لكنهم لم يتخذوا لهم ملجأً آمناً يقيمهم من شر صاعقة العقاب الالهي.

نهوض المسلمين بواجبهم الجهادي المسلح بوجه أعداء الاسلام، يشكل صواعق وحملاً تنزل على رؤوس المنافقين. وتسبح أحياناً هؤلاء المنافقين فرصة للهداية واليقظة، لكن هذه الفرصة لا تلبث طويلاً، اذ تمرّ كما يمرّ نور البرق، ويعود الظلام يطبق عليهم، و يعودون الى ضلالهم وحيرتهم.

إنتشار الاسلام بسرعة كالبرق الخاطف قد أذهلهم. وآيات القرآن التي تفضح أسرارهم صعقتهم، وفي كل لحظة يحتملون أن تنزل آية تكشف عن مكائدهم ونواياهم. وهذا ما تعبّر عنه الآية الكريمة: «يَخَذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَخَذَرُونَ» (التوبة، ٦٤).

والمنافقون خائفون أيضاً أن يأذن الله بمحاربتهم، وأن يحث القوة الاسلامية

المتصاعدة على مجابتهم، لانهم كانوا يواجهون مثل هذه التهديدات القرآنية، كقوله تعالى: «لَنْ لَمْ يَنْتَه الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا. مَلْعُونِينَ أَيْنَ مَا تُقْفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا» (الاحزاب، ٦٠-٦١).

مثل هذه الآيات كانت تنزل كالرعد والبرق على المنافقين، وتركهم في خوف وذعر وحيرة في المدينة، وتضعهم أمام خطر الإبادة أو الإخراج من المدينة كل حين.

هذه الآيات - وإن كانت تتحدث عن المنافقين في عصر نزول الوحي - تمتد لتشمل كل المنافقين في التاريخ، لان خطّ النفاق يقف دوماً بوجه الخط الثوري الصادق الصحيح. ونحن نرى بأعيننا اليوم مدى انطباق ما يقوله القرآن على منافقي عصرنا بدقة. نرى حيرتهم وخوفهم واضطرابهم، ونرى تعاستهم وبؤسهم وانفضاحهم تماماً مثل تلك المجموعة المسافرة الهائمة في صحراء مقفرة وفي ليلة ظلماء موحشة.

أما بشأن الفرق بين المثالين فثمة تفسيران:

الأول: إن قوله تعالى: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي...» يصور حالة المنافقين الذين انخرطوا في صفوف المؤمنين عن اعتقاد حقيقي، ثم ترزعزعوا واتجهوا نحو النفاق. أما قوله: «كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ...» فيمثل حالة المنافقين الذين كانوا منذ البداية في صف النفاق، ولم يؤمنوا بالله قط.

الثاني: أن المثال الاول يتحدث عن حال الافراد، و لذلك يقول: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ...» والثاني يجسد وضع الاجواء الخيفة المرعبة الخطرة التي تحرق هؤلاء المنافقين، ومن هنا جاء التشبيه بالحو المظلم المطر المليء بالخوف والذعر والاضطراب.

الآيتان

- ٢١ - «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»
- ٢٢ - «الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ»

التفسير

فيما سبق من آيات بين الله سبحانه حال ثلاث مجموعات هي: مجموعة المتقين، ومجموعة الكافرين، ومجموعة المنافقين، فالمتقون هم المشمولون بالهداية الالهية، والمنافقون هم الذين طبع الله على قلوبهم، والمنافقون هم المرضى الذين زادهم الله مرضاً، وفقدوا قدرة التشخيص نتيجة أعمالهم.

أما الآيات المذكورة فدعت الناس الى انتخاب طريق المجموعة الاولى، والى عبادة الله الواحد الاحد.

* * *

- وفي الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» عدة ملاحظات نشير اليها فيما يلي:
- ١ - قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» تكرر في القرآن عشرين مرة تقريباً، وهو نداء عام شامل يشير الى أن القرآن لا يختص بعنصر أو قبيلة أو طائفة أو فئة خاصة، بل يوجه دعوته الى البشرية عامة لعبادة الله، وللثورة على كل الوان الشرك والانحراف عن طريق التوحيد.
 - ٢ - يركز القرآن، في دعوته الى عبادة الله والى شكرالله، على نعمة خلق البشر.

وهي نعمة تتجلى فيها قدرة الله كما يتجلى فيها علم الله وحكمته و كذلك رحمته العامة والخاصة. لان الموجود البشري سيدالموجودات، ومظهر علم الله وقدرته اللامتناهية ونعمه الكثيرة الواسعة.

أولئك الذين يستنكفون عن عبادة الله والخضوع له، غافلون غالباً عن العظمة المنطوية في خلقهم وخلق الذين من قبلهم، وعن اليد المدبرة المقدرة التي أوجدت هذاالخلق، وادعت فيه النعم الدقيقة المدروسة المتجلية في جسم الانسان وروحه. فالتذكير بهذه النعم دليل لمعرفة الله، ومحرك للشكر على هذه النعم.

٣ - نتيجة هذه العبادة هي التقوى: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» فعباداتنا لا تزيدالله عظمة وجلالاً، كما أن إعراضنا عن العبادة لا ينقص من عظمة الله شيئاً. هذه العبادات مدرسة لتعليم التقوى، والتقوى هي الإحساس الداخلي والإندفاع الذاتي، وهي معيار قيمة الإنسان وميزان تقيم شخصيته.

٤ - عبارة: «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» لعلها ردّ على استدلال المشركين الذين برروا عبادتهم للأصنام بتمسكهم بسنة آبائهم. والآية الكريمة تشير بهذه العبارة الى أن الله الواحد الاحد، خالق البشر وخالق آبائهم، وكل شرك يعترى المسيرة البشرية في حاضرها و سالفها هو إنحراف عن الخط الصحيح.

* * *

نعم الارض والساء

الآية التالية استعرضت قسماً آخر من النعم الالهية التي تستحق الشكر، ذكرت أولاً خلق الارض: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا».

فهذه الكرة السائرة بسرعة مذهلة في الفضاء، قد سخرت للانسان كي يمتطيها و يستقر عليها دون أن تؤثر عليه حركتها.

وتتجلى عظمة نعمة الارض أكثر حين نلاحظ خاصية الجاذبية التي تؤمن لنا امكانية الإستقرار وانشاء الإبنية والمزارع، وسائر مستلزمات الحياة على هذه الارض. فلو انعدمت هذه الخاصية لحظة واحدة لتناثر- كل ما يقوم على هذه الارض من انسان وحيوان ونبات - في الفضاء!

تعبير «فِراش» يصوّر بشكل رائع مفهوم الإستقرار والإستراحة، كما يصوّر إضافة الى ذلك مفهوم الإعتدال والتناسب في الحرارة. هذه الحقيقة يعبر عنها الامام علي بن الحسين (عليه السلام) مفسرا هذه الآية إذ يقول:

(جَعَلَهَا مُلَائِمَةً لِطِبَاعِكُمْ، مُوَافِقَةً لِأَجْسَادِكُمْ وَلَمْ يَجْعَلْهَا شَدِيدَةً الْحَمَاءِ وَالْحَرَارَةِ فَتَحْرِقَكُمْ، وَلَا شَدِيدَةً الْبُرُودَةِ فَتُجَمِّدَكُمْ، وَلَا شَدِيدَةً طِيبِ الرِّيحِ فَتَصْدَعَّ هَامَاتِكُمْ، وَلَا شَدِيدَةً النَّتَنِ فَتُعْطِبَكُمْ، وَلَا شَدِيدَةً اللَّيْنِ كَالْمَاءِ فَتُغْرِقَكُمْ، وَلَا شَدِيدَةً الصَّلَابَةِ فَتَمْتِنِعَ عَلَيْكُمْ فِي دُورِكُمْ وَأَبْنِيَّتِكُمْ وَقُبُورِ مَوْتِكُمْ... فَلِذَلِكَ جَعَلَ الْأَرْضَ فِرَاشًا لَكُمْ!)^١.

ثم تتعرض الآية الى نعمة السماء فتقول: «وَالسَّمَاءَ بِنَاءً». كلمة «سَمَاء» وردت في القرآن بمعان مختلفة، وكلها تشير الى العلو، واقتران كلمة «سَمَاء» مع «بِنَاء» يوحي بوجود سقف يعلو البشر على ظهر هذه الارض. بل إن القرآن صرّح بكلمة «سَقْف» في بيان حال السماء إذ قال: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا» (الانبياء، ٣٢).

لعل هذا التعبير القرآني يشير الى استغراب اولئك الذين يفهمون موقع الارض في الفضاء، فيتساءلون عن هذا السقف.. عن مكانه وكيفيته. ولعل هذا التعبير يعيد - بادبي الرأي - الى الأذهان فرضية بطليموس التي تصور الكون على أنه طبقات من الأفلاك متراكمة بعضها فوق بعض مثل طبقات قشور البصل!! من هنا لابدّ من توضيح لمفهوم السماء والبناء والسقف في التعبيرات القرآنية.

ذكرنا أن سماء كل شئى أعلاه، واحد معاني السماء «جَوّ الأَرْض»، وهو المقصود في الآية الكريمة. وجوّ الارض هو الطبقة الهوائية المكثفة المحيطة بالكرة الأرضية، و يبلغ سمكها عدة مئات من الكيلومترات.

لوأمعنا النظر في الدور الحياتي الاساس الذي تؤديه هذه الطبقة الهوائية لفهمنا مدى إستحكام هذا السقف وأهميته لصيانة البشر.

هذه الطبقة الهوائية مثل سقف شفاف يحيط بكرتنا الأرضية من كل جانب، و قدرة إستحكامه تفوق قدرة أضخم السدود الفولاذية، على الرغم من أنه لا يمنع وصول أشعة الشمس الحيوية الحياتية الى الارض!

لوم يكن هذاالسقف لتعرضت الارض دوماً الى رشق الشهب والنيازك السماوية المتناثرة، ولما كان للبشر أمان ولا استقرار على ظهر هذا الكوكب وهذه الطبقة الهوائية التي يبلغ سمكها عدة مئات من الكيلومترات^١ تعمل على إبادة كل الصخور المتجهة الى الكرة الأرضية، وقليل جدا من هذه الصخور تستطيع أن تحترق هذاالحاجز وتصل الارض لتنذر أهل الارض دون أن تعكّر صفوح حياتهم.

من الشواهد الدالة على أن أحد معاني السماء هو «جوالارض» حديث عن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) يتحدث فيه الى «المفضّل» عن السماء فيقول:

«فَكَرَّ فِي لَوْنِ السَّمَاءِ وَمَا فِيهِ مِنْ صَوَابِ التَّدْبِيرِ فَإِنَّ هَذَا اللَّوْنَ أَشَدُّ الْأَلْوَانِ مُوَافِقَةً لِلْبَصْرِ وَتَقْوِيَةً...»^٢.

ومن الواضح أن زرقة السماء ليست الآ لون الهواء الكثيف المحيط بالارض. ولهذا فان المقصود بالسماء في هذاالحديث هو جوالارض نفسه.

واضيفت كلمة الجوّ الى السماء في قوله تعالى: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ» (النحل، ٧٩).

وحول معاني السماء الاخرى تحدثنا بشكل أوفى في ذيل الآية ٢٩ من هذه السورة. بعد ذلك تطرقت الآية الى نعمة المطر: «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً.. ماءً يحيى الارض و يخرج منها الثمرات.

عبارة «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» تؤكد مرة أخرى أن المقصود من «السماء»

(١) تذكر كثير من الكتب أن سمك الجوّ المحيط بالارض، يبلغ مائة كيلومتر، ويبدو أن المقصود بهذاالسمك هو الطبقة الجوية الكثيفة، لان العلم الحديث أثبت أن الهواء موجود بشكل رقيق متباعد الجزئيات على بعد مئات الكيلومترات..

(٢) بحار الانوار، ط الجديد ج ٣ ص ١١١.

هنا هو جوالارض، لاننا نعلم أن المطر ينزل من الغيوم، والغيوم بخار متناثر في جوالارض. الامام علي بن الحسين (عليه السلام) يتحدث عن نزول المطر في تفسير هذه الآية فيقول: (يُنزِلُهُ مِنْ أَعْلَى لِيَبْلُغَ قَلْلَ جِبَالِكُمْ وَتَلَالِكُمْ وَهَضَابِكُمْ وَأَوْهَادِكُمْ، ثُمَّ قَرَقَهُ رِذَاذًا وَوَابِلًا وَهَطَلًا لِيَتَنَشَّفَهُ أَرْضُوكُمْ، وَلَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ الْمَطَرَ نَازِلًا عَلَيْكُمْ قِطْعَةً وَاحِدَةً فَيَفْسِدَ أَرْضِيكُمْ وَأَشْجَارَكُمْ وَزُرُوعَكُمْ وَثِمَارَكُمْ).^١

ثم تشير الآية الى نعمة الثمرات التي تخرج من بركة الامطار لتكون رزقا لبني البشر «فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ».

واخراج الثمرات مدعاة للشكر على رحمة رب العالمين لعباده، ومدعاة للاذعان بقدره رب العالمين في اخراج ثمر مختلف ألوانه، من ماء عديم اللون، ليكون قوتا للانسان والحيوان، لذلك عطف عليها قوله تعالى: «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

فهذه الانداد المفتعلة وما تعبدون من دون الله، لم يخلقكم ولا خلقوا آباءكم، ولا خلقوا ما ترونه حولكم من مظاهر كونية ونعم موفورة.

و «الانداد» جمع «ند» على وزن ضد، وهو الشبيه والشريك، وواضح أن هذا الشبه قائم في أذهان المشركين وليس أمراً واقعياً.

و بعبارة أدق ند الشيء و نديده - كما يقول الراغب في المفردات - مشاركته في جوهره، وذلك ضرب من المماثلة، أي المماثلة في جوهر الذات.

* * *

وقفه

الشرك في أشكال مختلفة - لا بد من التأكيد على أن الشرك بالله، لا ينحصر باتخاذ الاوثان الحجرية والخشبية آلهة من دون الله كما يفعل الوثنيون، أو القول بان الله ثالث ثلاثة كما تقول النصرارى. بل إن للشرك معنى أوسع وصوراً متنوعة أكثر ضموراً وخفاء. و بشكل عام كل اعتقاد بوجود أشياء لها نفس تأثير الله في الحياة هو نوع من الشرك. وهذا ما يعبر عنه ابن عباس إذ يقول:

(١) تفسير نورالتقلين، ج ١، ص ٤١.

(الانداد) هو الشرك أخفى من ديب النمل على صفاة سوداء في ليلة ظلماء، وهو أن يقول: والله، وحياتك يا فلان، وحياتي!... ويقول: لولا كلبه هذا لاتانا للصوص البارحة!... وقول الرجل لصاحبه: ماشاء الله وشئت... هذا كله به شرك^١.

مثل هذه التعابير التي يشتم منها رائحة الشرك رائجة - مع الاسف - بين المسلمين. عن الامام جعفر بن محمد الصادق في تفسير قوله تعالى: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» (يوسف، ١٠٦) قال:

«قَوْلُ الرَّجُلِ لَوْلَا فُلَانٌ هَلَكْتُ، وَلَوْلَا فُلَانٌ لَأَصَبْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَوْلَا فُلَانٌ لَصَنَعَ

عِيَالِي»^٢.

* * *

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ١، ص ٥٣.

(٢) سفينة البحار، ج ١، ص ٦٩٧.

الآيتان

٢٣ - «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
وَادْعُوا شُهَدَاءَ كُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»
٢٤ - «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ»

التفسير

القرآن معجزة خالدة

ظاهرة الكفر والنفاق، التي دارت حولها موضوعات الآيات السابقة، تنشأ أحيانا عن عدم فهم محتوى النبوة ومعجزة الرسول (صلى الله عليه وآله). والآيات التي نحن بصددنا تعالج هذه المسألة وتركز على المعجزة القرآنية الخالدة كي تزيل كل شك وترديد في رسالة نبي الاسلام (صلى الله عليه وآله). تقول الآية:

«وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ»^١.

وبهذا الشكل تحدى القرآن كل المنكرين أن يأتوا بسورة من مثله.

كي يكون عجزهم دليلاً واضحاً على أصالة هذا الوحي السماوي وعلى الجانب الالهي للرسالة والدعوة.

ولاجل أن يؤكد هذا التحدي يدعوهم أن لا يقوموا بهذا العمل منفردين بل «وَادْعُوا شُهَدَاءَ كُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

(١) ذهب بعض المفسرين الى أن الضمير في (مثله) يعود على النبي كما يعود الضمير في (عبدنا) عليه أيضاً. ويصبح المعنى حينئذ: لو كنتم في شك من الوحي فأتوا بشخص أمتي مثل محمد يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن. لكن هذا الاحتمال بعيد، إذ ورد في موضع آخر: (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ) الطور، ٣٤، وفي موضع آخر أيضاً. (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) يونس، ٣٨، وهذه دلالة على أن الضمير في (مثله) يعود على القرآن.

كلمة «شهداء» تشير الى الفئة التي كانت تساعدهم في رفض رسالة النبي (صلى الله عليه وآله)، وعبارة «مِنْ دُونِ اللَّهِ» اشارة الى عجز جميع البشرية عن الاتيان بسورة قرآنية ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، والى قدرة الله وحده على ذلك.
و عبارة «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» تستهدف حثهم في هذا التحدي، ومفهوما: لو عجزتم عن هذا العمل فذلك دليل كذبكم، فانهضوا إذن لاثبات ادعائكم.

* * *

طبيعة التحدي تقتضى أن يكون صارخاً الى أبعد حدّ ممكن، وأن يكون محفّزاً للعدو ما أمكن، وعبارة أخرى أن يثير الحميّة فيه، كي يجتد كل طاقاته لعملية المجابهة، حتى إذا فشل وايقن بعجزه علم أنه أمام ظاهرة الهية لا بشرية.

من هنا فسياق الآيات التالية، يركز على عنصر الاثارة ويقول: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» وهذه النار ليست حديث مستقبل، بل هي واقع قائم، فقد «أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ».

جمع من المفسرين قالوا: إن المقصود بالحجارة: الاصنام الحجرية، واستشهدوا لذلك بالآية الكريمة: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» (الانبياء، ٩٨).
جمع آخر قالوا: (الحجارة) اشارة الى صخور معدنية كبريتية تفوق حرارتها حرارة الصخور الاخرى.

وهناك من المفسرين من يعتقد أن المقصود من هذا التعبير، الفات النظر الى شدة حرارة جهنم، أي إن حرارة جهنم وجريقتها يبلغ درجة تشتعل فيها الصخور والاجساد كما يشتعل الوقود.

و يبدو من ظاهر الآيات المذكورة، أن نار جهنم تستعر من داخل الناس والحجارة. ولا يصعب فهم هذه المسألة لو علمنا أن العلم الحديث أثبت أن كل أجسام العالم تنطوي في أعماقها على نار عظيمة (او بعبارة أخرى على طاقة قابلة للتبديل الى نار)، ولا يلزم أن نتصور نار جهنم شبيهة بالنار المشهودة في هذا العالم.

في موضع آخر يقول تعالى: «نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ» (الهمزة، ٦-٧). خلافاً لنيران هذا العالم التي تنفذ من الخارج الى الداخل.

وقفات

١- لماذا يحتاج الانبياء الى المعجزة؟

نعلم أن منصب النبوة أعظم منصب منح الله لخاصة أوليائه. فكل المناصب عادة تمنع صاحبها القدرة للحكم على أبدان الافراد، الآ منصب النبوة، فالنبي يحكم على الاجسام والقلوب في مجتمعه. من هنا كان مقام النبوة لا يبلغه مقام في سموه، ومن هنا أيضاً كان ادعاء النبوات الكاذبة أحظ الناس وأشدّهم انحرافاً.

والناس هنا أمام أمرين إما أن يؤمنوا بدعوات النبوة جميعاً أو أن يرفضوها جميعاً، لو قبلوها جملة لتحولت ساحة الاديان الى فوضى وهرج ومرج. ولو رفضوها جملة لكان عاقبة ذلك الضلال والضيع.

فالدليل على مبدأ البعثة ذاته يفرض إذن أن يكون الانبياء الصادقين مجهزين بالدليل على نبوتهم كي يتميز الصادقون من الكاذبين. أي أن يكونوا مجهزين بالمعجزة الدالة على صدق ادعائهم.

و «المعجزة» - كما هو واضح من لفظها - عمل خارق يأتي به النبي و يعجز عن الاتيان به الاخرون.

على النبي صاحب المعجزة أن يتحدى الناس بمعجزته، وأن يعلن لهم أن معجزته دليل على صدق دعواه.

٢ - القرآن معجزة نبي الاسلام الخالدة

القرآن كتاب يسمو على أفكار البشر، ولم يستطع أحد حتى اليوم أن يأتي بمثله، وهو معجزة سماوية كبرى.

هذا الكتاب الكريم يعتبر - بين معاجز النبي (صلى الله عليه وآله) - أقوى سند حيّ على نبوة الرسول الخاتم لانه معجزة «ناطقة» و «خالدة» و «عالمية» و «معنوية».

معاجز الانبياء السابقين لم تكن ناطقة، أي إنها كانت بحاجة الى وجود النبي لكي يتحدث للناس عن معجزته ويتحداهم بها، ومعاجز النبي الخاتم - عدا القرآن -

هي من هذا اللون. أما القرآن فمعجزة ناطقة. لا يحتاج الى تعريف، يدعو لنفسه بنفسه، يتحدى بنفسه المعارضين ويدينهم ويخرج منتصرا من ساحة التحدى. وهو يتحدى اليوم جميع البشر كما كان يتحداهم في عصر الرسالة. انه دين ومعجزة، انه قانون، ووثيقة تثبت الهية القانون.

٣- الخلود والعالمية

القرآن حطم سدود «الزمان والمكان» وتعالى على الزمان والمكان، لان معاجز الانبياء السابقين - وحتى معاجز النبي الخاتم غيرالقرآن - مسجلة على شريط معين من الزمان، وواقعة في مساحة معينة من المكان، وأمام جمع معدود من الناس، مثل معاجز عيسى (عليه السلام) في حديثه في المهد وفي إحيائه الموتى. وواضح أن الاحداث المرتبة بزمان ومكان معينين تصبح صورتها باهتة كلما ابتعدنا عن ظروفها الزمانية والمكانية. وهذا من خصائص الامور الزمنية.

لكن القرآن لا يرتبط بالزمان والمكان، فهو يطلع علينا اليوم كما طلع على عرب الجاهلية قبل قرون، بل إن مرور الزمن زاد البشرية قدرة في العلم والامكانات، لتستفيد منه اكثر من ذي قبل. ذلك لانه لا يرتبط بزمان أو مكان. وبديهي أن الدين العالمي الخالد بحاجة الى مثل هذه الوثيقة العالمية الخالدة.

أما الصفة «المنوية» للقرآن فنفهمها حين ننظر الى معاجز الانبياء السابقين، ونرى أنها كانت غالبا «جسمية»، مثل: شفاء الامراض الجسمية المستعصية، وتحدث الطفل في المهد... وكانت تتجه نحو تسخير الاعضاء البدنية. أما القرآن، فيسخر القلوب والنفوس، و يبعث فيها الاعجاب والاكبار. إنه يتعامل مع الارواح والافكار والعقول البشرية، وواضح امتياز مثل هذه المعجزة على المعاجز الجسمية.

* * *

٤- هل تحدى القرآن؟

القرآن تحدى البشرية في مواضع عديدة من سوره منها:

١- «قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ

بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا» (الاسراء، ٨٨).

٢ - «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ» (هود، ١٤-١٣).

٣ - «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (يونس، ٣٨).

٤ - الآية الثالثة والعشرين من سورة البقرة التي يدور حولها بحثنا.

القرآن تحدى بصراحة وقوة في هذه الآيات جميع البشرية، وفي هذه الصراحة والقوة دلالة حيّة على حقانيته. ولم يكتف في تحديه بدعوة الناس الى أن يأتوا بمثله، بل حفّزهم وشجعهم على ذلك، وعبارات التحفيز نجدها في قوله تعالى:

«إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.. فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ... قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ... وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ... قُلْ لئنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ.. لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ.. فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ... فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا...».

هذا التحفيز والحثّ والتحفيز لم يصدر ضمن إطار معركة أدبية أو عقائدية، بل ضمن إطار معركة «سياسية» «اقتصادية» «اجتماعية»، ضمن إطار معركة حياة أو موت، يرتبط بمصيرها وجود هذا الكيان الجديد. وعجز المعارضين أمام هذا التحدي الحياتي الصارخ، يبيّن بشكل أوضح أبعاد المعجزة القرآنية.

جدير بالذكر أن تحدي القرآن لا ينحصر بزمان أو مكان، بل ان هذا التحدي قائم حتى يومنا هذا.

٥- هل جيىء بمثله؟

الجواب على هذا السؤال يتضح لو ألقينا نظرة على الظروف والملابسات التي عاصرت نزول القرآن، وعلى تاريخ ما ذكر من محاولات لكتابة ما يشبه القرآن. غير خفى أن الرسالة في عصر النزول وما بعده، واجهت خصوما ألداء من المشركين واليهود والنصارى والمنافقين. وهؤلاء توسلوا بكل ما لديهم من قوة وحيلة للوقوف بوجه الدعوة. حتى إن بعض المنافقين اتصل بامبراطور الروم للتأمر على الاسلام، و

بلغ الامر بهؤلاء المتآمرين أن شيدوا «مسجد ضرار» في المدينة، وحدثت على أثر ذلك وقائع تحدثنا عنها سورة التوبة.

من الطبيعي أن هؤلاء الاعداء الالذاء يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويتحينون كل فرصة للاضرار بالمسلمين. ولو كان هؤلاء قد حصلوا على كتاب يجب على تحدي القرآن، لتهافتوا عليه ونشروه وطبلوا له وزمروا، أو لسعوا في حفظه على الاقل. ولذلك نرى أن التاريخ احتفظ بأسماء أولئك الذين يحتمل احتمالاً ضعيفاً أنهم عارضوا القرآن، مثل:

عبدالله بن المقفع، فقد قيل أنه عارض القرآن بكتابه «الدرة اليتيمة»، بينما لانعثر في هذا الكتاب الموجود بين أيدينا اليوم على إشارة الى هذه المعارضة، ولا نعرف لماذا وجهت التهمة الى ابن المقفع بهذا الكتاب؟

والمتنبي، أحمد بن الحسين الكوفي الشاعر ذكر في زمرة المعارضين واصحاب النبوءات، بينما تؤكد دراسات حياة المتنبي و أدبه، أنه كان ينطلق في شعره غالباً من روح الخيبة في بلوغ المناصب الرفيعة، ومن الحرمان العائلي.

وابوالعلاء المعري، اتهم بهذا أيضاً، ونقلت عنه أشعار تم عن رفضه لبعض مسائل الدين، لكنه لم يرفع صوته يوماً بمعارضة القرآن، بل نقلت عنه عبارات في عظمة كتاب الله العزيز سنشير اليها فيما بعد.

أما مسيلمة الكذاب من أهل اليمن فقد عارض القرآن، وأتى بآيات... أقرب الى الهزل منها الى الجد، ومن ذلك :

١ - ما قاله معارضا سورة «الذاريات»: والمبدرات بذرا والحاصدات حصدا والذاريات قمحا والطاحنات طحنا والعاجناب عجننا والخابزات خبزنا والثاردات ثردنا واللاقيات لقما اهالة وسمنا.^١

٢ - من النماذج الأخرى لآياته: يا ضفدع نقيّ فأنك نعم ما تنقين، لا واردة تنفرين، ولا ماء تكدرين.^٢

(٢) نقلاً عن كتاب «اعجاز القرآن» للخطيب ج ١ ص ٤٨٣.

(١) اعجاز القرآن، الرافي.

٦- شهادات حول القرآن

يجدر بنا أن ننقل جملاً من أقوال المشاهير بشأن القرآن بمن فيهم أولئك الذين اتهموا بمعارضة القرآن:

١- ابوالعلاء المعري (المتهم بمعارضة القرآن) يقول:

واجمع ملحد ومهتد ان هذا الكتاب الذي جاء به محمد كتاب بهر بالاعجاز، ولقي عدوه بالارجاز، ما حذى على مثال، ولا اشبهه غريب الامثال، ... ما هو من القصيد الموزون، ولا الرجز، ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة، وجاء كالشمس، لو فهمه الهضب لتصدع، وان الآية منه او بعض الآية لتعرض في افصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق، والظهرة البادية في جدوب.^١

٢ - الوليد بن المغيرة المخزومي - وهو رجل عرف بين عرب الجاهلية بكياسته وحسن تدبيره، ولذلك سمي «ريحانة قريش»، سمع آيات من سورة «غافر» فرجع الى قوم من بني مخزوم فقال لهم:

«والله لقد سمعت من محمد أنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن، وان له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وان أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وانه ليعلو وما يعلى عليه»^٢.

٣ - العالم المؤرخ البريطاني «كارليل» يقول حول القرآن: «لو القينا نظرة على هذا الكتاب المقدس لرأينا الحقائق الكبيرة، وخصائص اسرار الوجود، مطروحة بشكل ناضج في مضامينه، مما يبين بوضوح عظمة القرآن. وهذه الميزة الكبرى خاصة بالقرآن، ولا توجد في أي كتاب علمي وسياسي واقتصادي آخر. نعم، قراءة بعض الكتب تترك تأثيراً عميقاً في ذهن الانسان، ولكن هذا التأثير لا يمكن مقارنته بتأثير القرآن. من هنا

(١) رسالة الغفران ص ٢٦٣.

(٢) مجمع البيان، ج ١٠، سورة المدثر.

ينبغي أن نقول: المزايا الأساسية للقرآن، ترتبط بما فيه من حقائق وعواطف طاهرة، ومسائل كبيرة، ومضامين هامة لا يعترها شك وترديد. و ينطوي هذا الكتاب على كل الفضائل اللازمة لتحقيق تكامل البشرية وسعادتها»^١.

٤- جان ديفن بورت مؤلف كتاب: «الاعتذار الى محمد والقرآن».

يقول: «القرآن بعيد للغاية عن كل نقص، بحيث لا يحتاج الى أدنى إصلاح أو تصحيح، وقد يقرؤه شخص من أوله الى آخره دون أن يحس بأي ملل»^٢. ويقول: «لاخلاف في أن القرآن نزل بأبلغ لسان وافصح، وبلهجة قريش اكثر العرب أصالة وادبا... وملئى بأبلغ التشبيهات واروعها»^٣.

٥- غورة الشاعر الالماني يقول: «قد يحس قراء القرآن للوهلة الاولى بثقل في العبارات القرآنية، لكنه ما أن يتدرج حتى يشعر بانجذاب نحو القرآن، ثم اذا توغل فيه ينجذب - دون اختيار- الى جماله الساحر»^٤ وفي موضع آخر يقول: «لسنين طويلة، أبعدنا القساوسة عن فهم حقائق القرآن المقدس وعن عظمة النبي محمد، ولكن كلما خطونا على طريق العلم تنزاح من أمام اعيننا حُجُب الجهل والتعصب المقيت، وقريبا سيلفت هذا الكتاب الفريد أنظار العالم، و يصبح محور أفكار البشرية»!

و يقول كذلك: «كنا معرضين عن القرآن، ولكن هذا الكتاب ألقت أنظارنا،

وحيرنا، حتى جعلنا نخضع لما قدمه من مبادي وقوانين علمية كبرى»!

٦- «ويل ديورانت» المورخ المعروف يقول: «القرآن أوجد في المسلمين عزة نفس

وعدالة وتقوى لانرى لها نظيراً في أية بقعة من بقاع العالم».

٧- والمفكر الفرنسي «جول لابوم» في كتاب «تفصيل الآيات» يقول: «العلم

انتشر في العالم على يد المسلمين، والمسلمون أخذوا العلوم من (القرآن) وهو بحر العلم، و فرّعوا منه أنهارا جرت مياهها في العالم...»

(١) من مقدمة كتاب «التنظيمات الحضارية في الامبراطورية الاسلامية».

(٢) نفس المصدر، ص ١١١.

(٣) نفس المصدر، ص ٩١.

(٤) عن كتاب «الاعتذار الى محمد والقرآن».

٨ - والمستشرق البريطاني دينورت يقول: «يجب أن نعترف أنّ العلوم الطبيعية والفلكية والفلسفة والرياضيات التي شاعت في اوربا، هي بشكل عام من بركات التعاليم القرآنية، ونحن فيها مدينون للمسلمين، بل إن اوربا من هذه الناحية من بلاد الاسلام»^١.

٩ - والدكتورة لورا واكسيا واغليري استاذة جامعة نابولي تقول في كتاب «تقدم الاسلام السريع»: «كتاب الاسلام السماوي نموذج للاعجاز... (القرآن) كتاب لا يمكن تقليده، واسلوبه لا نظير له في الآداب، و التأثير الذي يتركه هذا الاسلوب في روح الانسان ناشئ عن امتيازاته وسموه... كيف يمكن لهذا الكتاب الاعجازي أن يكون من صنع محمد، وهو رجل امي؟!....»

نحن نرى في هذا الكتاب كنوزا من العلوم تفوق كفاءة اكثر الناس ذكاء واكبر الفلاسفة و أقوى رجال السياسة والقانون.

من هنا لا يمكن اعتبار القرآن عمل انسان متعلم عالم»^٢.

* * *

(١) المعجزة الخالدة.

(٢) تقدم الاسلام السريع «نقلًا عن محمد والقرآن...».

الآية

٢٥ - «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنْتُمْ بِهِ مُتَشَابِهَةٌ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

التفسير

خصائص نعم الجنة

آخر آية في بحثنا السابق تحدثت عن مصير الكافرين، وهذه الآية تتحدث عن مصير المؤمنين، كي تتضح الحقيقة أكثر بالمقارنة بين الصورتين، على الطريقة القرآنية في التوضيح.

المقطع الاول في الآية يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات، بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

نعلم أن البساتين التي تفتقد الماء الدائم، وتسقى بين حين وحين ليس لها حظ كبير من النظارة. فالنظارة تطفح على البساتين التي تمتلك ماء سقي دائم مستمر لا ينقطع أبدا. ومثل هذه البساتين لا يعترها جفاف ولا تهددها شحة ماء. وهذه هي بساتين الجنة. وبعد الاشارة الى ثمار الجنة المتنوعة تقول الآية: «كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ».

ذكر المفسرون لهذا المقطع من الآية تفاسير متعددة:

قال بعضهم: المقصود من قولهم «هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ»، هو أن هذه النعم أغدقت علينا بسبب ما أنجزناه من عمل في الحياة الدنيا، وغرشنا بذوره من قبل. وقال بعض آخر: عندما يؤتى بالثمار الى أهل الجنة ثانية، يقولون هذا الذي تناولناه من قبل، ولكنهم حين يأكلون هذه الثمار يجدون فيها طعما جديداً ولذة أخرى.

فالعنب أو التفاح الذي نتناوله في هذه الحياة الدنيا مثلاً له في كل مرة نأكله نفس طعم المرة السابقة، أما ثمار الجنة فلها في كلّ مرّة طعم وإن تشابهت أشكالها، وهذه من امتيازات ذلك العالم الذي يبدو أنه خال من كل تكرار!

وقال آخرون: المقصود من ذلك أنهم حين يرون ثمار الجنة يلقونها بشبهة بثمار هذه الدنيا، ولكنهم حين يتناولونها يجدون فيها طعماً جديداً لذيذاً.

و يجوز أن تكون عبارة الآية متضمنة لكل هذه المفاهيم والتفاسير، لان الفاظ القرآن تنطوي أحيانا على عدة معان.^١

ثم تقول الآية: «وَأَثْوَابَهُ مُمْتَلِئًا»، أي متشابهة في الجودة والجمال. فهذه الثمار بأجمعها فاخرة بحيث لا يمكن ترجيح إحداها على الأخرى: خلافا لثمار هذا العالم المختلفة في درجة النضج والرائحة واللون والطعم.

وأخر نعمة تذكرها الآية هي نعمة «الازواج المطهرة» من كل أدران الروح والقلب والجسد.

أحد منغصات نعم الدنيا زوالها. فصاحب النعمة يقلقه زوال هذه النعمة، ومن هنا فلا تكون هذه النعم عادة باعثة على السعادة والاطمئنان. أما نعم الجنة ففيها السعادة والطمأنينة لأنها خالدة لا يعترها الزوال والفناء. والى هذه الحقيقة تشير الآية في خاتمتها وتقول: «وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»

* * *

وقفات

١- «الايان» و«العمل»

في كثير من الآيات القرآنية يقترن ذكر الايمان بذكر العمل الصالح، حتى كان الاثنان متلازمان دونما افتراق. والحق كذلك، لان الايمان والعمل يكمل بعضهما الآخر. لو نفذ الايمان الى أعماق النفس لتجلت آثاره في الاعمال حتما. مثله كمثل مصباح لو أضاء في غرفة لشع نوره من كل نوافذ الغرفة. ومصباح الايمان كذلك لو شمع في

(١) في بحث «استعمال اللفظ في اكثر من معنى» أثبتنا امكان هذا الامر.

قلب إنسان، لسطع شعاعه من عين ذلك الانسان واذنه ولسانه و يده ورجله.

يقول تعالى في الآية الحادية عشرة من سورة الطلاق: «وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا».

و يقول في الآية الخامسة والخمسين من سورة النور:

«وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ».

فالايمان بمثابة جذر شجرة والعمل الصالح ثمرتها. ووجود الثمر السليم دليل على سلامة الجذر. ووجود الجذر السليم يؤدي الى نمو الثمر الطيب.

من الممكن أن يصدر عمل صالح أحيانا عن أفراد ليس لهم إيمان، ولكن ذلك لا يحدث باستمرار حتما. فالذي يضمن بقاء العمل الصالح هو الايمان المتغلغل في أعماق وجود الانسان، الايمان الذي يضع الانسان دواما أمام مسؤولياته.

* * *

٢- الأزواج المطهرة

كما يلفت النظر في هذه الآية أن الوصف الوحيد الذي استعمله القرآن لمذح الأزواج في جنات النعيم هو انها «مطهرة». وهي اشارة الى أن اول شرط في الزوجة هو «الطهر». وكل ما سواه من الشروط والاصاف ثانوي.

روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) انه قال: «إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا خَضْرَاءُ الدِّمَنِ؟ قَالَ: الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي مَنَبَتِ السُّوءِ»^١.

* * *

٣- النعم المادية والمعنوية في الجنة

ذكر القرآن الكريم أنواع النعم المادية في الجنة مثل: جنات تجري من تحتها الانهار، ومساكن طيبة، وازواج مطهرة، وثمار متنوعة، وخلآن متحابين. ولكنه ذكر الى جانب هذه النعم المادية نعماً أهم منها هي النعم المعنوية التي لا نستطيع أن نفهم عظمتها بمقاييسنا، كقوله: «وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ ظَنِينَهُ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (التوبة، ٧٢).

وفي آية أخرى يقول سبحانه بعد ذكر النعم المادية: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ» (البينة، ٨).

لوبيغ الانسان هذه المرتبة حيث يرضى الله عنه و يرضى عن الله، لأحس بلذة لأ ترقى إليها لذة، وهانت في نظر هذا الانسان سائر اللذات، عندها يرتبط هذا الانسان بالله ولا يفكر بما سواه، وهي مرتبة يعجز القلم واللسان عن وصف سموها وأبعادها. بعبارة موجزة: كما ان للمعاد جانباً روحياً وجانباً جسمىاً، كذلك نعم الجنة ذات جانبين أيضاً، كي تكون جامعة وقابلة لاستفادة أهل الجنة جميعاً، كل على قدر كفاءته و لياقته.

* * *

الآية

٢٦ - «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ».

سبب النزول

ذكر جمع من المفسرين عن ابن عباس أن سبب نزول هذه الآية هو اعتراض المنافقين على ما ورد من أمثلة في الآيات السابقة «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا... أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ...»، وقالوا إن الله أسمى من أن يضرب مثل هذه الأمثال، وبذلك راحوا يشككون في الرسالة وفي القرآن. وفي هذه الظروف نزلت الآية الكريمة المذكورة. قال آخرون: عند نزول الآيات التي تضرب الامثال بالذباب والعنكبوت، بدأ المشركون ينتقدون ويسخرون.

التفسير

هل الله يضرب المثل؟!؟

الفقرة الاولى من الآية تقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا».

ذلك لان المثل يجب أن ينسجم مع المقصود، بعبارة أخرى، المثل وسيلة لتجسيد الحقيقة. حين يقصد المتحدث التحقير، وبيان ضعف الادعاء، فان بلاغة الحديث تستوجب انتخاب موجود ضعيف للتمثيل به، كي يتضح ضعف أولئك.

في الآية ٧٣ من سورة الحج، مثلاً، يقول سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ

وَالْمَطْلُوبُ».

يلاحظ في هذا المثال أن الذباب و أمثاله احسن وسيلة لتجسيد ضعف هؤلاء. وهكذا في الآية ٤١ من سورة العنكبوت، حين يريد القرآن أن يجسد ضعف المشركين في انتخابهم أولياء من دون الله، يشبههم بالعنكبوت التي تتخذ لنفسها بيتا، وهو أضعف البيوت واهونها: «مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

من المؤكد، أن القرآن لو ساق الامثلة في هذه المجالات على الكواكب والسموات لما أدى الغرض في التصغير والتحقير، ولما كانت أمثله متناسبة مع أصول الفصاحة والبلاغة.

الهدف هو إيصال الفكرة، والامثلة يجب أن تتناسب مع موضوع الفكرة، ولذلك فهو سبحانه يضرب الامثلة بالبعوضة فما فوقها.

وما المقصود من «فَمَا فَوْقَهَا»، للمفسرين في هذا ريان:

الاول: «فوقها» في الصغر، لأن المقام مقام بيان صغر المثال. وهذا مستعمل في الحوار اليومي. نسمع مثلاً رجل يقول لآخر: ألا تستحي أن تبذل كل هذا الجهد من أجل دينار واحد؟! فيجيب الآخر، لا، بل أكثر من ذلك أنا مستعد لا بذل هذا الجهد من أجل نصف دينار! فالزيادة هنا في الصغر.

الثاني: «فوقها» في الكبر. أي إن الله يضرب الامثال بالصغير وبالكبير، حسب

مقتضى الحال.

لكن الرأي الاول يبدو أنسب.

ثم تقول الآية: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ».

فهؤلاء، بايمانهم وتقواهم، بعيدون عن اللجاجة والعناد والحقد للحقيقة. و يستطيعون أن يروا الحق بجلاء ويدركوا أمثلة الله بوضوح.

«وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ: مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا».

هؤلاء يعترضون على هذه الامثلة لانها لا تهدي الجميع، ويزعمون أنها لو كانت

من عند الله لاهتدى بها الناس جميعا، ولما أدت الى ضلال أحد!

فيجيبهم الله بعبارة قصيرة تحسم الموقف وتقول: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ». فكل هذه الامثلة من الله، وكلها نور وهداية، لكنها تحتاج الى العين الباصرة التي تستفيد منها، و مخالفة المخالفين تنطلق من نقص فيهم، لا من نقص في الآيات الالهية.^١

* * *

وقفات

١- أهمية المثال في بيان الحقائق

الامثلة المناسبة لها دور حساس عظيم في التوضيح والاقناع والإفهام. المثال المناسب قد يقرب طريق الفهم الى الازدهان بحيث نستعيب به عن الاقتحام في الاستدلالات الفلسفية المعقدة. وأهم من ذلك، نحن لا نستطيع أن نستغني عن الامثلة المناسبة في تعميم ونشر الموضوعات العلمية الصعبة بين عامة الناس. ولا يمكننا أن ننكر دور المثال في إسكات الافراد المعاندين اللجوجين المتعنتين. على كل حال، تشبيه «المعقول» بـ «المحسوس» أحد الطرق المؤثرة في تفهيم المسائل العقلية، على أن يكون المثال - كما قلنا - مناسباً، والآ فهو مفضل وخطر. من هنا نجد في القرآن أمثلة كثيرة رائعة شيقة مؤثرة، ذلك لأنه كتاب لجميع البشر على اختلاف عصورهم ومستوياتهم الكفرية. انه كتاب في غاية الفصاحة والبلاغة.^٢

* * *

(١) جمع من المفسرين قالوا: إن عبارة (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا...) ليس حكاية عن لسان المشركين، بل هو حديث الله. ويكون المعنى بذلك «أن الله يجيب على هؤلاء المعترضين الذين قالوا: (ماذا أراد الله بهذا أمثلاً)؟، و يقول سبحانه: إن الله يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً، ولكن لا يضل الا الفاسقين. (أما التفسير الاول فيبدو أنه أصح)

(٢) حول دور الامثال في حياة البشر، راجع الآية ١٧ من سورة الرعد في المجلد العاشر من هذا التفسير.

٢- لماذا التمثيل بالبعوضة؟

المعادنون اتخذوا من صِغَرِ البعوضة والذبابة ذريعة للاستهزاء بالامثلة القرآنية. لكنهم لو أنصفوا و أمعنوا النظر في هذا الجسم الصغير، لرأوا فيه من عجائب الخلقه وعظيم الصنع والدقة ما يحير العقول والألباب.

يقول الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) بشأن خلقه هذا الحيوان

الصغير:

«انما صرَبَ اللهُ المَثَلِ بِالْبَعُوضَةِ لِأَنَّ البَعُوضَةَ عَلَى صِغَرِ حَجمِها خَلَقَ اللهُ فِيها جَمِيعَ ما خَلَقَ فِي الفِيلِ مَعَ كِبَرِهِ وَزِياذَةَ عُضُوئِها آخِرِينَ فَأَرادَ اللهُ سُبْحانَهُ أَنْ يُنَبِّئَهُ بِذَلِكَ المُؤْمِنِينَ عَلَى لُطْفِ (لَطِيفِ) خَلْقِهِ وَعَجِيبِ صَنعَتِهِ»^١.

يريد الله سبحانه بهذا المثال أن يبين للمؤمنين دقة الصنع في الخلق، التفكير في هذا الموجود الضعيف على الظاهر، والشبيه بالفيل في الواقع، يبين للانسان عظمة الخالق. خرطوم هذا الحيوان الصغير يشبه خرطوم الفيل، أجوف، ذو فتحة دقيقة جدا، وله قوة ماصة تسحب الدم.

منح الله هذا الحيوان قوة هضم و تمثيل و دفع، كما منح أطرافا واذنا و أجنحة تتناسب تماما مع وضع معيشته. هذه الحشرة تتمتع بحساسية تشعر فيها بالخطر بسرعة فائقة و تفرّ عند ما يدهمها عدو بمهارة عجيبة، وهي مع صغرها وضعفها يعجز عن دفعها كبار الحيوانات.

امير المؤمنين علي (عليه السلام) يقول في هذا الصدد: «كَيْفَ وَلَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوانِها مِنْ طَيْرِها وَبَهائِمْها وَما كانَ مِنْ مُراحِها وَسائِمْها، وَأَصنافِ أَسناخِها وَأَجناسِها، وَمُتَبَلِّدَةِ أَمِمْها وَأَكياسِها، عَلَى إِحْداثِ بَعُوضَةٍ ما قَدَرَتْ عَلَى إِحْداثِها، وَلا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبيلِ إِلى إِجْادِها، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقولُها فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتاهَتْ، وَعَجِزَتْ

قَوَاهَا وَتَنَاهَتْ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقِرَّةٌ بِالْعَجْزِ، عَنْ
إِنشَائِهَا مُدْعِنَةً بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا»^١.

٣- هداية الله وإضلاله

ظاهر عبارة الآية المذكورة يوحي بأن الهداية والضلال جريان ومرتبطان بارادة الله. بينما العبارة الاخيرة من الآية توضح أن الهداية والضلال ينطلقان من أعمال الانسان نفسه.

لمزيد من التوضيح نقول: إن أعمال الانسان وتصرفاته لها نتائج وثمار معينة. لو كان العمل صالحا فنتيجته مزيد من التوفيق والهداية في السير نحو الله و مزيد من أداء الاعمال الصالحة. يقول تعالى: «بِأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا» (الانفال، ٢٩).

وإن اتجه الانسان نحو المنكرات، يزداد ظلام قلبه، و تزداد سرعته في ارتكاب المحرمات، وقد يبلغ به الامر الى أن ينكر خالقه، قال تعالى: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّؤَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ» (الروم، ١٠). وقال أيضاً: «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» (الصف، ٥).

والآية التي يدور حولها بحثنا شاهد آخر على ذلك حيث يقول تعالى: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ».

مما تقدم يتضح أن الانسان حُرّ في انتخاب الطريق، وهذه حقيقة يقبلها ضمير كل إنسان. ثم على الانسان بعد ذلك أن ينتظر النتائج الحتمية لأعماله.

بعبارة موجزة: الهداية والضلالة - في المفهوم القرآني - لايعنيان الاجبار على انتخاب الطريق الصحيح أو الخاطي، بل إن الهداية تعني توفر سبل السعادة، والإضلال: يعني زوال الارضية المساعدة للهداية، دون أن يكون هناك إجبار في المسألة.

توفرّ السبل (الذي نسميه التوفيق)، وزوال هذه السبل (الذي نسميه سلب

التوفيق)، هما نتيجة أعمال الانسان نفسه. فلو منح الله فردا توفيق الهداية أو سلب من أحد هذا التوفيق، فانما ذلك نتيجة الاعمال المباشرة لهذا الفرد أو ذاك .

يمكن التمثيل لهذه الحقيقة بمثال بسيط: حين يمر الانسان قرب هاوية خطيرة، فانه يتعرض لخطر الانزلاق والسقوط فيها كلما اقترب منها اكثر.

كما أن احتمال سقوطه في الهاوية يقل كلما ابتعد عنها أكثر الحالة الاولى هداية والثانية ضلال.

من مجموع ما ذكرنا يتضح الجواب على ما يثار من أسئلة في حقل الهداية والضلال.

* * *

٤ - «الفاسقون» هم المنحرفون عن طريق العبودية، لان الفسق في اللغة إخراج النوى من التمر، ثم انتقل الى الخروج عن طريق الله.

* * *

الآية

٢٧ - «الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» .

التفسير

الخاسرون الحقيقيون

هذه الآية الكريمة توضح مواصفات الفاسقين بعد أن تحدثت الآية السابقة عن إضلال هذه الفئة، وتذكر لهم ثلاث صفات:

١ - إنهم «يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ» .

هؤلاء لهم مع الله عهود ومواثيق، مثل عهد التوحيد وعهد الربوبية وعهد عدم اتباع الشيطان وهوى النفس. لكنهم نقضوا كل هذه العهود، وتمردوا على أوامر الله، واتبعوا أهواءهم وما أَرَادَهُ الشَّيْطَانُ لَهُمْ .

طبيعة هذا العهد: يثار سؤال حول العهد المبرم بين الله والانسان، فالعهد عقد ذو جانبيين. وقد يقول قائل: متى أبرمت مع الله عهدا من العهود المذكورة؟

الجواب على هذا السؤال يتضح لو عرفنا أن الله سبحانه أودع في أعماق النفس الانسانية شعوراً خاصاً وقوى خاصة يستطيع بها أن يهتدي الى الطريق الصحيح، و يتجنب مزلق الشيطان و أهواء النفس، و يستجيب لداعي الله.

هذه القوى الفطرية يعبر عنها القرآن بالعهد الالهي، و هو في الحقيقة «عهد تكويني» لا تشريعي أو قانوني. يقول تعالى: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، وَإِنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ»؟! (يس، ٦٠ و٦١). و واضح أن الآية تشير الى فطرة التوحيد والعبودية والميل الى الاتجاه نحو التكامل في النفس الانسانية.

الدليل الآخر على هذا الاتجاه في فهم العهد الالهي، ما جاء في أول خطب نهج البلاغة عن أميرالمؤمنين علي (عليه السلام): حيث قال: «فَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْذِنُوا مِنْهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ».

بتعبير آخر، كل موهبة يمنحها الله للانسان يصحبها عهد طبيعي بين الله والانسان موهبة العين يصحبها عهد يفرض على الانسان أن يرى الحقائق، وموهبة الاذن تنطوي على عهد مدون في ذات الحلقة يفرض الاستماع الى نداء الحق... وبهذا يكون الانسان قد نقض العهد متى ما غفل عن استثمار القوى الفطرية المودعة في نفسه، أو استخدم الطاقات الموهبة له في مسير منحرف.

الفاسقون، ينقضون بعض هذه العهود الفطرية الالهية أو جميعها.

٢ - الصفة الاخرى لهؤلاء الفاسقين هي أنهم «.. يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ

يُوصَلَ».

أكثر المفسرين ذهبوا الى أن القطع المذكور في الآية يعني قطع الرحم. لكن مفهوم الآية - في نظرة أعمق - أعم من ذلك، وما قطع الرحم إلا أحد مصاديقها، لان الآية تتحدث عن قطع الفاسقين، لكل ارتباط أمرالله به أن يوصل، بما في ذلك ارتباط الرحم، وارتباط الصداقة، والارتباط الاجتماعي، والارتباط بهدأة البشرية الى الله، والارتباط بالله. ولا دليل على حصر الآية بارتباط الرحم.

بعض المفسرين ذهبوا الى أن الآية تشير الى قطع الارتباط بالأنبياء والمؤمنين. و بعضهم فسرها بالارتباط بأئمة أهل البيت (عليهم السلام)^١. وواضح أن هذه التفاسير تبين جزءاً من المفهوم الكلي للآية.

٣ - علامة الفاسقين الثالثة هي الفساد «.. وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ».

ومن الواضح أن يكون هؤلاء مفسدين، لأنهم نسواالله وعصوه، وخلت نفوسهم من كل عاطفة إنسانية حتى تجاه أرحامهم، هؤلاء لا يتحركون إلا على خط مصالحهم و

(١) نورالثقلين، ج ١، ص ٤٥، لمزيد من التوضيح في هذا المجال راجع المجلد العاشر من هذا التفسير ذيل

الآية ٢١ من سورة الرعد.

أهدافهم الذاتية الدنيّة، ولا يهتمّ على هذا الطريق أن يعيشوا في الارض فسادا و أن يرتكبوا كل لون من الانحراف.

و تؤكد الآية في الخاتمة أن «أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

و أي خسران أكبر من تبديد كل القوى المادية والمعنوية المودعة في الانسان الرامية لاسعاده، و إهدارها على طريق الشقاوة والتعاسة والانحراف؟! نعم هؤلاء الفاسقون الخارجون عن خط إطاعة الله خاسرون حقاً.

* * *

وقفتان

١- أهمية صلة الرحم في الاسلام

الآية المذكورة أعلاه، وان تحدثت عن كل ارتباط أمرالله به أن يوصل، يشكل الارتباط الرحمي دون شك أحد مصاديقها.

أعار الاسلام اهتماماً بالغاً بصلة الرحم وبالتودد الى الأهل والأقارب، ونهى بشدة عن قطع الارتباط بالرحم.

رسول الله (صلى الله عليه وآله) يصور أهمية صلة الرحم بقوله: «صِلُّهُ الرَّحِمِ تَعْمُرُ الدِّيَارَ وَتَزِيدُ فِي الْأَعْمَارِ، وَإِنْ كَانَ أَهْلُهَا غَيْرَ آخِيَارٍ»^١.

وعن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) قال: «صِلْ رَحِمَكَ وَكُوْشِرَبَةِ مَاءٍ، وَأَفْضَلُ مَا يُوْصَلُ بِهِ الرَّحِمُ، كَفِّ الْأَذَى عَنْهَا»^٢.

الامام علي بن الحسين السجاد (عليه السلام) يحذر ولده من صحبة خمس مجموعات، إحداها قطاع الرحم، ويقول: «... وَإِيَّاكَ وَمُصَاحِبَةَ الْقَاطِعِ لِرَحِمِهِ فَإِنَّهُ وَجَدْتُهُ مَلْعُونًا فِي كِتَابِ اللَّهِ»^٣.

و يقول سبحانه: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا

أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ» (محمد، ٢٢).

السبب في كل هذا التأكيد الاسلامي على الرحم هو إن عملية إصلاح المجتمع

و تقوية بنيته وصيانة مسيرة تكامله وعظمته في الحقول المادية والمعنوية، تفرض البدء بتقوية اللبنة الأساسية التي يتكون منها البناء الاجتماعي. وعند استحكام اللبنة وتقويتها يتم إصلاح المجتمع ذاتيا.

الاسلام مارس هذه العملية على النحو الاكمل في بناء المجتمع الاسلامي القوي الشامخ، وأمر بإصلاح الوحدات الاجتماعية. والكائن الانساني لا يأبى عادة أن ينصاع الى مثل هذه الأوامر اللازمة لتقوية أوامر ارتباط أفراد الأسرة لاشترك هؤلاء الافراد في الرحم والدم.

و واضح أن المجتمع يزداد قوة و عظمة كلما ازداد التماسك والتعاون والتعاقد في الوحدات الاجتماعية الصغيرة المتمثلة بالاسرة. و الى هذه الحقيقة قد يشير الحديث الشريف: «صلة الرحم تعمر الديار».

٢- القطع بدل الوصل

ذكرت الآية الكريمة: أَنَّ الْفَاسِقِينَ «يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ» وفي

هذا الصدد يثار سؤال يقول: هل القطع ممكن قبل الوصل؟

والجواب هو أن المقصود بالوصل استمرار الروابط التي أقرها الله سبحانه بينه و

بين عبادة، أو بين عباده مع بعضهم، بشكل طبيعي و فطري.

بعبارة أخرى، إن الله سبحانه أمر بالحفاظ على هذه الروابط الفطرية والطبيعية

وبصيانتها، لكنّ المذنبين يقطعونها (تأمل بدقة).

الآيتان

٢٨ - « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» .

٢٩ - «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» .

التفسير

نعمة الحياة

القرآن في الآيتين المذكورتين يلفت أنظار البشر الى عظمة الخالق عن طريق ذكر بعض النعم الالهية وبعض المظاهر المدهشة للخلقة. وبذلك يكمل الأدلة التي أوردها في الآيتين (٢٢و٢١) من هذه السورة حول معرفة الله.

القرآن يبدأ في أدلته من نقطة لا تقبل الانكار، ويركز على مسألة (الحياة) بكل ما فيها من تعقيد وغموض. ويقول: « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ» . وفي هذه العبارة تذكير للانسان بما كان عليه قبل الحياة. لقد كان ميتا تماما مثل الاحجار والاشخاب ولم يكن فيه أي أثر للحياة: لكنه الآن يتمتع بنعمة الحياة، و بنعمة الشعور والادراك .

من الذي منح الانسان نعمة الحياة؟ هل ان الكائن البشري هو الذي منح نفسه الحياة؟! كل إنسان منصف لا يتردد أن يجيب: أن هذه الحياة موهوبة للانسان من لدن عالم قادر. عالم برموز الحياة وقوانينها المعقدة. وقادر على تنظيمها. إذن كيف يكفر هذا الانسان بمن أحياه بعد موته؟!

اجمعت العلماء اليوم أن مسألة الحياة أعقد مسألة في عالمنا هذا. لان لغز الحياة لم ينحل حتى اليوم على الرغم من كل ما حققه البشر من تقدّم هائل في حقل العلم والمعرفة.

قد يستطيع العلم في المستقبل أن يكتشف بعض أسرار الحياة.. لكن السؤال يبقى قائماً بحاله: كيف يكفر الانسان بالله وينسب هذه الحياة بتعقيداتها وغموضها واسرارها الى صنع الطبيعة العمياء الصماء الفاقدة لكل شعور وإدراك؟!

من هنا نقول إن ظاهرة الحياة في عالم الطبيعة أعظم سند لا ثبات وجود الله تعالى. والقرآن يركز في الآية المذكورة على هذه المسألة بالذات. وهي مسألة تحتاج الى مزيد من الدراسة والتعمق، لكننا نكتفي هنا بهذه الإشارة.

بعد التذكير بهذه النعمة، تؤكد الآية على دليل واضح آخر وهو «الموت» «ثم يميّتكم».

ظاهرة «الموت» يراها الانسان في حياته اليومية، من خلال وفاة من يعرفهم ومن لا يعرفهم، وهذه الظاهرة تبعث أيضاً على التفكير. من الذي قبض ارواحهم؟ ألا يدل سلبُ الحياة منهم على أن هناك من منحهم هذه الحياة؟

نعم.. إن خالق الحياة هو خالق الموت ايضاً، والى ذلك تشير الآية الكريمة: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (الملك، ٢).

بعد أن ذكرت الآية هذين الدليلين الواضحين على وجود الله، تناولت المعاد والحياة بعد الموت: «ثُمَّ يُحْيِيكُمْ».

ويأتي ذكر المعاد في سياق هذه الآية ليبين أن مسألة الحياة بعد الموت (المعاد) مسألة طبيعية جداً لا تختلف عن مسألة إحياء الانسان في هذه الدنيا. وهل بمقدور انسان أن ينكر إمكان المعاد وهو يرى أنه خلق من عناصر ميتة؟!

وهكذا، وبعبارة موجزة رائعة يفتح القرآن أمام الانسان سجل حياته منذ ولادته وحتى بعثه.

وفي نهاية الآية يقول تعالى: «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». والمقصود بالرجوع هو الرجوع الى نعم الله تعالى يوم القيامة. والرجوع غير البعث. والقرآن يفصل بين الاثنين كما في قوله تعالى: «وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» (الانعام، ٣٦).

قد يكون الرجوع في الآية الكريمة إشارة الى معنى أدق، هو إن جميع الموجودات تبدأ مسيرة تكاملها من نقطة العدم التي هي نقطة «الصفرة» و تواصل السير نحو

«اللانهاية» التي هي ذات الله سبحانه وتعالى. من هنا فان هذه المسيرة لا تتوقف لدى الموت؛ بل تستمر في الحياة الاخرى على مستوى أسمى.

بعد ذكر نعمة الحياة والاشارة الى مسألة المبدأ والمعاد، تشير الآية الى واحدة أخرى من النعم الالهية السابقة وتقول: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً». وبهذا تعين الآية قيمة الانسان في هذه الارض، و سيادته على ما فيها من موجودات. ومنها نستطيع أن نفهم المهمة العظيمة الثقيلة الموكولة الى هذا المخلوق في ساحة الوجود.

وفي القرآن آيات أخرى تؤكد على مكانة الانسان السامية، و توضح أن هذا الكائن هو الهدف النهائي من خلق كل موجودات الكون:

«وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» (الجاثية، ١٣).

وثمة آيات اخرى تحدثت عن هذا المفهوم بالتفصيل كقوله تعالى:

«وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ...» (ابراهيم، ٣٢).

«وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ...» (ابراهيم، ٣٢).

«وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ...» (ابراهيم، ٣٣).

«وَسَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ...» (الجاثية، ١٢).

«وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ...» (ابراهيم، ٣٣).

وتعود الآية الى ذكر أدلة التوحيد وتقول: «ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ

سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

الفعل «استوى» من «الاستواء» وهو التسلط والاحاطة الكاملة والقدرة على الخلق والتدبير. وكلمة «ثم» في الآية لا تعني لزما التأخير الزماني، بل تعني أيضاً التأخير في البيان والتوالي في ذكر الحقائق.

(١) هناك دراسة أوفى لهذا المفهوم في الجزء العاشر من هذا التفسير، ذيل الآية ٢ من سورة الرعد، وذيل

الآيتين ٣٢ و٣٣ من سورة ابراهيم.

وقفات

١- التناسخ أو عودة الارواح

الآية المذكورة أعلاه من الآيات التي ترفض بوضوح فكرة التناسخ. فالمعتقدون بالتناسخ يؤمنون بأن الانسان يعود بعدالموت ثانية الى هذه الحياة، بعد أن تحلّ روحه في جسم آخر (ونطفة أخرى)، ويحيا في هذه الدنيا حياة أخرى. وقد تتكرر هذه العودة مرات. وتكرر هذه الحياة يسمى بالتناسخ أو عودة الارواح.

الآية تصرح بعدم وجود اكثر من حياة واحدة بعدالموت، هي حياة البعث والنشور. وبعبارة أخرى توضح الآية أن للانسان حياتين ومماتين لا اكثر وكان الانسان ميتا يوم كان جزءاً من الطبيعة غيرالحية، ثم أحياه الله يوم ولد، ثم يميته، ثم يعيده. ولو كان التناسخ صحيحاً لكان للانسان اكثر من مماتين وحياتين.

هذا المفهوم مذكور في آيات أخرى أيضاً، سنشير اليه في موضعه.^١

فكرة التناسخ إذن مرفوضة قرآنياً، كما انها مرفوضة عقلياً، وهي نوع من الرجعية

والانتكاس في قانون التكامل.^٢

جدير بالذكر أن هذه الآية لا تشير الى الحياة البرزخية (الحياة بين الموت والنشور). بل الى الحياة بعدالموت في هذه الدنيا (إحياء الانسان بعد تكونه من مواد طبيعته ميتة)، ثم الموت بعد هذه الحياة الدنيوية، ثم الحياة الاخرى، واستمرار المسيرة التكاملية نحوالله.

* * *

٢- السماوات السبع

كلمة «سما» تشير الى جهة عليا، و لها مفهوم واسع ذو مصاديق مختلفة. ولذلك

كان لها استعمالات عديدة في القرآن الكريم:

(١) موضوع «الرجعة» لا يعارض هذا المفهوم، لانه محدود بعدد خاص من الاشخاص، وليس بقانون

عام. والآية المذكورة تتحدث عن قضية عامة.

(٢) درسنا هذه المسألة في كتاب «عود ارواح وارتباط با أرواح» = عودالارواح والارتباط بالارواح.

١ - اطلقت أحيانا على «الجهة العليا» المجاورة للارض كقوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَضَلُّهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ» (ابراهيم، ٢٤).

٢ - وعنى بها القرآن تارة المنطقة البعيدة عن سطح الارض: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا» (ق، ٩).

٣ - عبرالقرآن بها في موضع آخر عن (الغلاف الجوي) المحيط بالارض: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا» (الانبياء، ٣٢). لان هذا الغلاف يقي الكرة الارضية من الصخور السماوية (النيازك) التي تتجه الى الارض ليلا ونهارا بفعل جاذبية الارض، لكن اصبطلداه هذه الصخور بجوّالارض يؤدي الى اشتعالها ومن ثم تحوّلها الى رماد.

٤ - و اراد القرآن بالسما في موضع آخر (الكرات العليا): «ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ» (فصلت، ١١).

نعود الآن الى «السموات السبع» لنرى ما المقصود من هذا العدد. تعددت آراء المفسرين والعلماء المسلمين في ذلك.

١ - منهم من قال إنها السيارات السبع في اصطلاح الفلكيين القدماء: أي عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل والقمر والشمس.

٢ - ومنهم من قال إن المقصود بها هو الطبقات المتراكمة للغلاف الجوي المحيط بالكرة الارضية.

٣ - ومنهم من قال إن العدد (سبعة) لايرادبه هذا العدد المعروف، بل يراد به الكثرة، أي إن معنى «السموات السبع» هوالسموات والكرات الكثيرة في الكون.ولهذا نظير في كلام العرب و في القرآن، كقوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَفْلاطِمٌ وَالْبَحْرِ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ» (لقمان، ٢٧).

(١) منهم من قسّم كرات المنظومة الشمسية العشر (تسع سيارات معروفة اضافة الى سيارة كانت موجودة بين المريخ والمشتري، ثم تهشمت وظلت بقاياها تدور في نفس المدار) الى مجموعتين: مجموعة تحت مدارالارض (عطارد والزهرة) ومجموعة خارج مدارالارض وفوقه، وهي سبع سيارات. ولعلمهم بهذا أرادوا تفسيرالسموات السبع بالكرات السبع الخارجية. (تأمل بدقّة).

وواضح أن المقصود بالسبعة في هذه الآية ليس العدد المعروف، لان علم الله لا ينتهي حتى ولو أن البحر يمد من بعده الآلاف المؤلفة من الاجر.

٤ - الاصح في رأينا أن المقصود بالسموات السبع، هو وجود سبع سماوات بهذا العدد. وتكرر هذه العبارة في آيات الذكر الحكيم يدل على أن العدد المذكور في هذه الآيات لا يعني الكثرة، بل يعنى العدد الخاص بالذات.

و يستفاد من آيات أخرى أن كل الكرات والسيارات المشهودة هي جزء من السماء الاولى، وثمة ستة عوالم أخرى خارجة عن نطاق رؤيتنا ووسائلنا العلمية اليوم. وهذه العوالم السبعة هي التي عبر عنها القرآن بالسموات السبع.

يقول تعالى: «وَرَبَّانَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ» (فصلت، ١٢).

ويقول أيضاً: «إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ» (الصفات، ٦).

و يتضح من هاتين الآيتين أن ما نراه وما يتكون منه عالم الافلاك هو جزء من السماء الاولى، وما وراء هذه السماء ست سماوات أخرى ليس لدينا اليوم معلومات عن تفاصيلها.

نحن نرى اليوم أنه كلما تقدمت العلوم الناقصة للبشر اكتشفت عجائب ومجاهيل عظيمة. علم الفلك تقدّم الى مرحلة بعيدة جدا في الرصد عن طريق التلسكوبات، ثم توقفت قدرة الرؤية الى اكثر من ذلك .

أبعد ما اكتشفته دوائر الارصاد الفلكي العالمية حتى الآن مسافة في الكون تعادل الف مليون (مليار) سنة ضوئية. والراصدون يعترفون أن أقصى ما اكتشفوه هو بداية الكون لا نهايته. وما يدريك أن العلم سيكتشف في المستقبل سماوات و عوالم أخرى!

من الافضل أن نسمع هذا الحديث عن لسان مرصد عالمي كبير.

* * *

٣-عظمة الكائنات

مرصد «بالومار» يصف عظمة الكون كالآتي:

«... قبل نصب مرصد بالمور، كان العالم في نظرنا لا يزيد على خمسمائة سنة

ضوئية. لكن هذا الناظر وسّع عالمنا الى الف مليون سنة ضوئية. واكتشف على أثر ذلك ملايين المجرات الجديدة التي يبعد بعضها عنا الف مليون سنة ضوئية. أما بعد هذه المسافة فيتراءى لنا فضاء عظيم مهيب مظلم لا نبصر فيه شيئاً، أي ان النور لا ينفذ اليه كي يؤثر على صفحة التصوير في المرصد.

ومن دون شك أن هذا الفضاء المهيب المظلم يحتوي على مئات الملايين من المجرات التي تحافظ بجاذبيتها على هذا العالم المرئي.

كل هذا العالم العظيم المرئي الحاوي على مئات آلاف الملايين من المجرات ليس الاجزاء صغيرة جداً من عالم أعظم. ولسنا واثقين من عدم وجود عالم آخر غير هذا العالم الاعظم»^١.

* * *

الآيات

- ٣٠ - «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً. قَالُوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ. قَالَ: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ».
- ٣١ - «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ: أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».
- ٣٢ - «قَالُوا: سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ».
- ٣٣ - «قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ».

التفسير

الانسان خليفة الله في الارض

الآيات السابقة ذكرت أن الله سبحانه خلق ما في الارض جميعاً للانسان، وفي هذه الآيات تقرير صريح لخلافة الانسان وقيادته، وتوضيح لمكانته المعنوية التي استحق بها كل هذه المواهب.

في هذه الآيات عرض لخلقة آدم (أبوالبشر)، وفي الآيات ٣٠ الى ٣٩ تركيز على ثلاث مسائل أساسية هي:

- ١ - اخبار الله ملائكته بشأن خلافة الانسان في الارض، ومادارفي المشهد من حوار.
- ٢ - الطلب من الملائكة أن يكرموا ويعظموا الانسان الاول، وهذا ما نجده في مواضع عديدة من القرآن الكريم بمناسبات مختلفة.
- ٣ - شرح وضع آدم وحياته في الجنة والحوادث التي أدت الى خروجه من الفردوس، ثم توبة آدم، وحياته هو و ذريته في الارض.

الآيات المذكورة تتحدث عن المرحلة الاولى، حين شاء الله أن يخلق على ظهر الأرض موجوداً، يكون فيها خليفته، و يحمل أشعة من صفاته، وتسمو مكانته على مكانة الملائكة، و شاء سبحانه أن تكون الارض ونعمها وما فيها من كنوز ومعادن وامكانيات تحت تصرف هذا الانسان.

مثل هذاالموجود بحاجة الى قسط وافر من العقل والشعور والادراك والكفاءة الخاصة، كي يستطيع أن يتولى قيادة الموجودات الارضية.

والخليفة في قوله: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»، هوالنائب عن الغير،أما هذاالغير الذي ينوب الانسان عنه فاختلفت فيه أقوال المفسرين. منهم من قال انه خليفة الملائكة الذين كانوا يسكنون من قبل على ظهر الارض. ومنهم من قال انه خليفة بشر آخرين أو موجودات أخرى كانت تعيش قبل ذلك على الارض.

و ذهب بعضهم الى أن الخليفة اشارة الى أن كل جيل من البشر يخلف الجيل السابق.

والحق أن المقصود بالخليفة هو خليفة الله ونائبه على ظهر الارض، كما ذهب الى ذلك كثير من المحققين. لان سؤال الملائكة بشأن هذاالموجود الذي قد يفسد في الارض و يسفك الدماء يتناسب مع هذاالمعنى، لان نيابة الله في الارض لا تتناسب مع الفساد وسفك الدماء.

مسألة «تعليم الاسماء» لآدم التي سيأتي شرحها، وهكذا سجودالملائكة لآدم من أدلة ما ذهبنا اليه في تفسير معنى الخليفة.

الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) يشير أيضا الى هذاالمعنى في تفسير هذه الآيات إذ يقول: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ عَلَّمَ آدَمَ أَسْمَاءَ حُجَجِهِ كُلِّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ وَهُمْ أَرْوَاحٌ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بِأَنَّهُمْ أَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ فِي الْأَرْضِ لِتَسْبِيحِكُمْ وَتَقْدِيسِكُمْ مِنْ آدَمَ فَقَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَقَفُوا عَلَى عَظِيمٍ مَنَزَلَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ ذِكْرُهُ فَعَلِمُوا أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِأَنْ يَكُونُوا

خُلْفَاءَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَحُجَجِهِ عَلَى بَرِيَّتِهِ ثُمَّ غَيَّبَهُمْ عَنْ أَبْصَارِهِمْ وَاسْتَعْبَدَهُمْ بِوَلَايَتِهِمْ وَ مَحَبَّتِهِمْ وَقَالَ لَهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ»^١.

ثم تذكر الآية سؤال الملائكة الذي وجهوه لرب العالمين مستفسرين لا معترضين: «قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ؟»

الله سبحانه أجاب الملائكة جوابا مغلقا اتضح في المراحل التالية: «قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ».

الملائكة كانوا عالمين - كما يبدو من تساؤلهم - أن هذا الانسان موجود يفسد في الارض و يسفك الدماء، فكيف عرفوا ذلك؟!

قيل إن الله سبحانه أوضح للملائكة من قبل على وجه الاجمال مستقبل الانسان، وقيل إن الملائكة فهموا ذلك من خلال عبارة «في الارض»، لانهم علموا أن هذا الانسان يخلق من التراب، والمادة لمحدوديتها هي حتما مركز للتنافس والنزاع. وهذا العالم المحدود المادي لا يستطيع أن يشبع طبيعة الحرص في الانسان. وهذه الدنيا لو وضعت بأجمعها في فم الانسان فقد لا تشبعه. وهذا الوضع - إن لم يقترن بالالتزام والشعور بالمسؤولية- يؤدي الى الفساد وسفك الدماء.

بعض المفسرين ذهب الى أن تنبؤ الملائكة يعود الى تجربتهم السابقة مع مخلوقات سبقت آدم، وهذه المخلوقات تنازعت وسفكت الدماء وخلفت في الملائكة انطبعا مراً عن موجودات الارض.

هذه التفسير الثلاثة لا تتعارض مع بعضها. وقد يكون موقف الملائكة من استخلاف آدم ناشئا عن هذه الاسباب الثلاثة معاً.

الملائكة بينوا حقيقة من الحقائق. ولذلك لم ينكر الله عليهم قولهم، بل أشار الى أن

(١) «الميزان» ج١، ص ١٢١ نقلاً عن معاني الاخبار، وهذا الحديث وإن كان يوضح أكثر مكانة الانبياء

والائمة - لا ينحصر بهذه الصفوة المقدسة بل انهم المصداق الاتم والاكمل لهذا الموضوع.

ثمة حقائق أخرى الى جانب هذه الحقيقة، حقائق ترتبط بمكانة الانسان في الوجود؛ وهذا ما لم تعرفه الملائكة.

الملائكة يعلمون أن الهدف من الخلق هو العبودية والطاعة. وكانوا يرون في أنفسهم مصداقا كاملاً لذلك، فهم في العبادة غارقون. ولذلك فهم - أكثر من غيرهم - للخلافة لا يثقون! غير عالمين أن بين عبادة الانسان المليء بألوان الشهوات، والمحاط بأشكال الوسوس الشيطانية وعبادتهم، وهم خالون من كل هذه المؤثرات، بون شاسع. اين عبادة هذا الموجود الكائن في وسط الامواج العاتية، من عبادة تلك الموجودات التي تعيش على ساحل آمن؟!

الملائكة في بودقة الاختبار

كان آدم يملك - بفضل الله - قابلية خارقة لفهم الحقائق. وشاء الله أن ينقل هذه القابلية من مرحلة القوة الى مرحلة الفعل، وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا».

اختلف المفسرون في تفسير «تعليم الاسماء»، ومن المؤكد أن المقصود من ذلك ليس هو تعليم الاسماء دون المعاني. فذلك لا يكسب آدم فخراً، بل المقصود هو معاني الاسماء والمفاهيم والمسميات.

هذا العلم بالكون وبأسرار الموجودات وخواصها، كان مفخرة كبيرة لآدم طبعاً. عن ابي العباس قال: سألتُ الامام الصادق عليه السلام عن قولِ الله: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا، ماذا علّمه؟ قال: «الْأَرْضِينَ وَالْجِبَالَ وَالشَّعَابَ وَالْأَوْدِيَةَ ثُمَّ نَظَرَ إِلَى بَسَاطِ تَحْتَهُ فَقَالَ: وَهَذَا الْبَسَاطُ مِمَّا عَلَّمَهُ»^١

علم الاسماء إذن لم يكن يشبه «علم المفردات»، بل كان يرتبط بفلسفة الاسماء واسرارها وكيفياتها وخواصها. والله سبحانه منح آدم هذا العلم ليستطيع أن يستثمر المواهب المادية والمعنوية في الكون على طريق تكامله.

كما منح الله آدم قابلية التسمية، ليستطيع أن يضع للاشياء أسماء، وبذلك يتحدث عن هذه الاشياء بذكر اسمها لا باحضار عينها. وهذه نعمة كبرى، نفهمها لو عرفنا أن علوم البشرية تنتقل عن طريق الكتب والمدونات. وما كان هذا التدوين مقدورا لولا وضع الاسماء للاشياء وخواصها.

«ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّبِيُّ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ..»
وأمام هذا الاختبار تراجع الملائكة لانهم لم يملكو هذه القدرة العلمية التي منحها الله لآدم، «قَالُوا: سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ».
وهكذا أدركت الملائكة تلك القدرة التي يحملها آدم، التي تجعله لائقا لخلافة الله على الارض. وفهمت مكانة هذا الكائن في الوجود.

وحان الدور لآدم كي يشرح أسماء الموجودات واسرارها أمام الملائكة: «قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ».

وهنا اتضح للملائكة أن هذا الموجود هو وحده اللائق لاستخلاف الارض.
عبارة «مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» اشارة الى أن الملائكة كانوا يخفون شيئا لم يظهره في أقوالهم. قال بعض المفسرين إنها اشارة الى حالة استكبار ابليس الذي كان يومئذ بين الملائكة. وكان يكتم إصراره على عدم الخضوع لآدم.
ومن المحتمل أيضاً أن تكون العبارة اشارة الى ما كان يبطنه الملائكة من اعتقاد بأنهم أليق من غيرهم للخلافة الالهية على الارض. فهم أشاروا الى مثل هذا الاعتقاد ولم يصرحوا به.

* * *

جواب على سؤالين

و يبقى سؤالان في هذا المجال، الأول يدور حول تعليم الله لآدم، كيف تم ذلك؟ ولو قدّر أن يكون هذا التعليم من نصيب الملائكة لنالوا نفس فضيلة آدم، فهل هناك مفخرة يمتلكها آدم ولا تمتلكها الملائكة؟

أما بشأن كيفية التعليم فالجواب هو إن هذا التعليم تكويني، أي إن الله أودع

هذا العلم في وجود آدم بالقوة، ودفعه خلال مدة قصيرة الى المرحلة الفعلية. إطلاق كلمة «تعليم» في القرآن على «التعليم التكويني» ورد في موضع آخر من القرآن، كقوله تعالى: «عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» (الرحمن، ٤) وواضح أن الله سبحانه علّم الانسان البيان في مدرسة الخلق، أي منحه الكفاءة والخصائص الفطرية اللازمة للبيان والكلام.

أما الشرط الآخر من هذا السؤال فيتبين جوابه لو علمنا أن الملائكة كانت لهم خلقة خاصة، ما كانت تؤهلهم لتلقي كل هذه العلوم. إنهم مخلوقون لهدف آخر، لا لهذا الهدف، وهذه الحقيقة فهمها الملائكة و تقبلوها بعد أن مروا بتلك التجربة المذكورة في الآية. ولعلمهم اعتقدوا في البداية أنهم يحملون الكفاءة اللازمة لهذا الهدف، لكن الله بين لهم الفرق بين كفاءتهم وكفاءة آدم بتجربة تعليم الاسماء.

أما السؤال الثاني فيرتبط بالضمير «هم» في قوله تعالى: «ثم عرضهم» و «أسمائهم» و باسم الإشارة «هؤلاء» في الآية. فالمعروف أنّ «هم» و «هؤلاء» يستعملان في العاقل، وهذا لا ينسجم مع تفسير «الاسماء» بأنها اسرار الخلق وفهم خواص جميع الموجودات.

والجواب هو إن استعمال الضمير «هم» واسم الإشارة «هؤلاء» لا يختص بالعاقل، بل قد يستعملان في جمع مكوّن من عاقل وغير عاقل، وقد يستعملان في جمع غير عاقل. كقوله تعالى: «رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» (يوسف، ٤) والضمير «هم» في الآية يعود على الكواكب والشمس والقمر التي رآها يوسف.

الآيات

- ٣٤ - «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ».
- ٣٥ - «وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ».
- ٣٦ - «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ».

التفسير

آدم في الجنة

ينتقل القرآن الى فصل آخر من موضوع عظمة الانسان، ويقول: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ، وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ».

يبدو للوهلة الاولى أن مسألة السجود لآدم جاءت بعد تجربة الملائكة المذكورة في الآيات السابقة و بعد تعليم الاسماء. ولكن لو أمعنا النظر في آيات القرآن الكريم لألفينا أن موضوع السجود جاء بعد اكتمال خلقه الانسان مباشرة، وقبل امتحان الملائكة.

يقول تعالى: «فَإِذَا سَوَّيْنَاهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ»، السجود إذن جاء مباشرة بعد نفخ الروح في الانسان، وهذا المعنى جاء في الآية ٧٢ من سورة (ص)^١.

ثمة دليل آخر على هذه المسألة هو أن استجابة الملائكة لامر الله بالسجود، لو كانت بعد اتضاح مكانة آدم، لما اعتبرت مفخرة للملائكة.

(١) الى هذا أشار أيضا الآلوسي في روح المعاني، والفخر الرازي في التفسير الكبير.

على أي حال، الآية المذكورة تقرير قرآني واضح صريح لشرف الانسان وعظمة مكانته. فكل الملائكة يؤمرون بالسجود له بعد اكتمال خلقته.
حقاً، إن هذا الموجود، اللائق لخلافة الله على الأرض، والمؤهّل لهذا الشوط الكبير من التكامل و تربية أبناء عظام كالانبياء وخاصة النبي الخاتم (صلّى الله عليه وآله) و اوصيائه، يستحق كل احترام.

* * *

وقفتان

١- لماذا أبى إبليس؟

«الشیطان» اسم جنس شامل للشیطان الاول و لجميع الشياطين. أما «ابليس» فاسم علم للشیطان الذي وسوس لآدم. و ابليس - كما صرح القرآن - ما كان من جنس الملائكة وان كان في صفوفهم، بل كان من طائفة الجن وهي مخلوقات مادية. قال تعالى: «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ» (الكهف، ٥٠).

باعثه على الامتناع عن السجود كبرٌ و غرور و تعصب خاص استولى عليه. اعتقد أنه أفضل من آدم، ولا ينبغي أن يصدر له أمر بالسجود لآدم، بل ينبغي أن يؤمر آدم بالسجود له، و سيأتي شرح ذلك في تفسير الآية ١٢ من سورة الاعراف.^١

كفر إبليس كان أيضاً يعود الى نفس السبب، فقد اعتقد بعدم صواب الأمر الالهي، و بذلك لم يعص فحسب، بل انحرف عقائدياً. وهكذا ذهبت أدراج الرياح كل عباداته و طاعاته نتيجة كبره و غروره. وهكذا تكون دوماً نتيجة الكبر و الغرور.

و عبارة «كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» تشير إلى أن إبليس كان قبل صدور الامر الالهي اليه بالسجود، قد انفصل عن مسير الملائكة و طاعة الله، و أسرّ في نفسه الاستكبار و الجحود. لعله عزم في قرارة نفسه أن لا يخضع لو صدرت اليه أوامر بالخضوع و السجود. و من المحتمل أن تكون عبارة «مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» إشارة الى ذلك. و ورد هذا المعنى في حديث عن الامام الحسن العسكري. قال إنليس: لَئِن أَمَرَنِي اللهُ بِالسُّجُودِ لِهَذَا

(١) راجع المجلد السادس من هذا التفسير.

لَعَصِيْبُهُ إِلَىٰ أَنْ قَالَ: ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِلْمَلَائِكَةِ: أَسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا فَأَخْرَجَ إِبْلِيسَ مَا كَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْحَسَدِ قَابِيًا أَنْ يَسْجُدَ»^١.

٢ - هل كان السجود لله أم لآدم؟

لا شك أن السجود يعني «العبادة» لله، إذ لا معبود غير الله، وتوحيد العبادة يعني أن لا نعبد إلا الله.

من هنا فإن الملائكة لم يؤدوا لآدم قطعا «سجدة عبادة». بل كان السجود لله من أجل خلق هذا الموجود العجيب. أو كان سجود الملائكة لآدم سجود «خضوع» لا عبادة.

جاء في «عيون الاخبار» عن الامام علي بن موسى الرضا (ع): «كَانَ سُجُودُهُمْ لِلَّهِ تَعَالَىٰ عُبُودِيَّةً، وَوَلِآدَمَ إِكْرَامًا وَطَاعَةً، لِكُونِنَا فِي صَلْبِهِ»^٢.

بعد هذا المشهد ومشهد اختبار الملائكة، أمر آدم وزوجه أن يسكنا الجنة، كما جاء في قوله تعالى: «وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ، وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ»^٣.

يستفاد من آيات القرآن أن آدم خلق للعيش على هذه الارض. لكن الله شاء أن يسكنه قبل ذلك الجنة، وهي روضة خضراء موفرة النعمة في هذا العالم، وخالية من كل ما يزعج آدم.

لعل مرحلة مكوث آدم في الجنة كانت مرحلة تحضيرية من أجل تأهيل آدم لتحمل مسؤوليات المستقبل، ولتفهيمه أهمية حمل هذه المسؤوليات والتكاليف الالهية في تحقيق سعادته، ولا عطائه صورة عن الشقاء الذي يستتبع إهمال هذه التكاليف، ولتنبيهه

(١) تفسير الميزان، ج ١، ص ١٢٥.

(٢) نورالثقلين، ج ١، ص ٥٨.

(٣) الرغد على وزن الصمد يعني الكثير والواسع والهنئي، وعبارة «حيث شئتما» تعني: من أي مكان شئتما

في الجنة، أو من أي نوع شئتم من فاكهة الجنة.

بالمحظورات التي سيواجهها على ظهر الارض.

وكان من الضروري أيضاً أن يعلم آدم بإمكان العودة إلى الله بعد المعصية. فعصية الله - لا تسدّ الى الأبد - أبواب السعادة أمامه، بل يستطيع أن يرجع ويعاهد الله أن لا يعود لمثلها، وعند ذلك يعود الى النعم الالهية. ينبغي أن ينضج في هذا الجوّ الى حدٍ معيّن، وأن يعرف أصدقاءه وأعداءه، و يتعلم كيف يعيش على ظهر الارض. نعم، كانت هذه مجموعة من التعاليم الضرورية التي تؤهله للحياة على ظهر الارض.

كانت هذه مقدمات تأهيلية يحتاجها آدم وأبناء آدم في حياتهم الجديدة. ولعل الفترة التي قضاها آدم في الجنة قبل أن ينهض بمسؤولية الخلافة على الارض كانت تدريبية و تمرينية.

* * *

وهنا رأى «آدم» نفسه أمام أمر إلهي يقضي بعدم الاقتراب من الشجرة، لكن الشيطان أبى إلا أن ينفذ بقسمه في إغواء آدم و ذريته، فطفق يوسوس لآدم و يعده و زوجه - كما يبدو من سائر آيات القرآن الكريم - بالخلود و باتخاذ شكل الملائكة، و أقسم أنه لهما من الناصحين. (الاعراف، ٢١ و ٢٠).

تقول الآية بعد ذلك : «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ»^١.

نعم. أخرجنا من الجنة حيث الراحة و الهدوء و البعد عن الألم و التعب و العناء، على أثر و سوسة الشيطان.

و صدر لهما الامر الالهي بالهبوط «وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ».

وهنا، فهم آدم أنه ظلم نفسه، و أخرج من الجوّ الهادي الملي بنعم الجنة بسبب

(١) مرجع الضمير في «عنها» إما أن يعود على «الجنة» ويكون معنى «مما كانا فيه» في هذه الحالة: من مقامها الذي كانا فيه. وإما أن يعود على «الشجرة» فيكون معنى الآية: إن الشيطان أزلهما بوسيلة الشجرة، وأخرجها من الجنة التي كانا فيها.

استسلامه لوسوسة الشيطان. وهبط في جَوْ مفعم بالتعب والمشقة والعناء. مع أن آدم كان نبيا ومعصوماً، فإن الله يؤاخذ الانبياء بترك الاولى - كما سنرى - كما يؤاخذ باقي الافراد على ذنوبهم. وهو عقاب شديد تلقاه آدم جرّاء عصيانه.

* * *

وقفات

١- ماهي جنة آدم؟

يبدو أن الجنة التي مكث فيها آدم قبل هبوطه الى الارض، لم تكن الجنة التي وعد بها المتقون. بل كانت من جنان الدنيا، وصقعا منعماً خلاّباً من أصقاع الارض. ودليلنا على ذلك :

اولاً - الجنة الموعودة في القيامة نعمة خالدة، والقرآن ذكر مرارا خلودها، فلا يمكن إذن الخروج منها.

ثانياً - إبليس الملعون ليس له طريق للجنة، وليس لوسوسته مكان هناك .

ثالثاً - وردت عن أهل البيت (عليهم السلام) روايات تصرّح بذلك .

منها ما روي عن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) أنه سئل عن جنة آدم، فقال: «جَنَّةٌ مِنْ جَنَّاتِ الدُّنْيَا، يَظْلَعُ فِيهَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَلَوْ كَانَ مِنْ جِنَانِ الْآخِرَةِ مَا خَرَجَ مِنْهَا أَبَدًا»^١.

من هذا يتضح أن هبوط آدم ونزوله الى الارض لم يكن مكانيا بل مقاميا. أي إنه هبط من مكانته السامية ومن تلك الجنة المزدانة.

من المحتمل أيضا أن تكون هذه الجنة غير الخالدة في إحدى الكواكب السماوية، و في بعض الروايات الاسلامية إشارة الى أن هذه الجنة في السماء. غير أنّ من الممكن أن يكون المقصود بالسماء في هذه الروايات «المقام الرفيع» لا «المكان المرتفع». على كل حال، توجد شواهد كثيرة على أن هذه الجنة هي غير جنة الخلد

(١) كتاب الكافي، نقلا عن تفسير نورالتقلين، ج ١، ص ٦٢.

الموعودة. لأن جنة آدم بداية مسير الانسان وجنة الخلد نهايتها. وهذه مقدمة لأعمال الانسان ومراحل حياته، و تلك نتيجة أعمال الانسان ومسيرته.

* * *

٢- ما هو ذنب آدم؟

المكانة التي ذكرها القرآن لآدم سامية رفيعة، فهو خليفة الله في الارض ومعلم الملائكة، وعلى درجة كبيرة من التقوى والمعرفة، وهو الذي سجدت له ملائكة الله المقربين. ومن المؤكد أن آدم هذا لا يصدر عنه ذنب، إضافة الى أنه كان نبيا، والنبى معصوم.

من هنا يطرح سؤال عن نوع العمل الذي صدر عن آدم. وتوجد لذلك ثلاثة تفسيرات يكمل بعضها الآخر.

١- ما ارتكبه آدم كان «تركاً للاولى» أو بعبارة أخرى كان «ذنباً نسبياً»، ولم

يكن «ذنباً مطلقاً».

الذنب المطلق، هو الذنب الذي يستحق مرتكبه العقاب أياً كان، مثل الشرك والكفر والظلم والعدوان. والذنب النسبي هو الذي لا يليق بمرتكبه أن يفعله لعلو منزلة ذلك الشخص، وإن كان ارتكابه مباحاً بل مستحباً أحيانا من قبل الافراد العاديين. على سبيل المثال، نحن نؤدي الصلاة بحضور القلب تارة و بعدم حضور القلب تارة أخرى. وهذه الصلاة تتناسب وشأننا، لكن مثل هذه الصلاة لا تليق بأفراد عظام مثل رسول الله (صلى الله عليه وآله). صلاة الرسول ينبغي أن تكون بأجمعها اتصالاً عميقاً بالله تعالى، وإن فعل الرسول غير ذلك فلا يعني أنه ارتكب محرماً، بل يعني أنه ترك الاولى.

و آدم كان يليق به أن لا يأكل من تلك الشجرة، وإن كان الأكل منها غير

محرّم بل «مكروها».

٢- نهي الله لآدم إرشادي، مثل قول الطيب: لا تأكل الطعام الفلاني فتمرض. والله سبحانه قال لآدم: لا تقرب هذه الشجرة فتخرج من الجنة. و آدم في أكله من الشجرة خالف نهياً إرشادياً.

٣- اللجنة التي مكث فيها آدم لم تكن محلاً للتكليف، بل كانت دورة اختبارية و

تمهيدية لآدم كي يهبط بعدها الى الارض. وكان النهي ذا طابع اختباري.^١

٣- المقارنة بين معارف القرآن والتوراة

اكبر مفاخر آدم و اعظم نقاط قوته التي جعلته زبدة الكون و مسجود الملائكة هي - كما يظهر من الآيات - تعليمه الاسماء واطلاعه على حقائق الكون و اسراره. واضح أن آدم خُلق لهذه العلوم، و أبناء آدم - إن أرادوا التكامل - عليهم أن يستزيدوا من هذه العلوم، و تكاملهم يتناسب مرادفا مع معلوماتهم عن أسرار الخليقة. نعم القرآن يصرّح بأن عظمة آدم هي في هذه النقطة. ولكن التوراة تذهب الى أن سبب خروج آدم من الجنة و خطيئته الكبرى هو اتجاهه نحو العلم و تمييزه بين الصالح و الطالح!

في الفصل الثاني من «سفر التكوين» جاء في التوراة: «وَ أَخَذَ الرَّبُّ الْإِلَهَ آدَمَ وَ وَصَّعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَتَعَلَّمَهَا وَيَحْفَظَهَا. وَأَوْصَى الرَّبُّ الْإِلَهَ آدَمَ قَائِلاً مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلاً. وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلُ مِنْهَا. لِأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتاً تَمُوتُ. وَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهَ لَيْسَ جَيِّداً أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ فَاصْنَعُ لَهُ مُعِيناً نَظِيرَهُ. وَجَبَلَ الرَّبُّ الْإِلَهَ مِنَ الْأَرْضِ كُلَّ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَ كُلَّ طُيُورِ السَّمَاءِ. فَأَخْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى مَاذَا يَدْعُوهَا وَ كَلَّمَ مَا دَعَا بِهِ آدَمَ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ فَهِيَ اسْمُهَا. فَدَعَا آدَمَ بِأَسْمَاءِ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَ طُيُورِ السَّمَاءِ وَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ. وَأَمَّا لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجِدْ مُعِيناً نَظِيرَهُ. فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الْإِلَهَ سُبَاتاً عَلَى آدَمَ فَنَامَ فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَ مَلَأَ مَكَانَهَا لَحْماً. وَبَنَى الرَّبُّ الْإِلَهَ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ أَمْرَأَةً وَأَخْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. فَقَالَ آدَمُ هَذِهِ آيَاتُ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِي وَ لَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هَذِهِ تُدْعَى أَمْرَأَةً لِأَنَّهَا مِنْ أَمْرِي أُخِذَتْ. لِذَلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَ أُمَّهُ وَ يَلْتَصِقُ بِأَمْرَأَتِهِ وَ يَكُونَانِ جَسَداً وَاحِداً. وَ كَانَا كِلَاهُمَا عُزْبَانَيْنِ آدَمُ وَ أَمْرَأَتُهُ وَ هُمَا لَا يَخْتَجَلَانِ».

(١) لمزيد من التوضيح في هذا المجال، راجع المجلد السادس من هذا التفسير، ذيل الآيات ١٩ - ٢٢ من

سورة الاعراف، و المجلد الثالث عشر ذيل الآية ١٢١ من سورة طه.

وجاء في الفصل الثالث

«وَكَانَتْ الْحَيَّةُ أُخِيلَ جَمِيعَ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الْإِلَهُ فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ أَحَقًّا قَالَ اللَّهُ لَا تَأْكُلِي مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ. وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللَّهُ لَا تَأْكُلَا مِنْهُ وَلَا تَمَسَّاهُ لِئَلَّا تَمُوتَا فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ لَنْ تَمُوتَا. بَلِ اللَّهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَمَا لِلَّهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ حَيَّةٌ لِلْأَكْلِ وَأَنَّهَا بَهْجَةٌ لِلْعُيُونِ وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَآكَلَتْ وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ. فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُزَيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تَيْنٍ وَصَنَعَا لِأَنْفُسِهِمَا مَازِرًا».

«وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الْإِلَهِي مَا سِياً فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ. فَأَخْتَبَا آدَمَ وَإِمْرَأَتَهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الْإِلَهِي فِي وَسْطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَتَادَى الرَّبُّ الْإِلَهِي آدَمَ وَقَالَ لَهُ أَيْنَ أَنْتِ. فَقَالَ سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ لِأَنِّي عُزَيَانٌ فَأَخْتَبَيْتُ. فَقَالَ مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُزَيَانٌ. هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْكُلَ مِنْهَا. فَقَالَ آدَمُ الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ. فَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهِي لِلْمَرْأَةِ مَا هَذَا الَّذِي فَعَلْتِ. فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ الْحَيَّةُ عَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ. فَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهِي لِلْحَيَّةِ لِأَنَّكَ فَعَلْتِ هَذَا مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وَحُوشِ الْبَرِّيَّةِ عَلَى بَطْنِكَ تَسْعِينَ وَثُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَأَضَعُ عِدَاوَةَ بَيْنِكَ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ وَبَيْنَ نَسْلِكَ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسِكَ وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ. وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ تَكْثِيرًا أَكْثَرُ أَتْعَابِ حَيَاتِكَ. بِالْوَجْعِ تَلِدِينَ أَوْلَادًا. وَإِلَى رَجُلِكَ يَكُونُ اسْتِيْفَاكَ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكَ. وَ قَالَ لِآدَمَ لِأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ فَائْتَلًا لَا تَأْكُلَ مِنْهَا مَلْعُونَةٌ الْأَرْضِ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَ شَوْكًا وَحَسَاكَ تُنْبِتُ لَكَ وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. يِعْرَقُ وَجْهَكَ تَأْكُلُ خُبْرًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لِأَنَّكَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ».

وَ دَعَا آدَمُ اسْمَ امْرَأَتِهِ حَوًّا لِأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ. وَ صَنَعَ الرَّبُّ الْإِلَهِي لِآدَمَ

وَأَمْرَانِهِ أَفْصَحَ مِنْ جِلْدٍ وَ أَلْبَسَهُمَا.

وَقَالَ الرَّبُّ آلِلَهُ هُوَذَا الْإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرِ وَالشَّرِّ،
وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الْآبَدِ.
فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ آلِلَهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الْآرْضَ الَّتِي أَخَذَ مِنْهَا. فَطَرَدَ الْإِنْسَانَ
وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ وَ لَهَبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ
الْحَيَاةِ!!.

من هذه «الاسطورة التافهة»، التي تعرضها التوراة الحالية باعتبارها واقعا تاريخيا يتبين لنا رأي التوراة الحالية في سبب خروج آدم من الجنة، فهو على رأي هذه الاسطورة معرفة آدم بالخير والشر، و ذنبه الاكبر هو الاتجاه نحو العلم والمعرفة!!
وإن لم يمدَّ آدم يده الى «شجرة الخير والشر» لبقى جاهلاً حتى بقبح التعرّي، ولما أخرج من الجنة، بل كان فيها خالداً.

فيا عجباً، لم إذن حزن آدم على خروجه من الجنة إذا كان خروجه قد اقترن باكتسابه العلم والمعرفة وبتمييزه بين الخير والشر، إنها صفقة رابحة تلك التي حصل عليها آدم، فلماذا هو نادم عليها؟!

و يتضح من ذلك أنّ اسطورة التوراة تقع في النقطة المقابلة للاتجاه القرآني الذي يرى أن مكانة الانسان ومقامه وسرّ خلقته تكمن في «تعليمه الاساء».

أضف إلى ما سبق أن هذه الاسطورة تتضمن مفاهيم مشينة مخجلة بشأن الله سبحانه وبشأن المخلوقات، كل واحدة منها تثير الدهشة أكثر من غيرها، وهي عبارة عن:

١ - نسبة الكذب الى الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً (كما جاء في الجملة ١٧ من الاصحاح الثاني: أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها. لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت)!

٢ - نسبة البخل الى الله سبحانه (كما جاء في الجملة ٢٢ من الاصحاح الثالث: وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر. والآن لعله يمدُّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا الى الابد)!

٣ - إمكان وجود الشريك لله تعالى (كما في العبارة السابقة: قد صار كواحد

منا!!).

٤ - نسبة الحسد الى الله (ويستفاد ذلك من العبارة السابقة أيضاً).

٥ - تجسيم الله سبحانه (.. وسمعا صوت الرب الاله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار)!

٦ - نسبة الجهل الى الله بالحوادث التي تقع قريبا منه (كما تقول هذه التوراة: فاختبأ آدم و امرأته من وجه الرب الاله في وسط شجرالجنة. فنادى الرب الاله آدم وقال له: اين أنت؟!)

(ولا بد من التأكيد هنا أن هذه الخرافة لم تكن في التوراة المنزلة، بل أضيفت فيما اضيف الى التوراة).

٤- المقصود من الشيطان في القرآن

كلمة الشيطان من مادة «شطن» و «الشاطن» هو الخبيث والوضيع. والشيطان تطلق على الموجود المتمرد العاصي، إنسانا كان أو غير إنسان، وتعني أيضاً الروح الشريرة البعيدة عن الحق. وبين كل هذه المعاني قدر مشترك .

والشيطان اسم جنس عام، وابليس اسم علم خاص، وعبارة أخرى، الشيطان كل موجود مؤذٍ مغوٍ متمرّد، إنسانا كان أم غير إنسان. و ابليس اسم الشيطان الذي أغوى آدم و يتربّص هو وجنده الدوائر بأبناء آدم دوماً.

من مواضع استعمال هذه الكلمة في القرآن يفهم أن كلمة الشيطان تطلق على الموجود المؤذي المضر المنحرف الذي يسعى الى بث الفرقة والفساد والاختلاف. مثل قوله تعالى:

«إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبُغْضَاءَ...» (المائدة، ٩١).

وفي استعمال فعل المضارع «يريد» دلالة على استمرار إرادة الشيطان على هذا النحو.

والاستعمال القرآني لكلمة شيطان يشمل حتى أفراد البشر المفسدين المعادين للدعوة الالهية، كقوله تعالى:

«وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ». (الأنعام، ١١٢)

كلمة الشيطان أطلقت على إبليس أيضا بسبب فساده وانحرافه.

والميكروبات المضرّة تشملها كلمة الشيطان أيضا، كما ورد عن علي أمير المؤمنين (عليه السلام): «لَا تَشْرَبُوا الْمَاءَ مِنْ ثَلْمَةِ الْإِنَاءِ وَلَا مِنْ عُرْوَتِهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَقْعُدُ عَلَى الْعُرْوَةِ وَالثَّلْمَةِ»^١.

وروي عن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام): «وَلَا يُشْرَبُ مِنْ أُذُنِ

الْكُوْزِ، وَلَا مِنْ كَسْرِهِ إِنْ كَانَ فِيهِ، فَإِنَّهُ مَشْرَبُ الشَّيَاطِينِ»^٢.

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله): «لَا يُطَوَّلَنَّ أَحَدُكُمْ شَارِبَهُ فَإِنَّ

الشَّيْطَانَ يَتَّخِذُهُ مَخْبِيئًا يَسْتَتِرُ بِهِ»^٣

ومن الواضح أننا لانقصد أن معنى كلمة الشيطان هو الميكروب اينما وردت هذه

الكلمة، بل نقصد أن الكلمة لها معاني متعددة، احد مصاديقها الواضحة «ابليس» و جنده و أعوانه. و مصداقها الآخر أفراد البشر المفسدون المنحرفون. ووردت في مواضع أخرى بمعنى الميكروبات المؤذية (تأمل بدقة)!

* * *

٥- لماذا خلق الشيطان؟!

يثار أحيانا سؤال عن سبب خلق هذا الموجود المضل المغوي. وفي الجواب نقول:

أولاً - لم يخلق الله الشيطان، شيطانا. والدليل على ذلك وجوده بين ملائكة الله

وعلى الفطرة الطاهرة. لكنه بعد تحرره أساء التصرف، وعزم على الطغيان والتمرد. إنه إذن

خلق طاهراً، وسلك طريق الانحراف مختاراً.

ثانياً - وجود الشيطان لا يسبب ضرراً للأفراد المؤمنين، ولطلاب طريق الحق،

في منظار نظام الخليقة. بل إنه وسيلة لتقدمهم وتكاملهم، إذ إن التطور والتقدم يتم من

خلال صراع الاضداد.

(٢٠١) كتاب الكافي، ج٦، كتاب الاطعمة والاشربة، باب الاواني

(٣) كتاب الكافي، ج٦، ص٤٨٧ ح١١٠.

بعبارة أوضح: قوى الانسان وطاقاته الكامنة لا تتأهب ولا تتفجر إلا حينما يواجه الانسان عدوا قوياً. هذا العدو يؤدي الى تحريك طاقات الانسان و بالتالي الى تقدمه و تكامله.

الفيلسوف المعاصر «تويبي» يقول: «لم تظهر في العالم حضارة راقية إلا بعد تعرض شعب من الشعوب الى هجوم خارجي قوي. وهذا الهجوم يؤدي الى تفجير النبوغ والكفاءات، لصنع مثل هذه الحضارة».

* * *

الآيات

- ٣٧ - «فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».
- ٣٨ - «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».
- ٣٩ - «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

التفسير

عودة آدم الى الله

بعد حادثة وسوسة ابليس، وصدور الامر الالهي لآدم بالخروج من الجنة، فهم آدم أنه ظلم نفسه، وأنه أخرج من ذلك الجواهدي المنعم على أثر إغواء الشيطان، ليعيش في جَوْ جديد ملي بالتعب والنصب. وهنا أخذ آدم يفكر في تلافي خطئه، فاتجه بكل وجوده الى بارئه وهو نادم أشد الندم.

وادرسته رحمة الله في هذه اللحظات كما تقول الآية «فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

«التوبة» في اللغة بمعنى «العودة»، وهي في التعبير القرآني، بمعنى العودة عن الذنب، إن نُسبت الى المذنب. وإن نسبت كلمة التوبة الى الله فتعني عودته سبحانه الى الرحمة التي كانت مسلوقة عن العبد المذنب. ولذلك فهو تعالى «تَوَّابٌ» في التعبير القرآني. بعبارة أخرى «توبة» العبد عودته الى الله، لان الذنب فرار من الله والتوبة رجوع اليه. وتوبة الله، إغداق رحمته على عبده الآيب.^١

(١) ولذلك، توبة العبد تتعدى بحرف الجر (الى)، وتوبة الله تتعدى بـ (على)، فيقال في الاولي «تاب

صحيح أن آدم لم يرتكب محرّماً، ولكن ترك الأولى يعتبر معصية منه. ولذلك سرعان ما تدارك الموقف، وعاد الى خالقه.

وسنتحدث فيما بعد عن المقصود بـ «الكلمات» في الآية.

* * *

على أي حال، لقد حدث ما حدث، وتوبة آدم قد قُبِلت، لكن الاثر الوضعي للهبوط في الارض لم يتغير، كما يذكر القرآن: «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى، فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

* * *

وقفات

١- الكلمات التي تلقاها آدم

تعددت الآراء في تفسير «الكلمات» التي تلقاها آدم من ربه.

المعروف أنها الكلمات المذكورة في الآية ٢٣ من سورة الأعراف: «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

وقال آخرون أن المقصود من الكلمات هذا الدعاء:

«اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ ، رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، فَاعْفُرْ لِي إِنَّكَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ».

اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ ، رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، فَارْحَمْنِي إِنَّكَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ».

اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ ، رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، فَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

وهذا ما نقل في رواية عن الامام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) ١.

اليه» وفي الثانية «تاب عليه». راجع التفسير الكبير للفتخر الرازي وتفسير الصافي، ذيل آيات بحثنا.

(١) مجمع البيان، ذيل الآيات التي نحن بصددھا.

مثل هذه التعبيرات ذكرها القرآن على لسان يونس وموسى (عليهما السلام). يونس ناجى ربّه فقال: «سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» (الانبيا، ٨٧). وموسى أيضاً: «قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ» (القصص، ١٦).

وفي روايات وردت عن طرق أهل البيت (عليهم السلام) أن المقصود من «الكلمات» أسماء أفضل مخلوقات الله وهم: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين - عليهم أفضل الصلاة والسلام - وآدم توسل بهذه الكلمات ليرفع العفو من رب العالمين فعفا عنه.

هذه التفاسير الثلاثة لا تتعارض مع بعضها، ولعلّ آدم تلقى من ربّه كل هذه الكلمات، كي يحدث فيه تغيير روحي تام بعد أن يعي حقيقة هذه الكلمات، ويشمله بعد ذلك لطف الله ورحمته.

٢- سبب تكرار جملة «أهبطوا»

الامر بالهبوط تكرر في الآيتين: ٣٦ و ٣٨ من هذه السورة، أي قبل توبة آدم وحواء وبعدها. للمفسرين رأيان في سبب التكرار، بعضهم قالوا للتأكيد، وآخرون قالوا إن موضوع الجملة الأولى يختلف عن موضوع الجملة الثانية.

والظاهر أن الجملة الثانية توضح لآدم مسألة عدم إنتفاء الهبوط في الارض بعد قبول التوبة، وعدم الانتفاء هذا يعود إما إلى أن آدم قد خلق منذ البداية لهذا الهدف، أو لأن هذا الهبوط أثر وضعي لعمله. وهذا الاثر الوضعي لا يتغير بالتوبة.

٣- من هم المخاطبون في جملة «أهبطوا»؟

الضمير في «أهبطوا» للجمع، بينما عدد المخاطبين إثنان فقط هما آدم وزوجه. والجمع هنا ناظر الى النتيجة التي تستتبع هبوط آدم وحواء في الارض. فابنواؤهما واجيال البشر بعدهما سيستقرون على هذه المعمورة.

الآية

٤٠ - «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ».

التفسير

ذكر النعم الالهية

مرت بنا في الايات السابقة قصة خلافة آدم في الأرض، وموقف الملائكة منه، ثم نسيانه العهد الالهى وهبوطه الى الأرض، وبعد ذلك توبته.

ومن أحداث قصة آدم، اتضح أن الساحة الكونية تنطوى دوما على قوتين قوة الحق وقوة الباطل. وهاتان القوتان متقابلتان ومتصارعتان، ومن اتبع الشيطان في هذا الصراع فقد اختار طريق الباطل، ومصيره الابتعاد عن الجنة والسعادة، و معاناة المصائب والآلام، ومن ثمّ الندم. ومن التزم بأوامر الله ونواهيه وتغلب على وساوس الشيطان واتباعه، فقد سار على طريق الحق، وابتعد عن نكد العيش وضنكه وآلامه.

لما كانت قصة بني اسرائيل ابتداءً من تحررهم من السيطرة الفرعونية واستخلافهم في الأرض، و مروراً بنسيان العهد الالهى، وانتهاءً بسقوطهم في حضيض الانحراف والعذاب والمشقة، تشبه الى حد كبير قصة آدم، بل هي فرع من ذلك الاصل العام، فان الله سبحانه في آية بحثنا وعشرات الآيات الاخرى التالية، يبين مقاطع من حياة بني اسرائيل ومصيرهم، لاكمال الدرس التربوي الذي بدأ بقصة آدم.

يوجه القرآن خطابه الى بني اسرائيل ويقول: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ».

الوامر الثلاثة التي تذكرها الآية الكريمة وهي: ذكر النعم الالهية، والوفاء

بالعهد، والخوف من الله، تشكل المنهج الالهي الكامل للبشرية. ذكر النعم الالهية يحفز الانسان للاتجاه نحو معرفة الله سبحانه وشكره. واستشعار العهد الالهي الذي يستتبع النعم الالهية يدفع الكائن البشري الى النهوض بمسؤولياته وواجباته. ثم الخوف من الله وحده -دون سواه- يمنح الانسان العزم على تحدي كل العقبات، التي تقف بوجه تحقيق اهدافه والالتزام بعهده. لان التخوف الموهوم من هذا وذاك أهم موانع الالتزام بالعهد الالهي. و ظاهرة الخوف كانت متغلغلة في أعماق نفوس بني اسرائيل نتيجة السيطرة الفرعونية الطويلة عليهم.

* * *

وقفات

١- اليهود في المدينة

يحتل الحديث عن اليهود قسماً هاماً من سورة البقرة، التي هي أول سورة نزلت في المدينة كما صرح بذلك بعض العلماء لأنّ اليهود كانوا أشهر مجموعة من أهل الكتاب في المدينة، وكانوا قبل ظهور النبي (صلى الله عليه وآله) ينتظرون رسولاً بشرت به كتبهم الدينية، كما انهم كانوا يتمتعون بمكانة اقتصادية مرموقة، و لذلك كله كان لليهود نفوذ عميق في المدينة.

مع ظهور الاسلام، باعتباره الرسالة التي تقف بوجه مصالحهم اللامشروعة وانحرافاتهم و غَطَرَ سَتِيهِمْ، فانهم وقفوا بوجه الدعوة، وبدأوا يحكون ضدها المؤامرات التي لازالت مستمرة حتى اليوم، وبعد أربعة عشر قرناً من البعثة النبوية المباركة.

الآية المذكورة و آيات تالية انحّت باللائمة الشديدة على اليهود، وهزت عواطفهم بذكر مقاطع حساسة من تاريخهم، بحيث لو كان لأحدهم قليل من الموضوعية لإستيقظ واتجه نحو الاسلام. كما إن هذا السرد لتاريخ اليهود درس ملي بالعبر للمسلمين.

وسنقف في آيات تالية باذن الله عند دروس من تاريخ اليهود، مثل نجاحهم من فرعون، وانفلاق البحر لهم، و غرق الفرعونيين، و ميعاد موسى في جبل الطور، و عبادة بني اسرائيل للعجل في غياب موسى، والامر بالتوبة و قتل النفس، و نزول النعم الخاصة الالهية، وامثالها من الدروس.

٢- ميثاق بني اسرائيل

ميثاق بني اسرائيل الالهي يتكون من اثني عشر بنداً، عشر منها ذكرت في آيتين متواليتين من هذه السورة:

«وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَذِي الْقُرْبَىٰ، وَالْيَتَامَىٰ، وَالْمَسَاكِينِ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَآتُوا الزَّكَاةَ... وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ: لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ، ثُمَّ أَفْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ»^١

وبندان ذكرا في الآية الكريمة:

«وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي، وَعَزَرْتُمْوهُمْ...»^٢

وهما: الايمان بالانبياء ومؤازرتهم.

كانَ بنو اسرائيل قد وعدوا بالنعيم إن وفوا بعهودهم، «وَلَا تُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» لكنهم نقضوا الميثاق، ولا يزالون حتى اليوم ينقضونه. وكان نتيجة ذلك التشتيت والتشريد، و سيقون كذلك ماداموا ناكثين. واذا رأينا لهم يوماً جولة بفضل الدعم الاستكباري لهم، فان هذه الجولة سرعان ما ستخبو ان شاء الله أمام صولة ابناء الاسلام.. وها نحن نرى في الافق ارهاصات ذلك .. متمثلة في الصحوة الاسلامية التي تدفع بالشباب أن يتخلوا عن المدارس الفكرية المنحرفة والاتجاهات القومية والعنصرية الكافرة، و يدخلوا في دين الله أفواجا.

٣- وفاء الله بعهده

نعم الله تستتبعها دوما قيود و شروط، والى جانب كل نعمة، مسؤولية و شرط.

(١) البقرة، ٨٣ و ٨٤ .

(٢) المائدة، ١٢ .

عن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) في قول الله عزوجل اوفوا بعهدى قال: قال بولاية امير المؤمنين (عليه السلام) «أوفِ بِعَهْدِكُمْ أوفِ لَكُمْ بِالْجَنَّةِ»! ولا عجب إن ورد الايمان بولاية علي (عليه السلام) في هذا الحديث، باعتباره جزءاً من العهد. لان الايمان بالانبياء وموآزرتهم، من بنود العهد مع بني إسرائيل، و يستتبع ذلك الايمان بخلفاء الانبياء باعتبارهم امتداد المسألة القيادة والولاية. وهذه المسألة ينبغي تحققها بشكل يتناسب مع زمانها. موسى في زمانه كان يتولى مسؤولية القيادة والولاية، والرسول الخاتم هو الذي كان يتولى هذه المسؤولية في عصره، ثم تولاها في زمن تال علي بن ابي طالب (عليه السلام).

جملة «إِيَّايَ فَارْهَبُونِ» تأكيد على كسر كل حواجز الخوف القائمة في طريق الوفاء بالعهد الالهي، وعلى الخوف من الله وحده دون سواه، وهذا الحصر يتضح من تقديم ضمير النصب المنفصل «إِيَّايَ» على جملة «فَارْهَبُونِ».

٤- لماذا سمي اليهود «بني اسرائيل»؟

«اسرائيل» أحد أسماء يعقوب والد يوسف، وفي سبب تسمية يعقوب بهذا الاسم، ذكر المؤرخون غير المسلمين عللاً ممزوجة بالخرافة. ورد في «قاموس الكتاب المقدس»: «أن اسرائيل تعني الشخص المنتصر على الله»!! ويقول: «وهذه الكلمة لُقِبَ بها يعقوب بن اسحاق بعد أن صرع الملك الالهي».

ويقول تحت عنوان «يعقوب»: إنه أثبت مقاومته واستقامته وايمانه، وفي هذه الحالة غير الله اسمه الى «اسرائيل»، ووعده أن يكون أباً لكل الطوائف.. ثم مات بعد أن هرم، ودفن كما يدفن السلاطين الدنيويون وأطلق اسم يعقوب وإسرائيل على جميع قومه».

ويقول تحت كلمة «اسرائيل»: «لهذا الاسم معان كثيرة، يقصد به أحياناً نسل

اسرائيل ونسل يعقوب»^١

أما علماؤنا كالمفسر المعروف «الطبرسي» فيقول في «مجمع البيان»: إن اسرائيل هو يعقوب ابن اسحاق بن ابراهيم (عليه السلام)، وإن «اسر» تعني «العبد» و «ثيل» بمعنى الله، فيكون معنى اسرائيل عبد الله.

واضح أن ما تتحدث عنه التوراة من مصارعة بين يعقوب والملك الالهي، أو بين يعقوب والله، خرافة وسخافة لا تتناسب اطلاقاً مع الكتاب الالهي، وهي اوضح دليل على تحريف التوراة الموجودة.

* * *

الآيات

- ٤١- «وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا، وَآيَاتِي فَاتَّقُونِ».
- ٤٢- «وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».
- ٤٣- «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ».

سبب النزول

روي عن الامام محمد بن علي الباقر (عليه السلام): في سبب نزول هذه الآية قال: «كَانَ حَتَّى بَنِي أَخْطَبٍ وَكَعْبُ بْنُ أَشْرَفٍ وَآخَرُونَ مِنَ الْيَهُودِ، لَهُمْ مَا كَلَّمَهُ عَلَى الْيَهُودِ فِي كُلِّ سَنَةٍ، فَكَرِهُوا بَطْلَانَهَا بِأَمْرِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، فَحَرَفُوا لِذَلِكَ آيَاتٍ مِنَ التَّوْرَةِ فِيهَا صِفَتُهُ وَذِكْرُهُ فَذَلِكَ التَّمَنُّ الَّذِي أُرِيدَ فِي الْآيَةِ»^١.

* * *

التفسير

جشع اليهود.

الآيات المذكورة أعلاه تتطرق الى تسعة عن بنود العهد الذي أخذه الله على بني

إسرائيل.

يقول تعالى: «وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ»، فالقرآن مصدق لما مع اليهود من كتاب. أي إن البشائر التي زفتها التوراة والكتب السماوية الاخرى، بشأن النبي الخاتم، والاصناف التي ذكرتها لهذا النبي ولكتاب السماوي، تنطبق على محمد (صلى الله عليه وآله)، وعلى القرآن المنزل عليه. فلماذا لا تؤمنون به؟!.

(١) تفسير مجمع البيان المجلد الاول ذيل الآية.

ثم يقول سبحانه: «وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرِينَ»، أي - لا عجب أن يكون المشركون والوثنيون في مكة - كفاراً بالرسالة، بل العجب في كفركم، بل في كونكم رواداً للكفر، و سباقين للمعارضة. لانكم أهل كتاب، وكتابكم يحمل بشائر ظهور هذا النبي، وكنتم لذلك تترقبون ظهوره. فما عدى مما بدى؟ ولماذا كنتم اول كافر به؟!
أنه تعنتهم الذى لولاه لكانوا أول المؤمنين برسالة النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله).

المقطع الثالث من الآية يقول: «وَلَا تَسْتُرُوا بِآيَاتِي تَمَنَّا قَلِيلًا». آيات الله، لا يمكن - دون شك - معاوضتها، بأي ثمن، قليلاً كان أم كثيراً. وفي تعبير هذه الآية إشارة الى دناءة هذه المجموعة من اليهود، التي تنسى كل التزاماتها من اجل مصالحها التافهة. هذه الفئة، التي كانت قبل البعثة من المبشرين بظهور نبي الاسلام (صلى الله عليه وآله)، و بكتابه السماوي، انكرت بشارات التوراة وحرفتها، حين رأت مصالحها معرضة للخطر، وعلمت أن مكانتها الاجتماعية معرضة للانهايار، ان فهم الناس الحقيقة.

في الحقيقة، لو قدمت الدنيا باجمعها لشخص ثمننا لانكار آية واحدة من آيات الله، لكان ثمننا قليلاً، لأن هذه الحياة فانية والحياة الاخرى هي دارالبقاء والخلود. فما بالك بانسان يضحى بهذه الآيات الالهية في سبيل مصالحه التافهة؟!.

في المقطع الرابع تقول الآية: «وَإِذَا يَ فَاتَّقُونَ»، والخطاب موجّه الى زعماء اليهود الذين يخشون أن ينقطع رزقهم، و أن يثور المتعصبون اليهود ضدهم، وتطلب منهم أن يخشوا الله وحده، أي أن يخشوا عصيان أوامره سبحانه.

* * *

في البند الخامس من هذه الاوامر ينهى الله سبحانه عن خلط الحق بالباطل «وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ».

وفي البند السادس ينهى عن كتمان الحق: «... وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

كتمان الحق، مثل خلط الحق بالباطل ذنب وجريمة. والآية تقول لهم: قولوا

الحق ولو على أنفسكم، ولا تشوهوا وجه الحقيقة بخلطها بالباطل وإن تعرضت مصالحكم الآنية للخطر.

* * *

البند السابع والثامن والتاسع من هذه الأوامر يبينه قوله تعالى: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ».

البند الاخير يأمر بالصلاة جماعة، غير أن «الركوع» هو الذي ذكر دون غيره من أجزاء الصلاة، ولعل ذلك يعود الى أن صلاة اليهود كانت خالية من الركوع، تماماً، بينما احتل الركوع مكان الركن الاساسى في صلاة المسلمين.

ومن الملفت للنظر أنّ الآية لم تقل «أدّوا الصلاة»، بل قالت: «أقيموا الصلاة»، وهذا الحث يحتمل الفرد مسؤوليّة خلق المجتمع المصلي، ومسؤولية جذب الآخرين نحو الصلاة.

بعض المفسرين قال إن تعبير «أقيموا» اشارة الى اقامة الصلاة كاملة، وعدم الاكتفاء بالاذكار والاوراد، وأهم أركان كمال الصلاة حضور القلب والفكر لدى الله سبحانه، وتأثير الصلوة على المحتوى الداخلى للانسان.^١ هذه الاوامر الاخيرة تتضمن في الحقيقة: أولاً بيان ارتباط الفرد بخالقه (الصلاة)، ثم ارتباطه بالمخلوق (الزكاة)، وبعد ذلك ارتباط المجموعة البشرية مع بعضها على طريق الله!.

وقفه

هل القرآن يصدّق ما جاء في التوراة والانجيل؟!

في مواضع عديدة يصرّح القرآن بتصديقه لما جاء في الكتب الالهية السابقة، كما جاء في الآية المذكورة: «مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ» وكما جاء في الآيتين ٨٩ و ١٠١ من سورة البقرة: «مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ». وفي الآية ٤٨ من سورة المائدة: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ

(١) المنار، ج ٢، ص ٢٩٣، ومفردات الراغب مادة «قوم»

بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ».

بعض دعاة اليهودية والنصرانية. استدلوا بهذه الآيات لاثبات عدم تحريف التوراة والانجيل. وقالوا: ان التوراة والانجيل في عصر نبي الاسلام لا يختلفان حتما عما عليه الآن. وإن أصابها تحريف فهذا التحريف يعود الى فترة سابقة على ذلك العصر. ولما كان القرآن قد آيد صحة التوراة والانجيل الموجودين في عصر نبي الاسلام، فعلى المسلمين أن يعترفوا بصحة هذين الكتابين الموجودين، بين ظهرانينا اليوم.

الجواب

يؤكد القرآن في مواضع عديدة وجود علائم نبي الاسلام ودينه في تلك الكتب المحرفة، التي كانت موجودة في ايدي اليهود والنصارى آنذاك . وهذا يعني وجود حقائق في تلك الكتب لم تمتد اليها يدالتحريف، ذلك لان التحريف لايعني تغيير كل نصوص تلك الكتب السماوية، بل إن تلك الكتب كانت تحمل بين طياتها حقائق، ومن تلك الحقائق علامات النبي الخاتم (ولا زالت بعض هذه البشائر مشهودة في الكتب الموجودة الآن).

بعثة النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله) وكتابه السماوي تصديق لما جاء في تلك الكتب من علامات، أي تحقيق عملي لتلك العلامات. وكلمة التصديق بمعنى (التحقيق العملي) وردت في مواضع اخرى من القرآن الكريم كقوله تعالى لنبيه ابراهيم (عليه السلام): «قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا» (الصافات، ١٠٥).

أي أنك قد حققت عمليا رؤياك .

وتصرح الآية ١٥٧ من سورة الاعراف بان الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) تحقيق عملي لما يجدونه مكتوبا في التوراة والانجيل: «أَلَدِّينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ...» (الاعراف، الآية ١٥٧).

على أي حال، ليس في الآيات المذكورة دلالة على تصديق جميع محتويات التوراة والانجيل، بل دلالتها تقتصر على «التصديق العملي» لما جاء في الكتب الموجودة بيداليهود والنصارى بشأن النبي الخاتم وكتابه. هذا، الى جانب وجود آيات عديدة في القرآن

تتحدث عن تحريف اليهود والنصارى لآيات التوراة والانجيل، وهو شاهد حيّ صريح على مسألة التحريف.

شاهد حيّ آخر

«فخر الاسلام» الذي كان من كبار قساوسة المسيحيين، ومن الذين اكتسبوا مراتب كبيرة في الدراسات الكنسية يتحدث في مقدمة كتابه «انيس الاعلام» عن انتقاله من المسيحية الى الاسلام فيقول:

«.. بعد بحث طويل وعناء كبير وتجوّل في المدن، عثرت على قسيس كبير متميز في زهده وتقواه، كان يرجع اليه الكاتوليك بما فيهم سلاطينهم، تعلمت عليه زمنا مذاهب النصرى، وكان له طلاب كثيرون، ولكنه كان ينظر اليّ من بينهم نظرة خاصة، وكانت كل مفاتيح البيت بيدي، الامفتاحا واحداً لغرفة صغيرة، احتفظ به عنده... وفي يوم اعتلت صحة القسيس، فقال لي: قل للطلاب إني لا استطيع التدريس اليوم. حينما جئت الطلاب وجدتهم منهمكين في نقاش حول معنى «فارقليطا» في السريانية، و «پريكلتوس» في اليونانية... واستمر بينهم النقاش، وكل كان يذلي برأيه...»

بعد أن عدت الى الاستاذ سألتني عما كان يدور بين الطلاب، فأخبرته، فقال لي: وما رأيك؟

قلت: اخترت الرأي الفلاني.

قال القسيس: ما قصرّت في عملك، ولكن الحقّ غير ذلك. لان حقيقة هذا الامر لا يعلمها الا الراسخون في العلم، وقليل ماهم. اكثرث في الالحاح عليه أن يوضح لي معنى الكلمة. فبكى بكاءً مرّوا قال: لم أخف عليك شيئاً... إن لفهم معنى هذه الكلمة أثرا كبيرا، ولكنه إن انتشر فستعرض للقتل! فان عاهدتني أن لا تفضيه فسأخبرك... فأقسمت بكل المقدسات أن لا أذكر ذلك لاحد، فقال: إنه اسم من اسماء نبي المسلمين، ويعني «أحمد» و «محمد».

ثم أعطاني مفتاح الغرفة وقال: افتح الصندوق الفلاني، وهاتِ الكتابين اللذين

فيه، جئت اليه بالكتابين وكانا مكتوبين باليونانية والسريانية على جلد، ويعودان الى عصر ما قبل الاسلام.

الكتابان ترجما «فارقليطا» بمعنى أحمد ومحمد، ثم أضاف الاستاذ: علماء النصارى كانوا مجمعين قبل ظهوره أن «فارقليطا» بمعنى «أحمد ومحمد»، ولكن بعد ظهور محمد (ص)، غيروا هذا المعنى حفظا لمكانتهم ورئاستهم وأولوه، واخترعوا له معنى آخر لم يكن على الاطلاق هدف صاحب الانجيل.

سألته عما يقوله بشأن دين النصارى؟ قال: لقد نسخ بمجيي الاسلام، وكرر ذلك ثلاثاً، ثم قلت:

ما هي طريقة النجاة والصراط المستقيم في زماننا هذا؟ قال: إنما هي باتباع محمد (ص).

قلت: وهل التابعون له ناجون؟

قال: أي والله، وكرر ذلك ثلاثاً.

ثم بكى الاستاذ وبكى كثيراً ثم قال: اذا اردت الآخرة والنجاة فعليك بدين الحق.. وانا أدعوك دائماً، شرط أن تكون شاهداً لي يوم القيامة أنني كنت في الباطن مسلماً، ومن أتباع محمد (صلى الله عليه وآله) ... وما من شك أن الاسلام هو دين الله اليوم على ظهر الارض»^١.

وكما يلاحظ فان هذه الوثيقة الهامة تصرّح بما فعله علماء اهل الكتاب بعد ظهور نبي الاسلام (صلى الله عليه وآله) من تحريف لتفسير اسم النبي وعلاماته، تحقيقاً لمصالحهم الشخصية.

(١) نقلاً باختصار عن «الهداية الثانية» مقدمة كتاب «أنيس الاعلام».

الآيات

٤٤- «آتَمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟!».

٤٥- «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ».

٤٦- «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَتَّهَمُوا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

التفسير

«آتَمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ»!؟

هذا السؤال الاستنكاري - وإن كان موجها الى بني اسرائيل كما يتبين من سياق

الآيات السابقة والتالية - له حتماً مفهوم واسع يشمل الآخرين أيضاً.

قال («الطبرسي») في «مجمع البيان»: هذه الآية خطاب لعلماء اليهود.. وبتخهم

الله تعالى على ما كانوا يفعلون من أمر الناس بالايان بمحمد (صلى الله عليه وآله) وترك انفسهم في ذلك.

وقال أيضاً: كان علماء اليهود يقولون لاقربائهم من المسلمين اثبتوا على ما انتم

عليه ولا يؤمنون هم.

لذلك كانت الآية الاولى من الآيات التي يدور حولها بحثنا تحمل توبيخا

لهذا العمل: «آتَمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ، وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟!»

منهج الدعاة الى الله يقوم على أساس العمل أولاً ثم القول. فالداعية الى الله يبلغ

بعمله قبل قوله، كما جاء في الحديث عن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام):

«كُونُوا دُعَاةَ النَّاسِ بِأَعْمَالِكُمْ وَلَا تَكُونُوا دُعَاةَ بِلِسَانِكُمْ»!

(١) سفينة البحار، مادة «عمل».

التأثير العميق للدعوة العملية يأتي من قدرة مثل هذه الدعوة على فتح منافذ قلب السامع، فالسامع يثق بما يقوله الداعية العامل، ويرى أن هذا الداعية مؤمن بما يقول وأن ما يقوله صادر عن القلب. والكلام الصادر عن القلب ينفذ الى القلب. وافضل دليل على ايمان القائل بما يقوله، هو العمل بقوله قبل غيره، كما يقول علي (عليه السلام): «أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَحْتَسِبُ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَأَسِيقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ إِلَّا وَآتَاهُنَّ قَبْلَكُمْ عَنْهَا»^١.

وفي حديث عن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام): «مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ وَصَفَ عَدْلًا وَعَمِلَ بغيرِهِ»^٢.

علماء اليهود كانوا يخشون من انهيار مراكز قدرتهم وتفرق عامة الناس عنهم، إن اعترفوا برسالة خاتم الانبياء، ولذلك حرقوا ما ورد بشأن صفات نبي الاسلام في التوراة. والقرآن يحث على الاستعانة بالصبر والصلاة للتغلب على الالهواء الشخصية والميل النفسية، فيقول في الآية التالية: «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ» ثم يؤكد أن هذه الاستعانة ثقيلة لا ينهض بعبئها الا الخاشعون: «وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ». وفي الآية الاخيرة من هذه المجموعة وصف للخاشعين: «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

كلمة «يَظُنُّونَ» من مادة «ظن» وقد تأتي بمعنى اليقين^٣. وفي هذا الموضع تعني الايمان واليقين القطعي. لان الايمان بلقاء الله والرجوع اليه، يحيى في قلب الانسان حالة الخشوع والخشية والاحساس بالمسؤولية، وهذا أحد آثار تربية الانسان على الايمان بالمعاد، حيث تجعل هذه التربية الفرد ماثلاً دوماً أمام مشهد المحكمة الكبرى، وتدفعه الى النهوض بالمسؤولية و الى الحق والعدل.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٥.

(٢) تفسير نورالثقلين، ج ١، ص ٦٤.

(٣) يقول الراغب في المفردات: الظن اسم لما يحصل عن أمانة حتى قويت أدت الى العلم، ومتى ضعفت

جدا لم يتجاوز حد التوهم.

و يحتمل أن يكون استعمال «الظن» في الآية للتأكيد، أي إن الانسان لو ظنّ بالآخرة فقط، فظنه كاف لأن يصدّه عن ارتكاب أي ذنب. وهو تقرير لعلماء اليهود و تأكيد على أنهم لا يمتلكون إيماناً باليوم الآخر حتى على مستوى الظن، فلو ظنوا بالآخرة لأحسوا بالمسؤولية، وكفوا عن هذه التحريفات.^١

* * *

وقفتان

١- ماهولقاء الله؟

عبارة «لقاء الله» وردت مرارا في القرآن الكريم، وتعني باجمعها الحضور على مسرح القيامة. من البديهي أن المقصود بلقاء الله ليس هو اللقاء الحسيّ، كلقاء افراد البشر مع بعضهم، لان الله ليس بجسم، ولا يحده مكان، ولا يرى بالعين. بل المقصود مشاهدة آثار قدرة الله وجزاءه وعقابه ونعمه وعذابه على ساحة القيامة، كما ذهب الى ذلك جمع من المفسرين.

أو إن المقصود الشهود الباطني والقلبي، لان الانسان يصل درجة كأنه يرى الله ببصيرته أمامه، بحيث لا يبقى في نفسه أي شك و ترديد.

هذه الحالة قد تحصل للافراد نتيجة الظهور والتقوى والعبادة وتهذيب النفس في هذه الدنيا. و في «نهج البلاغة» نقراً: أن «ذعلب اليماني» وهو من فضلاء اصحاب

الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام)، سأل علياً: - هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟
اجابه علي: أَفَأَعْبُدُ مَا لَا أَرَى؟!

وحين طلب ذعلب مزيداً من التوضيح قال الامام:

«لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ»^٢.
هذا الشهود الباطني ينجلي للجميع يوم القيامة، ولا يبقى أحد الا وقد آمن ايماناً

(١) المنار، ج ١، ص ٣٠٢، والميزان، ج ١، ص ١٥٤. وتفسير روح المعاني، ج ١، ص ٢٢٨. وفي آيات أخر

إشارة الى هذا المعنى كقوله تعالى: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا» (الكهف/١٠).

(٢) نهج البلاغة، الكلام ١٧٩.

قاطعا، لوضوح آثار عظمة الله وقدرته في ذلك اليوم.

٢- سبيل التغلب على الصعاب

ثمة منطلقان اساسيان للتغلب على الصعاب والمشاكل، أحدهما منطلق قوي داخلي، والآخر منطلق مستحکم خارجي.

اشارت الآية الى هذين المنطلقين بعبارة «الصوم» و «الصلاة». فالصبر هو حالة الصمود والاستقامة والثبات في مواجهة المشاكل، والصلاة هي وسيلة الارتباط بالله حيث السند القوي المكين.

كلمة «الصبر» فسرت في روايات كثيرة بالصوم، لكنها لا تنحصر حتما. بل الصوم احد المصايق الواضحة البارزة للصبر. لان الانسان يحصل في ظل هذه العبادة الكبرى على الارادة القوية والايان الراسخ والقدرة على التحكم في الميول والرغبات. روى بعض المفسرين في تفسير هذه الآية: أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان إذا أحزنه أمر استعان بالصلاة والصوم.^١

وعن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) انه قال: «مَا يَمْنَعُ أَحَدُكُمْ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ غَمٌّ مِنْ غُمُومِ الدُّنْيَا أَنْ يَتَوَضَّأَ ثُمَّ يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ فَيَرْكَعُ رَكَعَتَيْنِ يَدْعُو اللَّهَ فِيهِمَا، أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ»^٢.

التوجه الى الصلاة والتضرع الى الله سبحانه يمنح الانسان طاقة جديدة تجعله قادراً على مواجهة المشاكل.

وفي كتاب «الكافي» عن الصادق (عليه السلام): «كَانَ عَلِيٌّ (عليه السلام) إِذَا هَالَهُ امْرُؤٌ رَفَعَ إِلَى الصَّلَاةِ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ».

نعم، الصلاة تربط الانسان بالقدرة اللامتناهية التي لا يقهرها شئ. وهذا الاحساس يبعث في الانسان قوة وشهامة على تحدي المشاكل والصعاب.

(١) الطبرسي، مجمع البيان، ذيل الآية المذكورة. (٢) نفس المصدر.

الآيتان

- ٤٧ - «يا بني إسرائيل اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ».
- ٤٨ - «وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

التفسير

أوهام اليهود.

في هذه الآيات خطاب اخر الى بني اسرائيل فيه تذكير بنعم الله: «يا بني إسرائيل اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ».

هذه النعم سابعة واسعة النطاق، ابتداء من الهداية والايان، وانتهاء بالنجاة من فرعون ونبيل العظمة والاستقلال.

ثم تشير الآية من بين كل هذه النعم الى نعمة التفضيل على بقية البشر، وهي نعمة مركبة من نعم مختلفة، وتقول: «وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ».

لعل بعضاً تصور أن هذا التفضيل صفة أبدية مستمرة على مرالعصور. لكن دراسة سائر آيات القرآن تبين أن هذا التفضيل هو تفضيل بني اسرائيل على غيرهم من افراد عصرهم ومنطقتهم، لا تفضيلاً مطلقاً. فالقرآن الكريم يخاطب المسلمين في آية أخرى و يقول: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ..» (آل عمران، ١١٠).

كما يتحدث القرآن عن وراثة بني اسرائيل للارض فيقول: «وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا» (الاعراف، ١٣٧).

وواضح أن هذه الوراثة لم تكن تشمل آنذاك جميع العالم، والمقصود من الآية مشارق المنطقة التي كانوا يعيشون فيها ومغاربها، من هنا فالتفضيل على العالمين هو تفضيلهم على

افراد منطقتهم.

الآية التالية ترفض أوهام اليهود، التي كانوا يتصورون بموجبها أن الانبياء من أسلافهم سوف يشفعون لهم، أو أنهم قادرون على دفع فدية و بدل عن ذنوبهم، كدفعهم الرشوة في هذه الحياة الدنيا.

القرآن يخاطبهم ويقول: «وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا. وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ. وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ. وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

الحاكم أوالقاضي في تلك المحكمة الالهية، لا يقبل سوى العمل الصالح، كما تقول الآية الكريمة: «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» (الشعراء، ٨٨ و٨٩). هذه الآية الثامنة والاربعون من سورة البقرة، تشير في الواقع الى ما يجري من محاولات في هذه الحياة الدنيا لانقاذ المذنب من العقاب.

ففي الحياة الدنيا قد يتقدم إنسان لدفع غرامة عن انسان مذنب لانقاذ هذا المذنب من العقاب، أما في الآخرة (لا تجزي نفس عن نفس). وربما يقدم المذنب في هذه الحياة شفعاء لينقذوه مما ينتظره من مصير، لكن الانسان لا تقبل منه في الآخرة شفاعة.

واذا لم تُجدِ الشفاعة يتقدم الانسان في الحياة الدنيا بدفع (العدل) وهو بدل الشيء من جنسه، اما في الآخرة ف (لا يُؤخذ منها عدل).
واذا لم تنفع الوسائل المذكورة كلها، يستصرخ اصحابه لينصروه و يخلصوه من الجزاء، وفي الآخرة لا يقوم بنجاتهم أحد (ولاهم يُنصرون).

فالسبيل الوحيد للنجاة يوم القيامة، هو الايمان والتقوى والاستعانة بلطف الباري تعالى. تاريخ الشرك و تاريخ المنحرفين من أهل الكتاب، مليئ بافكار خرافية تدور حول محورالتوسل بمثل الامور التي ذكرتها الآية الكريمة للفرار من العقاب الاخروي. صاحب المناري ذكر مثلا، أن الناس في بعض مناطق مصر- في قديم الايام- كانوا يدفعون مبلغا من المال الى الذي يتعهد غسل الميت، ويسمون هذا المبلغ أجرة الإنتقال الى الجنة.^١

وفي تاريخ اليهود نقرأ أنهم كانوا يقدمون القرابين للتكفير عن ذنوبهم، وان لم يجدوا قربانا كبيراً يكتبون بتقديم حمامتين!^١
وفي التاريخ القديم كانت جماعة تدفن مع الميت حليته واسلحته، ليستفيد منها في الحياة الاخرى.^٢

* * *

القرآن ومسألة الشفاعة

العقاب الالهي في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا ينزل بساحة الانسان دون شك من أجل الانتقام. بل ان العقوبات الالهية تشكل عنصر الضمان في تنفيذ القوانين، و تؤدي في النتيجة الى تقدم الانسان و تكامله. من هنا يجب الاحتراز عن أي شيء يضعف من قوة عنصر الضمان هذا، كي لا تنتشر بين الناس الجرأة على ارتكاب المعاصي والذنوب.

من جهة أخرى، لا يجوز غلق باب العودة والاصلاح بشكل كامل في وجه المذنبين، بل يجب فسخ المجال لهم لاصلاح أنفسهم و للعودة الى الله والى الظهور والتقوى.

«الشفاعة» بمعناها الصحيح تستهدف حفظ هذا التعادل. إنها وسيلة لعودة المذنبين والمولوثين بالخطايا، و بمعناها الخاطئ تشجع على ارتكاب الذنوب. أولئك الذين لم يفرقوا بين المعنى الصحيح والخاطي لمسألة الشفاعة، أنكروا هذه المسألة بشكل كامل، واعتبروها شبيهة بالوساطات التي تقدم الى السلاطين والحكام الظالمين.

وثمة مجموعة كالموهابين استندوا الى الآية الكريمة: «لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ»، فانكروا الشفاعة تماما، دون الالتفات الى سائر الآيات في هذا المجال. اعتراضات المنكرين لمسألة الشفاعة يمكن تلخيصها بما يلي:

(١) المنار، ج ١، ص ٣٠٦.

(٢) الميزان، ج ١، ص ١٥٦.

- ١ - الاعتقاد بالشفاعة، يضعف روح السعي والمثابرة في نفس الانسان.
- ٢ - الاعتقاد بالشفاعة، انعكاس عن ظروف المجتمعات المتأخرة والاقطاعية.
- ٣ - الاعتقاد بالشفاعة، يؤدي الى التشجيع على ارتكاب الذنوب و ترك المسؤوليات.

- ٤ - الاعتقاد بالشفاعة، نوع من الشرك بالله، وهو معارض للقرآن!
 - ٥ - الاعتقاد بالشفاعة، يعني تغيير احكام الله وتغيير ارادته واوامره!
- ولكن كل هذه الاعتراضات ناتجة - كما سنرى - عن الخلط بين الشفاعة بمفهومها القرآني، والشفاعة بمعناها المنحرف الرائج بين الجهلة من الناس .
- لما كانت هذه المسألة في جانبها الايجابي والسليبي ذات أهمية بالغة، فعلىنا أن ندرسها بالتفصيل من حيث مفهومها و فلسفتها، وارتباطها بعالم التكوين، و موقعها في القرآن والحديث، وصلتها بالتوحيد والشرك ، كي يزول كل إبهام يرتبط بالآية المذكورة وسائر الآيات في حقل الشفاعة.

* * *

١- المفهوم الحقيقي للشفاعة:

كلمة «الشفاعة» من «الشفع» بمعنى «الزوج» و «ضم الشيء الى مثله»، يقابلها «الوتر» بمعنى «الفرد». ثم اطلقت على انضمام الفرد الاقوى والاشرف الى الفرد الاضعف لمساعدة هذا الضعيف وها في العرف والشرع معنيان متباينان كل التباين:

الف: إن الشفاعة تعني أن الشفيع يستفيد من مكانته وشخصيته ونفوذه، لتغيير رأي صاحب قدرة بشأن معاقبة من هم تحت سيطرته.

والشفيع قد يرعب صاحب القدرة هذا، أو قديستعطفه، او قد يغير افكاره بشأن ذنب المجرم واستحقاقه للعقاب.. وامثال هذه الاساليب .

الشفاعة بهذا المعنى هي - بعبارة موجزة - لا تعني حدوث اي تغيير في المحتوى النفسي والفكري للمجرم أو المتهم. بل إن كل التغييرات والتحويلات تتوجه نحو الشخص الذي تقدم اليه الشفاعة (تأمل بدقة).

هذا اللون من الشفاعة ليست له مكانة في المفهوم الديني على الاطلاق. لان الله

سبحانه وتعالى منزه عن الخطأ ولذلك لا يمكن تغيير رأيه، ولا يحمل تلك العواطف الموجودة في نفس الانسان كي يمكن اثارة عواطفه، ولا يهاب نفوذ شخص كي ينصاع لأوامره، ولا يدور ثوابه وعقابه حول محور غير محور العدالة.

ب: المفهوم الآخر للشفاعة يقوم على أساس تغيير موقف «المشفوع له». أي إن الشخص المشفوع له يوفر في نفسه الظروف والشروط التي تؤهله للخروج من وضعه السيئ الموجب للعقاب، وينتقل - عن طريق الشفيع الى وضع مطلوب حسن يستحق معه العفو والسماح. والايان بهذا النوع من الشفاعة - كما سنرى - يربي الإنسان و يصلح الافراد المذنبين، ويبعث فيهم الصحة واليقظة. والشفاعة في الاسلام لها هذا المفهوم السامي. و سنرى أن كل الاعتراضات والانتقادات والحملات التي توجه الى مسألة الشفاعة، انما تنطلق من فهم الشفاعة بالمعنى الاول المنحرف، ولا تلتفت الى المعنى الثاني المنطقي المعقول البتاء.

هذا تفسير مقتضب للونين من ألوان الشفاعة احدهما «تخديري»، والآخر «بتاء».

* * *

٢- الشفاعة في عالم التكوين

التفسير الصحيح والمنطقي للشفاعة بالمفهوم الذي مرّ بنا، نرى له مصاديق كثيرة في عالم التكوين والخالقة، (اضافة الى عالم التشريع). الطاقات الاقوى في هذا العالم تنضم الى الأضعف منها لتسيرها نحو أهداف بتاء.

الشمس تشرق والامطار تتساقط، لتفجر القوة الكامنة في جسد البذرة النباتية و لتحركها نحو الالبيات، ونحوشق جسم التربة والخروج الى الفضاء الذي استمدت البذرة منه طاقات النمو والتكامل.

هذه الظواهر هي في الحقيقة شفاعة تكوينية على صعيد قيامة الحياة الدنيا. ولو انطلقنا من هذه النماذج الكونية في الشفاعة، لفهم الشفاعة على صعيد التشريع، لا بتعدنا عن الانحراف، و سنوضح ذلك قريبا.

* * *

٣- مستندات الشفاعة:

القرآن الكريم تحدث في ثلاثين موضعاً عن مسألة «الشفاعة» (بهذا اللفظ)، وهناك اشارات اخرى الى هذه المسألة دون ذكر لفظها.

يمكن تقسيم آيات الشفاعة في القرآن الى المجموعات التالية.

المجموعة الاولى - آيات ترفض الشفاعة بشكل مطلق كقوله تعالى: «أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ» (البقرة، ٢٥٤)، و كقوله تعالى: «وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ» (البقرة، ٤٨).

هذه الآيات رفضت كل الطرق المتصورة لانقاذ المجرمين غير الايمان والعمل الصالح، سواء كان طريق دفع العوض المادي. أو طريق الصداقة والخلقة، أو طريق الشفاعة.

و يقول تعالى بشأن بعض المجرمين: «فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ» (المدثر،

٤٨).

المجموعة الثانية - آيات تحصر الشفاعة بالله تعالى، كقوله سبحانه: «مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ» (السجده، ٤)، و «قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً» (الزمر، ٤٤).

المجموعة الثالثة - آيات تجعل الشفاعة متوقفة على إذن الله تعالى كقوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» (البقرة، ٢٥٥)، وقوله: «وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ» (السيا، ٢٣).

المجموعة الرابعة - آيات تبين شروطا خاصة للمشفوع له. هذه الشروط تتمثل أحيانا في رضا الله سبحانه: «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى» (الانبياء، ٢٨). واستنادا الى هذه الآية، شفاعة الشفعاء تشمل فقط اولئك الذين بلغوا مرتبة «الارتضاء» أي القبول لدى الله سبحانه وتعالى.

و يتمثل الشرط أحيانا بالعهد عندالله: «لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا» (مرم، ٨٧)، والمقصود من هذا العهد الايمان بالله ورسوله.

و يتحدث القرآن عن سلب صلاحية الاستشفاع عن بعض الافراد مثل

المجرمين، كقوله تعالى: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ» (غافر، ١٨).
 مما تقدم يتضح أن اتخاذ العهد الالهي، والوصول الى منزلة نبيل رضا الله،
 واجتناب بعض الذنوب مثل الظلم، شروط حتمية للشفاعة.

* * *

٤- الشروط المختلفة للشفاعة:

آيات الشفاعة تصرح أن مسألة الشفاعة في مفهوم الاسلام مقيدة بشروط، هذه
 الشروط تحدد تارة الخطيئة التي يستشفع المذنب لها، وتحدد تارة اخرى الشخص
 المشفوع له، كما تقيد من جهة اخرى الشفيع، وهذه الشروط بمجموعها تكشف
 عن المفهوم الحقيقي للشفاعة وعن فلسفتها.
 ثمة ذنوب كالظلم مثلا خارجة عن دائرة الشفاعة، كما مرّ، ولو فهمنا «الظلم»
 بمعناه الواسع - كما سنرى من خلال الاحاديث - فان الشفاعة تقتصر على المجرمين
 النادمين السائرين على طريق اصلاح أنفسهم، والشفاعة في هذه الحالة ستكون دعامة
 للتوبة وللندم (سنجيب اولئك الذين يتصورون أن التائب النادم لا يحتاج
 الى الشفاعة).

كما ان الشفاعة تشمل اولئك المرتقين الى درجة «الارتضاء» والى درجة الالتزام
 بالعهد الالهي كما مرّ أيضا.

الارتضاء، واتخاذ العهد، يعينان على المستوى اللغوي والروائي الايمان بالله
 والحساب والميزان والثواب والعقاب، والاعتراف بالحسنات والسيئات، وبما أنزل الله،
 ايمانا عميقا في الفكر، ظاهراً في العمل.. ايمانا يبعد صاحبه عن صفات الظالمين الذين لا
 يؤمنون بأية قيمة إنسانية، ويدفعه الى إعادة النظر في منهج حياته.

يقول تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ
 الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» (النساء، ٦٤)، هذه الآية تجعل الاستغفار مقدمة لشفاعة
 رسول الله (صلى الله عليه وآله).

و يقول: «قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ، قَالَ: سَوْفَ
 اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ» (يوسف، ٩٧ و٩٨) آثار الندم واضحة على إخوة يوسف

في طلبهم من أبيهم.

ويقول سبحانه: «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ» (المؤمن، ٧) فاستغفار الملائكة وشفاعتهم تقتصر على الافراد المؤمنين السالكين سبيل الله.

وهنا يطرح ايضاً سؤال بشأن جدوى الشفاعة للافراد المؤمنين السالكين سبيل الله، و سنجيب على ذلك في دراسة حقيقة الشفاعة.

و بشأن الشفاعة ذكر القرآن لهم شرطاً في قوله تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» (الزخرف، ٨٧). من هنا فالمشفوع له ايضاً ينبغي ان يسلك طريق الحق في القول والعمل، كي يكون له ارتباط بالشفيع، وهذا الارتباط الضروري، بين الشفيع والمشفوع له، يعتبر بدوره عاملاً بنّاءاً في تعبئة الطاقات على طريق الحق.

* * *

٥- الشفاعة في الحديث:

في الروايات الاسلامية تعابير كثيرة تكمل محتوى الآيات المذكورة و توضح ما خفي منها، من ذلك :

١- في تفسير «البرهان» عن الامام موسى بن جعفر الكاظم (عليه السلام) عن علي بن ابي طالب (عليه السلام) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) يَقُولُ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي...» راوي الحديث ابن ابي عمير يقول: فَقُلْتُ لَهُ يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ كَيْفَ يَكُونُ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ وَاللَّهُ يَقُولُ «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى» وَمَنْ يَرْتَكِبُ الْكِبَائِرَ لَا يَكُونُ مُرْتَضَى بِهِ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا أَحْمَدَ مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَرْتَكِبُ ذَنْبًا إِلَّا سَاءَهُ ذَلِكَ وَنِدِمَ عَلَيْهِ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) كَفَى بِاللَّدِيمِ تَوْبَةً... وَمَنْ لَمْ يَنْدَمْ عَلَى ذَنْبٍ يَرْتَكِبُهُ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَلَمْ تَجِبْ لَهُ الشَّفَاعَةُ وَكَانَ ظَالِمًا وَاللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ يَقُولُ «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ»^١.

صدرا الحديث يتضمن أن الشفاعة تشمل مرتكبي الكبائر. لكن ذيل الحديث

يوضح أن الشرط الاساسى في قبول الشفاعة هو الايمان الذى يدفع المجرم الى مرحلة الندم وجبران ما فات والبناء الداخلى ويبعده عن الظلم والطغيان والعصيان. (تأمل بدقة).

٢ - في كتاب «الكافي» عن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) في رسالة كتبها الى أصحابه قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْفَعَهُ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ عِنْدَ اللَّهِ فَلْيَطْلُبْ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَرْضَىٰ عَنْهُ»^١.

يتبين من سياق الرواية، أن كلام الامام يستهدف اصلاح الخطا الذي وقع فيه بعض اصحاب الامام في فهم مسألة الشفاعة: ويرفض بصراحة مفهوم الشفاعة الخاطئ المشجع على ارتكاب الذنوب.

٣ - وعن الصادق (عليه السلام) أيضاً: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعَثَ اللَّهُ الْعَالِمَ وَالْعَابِدَ، فَإِذَا وَقَفَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قِيلَ لِلْعَابِدِ: ائْتَلِقْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَقِيلَ لِلْعَالِمِ: قِفْ تَشْفَعُ لِلنَّاسِ بِحُسْنِ تَأْدِيبِكَ لَهُمْ»^٢.

في هذا الحديث نجد ارتباطا بين «تأديب العالم» و «شفاعته لمن أدبهم» وهذا الارتباط يوضح كثيرا من المسائل المهمة في بحثنا هذا.

أضف الى ما سبق أن في اختصاص الشفاعة بالعالم وسلبها من العابد، دلالة أخرى على أن الشفاعة في مفهوم الاسلام مدرسة للتربية وتجسيد لما مر به الفرد من مراحل تربوية في هذا العالم.

* * *

٦- التأثير المعنوي للشفاعة:

ما ذكرناه من روايات بشأن الشفاعة هو غيض من فيض، فالروايات في هذا المجال كثيرة تبلغ حد التواتر، وانما اخترنا منها ما يتناسب مع بحثنا.

النووي الشافعي^٣ في شرحه لصحيح مسلم، نقل عن القاضي عياض، وهو من

(١) عن بحار الانوار، ج ٣، ص ٣٠٤ الطبعة القديمة.

(٢) الاختصاص، للمفيد، نقلاً عن البحار، ج ٣، ص ٣٠٥.

(٣) هو يحيى بن شرف، من علماء القرن السابع الهجري، والنووي نسبة الى مدينة «النوى» قرب دمشق.

كبار علماء أهل السنة، أنّ أحاديث الشفاعة متواترة.^١

ابن تيمية (توفي ٧٢٨هـ) و محمد بن عبد الوهاب (توفي ١٢٠٦هـ)، مع ما لهما من تعصب و لجاج في مثل هذه الأمور، يقرّان بتواتر هذه الروايات.

ثمة كتاب دراسي متداول بين «الوهابية» هو «فتح المجيد» للشيخ عبدالرحمن بن حسن، ينقل عن «ابن القيم» ما يلي:

الرابع - شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم. والاحاديث بها متواترة عن النبي (صلى الله عليه وآله) وقد اجمع عليها الصحابة واهل السنة قاطبة و بدعوا من انكرها و صاحوا به من كل جانب و نادوا عليه بالضلال.^٢ قبل أن ندرس الآثار الاجتماعية والنفسية لمسألة الشفاعة و فلسفتها، نلق نظرة على الآثار المعنوية لهذه المسألة، في اطار آراء الموحدين المؤمنين بالشفاعة، فمثل هذه النظرة تمهد السبيل لدراستنا القادمة في حقل الشفاعة.^٣

اختلف علماء العقائد المسلمون في كيفية التأثير المعنوي للشفاعة. فقال جمع يسمون «الوعيدية»، وهم المؤمنون بخلود مرتكبي الكبائر في جهنم: ان الشفاعة ليس لها أثر على إزالة آثار الذنوب، بل تأثيرها يقتصر على زيادة الثواب و على التكامل المعنوي. و «التفضيلية»، وهم من يعتقد بعدم خلود مرتكبي الكبائر في جهنم، فيذهبون الى أن الشفاعة تشمل المذنبين، و تؤثر في اسقاط العقاب عنهم.

أما «الخواجه نصيرالدين الطوسي» فيؤيد الفريقين، في كتابه «تجريد الاعتقاد» و يرى وجود الاثرين للشفاعة. «العلامة الحلي» شرح عبارة الطوسي في كتابه «كشف المراد» و لم يردّ عليها بل أورد شواهد عليها.

لو أخذنا بنظر الاعتبار ما مرّ بنا بشأن معنى الشفاعة لغويا و مقارنتها بالشفاعة

(١) البحار، ج ٣، ص ٣٠٧.

(٢) فتح المجيد، ص ٢١١.

(٣) ينبغي الالتفات الى أننا نعالج هذه المسألة من خلال المنطق الخاص لعلماء العقائد.

التكوينية، لما تردنا في صحة ما ذهب اليه المحقق الطوسي.

ثمة رواية معروفة عن الامام الصادق (عليه السلام) هي: «مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ إِلَّا وَهُوَ مُخْتِاجٌ إِلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^١.

واستنادا الى هذه الرواية، يحتاج الى الشفاعة كل الناس، حتى التائبون المغفور لهم، وفي مثل هذه الحالة لابد أن تكون الشفاعة ذات تأثيرين: في الحط من الذنوب، وفي علو المنزلة.

اما الروايات التي تنفي الشفاعة للصالحين، فهي تنفي ذلك النوع من الشفاعة الخاص بالمجرمين والمذنبين.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى ذكرنا أن الشفاعة تعني انضمام الفرد الاشرف والاقوى الى الفرد الاضعف لمساعدة هذا الضعيف، وهذه المساعدة قد تكون لزيادة نقاط القوة، وقد تكون لازالة نقاط الضعف.

في الشفاعة التكوينية نشهد هذين اللونين من الشفاعة في مسيرة حركة التكامل والنمو، فالظواهر الاضعف تحتاج الى عوامل أقوى لازالة عوامل التخريب تارة (كحاجة النباتات الى نور الشمس لآبادة الآفات)، وتارة أخرى لزيادة نقاط القوة وسرعة التطور (كحاجة النباتات الى نور الشمس من اجل النمو)، وهكذا الطالب يحتاج الى الاستاذ لاصلاح أخطائه، ولزيادة معلوماته.

كل ذلك يدل على أن للشفاعة أثرين، ولا تقتصر على دائرة إزالة آثار الذنب والاجرام (تأمل بدقة).

* * *

مما تقدم نفهم أن التائبين بحاجة أيضاً الى الشفاعة مع علمنا بان التوبة وحدها كافية لغفران الذنوب، وذلك لسببين:

١ - التائبون بحاجة الى الشفاعة لزيادة مكانتهم المعنوية، ولتقدمهم في مضمار التكامل والارتقاء، وان كان الغفران يتحقق بالتوبة.

(١) نقلاً عن البحار وكتب أخرى.

٢ - ثمة خطأ وقع فيه كثيرون في فهم التوبة، إذ تصوروا أنّ التوبة من الذنب قادرة على ارجاع الانسان الى حالة ما قبل ارتكاب الذنب، بينما التوبة ليست - كما ذكرنا في موضعه - سوى مرحلة اولى. انها كالدواء الذي يقطع عوارض المرض، وانقطاع العوارض لايعني عودة الانسان الى حالته الطبيعية، بل يعني انتقاله الى حالة نقاهة يحتاج خلالها الى تقوية بنيته الجسمية، ليعود بعد مدة الى مرحلة ما قبل المرض.

بعبارة أخرى، للتوبة مراحل، والندم على الذنب والعزم على التطهر في المستقبل هو المرحلة الاولى للتوبة. والمرحلة النهائية تتحقق حين يعود التائب الى حالة ما قبل الذنب من كل النواحي. وفي هذه المرحلة تكون شفاعت الشافعين ذات أثر وعطاء. افضل شاهد على هذا ما ورد في القرآن وذكرناه من قبل بشأن استغفار الرسول (صلى الله عليه وآله) للتائبين، و توبة اخوة يوسف واستغفار يعقوب لهم، وأوضح من كل ذلك استغفار الملائكة للصالحين والمصلحين. (تأمل بدقة!).

* * *

٧- فلسفة الشفاعة

مرّ بنا فيما سبق «مفهوم» الشفاعة و «اسانيدها» ونستطيع من ذلك أن نفهم بسهولة فلسفة الشفاعة على الصعيد الاجتماعي والنفسي.

إنطلاقاً من مفهوم الشفاعة نستطيع أن نتلمس الآثار التالية في المؤمنين بالشفاعة: مكافحة روح اليأس من أهم آثار الشفاعة في نفس المعتقدين بها. مرتكبوا الجرائم الكبيرة يعانون من وخز الضمير، كما يشعرون بيأس من عفو الله، ولذلك لا يفكّرون بالعودة ولا باعادة النظر في طريقة حياتهم الآثمة. وقد يدفعهم المستقبل المظلم الى التعنت والطغيان، والى التحلل من كل قيد تماماً، كما المريض اليأس من الشفاء الذي يتحلل من أي نظام غذائي، لاعتقاده بعدم جدوى التقيد بنظام.

والضمير الناتج عن هذه الجرائم قد يؤدي الى اختلالات نفسية، والى تحفيز الشعور بالانتقام من المجتمع الذي لوّثه. وبذلك يتبدل المذنب الى عنصر خطر، والى مصدر قلق اجتماعي.

الايان بالشفاعة يفتح أمام الانسان نافذة نحو النور، ويبعث فيه الامل بالعفو

والصفح، وهذا الأمل يجعله يسيطر على نفسه، ويعيد النظر في مسيرة حياته، بل ويشجعه على تلافي سيئات الماضي.

والإيمان بالشفاعة يحافظ على التعادل النفسي والروحي للمذنب. ويفسح الطريق أمامه إلى أن يتبدل إلى عنصر سالم صالح.

من هنا يمكن القول إن الاهتمام بالشفاعة بمعناها الصحيح عامل رادع بناءً، قادر أن يجعل من الفرد المجرم المذنب فرداً صالحاً. وانطلاقاً من هذا الفهم نجد أن مختلف قوانين العالم وضعت فسحة أمل أمام المحكومين بالسجن المؤبد باحتمال العفو بعد مدة إن أصلحوا أنفسهم، كي لا يتسرب اليأس إلى نفوسهم بذلك وتبديلهم إلى عناصر خطيرة داخل السجن أو يصابون باختلالات نفسية.

* * *

٨- شروط «توفر الشفاعة»

الشفاعة بمعناها الصحيح لها قيود وشروط متعددة الجوانب، كما ذكرنا. من هنا فالمؤمنون بهذا المبدأ لابد أن يسعوا لتوفير شروط الشفاعة كي يشملهم عطاؤها، وأن يجتنبوا الذنوب التي تقضي على كل أمل في الشفاعة كالظلم، وأن يستأنفوا حياة جديدة قائمة على أساس تغيير عميق في أنفسهم وأن يتوبوا من الذنب أو يهيموا بالتوبة على الأقل، من أجل بلوغ درجة «الارتضاء» واتخاذ «العهد الإلهي» (بالتفسير المذكور).

عليهم أن يكفوا عن مخالفة الأحكام والقوانين الإلهية، أو يقللوا من هذه المخالفة ما أمكنهم، ويعمقوا في أنفسهم الإيمان بالله واليوم الآخر.

من جهة أخرى لابد من وجود «ارتباط» بين «المستشفع» و «الشفيع»، و لذلك لابد للمستشفع أن يسعى لإيجاد نوع من التشابه والسنخية وإن كان ضعيفاً بينه وبين الشفيع.

وكما إن «الشفاعة التكوينية» لا تتم إلا بوجود نوع من السنخية والتسليم والاستعداد في الموجود الأضعف، كذلك الشفاعة التشريعية لا تتحقق إلا بتوفر مثل هذه المعضلات، (تأمل بدقة).

و بهذا يتضح بجلاء أن الشفاعة بمعناها الصحيح لها دور فعال في تغيير وضع

المجرمين واصلاحهم.

٩- شبهات حول مسألة الشفاعة

ذكرنا أن بين «الشفاعة» في مفهومها المنحرف و «الشفاعة» في مفهومها الاسلامي الصحيح بوناً شاسعاً. المفهوم الاول يقوم على أساس تغيير وجهة نظر «الشفيع»، والآخر يدور حول محور التغييرات المختلفة في وضع المستشفع.

واضح أن الشفاعة بمفهومها الاول مرفوضة لانها تقتل روح السعي والمثابرة في النفوس ... وتشجع على ارتكاب الذنوب.. وتعتبر انعكاساً عن المجتمعات المتخلفة والاقطاعية.. وتتضمن اكثر من ذلك نوعاً من الشرك والانحراف عن خط التوحيد.

لاشك أن الانسان المسلم يبتعد عن خط التوحيد لو اعتقد بإمكان تقديم «وساطة» الى الله كما تقدم «الوساطات» الى اصحاب النفوذ في هذه الدنيا. لان مثل هذا الفرد قد اعتقد بشكل غير مباشر بإمكان تغيير علم الله! وبإمكان خفاء أمر من أمور «المستشفع» على الله!، وبوجود مصدر يمكن أن يطفئ الانسان به غضب الله أو يكسب به وده ورضاه!، وبجاجة الله الى مكانة بعض عباده أو خوفه من نفوذهم!! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

أما الشفاعة بمعناها الصحيح الذي ذكرناه، فلا تنطوي على هذه العيوب، بل إنها اكثر من ذلك تصلح العيوب، وتعمق النقاط الايجابية في الكائن البشري.

هذا النوع من الشفاعة لا يشجع على ارتكاب الذنب، بل يدفع الى ترك الذنوب.

لا يدعو الى التقاعس والتماهل، بل يبعث في الانسان روح الامل التي يستتبعها عادة تصعيد الارادة لتلافي أخطاء الماضي.

هذه الشفاعة لا ترتبط بالمجتمعات المتخلفة بل هي وسيلة تربوية فعالة لاصلاح المجرمين والمذنبين والمعتدين.

ليست هذه الشفاعة بشرك، بل هي عين التوحيد والتأكيد على التوجه الى الله والاستمداد من صفاته واذنه وامره.

ولمزيد من التوضيح نتحدث أكثر عن مسألة الشفاعة والتوحيد.

* * *

١٠- الشفاعة والتوحيد:

الفهم الخاطئ لمسألة الشفاعة آثار اعتراض فئتين، على ما بين الفئتين من تضاد.

الفئة الاولى اعترضت على الشفاعة من منطلق مادي واعتبرتها عاملاً للتخدير ولا مائة روح السعي والمثابرة، وقد أجبنا على اعتراضات هذه الفئة فيما سبق. الفئة الاخرى اعترضت على الشفاعة من منطلق السلفية واعتبرتها شركاً وانحرافاً عن خط التوحيد، ويمثل هذه الفئة «الوهابيون» ومن لفق لفهمهم. والاجابة على اعتراضات الوهابيين - وإن كانت تحتاج الى إطالة وخروج عن طريقة التفسير - هي ضرورية لأسباب عديدة.

لابد من الالتفات أولاً الى أن الحركة الوهابية، التي ظهرت خلال القرنين الاخيرين في الجزيرة العربية على يد «محمد بن عبد الوهاب»، لم تتجه في أفكارها المتطرفة الجافة الى معارضة مدرسة اهل البيت (عليهم السلام) فقط، بل اصطدمت بمعظم المسلمين من أهل السنة أيضاً.

محمد بن عبد الوهاب (توفي ١٢٠٦) استقى افكاره من «ابن تيمية» (احمد بن عبد الحليم الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٨ هـ، أي قبل اربعة قرون تقريباً من ظهور الوهابية)، و يعتبر المنظر لهذه الحركة.

استطاع عبد الوهاب خلال الأعوام (١١٦٠ - ١٢٠٦) بالتعاون مع الحكام المحليين أن ينشر دعوته بين القبائل البدوية المتنقلة في الجزيرة العربية وبثّ فيهم تعصباً أعمى باسم الدفاع عن التوحيد ومكافحة الشرك، وعبد البدو والمتعصبين من أتباعه على طريق قمع معارضيه، واستطاع بذلك أن يكتسب قدرة سياسية و يسيطر بشكل مباشر وغير مباشر على الحكم، و اراق من أجل ذلك دماء كثير من المسلمين في ارض الجزيرة العربية و خارجها.

في سنة ١٢١٦ (عشر سنوات بعد وفاة مؤسس الحركة الوهابية) هجمت جماعة

من الوهابيين على مدينة كربلاء قادمة من صحراء الجزيرة العربية، واستغلت فرصة سفر أهالي المدينة الى النجف الاشرف بمناسبة عيدالغدِير، وارتكبت أعمالاً تخريبية في حرم سيدالشهداء الحسين بن علي (عليه السلام)، وسائر المراقد الشريفة في هذه المدينة، ونهبت ما فيها من أبواب ذهبية ونفائس، وقتلت ما يقرب من خمسين شخصاً قرب ضريح الحسين و خمسمائة شخص في صحن الروضة المشرفة، كما قتلت أعداداً كبيرة في سائر أنحاء المدينة، حتى بلغ عددالمقتولين في ذلك الهجوم الوهابي خمسة آلاف إنسان، ولم يسلم منهم حتى الشيوخ والعجائز والاطفال، كما نهبوا أعداداً كبيرة من البيوت.

في عام ١٣٤٤ أفتى فقهاء المدينة الخاضعون لجهاز الحكم الوهابي بهدم قبور أئمة الاسلام واولياء الله الصالحين، و نفذت هذه الفتوى في اليوم الثامن من شوال من السنة المذكورة، وهم المنفذون أن يهدموا قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) أيضاً، لولا تراجعهم أمام صحیحات اعتراض المسلمين.

اتباع محمد بن عبدالوهاب يتميزون على العموم بالخشونة والتصلب والسطحية واللجاج والبعد عن المنطق والتعقل.

وهؤلاء حصروا الاسلام، عمداً أو غفلة، في إطار مكافحة عدد من الظواهر كالشفاعة وزيارة القبور والتوسل، و بذلك أبعدوا أتباعهم ومن خضع لسيطرتهم عن المسائل الاسلامية الحياتية، وخاصة فيما يرتبط بالعدالة الاجتماعية ومكافحة السيطرة الاستعمارية والتصدي للثقافة المادية والمدارس الالحادية.

لذلك لاتجد في أوساط الوهابيين حديثاً عن هذه المسائل، بل تسود جوهم حالة فظيعة من الغفلة والركود.

نعود الى رأي هذه الفئة بشأن الشفاعة، هؤلاء يقولون: لا يحق لاحد أن يستشفع برسول الله، و أن يقول: «يا محمد اشفع لي عندالله»، لان الله سبحانه يقول: «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا» (الجن، ١٨).

وفي رسالة «كشف الشبهات» لمحمد بن عبدالوهاب نقرأ ما يلي:

فان قال ان النبي (صلى الله عليه وآله) اعطى الشفاعة واطلبه مما اعطاه الله فالجواب ان الله اعطاه الشفاعة و نهاك عن هذا وقال: فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا، وايضاً

فان الشفاعة اعطاها غيرالنبي فصيح ان الملائكة يشفعون والاولياء يشفعون... اتقول ان الله اعطاهم الشفاعة فاطلبها منهم؟ فان قلت هذا رجعت الى عبادة الصالحين^١.

وفي رسالة «اربع قواعد» يقرر محمد بن عبد الوهاب أن التحرر من الشرك لا يمكن إلا بالاعتراف بقواعد أربع:

قال محمد بن عبد الوهاب في رسالة اربع قواعد ما حاصله: ان الخلاص من الشرك يكون بمعرفة اربع قواعد.

الاولى: ان الكفار الذين قاتلهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) مقرون بان الله تعالى هو الخالق الرازق المدبر... لقوله تعالى **فُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ...** (يونس، ٣١)

الآية الثانية: انهم يقولون ما دعونا الأصنام وتوجهنا اليهم الا لطلب القرب والشفاعة... **وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ** (يونس، ١٨).

الثالثة: انه (صلى الله عليه وآله) ظهر على قوم متفرقين في عبادتهم فبعضهم يعبد الملائكة وبعضهم الأنبياء الصالحين وبعضهم الاشجار والاحجار وبعضهم الشمس والقمر فقاتلهم ولم يفرق بينهم.

الرابعة: ان مشركي زماننا اغلظ شركاً من الاولين لان اولئك يشركون في الرخاء و يخلصون في الشدة، وهؤلاء شركهم في الحالتين لقوله تعالى: **فَإِذَا زَكَّيْنَا فِي الْقُلُوبِ دَعْوَا اللَّهِ مُخْلِصِينَ...** (عنكبوت، ٦٥)^٢

ومن العجيب أن الوهابيين تبلغ بهم الجرأة في تكفير المسلمين بحيث يبيحون نهب اموال المسلم وسفك دمه بسهولة، وقد فعلوا ذلك في تاريخهم مراراً.

يقول الشيخ «سليمان بن لحمان» في كتابه «الهدية السنية»:

«ان الكتاب والسنة دلاً على ان من جعل الملائكة والانبياء او ابن عباس او اباطالب او... وسائط بينهم وبين الله ليشفعوا لهم عندالله لاجل قربهم الى الله - كما يفعل عندالملوك - انه كافر مشرك حلال الدم والمال! وان قال اشهد ان لا اله الا الله

(١) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب نقلاً عن رسالة البراهين الجلية ص ١٧.

(٢) رسالة اربع قواعد ص ٢٤ - ٢٧ طبع المنار بمصر (نقلاً عن كتاب كشف الارتباب ص ١٦٣).

وأشهد ان محمداً رسول الله وصلى وصام»!!^١.

ومع هذا الافتاء يتضح حال المسلمين في جميع اقطار العالم الاسلامى الذين يستشفعون بهم، اقتداء بكتاب الله وستة نبيه (صلى الله عليه وآله).
روح البطش والسفك واللجاجة في هؤلاء لاتحفى على أحد، وهكذا جهلهم بالمسائل
الاسلامية والقرآنية.

* * *

نظرة على منطق الوهابيين في حقل الشفاعة

يبدو مما نقلناه عن مؤسس الحركة الوهابية أن اتهام الوهابيين بالشرك للمؤمنين
بالشفاعة يستند الى مسألتين:

١ - وجه الشبه بين المؤمنين بشفاعة الانبياء والصالحين و بين المشركين في
عصر الجاهلية.

٢ - نهي القرآن عن عبادة غير الله وعن دعوة فرد مع الله «فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ
أَحَدًا» (الجن، ١٨)، والاستشفاع نوع من العبادة.

بالنسبة للمسألة الاولى، ارتكب الوهابية خطأ فظيماً، وذلك للأسباب التالية:
اولاً - القرآن اقر منزلة الشفاعة بصراحة لجمع من الانبياء والصالحين والملائكة
كما مر، لكنه قيدها باذن الله. وليس من المعقول إطلاقاً أن يكون الله قد نهى
عن الاستشفاع المشروط باذن الله، بمن قد منحهم هوسبحانه هذه المنزلة.

وصرح القرآن بطلب إخوة يوسف من أبيهم أن يستغفر لهم، وهكذا صرح
بطلب مثل هذا تقدم به الصحابة الى النبي (صلى الله عليه وآله).

أليست هذه من المصاديق الواضحة لطلب الشفاعة؟! إن الاستشفاع برسول الله
(صلى الله عليه وآله) بعبارة: «اشفع لنا عند الله» هي نفسها عبارة اخوة يوسف إذ قالوا
لابيهم: «يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا» (يوسف، ٩٧) كيف يجراً هؤلاء على القاء تهمة الشرك على من
يؤمن بما يصرح به القرآن، بل ويستبيحون دمه وماله؟!!

(١) الهدية السنية ص ٦٦ (نقلاً عن البراهين الجلية ص ٨٣).

لو كان هذا العمل شركاء، فلم لم يمه يعقوب بنيه عن ذلك .
ثانيا - لا يوجد أدنى شبه بين «عبدة الاصنام» و «الموحدين المؤمنين بالشفاعة بإذن الله»، لان الوثنيين كانوا يعبدون الاصنام ويتخذونها شفعاء، بينما المسلمون المؤمنون بالشفاعة، لا تخاطر في ذهنهم عبادة الشفعاء، بل يستشفعون بهم الى الله، وطلب الشفاعة لا ارتباط له بمسألة العبادة كما سنبين.

عَبَدَةُ الْاَصْنَامِ كَانُوا يَتَعَجَّبُونَ مِنْ عِبَادَةِ الْاِلٰهِ الْوَاحِدِ الْاِحْدِ: «أَجْعَلِ الْاِلٰهَةَ الْهٰٓءَا وَاحِدًا اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ» (ص،٥).
الوثنيون كانوا يجعلون الوثن في منزلة الله: «تَاللّٰهِ اِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ اِذْ نُسَوِّبُكُمْ بِرَبِّ الْعٰلَمِينَ» (الشعراء،٩٨).

الوثنيون كانوا يعتقدون بتأثير الاوثان على حياتهم ومصيرهم ووجودهم، كما تذكر كتب التاريخ، والمسلمون المؤمنون بالشفاعة يعتقدون بانفراد الله في التأثير، ولا يرون لموجود استقلالا في التأثير.

والمقارنة بين الرؤيتين مقارنة جاهلة مجافية للمنطق بشأن المسألة الثانية، علينا أولا أن نفهم معنى «العبادة»، لو فسرنا العبادة بأنها كل لون من ألوان الخضوع والاحترام، لكان ذلك يعني حرمة الاحترام والخضوع لاحد غيرالله، وهذا ما لا يقره مسلم. ولو فسرنا العبادة أنها كل الوان الطلب، فهذا يعني أن التقدم بالطلب من أية جهة هو شرك ، وهذا يخالف ضروريات العقل والدين. كما إن العبادة لا يمكن فهمها على أنها كل لون من الوان اتباع فرد لفرد آخر، فاتباع الافراد لمسؤوليهم ورؤسائهم في المؤسسات والتنظيمات الاجتماعية من اولى ضروريات الحياة البشرية، كما ان اتباع الانبياء وائمة الدين من الواجبات الحتمية للمتدينين.

من هنا فالعبادة لا تعنى كل ذلك ، بل هي الحد الاعلى للخضوع والتواضع المعبرين عن الارتباط المطلق والتسليم بلا منازع للمعبود، و ايكال كل عواقب الامور اليه.

وهل في طلب الشفاعة من الشفعاء أثر من الآثار المذكورة للعبادة.
أما بشأن النهي عن دعوة أحد سوى الله، فلا يعني النهي عن نداء الافراد، كأن

نقول يا عليّ ويا حسن ويا أحمد، ولا يعني النهي عن الاستعانة بالافراد، لان التعاون احد الاركان الاساسية للحياة الاجتماعية، ومن الضرورات الدينية، ولم يرفضه الوهابيون أنفسهم.

أما «الدعوة» التي يمكن الاعتراض عليها فهي التي وضحتها «ابن تيمية» في رسالة «زيارة القبور» اذ قال ما حاصله: «مطلوب العبد ان كان مما لا يقدر عليه الا الله فسائله من المخلوق مشرك من جنس عباد الملائكة والتماثيل ومن اتخذ المسيح وامه الهين، مثل ان يقول لمخلوق حي اوميت: اغفر ذنبي او انصرني على عدوى او اشف مريضى او عافني او عاف اهلى او دابتي، او يطلب منه وفاء دينه من غير جهة معينة او غير ذلك .

وان كان مما يقدر عليه العبد فيجوز طلبه منه في حال دون حال، فان مسألة المخلوق قد تكون جائزة وقد تكون منهيأ عنها قال الله تعالى: «فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ» و اوصى النبي (صلى الله عليه وآله) ابن عباس: اذا سألت فاسئل الله، واذا استعنت فاستعن بالله. واوصى طائفة من اصحابه ان لا يسألوا الناس شيئاً، فكان سوط احدهم يسقط من كفه فلايقول لاحد ناولني اياه. وقال: فهذه المنهي عنها والجائزة طلب دعاء المؤمن لاخيه»^١.

نحن أيضاً نقول: من الشرك أن يطلب الانسان من أحد شيئاً يختص به الخالق، ومن الشرك أن يتجه الانسان في ذلك الطلب الى فرد يعتبره قادرا بشكل مستقل على تلبية ذلك الطلب. أما اذا طلب الانسان من أحد شفاعة منحها له الله، فما ذلك بشرك ، بل هو عين الايمان والتوحيد، ويشهد على ذلك كلمة «مع» في قوله تعالى: «فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا» التي تفيد ان المنهي عنه هو دعوة شخص نعتبره في منزلة الله و نعتبره مصدرا مستقلا في التأثير. (تأمل بدقة).

* * *

هدفنا من التأكيد على هذا الموضوع، هو أن ما اعتراه من مسخ و تحريف وفرّ الفرصة لاعداء الدين كي يطعنوا في المقدسات الدينية، كما أدى الى ظهور تفسيرات

واستنتاجات خاطئة لدى بعض المجموعات الاسلامية، مما جرّ بدوره الى تفرقة صفوف المسلمين.

والفهم الصحيح للشفاعة يؤدي كما رأينا الى سَمّوا أخلاق المجتمع وتكاملها. و الى إصلاح الافراد الفاسدين، كما يؤدي الى قطع دابر الطعانين، والى إحلال الوحدة بين المسلمين.

نأمل من العلماء والمفكرين الاسلاميين أن يتعمّقوا في تحليل هذه المسألة قرآنيا و منطقيا، كي يسدّوا الطريق امام طعن أعداء الاسلام ويساهموا في رصّ الصفوف.

* * *

الآية

٤٩ - «وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ».

التفسير

نعمة الحرية

في هذه الآية إشارة الى نعمة كبيرة أخرى، منّ بها الله سبحانه على بني اسرائيل، وهي نعمة تحريرهم من براثن الظالمين: «وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ».

القرآن يعبر عن العذاب الذي انزله فرعون ببني اسرائيل بالفعل «يَسُومُونَكُمْ» من «سام» التي تعني في الاصل الذهاب في ابتغاء الشيء، واستعمال هذا الفعل يشير الى استمرار العذاب، والى أن بني اسرائيل كانوا دوماً تحت التعذيب.

والقرآن عبر بكلمة «البلاء» عما كان ينزل ببني اسرائيل من عذاب يتمثل في قتل الذكور واستخدام الاناث لخدمة آل فرعون، واستثمار طاقات بني اسرائيل لاشباع رغبات ونزوات المستكبرين.

والبلاء يعني الامتحان، كما قد يعني العقاب، لان بني اسرائيل سبق لهم أن كفروا بنعمة ربهم، فكان ما أصابهم من آل فرعون عقاباً على كفرانهم. وذكر بعض المفسرين أن البلاء يعني النعمة أيضاً، وبذلك يكون البلاء العظيم يعني النعمة العظيمة، والمقصود منها نعمة النجاة من آل فرعون.^١

(١) يقال بلي الثوب أي خلق، وبلوته: اختبرته كاني أخلقته من كثرة اختباري له، وسمي الغم بلاء من حيث إنه يُبلى الجسم، وسمي التكليف بلاء لان التكليف مشاق على الابدان ولانها اختبارات، ولان اختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسار ليشكروا وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المنحة والمحنة جميعاً بلاءً. (المفردات،

على كل حال، يوم نجاة بني اسرائيل من آل فرعون يوم تاريخي مهم، ركز عليه القرآن في مواضع عديدة، ولنا وقفات اخرى عند هذا الحدث الكبير.

من الملفت للنظر أن القرآن يسمي ذبح الابناء واستحياء النساء عذابا. ولو عرفنا أن استحياء النساء يعني استبقاءهن، وتركهن أحياء، لإتضح لنا أن القرآن يشير الى أن مثل هذا الاستبقاء المذلل هو عذاب أيضا مثل عذاب القتل. وهذا المعنى يشير اليه الامام امير المؤمنين علي (عليه السلام) اذ يقول: «فَأَلَمْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ»^١.

عملية الاماتة كانت شاملة للذكور والاناث مع اختلاف في ممارسة هذه العملية. وفي عالمنا المعاصر يمارس طواغيت الارض عملية الاماتة أيضاً بأساليب أخرى، وذلك عن طريق قتل روح الرجولة في الذكور، و دفع الاناث الى مستنقع اشباع الشهوات.

من المفسرين من ذهب الى أن سبب قتل ابناء بني اسرائيل واستحياء نسائهم، يعود الى رؤيا عرضت لفرعون في منامه. ولكن السبب ليس الرؤيا وحدها. كما سنبتين ذلك في تفسير الآية الرابعة من سورة القصص - بل هو ايضا خوف الفرعونيين من اشتداد قوة بني اسرائيل وتشكيلهم خطراً على سلطة آل فرعون.

* * *

الآية

٥٠ - «وَإِذْ قَرَفْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ، فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ
تَنْظُرُونَ».

التفسير

النجاة من آل فرعون

الآية السابقة أشارت الى نجاة بني اسرائيل من براثن الفرعونيين، وهذه الآية توضح طريقة النجاة، «وَإِذْ قَرَفْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ، فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ».

قضية غرق آل فرعون في البحر و نجاة بني اسرائيل، وردت في سور عديدة مثل سورة الأعراف، الآية ١٢٦، و سورة الانفال، الآية ٥٤. و سورة الاسراء الآية ١٠٣. والشعراء الآية ٦٣ و ٦٦ و الزخرف، ٥٥. والدخان، الآية ١٧ وما بعدها .

في هذه السور ذكرت كل تفاصيل الحادث، اما هذه الآية فاكتفت بالاشارة الى هذه النعمة الالهية في معرض دعوة بني اسرائيل الى قبول الرسالة الخاتمة.^١

حادثة الانقاذ باختصار حدثت بعد عدم استجابة فرعون والفرعونيين لدعوة موسى مع كل ما شاهدوه منه من معجزات. إذ ذلك أمر أن يخرج مع بني إسرائيل من مصر، وعند وصولهم النيل، علموا أن فرعون وجيشه يلاحقونهم، فاعتري بني اسرائيل خوف واضطراب شديداً. فالبحر أمامهم والعدو وراءهم. وفي هذه اللحظات الحساسة، امر موسى أن يضرب البحر بعصاه، فانشقت فيه طرق متعدّدة عبر منها بنو اسرائيل، بينما التحم الماء حينما كان آل فرعون في وسطه، فغرقوا جميعاً ونجا بنو اسرائيل، وهم ينظرون الى هلاك أعدائهم.

(١) راجع التفاصيل في المجلد ١٣ تفسير، الآية ٧٧ وما بعدها من سورة طه.

الهدف من تذكير بني إسرائيل بهذا الحدث الذي بدأ بخوف شديد وانتهى بانتصار ساحق، هو دفعهم للشكر وللسير على طريق الرسالة الالهية المتمثلة في دين النبي الخاتم.

كما انه تذكير للبشرية بالامداد الالهي الذي يشمل كل أمة سائرة بجِدٍ واخلاص على طريق الله.

* * *

الآيات

٥١ - «وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ».

٥٢ - «ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

٥٣ - «وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

٥٤ - «وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ

الْعِجْلِ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

التفسير

اكبر انحرافات بني اسرائيل

في هذه الآيات الأربع، تأكيد على مقطع آخر من تاريخ بني اسرائيل، وعلى اكبر انحراف اصبوا به في تاريخهم الطويل، وهو الانحراف عن مبدأ التوحيد، والاتجاه الى عبادة العجل. وهذا التأكيد تذكير لهم بما لحقهم من زيغ نتيجة إغواء الغاوين، وتحذير لهم من تكرار هذه التجربة في مواجهة الدين الخاتم: «وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» وهي ليالي افتراق موسى عن قومه، «ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ».

* * *

شرح هذا المقطع من تاريخ بني اسرائيل سيأتي في سورة الاعراف الآية ١٤٢ وما بعدها، وفي سورة طه الآية ٣٦ وما بعدها، وملخصه.

بعد نجاة بني اسرائيل من قبضة الفراعنة، أمر موسى بالذهاب الى جبل الطور مدة ثلاثين ليلة لتسلم الواح التوراة، ثم مُدِّدَت هذه الليالي الى أربعين ليلة من أجل اختبار قومه. واستغل السامريّ الدجال هذه الفرصة، فجمع ما كان لدى بني اسرائيل من

ذهب الفراعنة ومجهراتهم، وصنع منها عجلا له صوت خاص، و دعا بني اسرائيل لعبادته. فاتبعه اكثر بني اسرائيل، وبقي هارون - اخو موسى وخليفته-مع اقلية من القوم على دين التوحيد، وحاول هؤلاء الموحدون الوقوف بوجه هذا الانحراف فلم يفلحوا، و أوشك المنحرفون أن يقضوا على حياة هارون.

بعد أن عاد موسى من جبل الطور، تألم كثيرا لما رآه من قومه، ووبخهم بشدة، فعاد بنو اسرائيل الى رشدهم، و فهموا خطأهم، وطلبوا التوبة فجاءهم أمر السماء بتوبة ليس لها نظير، سنذكرها فيما يلي.

في الآية التالية يقول سبحانه: «ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

وبعدها اشارة الى ما جاء بني اسرائيل من هداية تشريعية: «وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

كلمتا «الكتاب» و «الفرقان» قد تشيران كلاهما الى التوراة، وقد يكون المقصود من «الكتاب» التوراة و «الفرقان» ما قدمه موسى من معاجز باذن الله، لأن الفرقان يعني في الاصل ما يفرق بين الحق والباطل.

ثم يشير القرآن الى طريقة التوبة المطروحة على بني اسرائيل: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ، فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» و «الباري» هو الخالق، و في الكلمة اشارة الى أن هذا الامر الالهي بالتوبة الشديدة صادر عن خلقكم وعن هو أعرف بما يضرركم وينفعكم.

* * *

ذنب عظيم وتوبة فريدة

لا شك أن عبادة عجل السامري لم تكن مسألة هينة لان بني اسرائيل شاهدوا ما شاهدوا من آيات الله ومعجزات نبيهم موسى (عليه السلام)، ثم نسوا ذلك دفعة، وخلال فترة قصيرة من غياب النبي! انحرفوا تماما عن مبدأ التوحيد وعن الدين الالهي. كان لابد من اقتلاع جذور هذه الظاهرة الخطرة، كي لا تعود الى الظهور ثانية

خاصة بعد وفاة صاحب الرسالة.

ومن هنا كانت الأوامر الالهية بالتوبة شديدة لم يسبق لها نظير في تاريخ الانبياء، وتقضي هذه الاوامر أن تقترن التوبة باعدام جماعي لعدد كبير من المذنبين، على أيديهم أنفسهم.

طريقة تنفيذ هذا الإعدام لا تقل شدة عن الإعدام نفسه، فقد صدرت الأوامر الالهية أن يقتل المذنبون بعضهم بعضاً، وفي ذلك عذابان للمذنب: عذاب قتل الاصدقاء والمعارف على يديه، وما ينزل به هو نفسه - ومن عذاب القتل.

وجاء في الاخبار أن موسى أمر في ليلة ظلماء كل المنحازين الى عبادة العجل، أن يغتسلوا ويرتدوا الاكفان ويعملوا السيف بعضهم في رقاب بعضهم.

السبب في شدة هذا الحكم - كما ذكرنا - يعود الى عظمة الذنب الذي ارتكبه بعد كل ما شاهدوه من آيات ومعجزه، و الى أن هذا الذنب يهدد وجود الدعوة ومستقبلها، خاصة و أن بني اسرائيل كانوا على مر التاريخ قوماً متعنتين لجوجين. ولا بد إذن من عقاب صارم يبقى رادعاً للأجيال التالية عن السقوط في هاوية الشرك. ولعل في عبار قوله تعالى: «ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ» إشارة الى هذا المعنى.

* * *

الآيتان

- ٥٥ - «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً،
فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ».
- ٥٦ - «ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

التفسير

طلب عجيب!

هاتان الآيتان تذكران بني اسرائيل بنعمة الهية اخرى، كما توضحان في الوقت نفسه روح اللجاج والعناد في هؤلاء القوم، وتبيان ما نزل بهم من عقاب الهى، وما شملهم الله به من رحمة بعد ذلك العقاب.

تقول الآية الاولى: «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً».

هذا الطلب قد ينم عن جهل بني اسرائيل، لان ادراك الانسان الجاهل لا يتعدى حواسه. ولذلك يرمى الى أن يرى الله بعينه.

أوقد يحكى هذا الطلب عن ظاهرة لجاج القوم وعنادهم التي يتميزون بها دوماً. على أي حال، طلب بنو اسرائيل من نبيهم بصراحة أن يروا الله جهرة، وجعلوا ذلك شرطاً لايمانهم.

عندئذ شاء الله سبحانه أن يرى هؤلاء ظاهرة من خلقه لا يطيقون رؤيتها، ليفهموا أن عينهم الظاهرة هذه لا تطيق رؤية كثير من مخلوقات الله، فما بالك برؤية الله سبحانه!! نزلت الصاعقة على الجبل وصحبها برق شديد ورعد مهيب وزلزال مروع، فتركهم على الارض صرعى من شدة الخوف «فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ».

اغتم موسى لما حدث بشدة، لان هلاك سبعين نفرأ من كبار بني اسرائيل،

قديوقر الفرصة للمغامرين من ابناء القوم أن يثيروا ضجة بوجه نبيهم. لذلك نصرع موسى الى الله أن يعيدهم الى الحياة، فقبل طلبه وعادوا الى الحياة: «ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

هذا باختصار شرح الواقعة، و سيأتي تفصيلها في سورة الاعراف، الآية ١٥٥،
و سورة النساء الآية ١٥٣.^١

هذه القصة تبين من جانب آخر ما عاناه الانبياء من مشاكل كبرى على طريق دعوتهم. كان قومهم يطلبون منهم معاجز خاصة، وكان العناد يبلغ ببعض الاقوام حداً يطلبون فيه أن يروا الله جهرة، شرطاً لايمانهم. وحينما يواجه هذاالطلب غيرالمنطقي بجواب الهى مناسب حاسم، تحدث للنبي مشكلة أخرى. ولولا لطف الله وتثييته لما كان بالامكان المقاومة تجاه كل هذاالعناد.

وهذه الآية تشير ضمنيا الى إمكان «الرجعة»، أي الرجوع، الى هذه الحياة الدنيا بعدالموت. لان وقوعها في موضع معين يدل على امكان الوقوع في مواضع أخرى. ولكن عدداً من مفسري أهل السنة أولوا «الموت» في هذه الآية الى غيرالمعنى الظاهر لعدم رغبتهم في قبول «الرجعة»^٢.

* * *

(١) راجع المجلد السادس من هذاالتفسير.

(٢) ذهب صاحب المنارالى أن المقصود بالبعث بعدالموت، منح الذرية الكثيرة لنبي اسرائيل كي لا ينقطع نسلهم، وقال الآلوسى في «روح المعاني» إن الموت هنا يعني الغيبوبة، والبعث يعني صحوة بني اسرائيل من غيبوتهم، وراح بعض يفسر الموت بالجهل، والبعث بالتعليم. ولكن هذه المعاني كلها بعيدة عن هذه الآية والآيات المشابهة لها في سورة الاعراف، ولا تليق بمفسر ينشد فهم الحقيقة.

الآية

٥٧ - «وَضَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

التفسير

النعم المتنوعة

بعد أن نجا بنو إسرائيل من الفرعونيّين، تذكر الآيات ٢٣ - ٢٩ - من سورة المائدة، أن بني إسرائيل أمروا لأن يتجهوا الى ارض فلسطين المقدسة، لكن هؤلاء أبوا الاطاعة، واصرروا على عدم الذهاب، مادام فيها قوم جبارون (العمالقة)، واكثر من ذلك تركوا أمر مواجهة هؤلاء الظالمين لموسى وحده قائلين له: «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» (المائدة، ٢٤).

تألم موسى لهذا الموقف ودعا ربه اذ «قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» (المائدة، ٢٥) فكتب عليهم التيه اربعين عاما في صحراء سيناء.

مجموعة من التائهين ندمت على ما فعلته أشد الندم، وتضرعت الى الله، فشمّل الله سبحانه بني اسرائيل ثانية برحمته، وانزل عليهم نعمه التي تشير الآية الى بعضها: «وَضَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ».

والظل له أهمية الكبرى لمن يطوي الصحراء تحت حرارة الشمس اللائحة: خاصة ان مثل هذا الظل لا يحدّ الفضاء على الانسان ولا يمنع عنه هبوب النسيم.

يبدو أن الغمام الذي تشير اليه الآية الكريمة، ليس من النوع العابر الذي يظهر عادة في سماء الصحراء، ولا يلبث أن يتفرق ويزول، بل هو من نوع خاص تفضل به الله على بني اسرائيل، ليستظلوا به بالقدر الكافي.

إضافة الى الظل وقرالله سبحانه لبني اسرائيل بعد تيههم، الطعام الذي كانوا في أمس الحاجة إليه خلال أربعين عاما خلت من ضياعهم: «وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوَىٰ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ».

لكن هؤلاء عادوا الى الكفران «وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».
وسنشرح «المن» و«السلوى» في الوقفات.

* * *

وقفات

١- الحياة الجديدة بعد التحرر:

الامة التي تتحرر بعد عصر من الذل والاستضعاف والاستعباد، لا تستطيع أن تتخلى تماما عن حالتها النفسية والثقافية الموروثة عن عصر الطاغوت، ولا بد من فترة برزخية تمر بها كي تكون قادرة على إقامة حكم الله في الارض، وفق معايير الهية بعيدة عن مؤثرات عصر الطاغوت.

وسواء امتدت هذه الفترة البرزخية أربعين عاما كما حدث لبني اسرائيل، أو أقل أو أكثر، فهي فترة عقاب إلهي هدفها التزكية والاصلاح والبناء.
وخلال فترة اربعين عاماً من «التيه» في الصحراء، تربى جيل جديد حامل لصفات توحيدية ثورية، ومؤهل لاقامة الحكم الالهي في الارض المقدسة.

* * *

٢- المنّ والسلوى:

تعددت أقوال المفسرين في معنى هاتين الكلمتين، ولا حاجة الى استعراضها جميعا، بل نكتفي بذكر معناهما اللغوي، ثم نذكر تفسيرا واحدا هماهوي في اعتقادنا أوضح التفاسير واقربها الى الفهم القرآني.
«المنّ» شئ كالطلّ فيه حلاوة يسقط على الشجر أو بعبارة أخرى هو عصارة شجر ذات طعم حلو، وقيل طعم حلو ممزوج بالحموضة.

و «السلوى» يعنى التسلي، وقال بعض اللغويين وجمع من المفسرين إنه «طائر».

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله): «ان الكماة من المن». وقيل: «المن والسلوى كلاهما اشارة الى ما أنعم الله به عليهم، وهما بالذات شيء واحد، لكن سماه منّا لأنه امتن به عليهم، وسماه سلوى من حيث إنه كان لهم به التسلي»^١. هذا المعنى الاخير اختاره بعض المفسرين المتأخرين، واقتصر عليه دون غيره من المعاني^٢، وهو مع مخالفته لرأي معظم المفسرين، يخالف ظاهر الآية حيث تقول: «كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» وفي هذا التعبير دلالة واضحة على أن المن والسلوى نوعان من الطعام.

وتذكر التوراة أن «المن» حب يشبه بذر الكزبرة يتساقط على الارض ليلا، وكان بنو اسرائيل يجمعونه و يصنعون منه خبزا ذا طعم خاص. وثمة احتمال آخر هو إن الأمطار الغزيرة النافعة التي هطلت بفضل الله على تلك الصحراء أثرت على اشجار تلك المنطقة فأفرزت عصارة حلوة استفاد منها بنو اسرائيل.

واحتمل بعضهم أن يكون «المن» نوعاً من العسل الطبيعي حصل عليه بنو اسرائيل في الجبال والمرتفعات المحيطة بصحراء التيه. وهذا التفسير يؤيد ما ورد من شروح على العهدين (التوراة والانجيل) حيث جاء: «الاراضي المقدسة معروفة بكثرة أنواع الاوراد والازهار، ومن هنا فان مجاميع النحل تبني خلاياها في أحاديث الصخور وعلى أغصان الاشجار وثنايا بيوت الناس، بحيث يستطيع أفقر الناس أن يتناول العسل»^٣.

بشأن «السلوى» قال بعض المفسرين انه العسل، وأجمع الباقون على أنه نوع من الطير، كان يأتي على شكل اسراب كبيرة الى تلك الارض، وكان بنو اسرائيل يتغذون

(١) المفردات، الراغب الاصفهاني

(٢) تفسير «پرتوي از قرآن» (فارسي)، الطالقاني، ج١، ص١٦٥.

(٣) قاموس الكتاب المقدس، ص٦١٢.

من لحومها.

في النصوص المسيحية تأييد لهذا الرأي حيث ورد في تفسير على العهدين مايلي: «إعلم أن السلوى تتحرك بمجموعات كبيرة من أفريقيا، ففتجه الى الشمال، وفي جزيرة كابري وحدها يصطاد من هذا الطائر ١٦ الفا في الفصل الواحد.. هذا الطائر يجتاز طريق بحر القلزم، وخليج العقبة والسويس، ويدخل شبه جزيرة سيناء. وبعد دخوله لا يستطيع أن يطير في ارتفاعات شاهقة لشدة ملاقاه من تعب وعناء في الطريق، فيطير على ارتفاع منخفض ولذلك يمكن اصطياده بسهولة.. وورد ذكر ذلك في سفرا الخروج وسفرا الاعداد من التوراة»^١.

يستفاد من هذا النص أن المقصود بالسلوى طير خاص سمين يشبه الحمام معروف في تلك الارض.

شاء الله بفضلله ومته أن يكثر هذا الطير في صحراء سيناء آنثذ لسد حاجة بني إسرائيل من اللحوم، ولم تكن هذه الكثرة من الطير طبيعية في تلك المنطقة.

* * *

٣- لماذا قالت الآية «آنزلنا»؟

عبرت الآية الكريمة عن نعمة تقديم المن والسلوى بالانزال، وليس الانزال دائماً ارسال الشيء من مكان عال، كقوله تعالى: «وآنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج» (الزمر، ٦).

واضح أن الانعام لم تهبط من السماء، من هنا فالانزال في مثل هذه المواضع: إما أن يكون «نزولا مقاميا» أي نزولاً من مقام أسمى الى مقام أدنى. أو أن يكون من «الانزال» بمعنى الضيافة، يقال انزلت فلانا: أي أضفته، والنزل (على وزن رُسل) ما يُعدّ للنازل من الزاد، ومنه قوله تعالى: «فَنُزِّلَ مِنْ حَمِيمٍ» (الواقعة، ٩٣) وقوله سبحانه: «خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» (آل عمران، ١٩٨).

وتعبير «الانزال» للمن والسلوى، قد يشير الى أن بني إسرائيل كانوا ضيوف الله

في تلك الارض، فاستضافهم بالمن والسلوى.
و يحتمل أن يكون الانزال بمعنى الهبوط من الاعلى لان النعم المذكورة وخاصة
(السلوى) تهبط الى الارض من الاعلى.

* * *

٤- ماهو الغمام؟

قيل: الغمام والسحاب بمعنى واحد، وقيل الغمام هو السحاب الابيض، وذكروا
في وصفه: أنه أبرد وأرق من السحاب، والغمام في الاصل من الغمّ وهو تغطية الشيء، و
سمي الغمام بهذا الاسم لأنه يغطي صفحة السماء، وسمي الهُمُّ غمّاً بهذا الاسم لانه
يجب القلب^١
على أي حال، قد يشير تعبير «الغمام» الى أن بني إسرائيل، كانوا يستفيدون من
ظل الغمام إضافة الى تمتعهم بالنور الكافي لبياض هذه السحبة.

* * *

(١) تفسير «روح المعاني» في تفسير الآية المذكورة، والمفردات مادة «غمّ»

الآيتان

٥٨ - «وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ، وَسَتَزِيدُ
الْمُحْسِنِينَ».

٥٩ - «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

التفسير

عناد بنى اسرائيل

وهنا نصل الى مقطع جديد من حياة بني اسرائيل، يرتبط بورودهم الارض المقدسة. تقول الآية الاولى: «وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ»، والقرية كل مكان يعيش فيه جمع من الناس، ويشمل ذلك المدن الكبيرة والصغيرة، خلافاً لمعناها الراجح المعاصر. والمقصود بالقرية هنا بيت المقدس.

ثم تقول الآية: «فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا، وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا: حِطَّةٌ» أي حطّ عنا خطايانا، «نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ». امرهم الله سبحانه أن يرددوا من أعماق قلوبهم عبارة الاستغفار المذكورة، ويدخلوا الباب، ويبدو أنه من أبواب بيت المقدس^١، وقد يكون هذا سبب تسمية أحد أبواب بيت المقدس «باب الحطة».

والآية تنتهي بعبارة «وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ»، أي أن المحسنين سينالون المزيد من الاجر إضافة إلى غفران الخطايا.

(١) على رواية ابي حيان الاندلسي، نقلاً عن تفسير «الكاشف».

والقرآن يحدثنا عن عناد مجموعة من بني اسرائيل حتى في ترتيب عبارة الاستغفار، فهؤلاء لم يرددوا العبارة بل بدلوها بعبارة اخرى فيها معنى السخرية والاستهزاء، والقرآن يقول عن هؤلاء المعاندين: «قَبَدَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ» وكانت نتيجة هذا العناد ما يحدثنا عنه كتاب الله حيث يقول: «فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

و «الرجز» أصله الاضطراب - كما يقول الراغب في مفرداته - ومنه قيل رجز البعير إذا اضطرب مشيه لضعفه.

و يقول «الطبرسي» في «مجمع البيان» أن الرجز يعني العذاب عند أهل الحجاز، ويروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله) قوله بشأن مرض الطاعون: «إِنَّهُ رِجْزٌ عُذِّبَ بِهِ بَعْضُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ»^١.

و من هنا يتضح سبب تفسير «الرجز» في بعض الروايات أنه نوع من الطاعون افشا بسرعة بين بني إسرائيل وأهلك جمعاً منهم.

قد يقال إن الطاعون لا ينزل من السماء، لكن هذا التعبير قد يشير الى حقيقة انتشار هذا المرض عن طريق الهواء الملوث بميكروب الطاعون الذي هبّ بأمر الله آنذاك في بيئة بني اسرائيل.

يلفت النظر أن من عوارض الطاعون اضطراباً في المشي والكلام، وهذا يتناسب مع أصل معنى «الرجز» تماماً.

ومن الملفت للنظر أيضاً أن القرآن يؤكد أن هذا العذاب نزل «عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا»، فقط، ولم يشمل جميع بني اسرائيل.

ثم تذكر الآية تأكيداً آخر على سبب نزول العذاب على هذه المجموعة من بني اسرائيل بعبارة: «بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

والآية الكريمة بعد ذلك تبين بشكل غير مباشر سنة من سنن الله تعالى، هي ان الذنب حينما يتعمق في المجتمع ويصبح عادة اجتماعية، عند ذلك يقترّب احتمال نزول العذاب الالهي

(١) راجع حول معنى الرجز الجزء السادس من هذا التفسير.

الآية

٦٠ - «وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ، كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ».

التفسير

انفجار العيون في الصحراء

تذكر آخر بنعمة أخرى من نعم الله علي بني اسرائيل، وهذا التذكير تشير إليه كلمة (اذ) المقصود منها (وَإِذْ كُرُوا إِذْ)، وهذه النعمة أغدقها الله عليهم، حين كان بنو اسرائيل في امس الحاجة الى الماء وهم في وسط صحراء قاحلة، فطلب موسى الماء: «وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ»، فتقبل الله طلبه، وأمر نبيه أن يضرب الحجر بعصاه: «فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا»، بعدد قبائل بني اسرائيل. وكل عين جرت نحو قبيلة، حتى «قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ».

كثرت الاقوال في طبيعة الحجر الذي انفجرت منه العيون، وكيفية ضربه بالعصا، والقرآن لا يزيد على ذكر ماسبق.

قال بعض المفسرين: إن هذا الحجر كان في ثنايا الجبال المطلة على الصحراء، ومنه جرت المياه قليلة أولاً ثم كثرت حتى ارتوى منها كل قبائل بني اسرائيل مع مواشيهم و
دوابهم.

ظاهرة انفجار المياه من الصخور طبيعية، لكن الحادثة هنا مقرونة بالاعجاز كما هو واضح.

ثمة أقوال تذكر أن ذلك الحجر كان من نوع خاص حمله بنو اسرائيل معهم، ومتى احتاجوا الى الماء ضربه موسى بعصاه فيجرى منه الماء. وليس في القرآن ما يثبت ذلك،

وإن أشارت إليه بعض الروايات.

في الفصل السابع عشر من «سفر الخروج» تذكر التوراة:

فقال الرب لموسى سر قدام الشعب وخذ معك من شيوخ اسرائيل وعصاك التي ضربت بها النهر خذها في يدك واذهب - ها انا اقف امامك هناك على الصخرة في حوريب فتضرب الصخر فيخرج منها ماء ليشرب الشعب ففعل موسى هكذا امام عيون شيوخ اسرائيل»^١.

لقد منّ الله على بني اسرائيل بانزال المن والسلوى، وفي هذه المرّة يمنّ عليهم بالماء الذي يعزّي في تلك الصحراء القاحلة، ثم يقول سبحانه لهم: «كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ، وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

وفي هذه العبارة حث لهم على ترك العناد وإيذاء الانبياء وان يكون هذا اقل شكرهم لله على هذه النعم.

* * *

وقفات

١- الفرق بين العثي والافساد

نهى الله سبحانه بني اسرائيل عن الفساد بالفعل «لَا تَعْتَوُوا»، من العثي وهو شدة الفساد، وتشبه في معناها «العيث»، إلا أنّ العيث أكثر ما يقال في الفساد الذي يدرك حساً، والعتي فيما يدرك حُكماً^٢. وقد تشير عبارة النهي بأجمعها الى حقيقة بدء الفساد من نقطة صغيرة، واتساعها واشتدادها بعد ذلك. أي تبدأ بالفساد وتنتهي بالعتي في الارض، وهو شدة الفساد واتساعه.

٢- المعاجز في حياة بني اسرائيل

قد تثير مسألة انفجار الماء من الحجر وما شابهها من المعاجز في حياة الانبياء،

(١) الفصل السابع عشر العدد ٦ و٥.

(٢) المفردات، ماده عثي.

تساؤلات في ذهن أولئك الذين لم يستوعبوا منطق الاعجاز. ولا نريد هنا أن نتعرض الى مسألة الاعجاز، لأنها تحتاج الى بحث مستقل. و نكتفي بالقول: إن المعجزة ليست أمراً محالاً، وليست استثناءً في قانون العلية. بل إنها خرق لما ألفناه واعتدنا عليه، أو بعبارة أخرى، خرق لما ألفناه في حياتنا اليومية من ارتباط بين العلة والمعلول.

و طبيعي أن تغيير مسيرالعلل والمعلولات ليس بعسير على الله سبحانه، ولو خلق الله هذه العلل والمعلولات منذالبدء بشكل آخر غير ما هي عليه اليوم، لكان هذا الذي نألفه اليوم خارقاً للعادة.

باختصار، خالق عالم الوجود ونظام العلية، حاكم على ما خلق لا محكوم له. و في حياتنا اليومية صور كثيرة للاستثناءات في النظام القائم للعلل والمعلولات. و مسألة الاعجاز لا تشكل أية مشكلة عقلية أو علمية.^١

* * *

٣- الفرق بين الانفجار والانبجاس

في الآية المذكورة ورد الفعل «انفجر» ليعبر عن تدفق الماء من الحجر، بينما ورد الفعل «انبجس» في الآية ١٦٠ من سورة الاعراف ليشير الى نفس الحقيقة مع فارق هو أن الاول يفصح عن شدة تدفق الماء والثاني عن سيلانه بشكل هادئ.

لعل آية سورة الاعراف تتحدث عن المرحلة الاولى من ظهورالماء، و جريانه بشكل هادي لا يثير فزع القوم، ولا يمنعهم من السيطرة عليه، بينما تشير الآية التي نحن في صددنا الى المرحلة النهائية حيث اشتد جريان الماء.

والراغب في مفرداته يفسر الانبجاس والانفجار بشكل يتناسب مع ما اشرنا اليه اذ يقول: بجس الماء و انبجس: انفجر، لكن الانبجاس اكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق. والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع.

* * *

الآية

٦١ - «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعْ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا. قَالَ: أَتَسْتَبِدُّونَ النَّبِيَّ هُوَ أَذْنَىٰ بِالنَّبِيِّ هُوَ خَيْرٌ؟! اِهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ».

التفسير

المطالبة بالاطعمة المتنوعة

بعد أن شرحت الآيات السابقة نِعَمَ الله على بني اسرائيل، ذكرت هذه الآية صورة من عنادهم وكفرانهم بهذه النعم الكبرى.

تحدث الآية أولاً عن مطالبة بني اسرائيل نبيهم بأطعمة متنوعة بدل الطعام الواحد (الْمَنَ وَالسَّلْوَى): «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ، فَادْعْ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا». فخطبهم موسى «قَالَ: أَتَسْتَبِدُّونَ النَّبِيَّ هُوَ أَذْنَىٰ بِالنَّبِيِّ هُوَ خَيْرٌ؟!، اِهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ».

ويضيف القرآن: «وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ، وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ».

وقفات

١- آراء المفسرين في كلمة «مصر»

من المفسرين من قال أن المقصود من كلمة «مصر» في الآية الكريمة هو المفهوم العام للمدينة. وقوله سبحانه «**إِهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَاءً سَاءَ لَكُمْ**»، أي انكم الآن تعيشون في هذه الصحراء ضمن إطار منهج للاختبار وبناء الذات، وليس هذا مكان الاطعمة المتنوعة، إذهبوا الى المدن حيث التنوع في المأكولات، ولكن لا يوجد فيها المنهج المذكور.

و يستدل اصحاب هذا الرأي بأن بني اسرائيل لم يطلبوا العودة الى «مصر» موطنهم السابق ولم يعودوا اليه اطلاقاً.^١

ومنهم من اختار هذا التفسير لمصر وأضاف اليه أن المقصود من قوله تعالى «**إِهْبِطُوا..**» هو أن بقاءكم في الصحراء واقتصاركم على الطعام الواحد يعودان الى ضعفكم، فكونوا أقوىاء، وحاربوا الأعداء، وحرروا من سيطرتهم مدن الشام والارض المقدسة، ليتوفر لكم ما شئتم.^٢

وهناك رأي ثالث للمفسرين هو أن المقصود من «مصر» البلد المعروف. و يكون المعنى عندئذ: انكم في هذه الصحراء الخالية من الاطعمة المتنوعة تملكون الايمان والحرية والاستقلال، وإن أبيتم الا أن تكون لكم أطعمة متنوعة، فارجعوا الى مصر حيث الذل والاستعباد، لتأكلوا من فترات موائد الفراعنة. إن مشهيات بطونكم أنستكم ما كنتم تعانون منه من ذل و استعباد، وما حصلتكم اليوم عليه من حرية و رفعة وافتخار.. وماتت حملونه من حرمان يسير إنما هو ثمن لحريرتكم.^٣

ويبدو أن التفسير الأول أنسب من التالين.

* * *

(١) التنوين في كلمة (مصر) دليل على تنكيهه، وعلى عدم اختصاصه بالارض المعروفة.

(٢) تفسير المنار، ذيل الآية المذكورة.

(٣) في ظلال القرآن.

٢- التنوع وطبيعة الانسان

التنوع هو - دون شك - من متطلبات البشر، وحبّ التنوع خصلة طبيعية في البشر. والانسان - إن استمرّ على تناول طعام معين لمدة طويلة - يمل ذلك الطعام. فلم اذن توجه اللوم والتقريع الى بني اسرائيل حين طلبوا الخضروات والخيار والثوم والعدس والبصل ليتخلصوا من الطعام الواحد؟!

الجواب يتضح لو علمنا أنّ الحياة الانسانية تقوم على أساس حقائق هامة لا يمكن التخلّي عنها هي الايمان والطهر والتقوى والتحرّر. وقد تمرّ الجماعة البشرية بمرحلة يتعارض فيها هذا الاساس الهام مع متطلبات الانسان من الطعام والشراب واللذائذ الاخرى. وهنا تصبح الجماعة أمام خيارين، إما أن تنغمس في اللذات وتترك قيمها و شرفها، أو تضحى بلذاتها من أجل إنسانيتها وكرامتها. بنو اسرائيل كانوا يعيشون أمام هذين الخيارين.

ولابد من الاشارة الى أن حقيقة حبّ التنوع استغلها الطامعون والمستعمرون دوماً، ليدفعوا الشعوب الى هاوية حياة استهلاكية شهوانية هابطة، يعيش الافراد فيها بين الملعف والمضجع، ناسين شخصيتهم الانسانية وغافلين عن النير الذي يطوق أعناقهم.

* * *

٣- هل «المن» و«السلوى» خير الاطعمة؟

حين طلب بنو اسرائيل اطعمة متنوعة، جاءهم التقريع بالقول: «آتَسْبِدُونَ الَّذِي هُوَ اَذْنِي بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟!»، أي أختارون الادنى وتتركون الافضل؟! ويبدو أن المقصود بالافضل هنا هو ما لديهم من طعام متمثل بالمن والسلوى. غير أن التفضيل الذي يطرحه القرآن هنا يعود الى الحياة بكل أبعادها، والتقريع يتجه الى بني اسرائيل لرغبتهم في التنوع مع ما قد يكشف هذا التنوع من ذلّ وهوان.

وعلى صعيد القيمة الغذائية، فان الاطعمة النباتية التي طلبها بنو اسرائيل لها قيمتها الغذائية طبعاً، غير أن مقدار المواد الغذائية النافعة الموجودة في «المن» - وهو العسل أو مادة سكرية مقويّة - وكذلك في لحوم السلوى، يفوق ما في الاطعمة النباتية المذكورة، كما

أن المن والسلوى أسهل هضماً من الحبوب المذكورة.^١
ولا بأس من الإشارة الى أن «الفوم» الذى طلبه بنو إسرائيل فُيسرّ بالحنطة مرة و
بالتوم مرة أخرى، ولكل من المادتين قيمتها الغذائية، ويرى بعض أن تفسير الفوم بالقمح
أصح لاستبعاد أن يطلب القوم طعاماً خالياً من القمح.^٢

* * *

٤- ذلة بني اسرائيل ومسكنهم

تفيد الآية الكريمة أن بني اسرائيل «صُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُ و
بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ» لعاملين:

الاول - لكفرهم بآيات الله، وانحرافهم عن خط التوحيد.

الثاني - لقتلهم الانبياء بغير حق.

ظاهرة الانحراف عن خط التوحيد و ظاهرة القسوة والفضاضة، لازالتا
مشهودتين حتى اليوم عند جمع من هؤلاء القوم، ولازالتا سبباً لشقاوتهم ولطيشهم
وتعاستهم.^٣

في تفسير الآية ١١٢ من سورة آل عمران تحدثنا بالتفصيل عن مصير اليهود
وحياتهم التعيسة، (المجلد الثالث من هذاالتفسير)

* * *

(١) راجع: «قرآن برفراز قرون واعصار» (فارسی)، ص ١١٢.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) نحن إذ نكتب هذه السطور، تصلنا انباء عما ارتكبه هؤلاء القوم في لبنان، من أعمال قاسية وحشية
ذهب صخيتها الآلاف من المدنيين العزل، خلال مجازر وحشية قلّ أن شهد لها التاريخ نظيراً. وسيدفع هؤلاء
المجرمون الثمن غالباً لفعالهم الشنعاء هذه، «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ».

الآية

٦٢ - «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

التفسير

القانون العام للنجاة

بعد عرض لمقاطع من تاريخ بني اسرائيل، تطرح هذه الآية الكريمة مبدأ عاماً في التقييم وفق المعايير الالهية. وهذا المبدأ ينص على أن الايمان والعمل الصالح هما أساس تقييم الافراد، وليس للتظاهر والتصنع قيمة في ميزان الله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

هذه الآية تكررت مع اختلاف يسير في سورة المائدة، الآية ٧٢ وفي سورة الحج

الآية ١٧.

سياق الآية في سورة المائدة يشير الى أن اليهود والنصارى فخرُوا بدينهم، واعتبروا أنفسهم أفضل من الآخرين، وادّعوا بأن الجنة خاصة بهم دون غيرهم. ولعل مثل هذا التفاخر صدر عن بعض المسلمين أيضاً، ولذلك نزلت هذه الآية الكريمة لتؤكد ان الايمان الظاهري لاقيمة له في ميزان الله، سواء في ذلك المسلمون واليهود والنصارى واتباع الاديان الاخرى. ولتقول الآية أيضاً: إن الاجر عند الله يقوم على أساس الايمان الحقيقي بالله واليوم الآخر اضافة الى العمل الصالح. وهذا الاساس هو الباعث الوحيد للسعادة الحقيقية والابتعاد عن كل خوف وحزن.

تساؤل هام!

بعض المضللين اتخذوا من الآية الكريمة التي نحن بصددنا وسيلة لبث شبهة مفادها أن العمل باي دين من الاديان الالهية له أجر عندالله، وليس من اللازم أن يعتنق اليهودي أو النصراني الاسلام، بل يكفي أن يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل صالحاً. الجواب: نعلم أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، والكتاب العزيز يقول: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» (آل عمران، ٨٥).

كما أن القرآن مليء بالآيات التي تدعوا أهل الكتاب الى اعتناق الدين الجديد، وتلك الشبهة تتعارض مع هذه الآيات. من هنا يلزمنا أن نفهم المعنى الحقيقي للآية الكريمة.

و نذكر تفسيرين لها من أوضح و انسب ما ذكره المفسرون:
١ - لو عمل اليهود والنصارى وغيرهم من اتباع الاديان السماوية بما جاء في كتبهم، لآمنوا حتماً بالنبي الخاتم صلى الله عليه وآله، لان بشارات الظهور وعلائم النبي وصفاته مذكورة في هذه الكتب السماوية، وسيأتي شرح ذلك في تفسير الآية ١٤٦ من سورة البقرة.

والقرآن الكريم يقول: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» (المائدة، ٦٨).

وواضح أن إقامة التوراة والانجيل يتضمن الايمان بنبي الاسلام المنصوص عليه في الكتب المقدسة.

٢ - هذه الآية تحيب على سؤال عَرَضَ لكثير من المسلمين في بداية ظهور الاسلام، يدور حول مصير آبائهم واجدادهم الذين لم يدركوا عصر الاسلام، تُرى، هل سيؤاخذون على عدم اسلامهم وإيمانهم؟!!

الآية المذكورة نزلت لتقول إن كل أمة عملت في عصرها بما جاء به نبيها من تعاليم السماء وعملت صالحاً؛ فانها ناجية، ولا خوف على افراد تلك الامة ولاهم يحزنون. فاليهود المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور المسيح، والمسيحيون المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور نبي الاسلام.

وهذا المعنى مستفاد من سبب نزول هذه الآية كما سيأتي.

* * *

وقفات

١- قصة سلمان الفارسي

إكمالاً للبحث، لا بأس أن نذكر هنا سبب نزول هذه الآية كما جاء في جامع البيان للطبري:

«كان سلمان من جنديسابور، وكان من أشرفهم، وكان ابن الملك صديقاً له مؤاخياً، لا يقضي واحد منهم أمراً دون صاحبه. وكانا يركبان الى الصيد معا. فبينما هما في الصيد، إذ بدا لهما بيت من خباء، فأتياه، فاذاهما فيه برجل بين يديه مصحف، يقرأ فيه، وهو يبكي.

سألاه: ما هذا؟

قال: إن كنتما تريدان أن تعلمما ما فيه فانزلا، حتى أعلمكما. فنزلا اليه. فقال لهما: هذا كتاب من عند الله، أمر فيه بطاعته، ونهى عن معصيته، فيه أن لا تزني ولا تسرق ولا تأخذ أموال الناس بالباطل، فقص عليهما ما فيه، وهو الانجيل الذي أنزله الله على عيسى.

فوقع في قلوبهما، وتابعا، فأسلما.

وقال لهما: إن ذبيحة قومكما عليكما حرام. فلم يزالا معه كذلك يتعلمان منه. ثم اتفق أن كان للملك عيد، فجعل طعاما، ودعى اليه الاشراف، فأبى ابن الملك أن يحضر الوليمة، فدعا ابوہ فقال له: ما أمرك هذا؟

قال: إنا لا نأكل من ذبائحكم، انكم كفار لا تحل ذبائحكم.

قال له الملك: من أمرك بهذا؟ فأخبره أن الراهب أمر بذلك.

فدعا الراهب فقال: ماذا يقول ابني؟

قال: صدق ابنك.

قال له: لولا أن الدم فينا عظيم لقتلتك، ولكن اخرج من أرضنا. فأجله أجلا.

قال سلمان: فقمنا نبكي عليه، فقال لهما: إن كنتما صادقين فانا في بيعة في

الموصل، مع ستين رجلاً نعبداً لله فيها، فأتونا فيها، فخرج الراهب، وبقي سلمان وابن الملك، فجعل يقول لابن الملك: إنطلق بنا، وابن الملك يقول: نعم. وجعل ابن الملك يبيع متاعه يريد الجهاز. فلما أبطأ على سلمان، خرج سلمان حتى أتاهم، فنزل على صاحبه، وهورت البيعة، وكان أهل تلك البيعة من أفضل الرهبان. فكان سلمان معهم يجتهد في العبادة ويتعب نفسه.

قال له الشيخ يوماً: إنك غلام حدث، تتكلف من العبادة مالا تطيق، و أنا خائف أن تفر وتعجز، فارفق بنفسك، وخف عليها.

قال له سلمان: رأيت الذي تأمرني به أهو أفضل أوالذي أصنع؟

قال: بل الذي تصنع.

قال: فخلّ عني، ثم إن صاحب البيعة دعاه، فقال: اني رجل أضعف عن عبادة هؤلاء، وانا أريد أن أتحوّل من هذه البيعة الى بيعة أخرى هم أهون عبادة من هؤلاء، فان شئت أن تقيم هاهنا فأقم، وإن شئت أن تنطلق معي فانطلق.

قال له سلمان: أي البيعتين أفضل حالاً؟

قال: هذه.

قال سلمان: فانا اكون في هذه، وأوصى صاحب البيعة عالم البيعة بسلمان، فكان سلمان يتعبد معهم.

ثم إن الشيخ العالم عزم أن يأتي بيت المقدس، فقال لسلمان: إن أردت أن تنطلق معي فانطلق، وإن شئت أن تقيم فأقم.

فقال له سلمان: أيهما أفضل أنطلق معك أم أقيم؟

قال: بل تنطلق معي، وانطلقا حتى أتيا بيت المقدس.

فقال الشيخ لسلمان: أخرج فاطلب العلم، فانه يحضر هذا المسجد علماء أهل الأرض. فخرج سلمان يسمع منهم، فرجع يوماً حزينا. فقال له الشيخ: مالك يا سلمان؟ قال: أرى الخير كله قد ذهب به من كان قبلنا من الانبياء واتباعهم. فقال له الشيخ: يا سلمان لا تحزن فانه بقي نبي ليس من نبي بأفضل تبعاً منه، وهذا زمانه الذي يخرج فيه، ولا أراني أدركه، وأما أنت فشباب لعلك تدركه، وهو يخرج في أرض العرب، فان

أدركته فأمن به واتبعه، فقال له سلمان: فأخبرني عن علامته بشيء. قال: نعم، هو مختوم في ظهره بخاتم النبوة. وهو يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة.

ثم اتفق أن افترق سلمان عن الراهب لدى عودتهما من بيت المقدس، ففقدته في الطريق وبينما هو يبحث عنه إذ رآه رجلان عربيان من بني كلب، فأسراه، وأخذه معه إلى المدينة، قال سلمان: فأصابني من الحزن شيء لم يصيبني مثله قط، فاشترته امرأة من جهينة، فكان يرعى عليها هو وولدها لها يتراوحان الغنم هذا يوما وهذا يوما. فكان سلمان يجمع الدراهم ينتظر خروج محمد (صلى الله عليه وآله) فبينما هو يرعى يوما إذ أتاه صاحبه الذي يعقبه فقال: أعلمت أنه قد قدم اليوم المدينة رجل يزعم أنه نبي؟! فقال له سلمان: أقم في الغنم حتى آتيتك. فذهب سلمان إلى المدينة، فنظر إلى النبي (صلى الله عليه وآله) ودار حوله، فلما رآه النبي (صلى الله عليه وآله) عرف ما يريد. فأرسل ثوبه حتى خرج خاتمه. فلما رآه أتاه وكلمه. ثم انطلق فاشترى طعاما وجاء به، فقال له النبي: ما هذا؟ قال سلمان: هذه صدقة. قال: لا حاجة لي بها فأخرجها فليأكل المسلمون. ثم انطلق فاشترى طعاما، فأتى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: ما هذا؟ قال: هدية. قال: فاقعد، فاقعد فأكلنا جميعا منها. فبينما هو يتحدث، إذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك، ويشهدون أنك ستبعث نبيا. فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له النبي (صلى الله عليه وآله): يا سلمان هم من أهل النار. فاشتد ذلك على سلمان، فانزل الله سبحانه هذه الآية.

* * *

٢- من هم الصابئون؟

يقول الراغب الاصفهاني: الصابئون قوم كانوا على دين نوح^١ و ذكرهم إلى جانب المؤمنين واليهود والنصارى يدل على أنهم كانوا يدينون بدين سماوي ويؤمنون بالله واليوم الآخر.

واعترى البعض أنهم مشركون، وقيل عنهم أنهم مجوس، وليسوا كذلك، لان

القرآن ذكرهم الى جانب المشركين والمجوس إذ قال: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا...» (الحج، ١٧).

واختلف المفسرون واصحاب الملل والنحل في تشخيص هوية الصابئين، ووجه تسميتهم.

«الشهرستاني» في «الملل والنحل» يقول: الصابئة من صبا أي انحرف عن طريق الانبياء، وهؤلاء قوم انحرفوا عن طريق الحق ودين الانبياء فهم «صابئة». ويقول «الفيومي» في «المصباح المنير» أن «صبا» تعني الخروج من الدين الى دين آخر.

وفي معجم (دهخدا) الفارسي: الصابئون جمع صابئ وهي كلمة مشتقة من (ص - ب - ع) العبرية التي تعني الغوص في الماء (أوالتعميد)، وسقطت العين في التعريب، وتسمى هذه الطائفة التي تسكن خوزستان باسم (المغتسله) لذلك. دائرة المعارف الفرنسية، في المجلد الرابع، ص ٢٢، ذكرت أن هذه الكلمة عبرية وتعني الانغماس في الماء أوالتعميد.

(جسينوس) الالماني يذهب الى أن هذه الكلمة عبرية ولا يستبعد أن تكون مشتقة من كلمة تعني «النجم».

صاحب كتاب «كشاف اصطلاح الفنون» يقول: «الصابئون فرقة تعبد الملائكة ويقرأون (الزبور) ويتجهون نحوالقبلة».

وجاء في كتاب «التبويه والاشراف» نقلا عن «الامثال والحكم» ص ١٦٦٦: «قبل أن يطرح (زرارتشت) دعوة المجوسية على (جشتاسب)، وكان أهل هذه الديار على مذهب (الحنفاء)، وهم الصابئون، وهو دين جاء به (بوذاسب) على عهد (طهمورس)».

سبب اختلاف الآراء حول هذه الطائفة يعود الى قلة أفرادها واصرارهم على إخفاء تعاليمهم، وامتناعهم عن الدعوة الى دينهم، واعتقادهم أن دينهم خاص بهم لاعام لكل الناس، وان نبهم مبعوث اليهم لا لغيرهم. ولذلك أحيطوا بكثير من الغموض واكتفتهم الاسرار، وهم يتجهون نحوالانقراض.

الالتزام بتعاليمهم على غاية الصعوبة، ففيها انواع الاغسال والتعميدات في الشتاء

والصيف، و يميلون الى الانزواء والابتعاد عن غير ابناء دينهم و يجرمون تزوج النساء من غيرالصابئين، وكثير منهم اعتنق الاسلام نتيجة اختلاطهم بالمسلمين.

* * *

٣- معتقدات الصابئين

يعتقد الصابئة أن أول كتاب مقدس سماوي نزل على آدم، وبعده على نوح، ثم على سام، ثم على «رام»، ثم على ابراهيم الخليل، ثم على موسى، واخيراً على يحيى بن زكريا.

كتبهم المقدسة: ١- «كيزاربا» ويسمى ايضاً «سدره» او «صحف» آدم، وفيه آراء حول كيفية بدء الخلق.

٢ - كتاب «ادر افشادهي» او «سدرادهي» ويتحدث عن يحيى و تعاليمه. و يعتقد الصابئة أنه موحى الى يحيى عن طريق جبرائيل.

٣ - كتاب «قلستا» وفيه تعاليم الزواج والزوجية. هذا الى جانب كتب كثيرة أخرى، يطول ذكرها.

يبدو مما سبق أن هؤلاء اتباع يحيى بن زكريا، الذي يسميه المسيحيون يحيى المعمد، او يوحنا المعمد.^١

صاحب كتاب «بلوغ الارب» له رأي آخر بشأن الصابئة، يقول:
هم من يعتقد في الأنواء اعتقاد المنجمين في السيارات حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم الا بنوء من الانواء ويقول مطرنا بنوء كذا...^٢

وهؤلاء كانوا قوم ابراهيم الخليل (عليه السلام) وهم اهل دعوته وكانوا بحران فهي دار الصابئة وكانوا قسمين صابئة حنفاء وصابئة مشركين والمشركون منهم يعظمون الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر، ويصورونها في هياكلهم... ويتخذون لها اصناماً تخصها ويقربون لها القرابين..

(١) راجع لمزيد من التوضيح كتاب «آراء وعقائد بشري» (فارسي).

(٢) الأنواء جمع نوء وهو النجم مال للغروب بلوغ الارب جزء ٢٦ - ص ٢٢٢ - ٢٢٨.

و طوائف منهم يصومون شهر رمضان و يستقبلون في صلواتهم الكعبة و يعظمون مكة و يرون الحج إليها و يحرمون الميتة و الدم و لحم الخنزير و يحرمون من القرابات في النكاح ما يحرم المسلمون و على هذا المذهب كان جماعة من اعيان الدولة ببغداد منهم هلال بن المحسن الصابى صاحب الديوان الانشائى و صاحب الرسائل المشهورة و كان مع المسلمين و يعبد معهم و يزكى و يحرم المحرمات و كان الناس يعجبون من موافقته للمسلمين و ليس على دينهم، واصل دين هؤلاء فيما زعموا انهم يأخذون محاسن ديانات العالم و مذاهبهم و يخرجون من قبيح ما هم عليه قولاً و عملاً و لهذا سموا صابئة اى خارجين فقد خرجوا عن تقييدهم بجملة كل دين و تفصيله الا ما رأوه فيه من الحق.^١

من مجموع ما سبق يتبين أن الصابئين كانوا في الاصل أتباع أحد الانبياء و ان اختلف المحققون في تعيين نبيهم. و تبين أيضاً أن عدد هؤلاء قليل و هم في حالة انقراض.

* * *

الآيتان

٦٣ - «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» .
٦٤ - «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» .

التفسير

الالتزام بالميثاق

هاتان الآيتان تطرحان مسألة أخذ ميثاق بني اسرائيل بشأن العمل بالتوراة، ثم نقضهم للميثاق: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ» والطور جبل وسيأتي ذكره. وقلنا لكم: «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ»، واجعلوا التوراة دوما نصب أعينكم: «وَإِذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

* * *

لكنكم نقضتم الميثاق وجعلتموه وراء ظهوركم: «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» .

* * *

وقفات

١- الميثاق

المقصود من الميثاق في الآية الكريمة هو نفس ما جاء في الآية ٤٠ من هذه السورة وما سيأتي في الآيتين ٨٣ و٨٤ أيضاً. مواد هذا الميثاق عبارة عن: توحيد الله، والاحسان الى الوالدين والاقربين واليتامى والمساكين، والقول الصالح، واقامة الصلاة، وأداء الزكاة، واجتناب سفك الدماء. وهذه المواد وردت في التوراة كذلك .

من الآية ١٢ لسورة المائدة يتضح أيضاً أن الله أخذ ميثاق بني اسرائيل أن يؤمنوا بجميع الانبياء ويساندوهم، وأن ينفقوا في سبيل الله. وفي هذه الآية ضمان للقوم بدخول الجنة إن عملوا بهذا الميثاق.

٢- رفع جبل الطور

أما بشأن كيفية رفع جبل الطور في قوله تعالى: «وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ» يقول الطبرسي عن أبي زيد: حدث «هذا حين رجع موسى من الطور، فأتى بالالواح، فقال لقومه: جئكم بالالواح وفيها التوراة والحلال والحرام فاعملوا بها. قالوا: ومن يقبل قولك؟! فأرسل الله عز وجل الملائكة حتى تتقوا (رفعوا) الجبل فوق رؤوسهم، فقال موسى (ع): إن قبلتم ما آتيتكم به والا ارسلوا الجبل عليكم، فأخذوا التوراة وسجدوا لله تعالى ملاحظين الجبل (أي وهم ينظرون الى الجبل من طرف خفي)، فن ثم يسجد اليهود على أحد شقي وجوههم».

مضمون هذه الآية ورد مع تفاوت بسيط في الآية ٩٣ من سورة البقرة و١٥٤ النساء، و١١٧ الاعراف.

الطبرسي - كما ذكرنا - وجمع من المفسرين - يذهبون الى أن جبل الطور رفع فوق رؤوس بني اسرائيل بأمر الله، وهناك من يقول إن زلزالاً شديداً ضرب الجبل، بحيث كان يرى بنو اسرائيل ظل قمة الجبل على رؤوسهم من شدة الاهتزاز، وترقبوا أن يسقط الجبل عليهم، لكن الزلزال هدأ بفضل الله واستقرّ الجبل^١.
ويحتمل أيضاً أن تكون قد انفصلت من الجبل صخرة عظيمة بامر الله، وعلى أثر زلزال شديد، ومرت فوق رؤوسهم، وتصوروا أنها ستسقط عليهم.

٣- الالتزام والارهاب

مسألة رفع الجبل فوق بني اسرائيل لتهديدهم عند أخذ الميثاق، تثير سؤالاً بشأن

(١) المنار، في تفسير الآية المذكورة.

إمكان تحقيق الالتزام عن طريق التخويف والارهاب. هناك من قال: ان رفع الجبل فوقهم لا ينطوي على إرهاب و تخويف أو إكراه، لان أخذ الميثاق بالاكراه لا قيمة له. والاصح أن نقول: لا مانع من إرغام الافراد المعاندين المتمردين على الرضوخ للحق بالقوة. وهذا الارغام موقت هدفه كسر انفتهم وعنادهم وغرورهم، ومن ثم دفعهم للفكر الصحيح، كي يؤديوا واجباتهم بعد ذلك عن إرادة واختيار. على أي حال، هذا الميثاق يرتبط بالمسائل العملية، لا بالجانب الاعتقادي، فالمعتقدات لا يمكن تغييرها بالاكراه.

* * *

٤- جبل الطور

اختلف المفسرون في المقصود من جبل «الطور»، منهم من قال: إنه نفس الجبل الذي أوحى فيه الى موسى. وقال آخرون: إنه اسم جنس بمعنى مطلق «الجبل» لا جبل بعينه. وجاء تعبير (الجبل) بدل كلمة الطور في قوله تعالى: «وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ»^١ (الاعراف، ١٧١).

* * *

٥- خذوا تعاليم السماء بقوة

خاطب الله سبحانه بني اسرائيل فقال: «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ» وعن هذه الآية سئل الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) عن المقصود من القوة في هذه الآية: «أَبْقُوهُ بِالْأَبْدَانِ أَمْ بِقُوَّةٍ فِي الْقُلُوبِ»؟ قال: «بِهِمَا جَمِيعاً»^٢. وهذا الامر الالهي يتجه الى كل أتباع الاديان الالهية في كل زمان ومكان، و يطلب منهم أن يتجهزوا بالقوى المادية والقوى المعنوية معا، لصيانة خط التوحيد وإقامة حاكمية الله في الارض.

(١) تفسير ابى الفتوح الرازي والتفسير الكبير للرازي، ذيل الآية التي نحن بصدها.

(٢) رواه العياشي، نقلاً عن مجمع البيان.

الآيتان

٦٥ - «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً

خَاسِئِينَ».

٦٦ - «فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ».

التفسير

عصا قيوم السبت

هاتان الآيتان الكريمتان تتحدثان كآيات السابقة عن روح العصيان والتمرد المتغلغلة في اليهود، والتصاقهم الشديد بالمسائل المادية: «لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ».

«فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا» اي جعلناها عبرة لتلك الأمة ولا مم تليها «وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ».

ملخص الحادثة التي تشير اليها الآية: «أن الله سبحانه أمر اليهود أن يسبتوا - أي أن يقطعوا أعمالهم - يوم السبت، وهذا الأمر شمل طبعاً اولئك القاطنين قرب البحر الذين يعيشون على صيد الاسماك، و شاء الله أن يختبر هؤلاء، فكثر الاسماك يوم السبت قرب الساحل بينما ندرت في بقية الأيام. طفق هؤلاء يتحايلون لصيد الاسماك يوم السبت. فعاقبهم الله على عصيانهم و مسخهم على هيئة حيوان».

وهل كان هذا المسخ جسمي أم نفسي واخلاقي؟ واين كان يسكن هؤلاء القوم؟ وبأية حيلة توسلوا للصيد؟ هذا ما سنجيب عليه وعلى غيره من المسائل المرتبطة بهذا الموضوع في المجلد السادس من هذا التفسير، لدى توضيح الآيات ١٦٣ - ١٦٦ من سورة

(١) خساً: طرد وزجر، ويستعمل لطرده الكلب، و للطرده المقرون بالاستهانه يقال: إخشأه.

الاعراف.

وقوله تعالى: «فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ» إشارة الى فورية المسخ الذي تم بامر الهي واحد.

ومن المفيد أن ننقل في هذا المجال رواية عن الامامين الباقر والصادق عليهما السلام أنهما قالوا: «لما بين يديها» أي لما معها يُنظَرُ إليها مِنَ الْقُرَى (في زمان تلك الامة)، «وما خلفها» نحن (المسلمون) ولنا فيها موعظة^١.

* * *

الآيات

- ٦٧ - «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا: أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا. قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ».
- ٦٨ - «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ، قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا نُؤْمَرُونَ».
- ٦٩ - «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوثُهَا تَسْرُّ النَّاطِرِينَ».
- ٧٠ - «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ. إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ».
- ٧١ - «قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُوكٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً لِاشْيَاءِ فِيهَا. قَالُوا أَلَا نَحْنُ جُنُودٌ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ».
- ٧٢ - «وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ».
- ٧٣ - «فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».
- ٧٤ - «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

التفسير

قصة بقرة بني اسرائيل

هذه الآيات تتحدث بالتفصيل عن حادثة أخرى من حوادث تاريخ بني اسرائيل، هذا التفصيل لم نألفه في الآيات السابقة، ولعله يعود الى ان هذه الحادثة

ذكرت في هذا الموضوع -لاغير- من القرآن الكريم، و الى أنها تتضمن عبراً كثيرة تستوجب هذا التفصيل. من هذه الدروس: لجاج بني اسرائيل وعنادهم، و مستوى ايمانهم بكلام موسى، وأهم من كل هذا البرهنة على إمكان المعاد.

الحادثة (كما يبينها القرآن وكتب التفسير) على النحو التالي: قتل شخص من بني اسرائيل بشكل غامض، ولم يعرف القاتل.

حدث بين قبائل بني اسرائيل نزاع بشأن هذه الحادثة، كل قبيلة تهم الاخرى بالقتل. توجهوا الى موسى ليقضي بينهم. فما كانت الاساليب الاعتيادية ممكنة في هذا القضاء. وما كان بالامكان إهمال هذه المسألة لما سترتب عليها من فتنة بين بني اسرائيل. لجأ موسى - باذن الله - الى طريقة اعجازية لحل هذه المسألة كما ستوضحها الآيات الكريمة^١.

يقول سبحانه في هذه الآيات: «وَأذْ قَالِ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً، قَالُوا: أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا؟!»

«قَالَ: أَعْمُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ».

أي إن الاستهزاء من عمل الجاهلين، و انبياء الله مبرّأون من ذلك .

* * *

بعد أن ايقنوا جدية المسألة، «قَالُوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ». و عبارة

(١) في الفصل الحادي والعشرين من سفر التثنية في العهد القديم وردت اشارة عابرة لهذه القصة. وما ورد

في التوراة الحالية ليس بسرد للحادثة وانما إعطاء حكم من الاحكام، وهذا نص السفر المذكور من الجملة ١ الى ٩:

«اذا وجد قتيل في الارض التي يعطيك الرب الهك لتتلكها واقعاً في الحقل لا يعلم من قتله - يخرج شيوخك و

قضاتك و يقيسون الى المدن التي حول القتل - فالمدينة القربى من القتل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم

يحرث عليها لم تجر بالنير - و ينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة الى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع و يكسرون

عنق العجلة في الوادى - ثم يتقدم الكهنة بنولاوى لانه اياهم اختار الرب الهك ليعدموه و يباركوا باسم الرب

وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة - و يغسل جميع شيوخ تلك المدينة القربى من القتل ايديهم على العجلة

المكسورة العنق في الوادى - و يصرحون و يقولون ايدينا لم تسفك هذا الدم واعيننا لم تبصر - اغفر لشعبك اسرائيل

الذى فديت يارب ولا تجعل دم برىء في وسط شعبك اسرائيل فيغفر لهم الدم - فتنزح الدم البرىء من وسطك اذا

عملت الصالح في عيني الرب».

«ربك» تتكررفي خطاب بني اسرائيل لموسى، و تنطوي على نوع من إساءة الادب والسخرية، وكأن رب موسى غير ربهم!!
موسى (عليه السلام) أجابهم: «قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ» أي انها لا كبيرة هرمة ولا صغيرة، بل متوسطة بين الحالتين. «فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ».

لكن بني اسرائيل لم يكفوا عن لجاجتهم: «قَالُوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا؟»
أجابهم موسى: «قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ التَّائِبِينَ»
أي إنها حسنة الصفرة لا يشوبها لون آخر.
ولم يكتف بنواسرائيل بهذا، بل اصرّوا على لجاجهم، وضيّقوا دائرة انتخاب البقرة على أنفسهم.

عادوا و «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ» طالبين بذلك مزيدا من التوضيح، متذرعين بالقول: «إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ».

أجابهم موسى «قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرثَ» أي ليست من النوع المذلل لحرث الارض وسقيها.
«مُسَلَّمَةٌ» من العيوب كلها.
«لَا شِيَةَ فِيهَا» أي لالون فيها من غيرها.
حينئذ: «قَالُوا: الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ».
«فَدَبَّحُوها وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» أي ما قاربوا الفعل حتى انتهت أسئلتهم ففعلوا.

بعد أن ذكر القرآن تفاصيل القصة، عاد فلخص الحادث بآيتين: «وَإِذ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا» أي فاختلفتم في القتل وتدافعتم فيه. «وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ».

«فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضِهَا» أي اضرَبوا المقتول ببعض أجزاء البقرة، كي يحيى و يخبركم بقاتله. «كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى، وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

* * *

و بعد هذه الآيات البيّنات، لم تلن قلوب بني اسرائيل، بل بقيت على قسوتها و غلظتها و جفافها: «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً». انها أشد قسوة من الحجارة، لان بعض الحجارة تنفجر منها الانهار، أو تنبع منها المياه، أو تسقط من خوف الله: «وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ». لكن قلوب بني اسرائيل أشد قسوة من الحجارة، فلا تنفجر منها عاطفة ولا علم، ولا تنبع منها قطرة حب، ولا تخفق من خوف الله. والله عالم بما تنطوي عليه القلوب وما تفعله الايدي: «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

* * *

وقفات

١- اسئلة كثيرة تافهة

«السؤال» دون شك مفتاح لحل المشاكل، ووسيلة لازالة الجهل والابهام، لكنه مثل بقية الامور، إن تجاوز حدّه وجاء في غير موضعه، يدل على الإنحراف و يؤدي الى أضرار، ومن ذلك ما نراه في هذه القصة. بنواسرائيل أمروا أن يذبحوا بقرة. وكان بامكانهم أن يذبحوا أية بقرة شاؤوا، لأن الامر الالهي لم يحدّد شكل البقرة ونوعها، ولو اراد الله بقرة بعينها لحدّد مواصفاتها حين الامر. لكن الله أمرهم أن يذبحوا «بقرة» و صيغة التنكير تدل على عدم ارادة التحديد. هؤلاء المعاندون أبوإلا أن يطرحوا أسئلة متكررة، أملاً في تضييع الحقيقة وإخفاء القاتل، و بقوا يصرون على تردهم في الذبح حتى النهاية، وهذا ما تشير اليه عبارة: «فَدَبَّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ».

وفي الآيات ما يشير الى أن مجموعة من بني اسرائيل - على الاقل - كانت تعرف القاتل، وقد يكون القتل قد تمّ بمؤامرة بين هؤلاء الافراد، لكنهم كانوا يكتُمون الامر،

ولهذا يقول سبحانه: «وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ».

اضف الى ما سبق أن أهل العناد واللجاج يكثرون دائماً من الجدل والاحتجاج

على كل شيء.

وثمة قرائن في الآيات توضح أن هؤلاء القوم لم تكن لهم معرفة كاملة بالله ولا

بالنبي المرسل اليهم، لذلك قالوا له بعد كل اسئلتهم: «الآن جِئْتَ بِالْحَقِّ»، وكأن ما جاء

به حتى ذلك الوقت كان باطلاً!!

والملاحظ أن الله سبحانه ضيق عليهم دائرة الانتخاب، واشتد بذلك عليهم

التكليف كلما زادوا في أسئلتهم، لانهم مستحقون لمثل هذا العقاب. ولذلك نرى في الاثر

حث على السكوت عما سبكت عنه تعاليم السماء في ذلك حكمة. وعن النبي (صلى الله

عليه وآله): «أَتَهُمْ أَمْرُوا بِأَذْنِي بَقْرَةٍ وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا شَدُّوا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ شَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»!

* * *

٢- مدلول هذه الاوصاف

كان تكليف بني اسرائيل - كما ذكرنا- مطلقاً غير مقيد بمواصفات معينة. لكن

لجاج هؤلاء ضيق عليهم الدائرة و غير عليهم حكم التكليف.^٢

الى جانب هذه الحقيقة، ثمة حقيقة اجتماعية قد يمكن استنتاجها من الاوصاف

التي ذكرت للبقرة.

يبدو أن القرآن يريد أن يبين أن البقرة «الحياة» ينبغي أن لا تكون «ذلولاً» أي

تأبى التسليم والخضوع الاعمى. كما أنها ذات لون واحد خالص لا تشوبه الوان أخرى.

و هذا يعني أن القائد الذي يستهدف إحياء المجتمع، ينبغي أولاً أن يكون

متحرراً من تأثيرات الضغوط الاجتماعية، التي يمارسها اصحاب الثروة والجاه والقوة. و

أن يستسلم لله وحده دون أن تأخذه في ذلك لومة لائم، كما أن القائد يجب أن يكون مبرّءاً

من أي لون غير اللون التوحيدى، ومثل هؤلاء الافراد فقط يستطيعون أن يعالجوا أمور الناس

(١) مجمع البيان، في تفسير الآية المذكورة.

(٢) هذه القصة تشير الى جواز نسخ الحكم قبل العمل وفق ما تقتضيه المصلحة وتشير أيضاً الى

وجود النسخ في دين موسى. كما تدل على أن التكليف قد يكون له طابع العقاب. وهذه مباحث سنطرحها في محلها.

باتزان واعتدال وبيعثوا في قلوب وافكار أمّتهم الخصب والحياة.
أما المنشد بنيرالدينا والحاضع لها، والمشوب بالالوان والاهواء فلا يستطيع أن
يحيى القلوب الميتة، ولا يقدر أن ينهض بدور الاحياء.

* * *

٣- ماهودافع القتل؟

تذكر كتب التاريخ والتفسير أن دافع القتل في هذه الحادثة إما المال، أو الزواج.
من المفسرين من قال أن ثرياً من بني اسرائيل لم يكن له وارث سوى ابن عمه.
فطال عمر هذا الثري ولم يطق الوارث مزيداً من الانتظار، فقتله خفية ليحصل على
أمواله. والقي جسده في الطريق، ثم بدأ بالصراخ والعويل، وشكا الأمر الى موسى.
وقال آخرون: إن القاتل أراد أن يتزوج من ابنة القتيل، فرفض ذلك، وزوج
ابنته الى أحد أختيار بني اسرائيل. فقعد له وقتله، ثم شكوا القاتل الامر الى موسى.
من الممكن أن تشير القصة الى حقيقة هي: إن كل المفاسد والجرائم مصدرها:
الطمع في المال، والطمع في الجنس.

٤- العبر في هذه القصة

هذه القصة لها دلالات على قدرة الله اللامتناهية، وكذلك على مسألة المعاد،
ولذلك وردت في الآية ٧٣ عبارة «كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى» اشارة الى مسألة المعاد،
وعبارة «وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ» تأكيد على قدرة الله وعظمته.
اضافة الى ما سبق، هذه القصة تتحدث عن سنّة من سنن الله تعالى، وهي ان
الامة تستوجب غضب الله حين تصرّ على عنادها ولجاجها واستهتارها بكل شيء.
العبارات التي وردت على لسان بني اسرائيل في هذه القصة، توضّح أن هؤلاء
القوم بلغوا الذروة في اهانة النبي، بل وبلغت بهم الجرأة الى اساءة الادب تجاه رب العالمين.
في البداية قالوا لنبيهم: «آتَّخِذْنَا هُرُوءًا»؟ وبذلك اتهموا نبيهم بارتكاب ذنب
الاستهزاء بالآخرين.

وفي مواضع عديدة خاطبوه بعبارة «أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ»، او كأن رب موسى غير

رهبم، مع أن موسى قد قال لهم: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ».

وقالوا له أيضاً: «أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ، إِنَّ الْبَقْرَةَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ» ويعنون بذلك أن كلام موسى أدى الى ضلالهم في تشخيص البقرة. ثم يخاطبوه في النهاية: «الآن جِئْتَ بِالْحَقِّ».

هذه التعبيرات تدل على جهل هؤلاء القوم وتعتهم وغرورهم ولجاجهم.

وهذه القصة من جهة أخرى تعلمنا أننا ينبغي أن لا نتزمت ولا نتشدد في الامور

كي لا يتشدد الله معنا.

ولعل انتخاب البقرة للذبح يستهدف غسل أدمغة هؤلاء القوم من فكرة عبادة العجل.

* * *

٥- الاحسان الى الاب

يذكر المفسرون أن البقرة التي ذكرت الآيات مواصفاتها، كانت وحيدة لا

تشاركها بقرة أخرى في ذلك، ولذلك اضطر القوم الى شرائها بثمن باهض.

ويقولون إن هذه البقرة كانت ملكا لرجل صالح على غاية البرّ بوالده. هذا

الرجل وافته فرصة صفقة مربحة، كان عليه أن يدفع فيها الثمن نقدا. وكانت النقود في

صندوق مغلق مفتاحه تحت وسادة والده. حين جاء الرجل ليأخذ المفتاح وجد والده

نائما، فأبى أن يوقظه لئلا ينزعج، ففُضّل أن يترك الصفقة على ان يوقظ والده.

وقال بعض المفسرين: «كان البائع على استعداد لان يبيع بضاعته بسبعين

الف نقداً، ولكن الرجل أبى أن يوقظ والده واشترى البضاعة بثمانين الفاً على أن يدفع

المبلغ بعد استيقاظ والده.

وقالوا أيضاً: بعد أن استيقظ الوالد، وعلم بالامر، اهدى لولده البقرة المذكورة،

فدّرت عليه ربّحاً عظيماً^١.

والى هذه القصة يشير رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذ يقول: «أَنْظَرُوا إِلَى

الْبَرِّ مَا بَلَغَ بِأَهْلِيهِ»^٢.

(٢) تفسير نورالثقلين، ج ١، ص ١٠٨.

(١) تفسير ابن كثير، ج ١.

الآيات

- ٧٥ - «أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».
- ٧٦ - «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: آمَنَّا، وَإِذَا خَلَا بِغُضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَنُحَدِّثُوكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟!»
- ٧٧ - «أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ».

سبب النزول

روي عن الامام ابى جعفر محمد بن علي الباقر (عليه السلام) أنه قال: «كَانَ قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ لَيْسُوا مِنَ الْمُعَانِدِينَ الْمُتَوَاطِّئِينَ، إِذَا لَقُوا الْمُسْلِمِينَ حَدَّثُوهُمْ بِمَا فِي التَّوْرَةِ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ، فَتَهَاؤُهُمْ كِبْرًا وَهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالُوا: لَا تُخْبِرُوهُمْ بِمَا فِي التَّوْرَةِ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ فَيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ»^١.

التفسير

لا أمل في هؤلاء

كان سياق الآيات السابقة يتجه نحو سرد تاريخ بني اسرائيل، وفي هاتين الآيتين يتجه الخطاب نحو المسلمين ويقول لهم لا تعتدوا الآمال على هداية هؤلاء اليهود، فهم مصرون على تحريف الحقائق ونكران ما عقلوه «أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ، وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»!

(١) مجمع البيان، ج ١ ص ١٤٢

وهذه عظة للمسلمين، ودفع لما قد يعتريهم من يأس نتيجة عدم استطاعتهم اقناع اليهود وجذبهم الى الدين الجديد.

الآيتان الكريمتان توضحان أن السبب في عدم استسلام هؤلاء القوم أمام المعجزة القرآنية و سائر المعاجز النبوية الأخرى، إنما يعود لعناد متأصل في هؤلاء ورثوه عن آبائهم الذين سمعوا كلام الله عند جبل الطور، ثم ما لبثوا أن حرّفوه بعد عودتهم. من عبارة «وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ..» نفهم أن بني اسرائيل لم يكونوا بأجمعهم محرفين، بل إن فريقاً منهم - ومن المحتمل أن يشكل عددهم اكثرية بني اسرائيل - كانوا هم المحرفين.

ورد في اسباب النزول أن مجموعة من بني اسرائيل حين عادوا من جبل الطور قالوا: «سمعنا أن الله قال لموسى: اعملوا باوامري قدر استطاعتكم، واتركوها متى تعذر عليكم العمل بها!» وكان ذلك اول تحريف في بني اسرائيل.

على أي حال، كان من المتوقع أن يكون اليهود أول من يؤمن بالرسالة الاسلامية بعد إعلانها لانهم اهل كتاب (خلافًا للمشركين)، ولانهم قرأوا صفات النبي (صلى الله عليه وآله) في كتبهم. لكن القرآن يوجه انظار المسلمين الى الحالة النفسية السائدة لدى هؤلاء القوم، ويوضح لهم أن الانحراف النفسي يدفع الى الاعراض عن الحقيقة، مهما كانت هذه الحقيقة واضحة بينه.

* * *

الآية التالية تلقي الضوء على حقيقة مُرّة أخرى بشأن هذه الزمرة المنافة وتقول: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا، قَالُوا: آمَنَّا، وَإِذَا خَلَا بِغُضُوبِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، قَالُوا: أَنَحَدِّثُوكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟!»

من المحتمل أيضاً أن تتحدث هذه الآية في صدرها عن المنافقين من اليهود الذين يتظاهرون بالايان لدى لقاءهم بالمسلمين، ويبرزون انكارهم عند لقاءهم بأصحابهم، بل يلومون اولئك اليهود الذين يكشفون للمسلمين عمّا في التوراة من أسرار.

هذه الآية - على أي حال - تأييد للآية السابقة، التي نهت المسلمين عن

عقد الامل على إيمان مثل هؤلاء القوم.

عبارة «بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ» قد تعني الميثاق الالهى الذي كان محفوظاً لدى بني اسرائيل. وقد تشير الى الاسرار الالهية المرتبطة بالشرعة الجديدة. ويتضح من الآية أن ايمان هذه الفئة المنافقة من اليهود، كان ضعيفا الى درجة أنهم تصوروا الله مثل إنسان عادتي، وظنوا أنهم إذا أخفوا شيئاً عن المسلمين فستخفى عن الله أيضاً.

* * *

لذلك تقول الآية التالية بصراحة: «أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ»؟!

* * *

الآيتان

٧٨ - «وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ».

٧٩ - «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ».

سبب النزول

عمد جمع من علماء اليهود الى تغيير صفات نبي الاسلام في التوراة، من أجل صيانة مصالحهم واستمرار الاموال التي كانت تتدفق عليهم سنويا من جهلة اليهود. وعند ظهور النبي (صلى الله عليه وآله) غيروا ما ذكر له من صفات في التوراة وابدلوها بصفات أخرى، كي يوهوا الامر على الاميين الذين كانوا قد سمعوا من قبل بصفات النبي في التوراة.

التفسير

خطة اليهود في استغلال الجهلة!

بعد الحديث عن انحرافات اليهود في الآيات السابقة، قسّمت هاتان الآيتان اليهود على مجموعتين: اميين وعلماء محرقين، (هناك طبعاً أقلية من علمائهم آمنت والتحقت بصفوف المسلمين).

عن المجموعة الاولى يقول تعالى: «وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ».

والأميون جمع أمي، والأمي غير الدارس. وسموا بذلك لانهم في معلوماتهم كما ولدتهم امهاتهم، أو لشدة تعلق امهاتهم بهم، فنحنهم جهلاً عن الانفصال عنهم ولم يرسلهم الى المدرسة.^١

والاماني جمع الامنية، ولعل الآية تشير هنا الى الامتيازات الموهومة التي كان ينسبها اليهود لانفسهم، كقولهم: «نَحْنُ اَبْنَاءُ اللّٰهِ وَاحِبَاؤُهُ» (المائدة، ١٨). و كقولهم: «لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ اِلَّا اَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ» (آل عمران، ٢٤).

ومن المحتمل أيضاً أن يكون المقصود من الاماني: الآيات المحرفة التي كان علماء اليهود يشيعونها بين الاميين من الناس. وهذا المعنى ينسجم اكثر مع قوله تعالى: «لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ اِلَّا اَمَانِيًّ».

وعلى أي حال عبارة: «إِنَّ هُمْ اِلَّا يُظُنُّونَ» دلالة واضحة على بطلان اتباع الظن في فهم اصول الدين ومعرفة مدرسة الوحي، ولا بد من التتبع والتحقيق في هذا الامر.

* * *

ثمة مجموعة اخرى من العلماء كانت تحرف الحقائق لتحقيق مصالحها، والى هؤلاء يشير القرآن: «قَوْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِاَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذَا مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ..»
«قَوْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبْتَ اَيْدِيهِمْ..»
«وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ..»

ومن العبارة الاخيرة نفهم الهدف الدنيئ لهؤلاء، وعاقبتهم الوخيمة. روي عن الامام الصادق (عليه السلام) في تفسير هذه الآية حديث فيه ملاحظات هامة:

واضح أن هذا الحديث لا يدور حول التقليد التعبدي في الاحكام، بل يشير الى اتباع العلماء من أجل تعلم اصول الدين، لان الحديث يتناول معرفة النبي، وهذه المعرفة من اصول الدين، ولا يجوز فيها التقليد التعبدي.

(١) معنى «الامني» بحث بشكل أوفى في تفسير الآية ١٥٧ من سورة الاعراف، راجع المجلد السادس

الآيات

- ٨٠ - «وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً، قُلْ آتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ؟ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ؟».
- ٨١ - «بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».
- ٨٢ - «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

التفسير

غرور وادعاء فارغ

يشير القرآن الكريم هنا الى واحدة من ادعاءات اليهود الدالة على غرورهم، هذا الغرور الذي يشكل الأساس لكثير من انحرافات هؤلاء القوم:

«وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً»، ثم توجيه الآية بأسلوب مُفْجِم: «قُلْ آتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ؟ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ؟».

اعتقاد اليهود بأنهم شعب الله المختار، وأن عنصرتهم متفوق على سائر الاجناس البشرية، وأن مذنبهم لن يدخلوا جهنم سوى أيام قليلة ليتنعموا بعدها بالجنة، من مظاهر أنانية هؤلاء واستفحال ذاتياتهم.

ادعاء اليهود المذكور في الآية الكريمة لا ينسجم مع أي منطق، إذ لا يمكن أن يكون بين افراد البشر أي تفاوت في نيل الثواب والعقاب أمام الله سبحانه وتعالى.

بِمِ استحق اليهود أن يكونوا مستثنين من القانون العام للعقاب الالهي؟! الآية الكريمة تدحض مزاعمهم بدليل منطقي، وتفهمهم أن مزاعمهم هذه إما أن تكون قائمة على أساس عهد لهم اتخذه عندالله، ولا يوجد مثل هذا العهد، أو أن تكون

من افتراءهم الكذب على الله.

* * *

ثم تبين الآية الكريمة التالية قانونا عاما يقوم على أساس المنطق وتقول: «بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». وهذا قانون عام يشمل المذنبين من كل فئة وقوم.

* * *

وبشأن المؤمنين الاتقياء، فهناك قانون عام شامل تبينه الآية التالية: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

* * *

وقفات

١- كسب السيئة

الكسب والاكْتساب: الحصول على الشيء عن إرادة واختيار، من هنا عبارة «بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً» إشارة الى اولئك الذين يرتكبون الذنوب عن علم وانتخاب. و تعبير الآية بكلمة «كَسَبَ» قد يكون اشارة الى المحاسبة الخاطئة العاجلة التي يرتكب المذنب على أساسها ذنبه ظانا أنه يكسب بارتكاب الذنب نفعاً، ويتحمل بتركه خسارة! والى مثل هؤلاء المذنبين تشير آية كريمة ستأتي بعد عدد من الآيات إذ يقول سبحانه: «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

* * *

٢- احاطة الخطيئة

الخطيئة تستعمل غالبا في الذنوب التي لا يرتكبها صاحبها عن عمد، لكنها وردت في هذه الآية بمعنى الذنوب الكبيرة^١، أو بمعنى آثار الذنب في قلب الانسان وروحه^٢.

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي، الآية المذكورة.

(٢) الميزان، الآية المذكورة.

مفهوم إحاطة الخطيئة يعني انغماس الفرد في الذنب الى درجة يصبح ذلك الفرد سجين ذنبه.

بعبارة أوضح، الذنوب الكبيرة والصغيرة تبدأ على شكل «فعل» ثم تتحول الى «حالة» ومع الاستمرار والاصرار تتحول الى «ملكة». وعند اشتدادها تغمر وجود الانسان وتصبح عين وجوده. عندئذ لا تجدي مع هذا الفرد موعظة ولا يؤثر فيه توجيهه ولا نصيح، إذ إنه عميل عن اختيار على قلب ماهيته.

الآية الكريمة تتحدث عن خلود مثل هؤلاء الافراد في النار، وهذا يعني أن هؤلاء يغادرون الدنيا وهم مشركون. لان الشرك هو الذنب الوحيد الذي لا يغفره الله سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» (النساء، ٤٨).

* * *

٣- عنصرية اليهود

نفهم من الآيات الكريمة أن روح التمييز العنصري لدى اليهود، التي هي مبعث كثير من مشاكل الساحة العالمية اليوم، كانت راسخة لدى اليهود منذ تلك الايام. وكانوا يعتقدون بوجود تفوق وامتياز لعنصر بني اسرائيل على سائر الاجناس البشرية الاخرى. ولا زالت هذه الذهنية سائدة لدى هؤلاء القوم بعد مرور آلاف السنين على أسلافهم الذين يتحدث عنهم القرآن الكريم. وهذا التعصب العنصري هو الاساس الذي تقوم عليه الدولة الصهيونية الغاصبة اليوم.

هؤلاء يعتقدون بأن عنصرهم متميز عن سائر البشر لا في هذه الدنيا فحسب، بل في الآخرة أيضاً، حيث لا ينال المجرم منهم - على رأيهم - سوى عقوبة خفيفة قصيرة. وهذه التصورات المغلوطة هي التي دفعتهم الى أن يرتكبوا الوان الجرائم والموبقات.^١

(١) في تفسير الآية ١٢٢ من سورة النساء بحثنا أيضاً في هذه الامتيازات الكاذبة (المجلد الرابع من هذا التفسير)

الآيات

- ٨٣ - «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا، وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ».
- ٨٤ - «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ».
- ٨٥ - «ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَإِن يَأْتُواكُم أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتُونُمُونَ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».
- ٨٦ - «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

التفسير

الناكثون

تقدم ذكر ميثاق بني اسرائيل، ولكن الآيات السابقة لم تتعرض الى تفاصيل هذا الميثاق على النحو المذكور في هذه الآيات. يشير سبحانه في هذه الآيات الى مواد هذا الميثاق، وهي بأجمعها - او معظمها - من المبادئ الثابتة في الأديان الإلهية. وهي موجودة بشكل من الاشكال في كل الاديان السماوية. القرآن يندد في هذه الآيات بشدة باليهود لنقضهم هذه العهود، و يتوعدهم نتيجة لهذا النقص بالخزي في الحياة الدنيا والعذاب في الآخرة.

بنود هذا العهد الذي أقرّ به بنو إسرائيل:

١ - التوحيد واخلاص العبودية لله «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ».

٢ - «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا».

٣ - الاحسان الى الاقارب واليتامى والفقراء: «وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ».

٤ - التعامل الصحيح مع الآخرين: «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا».

٥ - إقامة الصلاة: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ».

٦ - إيتاء الزكاة: «وَأَتُوا الزَّكَاةَ».

ثم تذكر الآية الكريمة نقض القوم للميثاق وعدم وفائهم بالعهد: «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمُ الْآقِلِيًّا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ».

٧ - عدم سفك الدماء: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَ كُمْ».

٨ - عدم إخراج بني جلدتكم من ديارهم: «وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ».

٩ - إفداء الأسرى، أي بذل المال لتحريرهم من الأسر (وهذا البند نفهمه من عبارة «أَقْتَوْمُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ»، وسيأتي ذكرها).
ثم تذكر الآية إقرار القوم بالميثاق: «ثُمَّ أَفْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ».

ثم يتعرض القرآن الى نقض بني اسرائيل للميثاق، بقتل بعضهم الآخر وتشريد بعضهم الآخر: «ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ»، ويشير القرآن الى تعاون بعضهم ضد البعض الآخر: «تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ».

ثم يشير الى تناقض هؤلاء في مواقفهم، إذ يحاربون بني جلدتهم ويخرجونهم من ديارهم، ثم يفدونهم إن وقعوا في الاسر: «وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أَسَارَىٰ تَفَادَوْهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ

عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ».

فهم يفادونهم استناداً الى أوامر التوراة، بينما يشردونهم ويقتلونهم مخالفين بذلك ما أخذ الله عليهم من ميثاق: «أَقْتُمُونِ بَعْضَ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بَبَعْضِ»؟! ومن الطبيعي أن يكون هذا الانحراف سبباً لانحطاط الانسان في الدنيا والآخرة: «فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ».

وانحرافات أمة من الامم لا بد أن تعود عليها بالنتائج الوخيمة، ذلك لأنها محصاة عند الله سبحانه وتعالى: «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

* * *

الآية الأخيرة تشير الى تحبط بني اسرائيل وتناقضهم وخسرانهم في مواقفهم، والمصير الطبيعي الذي ينتظرهم نتيجة لذلك: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

* * *

وقفات

١- إشارة تاريخية

في الآيات إشارة لتناقض بني اسرائيل في مواقف بعضهم من البعض الآخر. قيل في ذلك: «كان بنو إسرائيل إذا استضعف قوم قوماً أخرجوهم من ديارهم، وقد أخذ عليهم الميثاق أن لا يسفكوا دماءهم ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، وأخذ عليهم الميثاق إن أسر بعضهم بعضاً أن يفادوهم. فأخرجوهم من ديارهم ثم فادوهم، فأمنوا بالفداء ففدوا وكفروا بالاخراج من الديار فأخرجوهم».

وروي في المعني بهذه الآية: «أن قريظة والنضير كانا أخوين كالاوس والحزرج فافترقوا فكانت النضير مع الحزرج وكانت قريظة مع الاوس، فاذا اقتتلوا عاونت كل فرقة حلفاءها، فاذا وضعت الحرب أوزارها فدوا أسراها تصديقا لما في التوراة، والاوس والحزرج أهل شرك يعبدون الاوثان لا يعرفون جنة ولا ناراً ولا قيامة ولا كتاباً، فأنبأ الله

تعالى اليهود بما فعلوه»^١.

وهكذا تسقط كل جماعة في مثل هذه التناقضات في حياتها، إن انحرفت عن خط العبودية التامة لله تعالى.

* * *

٢- الازدواجية في الالتزام

مرّ بنا أن القرآن الكريم يوتّخ اليهود بشدة على التزامهم ببعض الاحكام الالهية وتركهم لبعضها الآخر، وينذرهم بخزي الدنيا وبعذاب الآخرة.

هؤلاء في الواقع التزموا بما ينسجم مع مصالحهم الدنيوية من الاحكام، أما حين تقتضي مصلحتهم أن يريقوا دم الآخرين ويستضعفوه، فلا يألون جهداً في ارتكاب كل ذلك مخالفين بذلك أهم أحكام رب العالمين.

التزامهم بفداء الأسرى لا ينطلق من روح تعبديّة، بل من روح مصلحية ترى أنّ من مصلحتها أن تفدي الأسرى اليوم، كي تُفدى هي حين تقع بالاسر في المستقبل.

العمل بالاحكام المنسجمة مع مصالح الانسان الدنيوية، ليس دلالة على طاعة الله وعبادته، لأن الدافع لم يكن الاستجابة الى دعوة الله، بقدر ما كان استجابة لنداء الذات والمصالح الذاتية. روح الطاعة تبرز لدى التزام الانسان بما لا ينسجم مع مصالحه الآنية الذاتية. وهذا هو المعيار الذي يميّز به المؤمن عن العاصي. فالازدواجية في الالتزام بأحكام الله تعالى، دلالة على روح العصيان بل أحيانا على عدم الايمان. ومصيرها - بالتعبير القرآني - الخزي في الدنيا واشدّ العذاب في الآخرة.. ولاخزي اكبر من سقوط مثل هذه الامة السائرة على خط الازدواجية بيد الغزاة الاجانب، وهبوطها في مستنقع الذلة على الساحة العالمية.

هذه السّنة الكونية لا تقتصر على بني اسرائيل بل هي سارية في كل زمان ومكان، وتشملنا نحن المسلمين أيضاً. وما أكثر الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض في مجتمعاتنا اليوم! وما أشق هؤلاء في الدنيا والآخرة!

* * *

٣- منهج البقاء وعوامل السقوط

الآيات الكريمة في معرض حديثها عن بني إسرائيل تطرح سننا كونية في بقاء الشعوب وانحطاطها.

أهم عامل لبقاء الامة ورفعتها وعزتها في المنظار القرآني، اعتماد الامة على قوة الله وقدرته الابدية وخضوعها له وحده دون سواه، وخشيته وحده دون غيره: «لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ».

ومن عوامل البقاء أيضاً التلاحم الاجتماعي بين أفراد الامة، وهذا ما يعبر عنه القرآن بالإحسان الى الوالدين باعتبارهما أقرب أفراد المجتمع الى الانسان، ثم الإحسان الى ذي القربى، ثم بعد ذلك الى عامة أفراد المجتمع من الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس.

إزالة التمييز الطبقي ورفع الهوة السحيقة الفاصلة بين الاغنياء والفقراء في المجتمع، عن طريق إيتاء الزكاة، من عوامل بقاء المجتمع أيضاً ورفعته.

أما عوامل السقوط، فتشير الآيات الى أنها تؤدي الى تفكك البنية الاجتماعية، و نشوب النزاعات والحروب الداخلية بين أفراد المجتمع، واستضعاف بعضهم بعضاً.

ثم الازدواجية في الالتزام بأحكام الله تعالى عامل هام من عوامل السقوط، يدفع بالأفراد لأن يتحركوا حول محور مصالحهم الآتية الذاتية الضيقة، تاركين طريق العزة والرفعة والبقاء الذي رسمه الله للانسان.

* * *

الآيتان

- ٨٧ - «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَقَرِيقًا تَقْتُلُونَ».
- ٨٨ - «وَقَالُوا فُلُونَا غُلْفَ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ».

التفسير

القلوب المغلفة

الحديث في هاتين الآيتين عن بني إسرائيل، وإن كانت المفاهيم والمعايير التي تطرحها الآيتان عامة شاملة.

تقول الآية الاولى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ» ثم تذكر بعثة الانبياء بعد موسى مثل داود وسليمان ويوشع وزكريا ويحيى... «وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ»، وتشير الى بعثة عيسى «وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ»، لكن تعامل بني اسرائيل كان مع كل هؤلاء الانبياء قائما على أساس نزعات هوى النفس «أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ»؟! وكان موقفهم اما اغتيال شخصية النبي أو شخص النبي: «فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَقَرِيقًا تَقْتُلُونَ»، لو كان اغتيال الشخصية كافياً لتحقيق أهدافهم الدينية اکتفوا بذلك، وإن لم يكن كافياً سفكوا دمه!!

ذكرنا في تفسير الآيات السابقة عند حديثنا عن الازدواجية في الالتزام بالاحكام الالهية، أن معيار الايمان والاستسلام هو الالتزام بما لا تهوى النفس، لان كل أصحاب الأهواء مستسلمون لما ينسجم مع ميولهم وأهوائهم.

ومن جانب آخر يستفاد من الآية أن القادة الالهيين لا يأبهون بمعارضة أصحاب الأهواء، ولو انساقوا وراء أهواء الآخرين لما كانوا قادة بل ذليلين.

الآية التالية تذكر ما كانوا يقولونه أمام دعوة الانبياء أو دعوة النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله) عن استهزاء: «وَقَالُوا: قُلُونَا عُغْلُفٌ» والغلف جمع أغلف أي مغلف.

نعم، إنها كذلك مغلفة وبعيدة عن نفوذ النور الالهي اليها، لان أصحابها لعنوا بعد التماذي في الكفر «بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ». قد تشير الآية الى اليهود الذين كذبوا الانبياء وقتلوهم، وقد تشير الى اليهود المعاصرين للنبي الخاتم (صلى الله عليه وآله) ممن وقف بوجه الرسالة. لكنها على أي حال تبين حقيقة هامة هي: أن الانغماس في الأهواء يبعد الفرد عن الله، و يسدل الحجب على قلبه، فلا تكاد الحقيقة تجدها طريقاً الى نفسه.

* * *

وقفات

١-رسالة الانبياء في مسيرة التاريخ

ذكرنا أن أصحاب الأهواء المنحرفين كانوا يقفون دوما بوجه دعوة الأنبياء، لانها كانت تهدد مصالحهم الآنية التافهة، وتحريف الرسالات الالهية أحد السبل التي انتهجها هؤلاء المنحرفون لمحاربة الدعوة، لذلك كان لابد من توالي الرسل-على مر التاريخ - لمواصلة بقاء خط النبوة على ظهر الارض، ولأتمام الحجة على البشرية، قال سبحانه: «ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا» (المؤمنون، ٤٤).

هذا المفهوم عبّر عنه أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بقوله: «فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْذُوهُمْ بِمِيثَاقِ فِطْرَتِهِ، وَيُدَّكِّرُوهُمْ مَنْسَى نِعْمَتِهِ وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُبَشِّرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ» (نهج البلاغة، الخطبة الاولى).

هدف بعثة الأنبياء على مر العصور التاريخية إذن هو تذكير البشر بنعم الله سبحانه، ودعوتهم الى الالتزام بميثاق الفطرة، وحياء دعوات الانبياء السابقين. وهنا يثار سؤال حول سبب ختم النبوة بنبي الاسلام (صلى الله عليه وآله)، و سنجيب عليه إن شاء الله في تفسير الآية ٤٠ من سورة الاحزاب.

* * *

٢- ماهوروح القدس

للمفسرين آراء مختلفة في معنى روح القدس:

١ - قالوا إنه جبرائيل، فيكون معنى الآية على هذا إن الله أيد عيسى بجبرائيل. و شاهدهم على ذلك قوله تعالى: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ» (النحل، ١٠٢).

ووجه تسمية جبرائيل بروح القدس، هو أن جبرائيل ملك والجانب الروحي في الملائكة أمر واضح، و اطلاق كلمة «الروح» عليهم متناسب مع طبيعتهم، و اضافة الروح الى «القدس» اشارة الى طهر هذا الملك وقداسته الفائقة.

٢ - وقيل ان «روح القدس» هو القوة الغيبية التي أيدت عيسى (عليه السلام)، و بهذه القوة الخفية الالهية كان عيسى يحيى الموتى.

هذه القوة الغيبية موجودة طبعاً بشكل أضعف في جميع المؤمنين على اختلاف درجة إيمانهم. وهذا الامداد الالهي هو الذي يعين الانسان في أداء الطاعات و تحمل الصعاب، و يقيه من السقوط في الذنوب والزلات. من هنا ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله لحسان: «لَنْ يَزَالَ مَعَكَ رُوحُ الْقُدُسِ مَا ذَبَبْتَ عَنَّا» و قول بعض أئمة اهل البيت لشاعر قرأ أبياتا ملتزمة: «إِنَّمَا نَفَثَ رُوحُ الْقُدُسِ عَلَى لِسَانِكَ».

٣ - ومن المفسرين من قال إن روح القدس هو «الانجيل» او يبدو أن التفسيرين السابقين أقرب الى المعنى.

٣- مفهوم «روح القدس» لدى المسيحيين

ورد في قاموس الكتاب المقدس: «ان روح القدس هو الاقنوم الثالث من الاقانيم الثلاثة الإلهية. و يقال له (الروح)، لانه مبدع الحياة، و يسمى مقدسا لأن من أعماله تقديس قلوب المؤمنين، ولما له من علاقة بالله و بالمسيح يسمى أيضا (روح الله) و (روح المسيح)».

و ورد أيضاً في هذا القاموس تفسير آخر هو: «أما روح القدس الذي يؤنسنا فهو الذي يحننا دوماً الى قبول وفهم الاستقامة والايان والطاعة، ويحيي الاشخاص الذين ماتوا في الذنوب والخطايا، و يطهرهم وينزههم و يجعلهم لاثقين لتجديد حضرة واجب الوجود».

وكما يلاحظ، إن عبارات قاموس الكتاب المقدس أشارت الى معنيين لروح القدس: الاول، إن روح القدس أحد الارباب الثلاثة، وهذه هي عقيدة التثليث، وهي عقيدة شرك بالله ومرفوضة والثاني، يشبه التفسير الثاني المذكور أعلاه.

٤- قلوب غافلة محجوبة

كان اليهود في المدينة يقفون بوجه الدعوة، ويمتنعون عن قبولها، و يتذرعون لذلك بمختلف الحجج، والآية التي نحن بصددتها تشير الى واحدة من ذرائعهم.

«وَقَالُوا: قُلُوبُنَا غُلْفٌ» ولا ينفذ اليها قول!!

كانوا يقولون ذلك عن استهزاء، غير أن القرآن أيد مقاتلتهم، فبكفرهم ونفاقهم أسدل على قلوبهم حجب من الظلمات والذنوب، وابتعدوا عن رحمة الله، «فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ».

وهذه المسألة تطرحها آية أخرى من قوله تعالى: «وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا» (النساء، ١٥٥).

* * *

الآياتان

٨٩ - «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ».

٩٠ - «بِسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ».

سبب النزول

روي عن الامام الصادق (عليه السلام) قال: «كَانَتِ الْيَهُودُ تَجِدُ فِي كُتُبِهَا أَنَّ مُهَاجِرَ (مكان هجرة) مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) مَا بَيْنَ (جبلي) عَيْرٍ وَ أَحَدٍ، فخرجوا يطلبون الموضوع، فَمَرُوا بِجَبَلٍ يُقَالُ لَهُ حَدَادٌ، فَقَالُوا: حَدَادٌ وَ أَحَدٌ سَوَاءٌ، فَتَفَرَّقُوا عِنْدَهُ، فَنَزَلَ بَعْضُهُمْ بِتِيَاءٍ وَبَعْضُهُمْ بِفَدَكٍ وَبَعْضُهُمْ بِخَيْرٍ، فَاشْتَاقَ الَّذِينَ بِتِيَاءٍ إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِمْ، فَتَرَّبَهُمْ أَعْرَابِيٌّ مِنْ قَيْسٍ فَتَكَارَوْا مِنْهُ (أَيِ اسْتَأْجَرُوا إِبْلَه) وَقَالَ لَهُمْ: أَمْرٌ بَيْنَ مَا بَيْنَ عَيْرٍ وَ أَحَدٍ، (فَعَلِمُوا أَنَّهُمْ أَصَابُوا ضَالَّتَهُمْ) فَقَالُوا لَهُ: إِذَا مَرَرْتُمَا فَاذْنَا (أَخْبَرْنَا) بِهِمَا، فَلَمَّا تَوَسَّطَ بِهِمْ أَرْضَ الْمَدِينَةِ، قَالَ: ذَلِكَ عَيْرٌ، وَهَذَا أَحَدٌ، فَنَزَلُوا عَنْ ظَهْرِ إِبْلَه، وَقَالُوا: قَدْ أَصَبْنَا بِغَيْتِنَا فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى إِبْلَكِ، فَاذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ، وَكَتَبُوا إِلَى إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ بِفَدَكٍ وَخَيْرٍ أَنَا قَدْ أَصَبْنَا الْمَوْضِعَ فَهَلِّمُوا الْبِنَا، فَكَتَبُوا إِلَيْهِمْ أَنَا قَدْ اسْتَقَرْتُ بِنَا الدَّارَ وَاتَّخَذْنَا بِهَا الْأَمْوَالَ، وَمَا أَقْرَبْنَا مِنْكُمْ، فَانْكَانَ ذَلِكَ فَمَا اسْرَعْنَا إِلَيْكُمْ، وَاتَّخَذُوا بِأَرْضِ الْمَدِينَةِ أَمْوَالَ فَلَمَّا كَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ بَلَغَ ذَلِكَ تُبْعًا فَعَزَاهُمْ، فَتَحَصَّنُوا مِنْهُ، فَحَاصِرَهُمْ ثُمَّ أَمَّنَهُمْ، فَنَزَلُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي قَدْ اسْتَطَبْتُ بِلَادَكُمْ، وَلَا أَرَانِي إِلَّا مَقِيمًا فِيكُمْ. فَقَالُوا لَهُ: لَيْسَ لَكَ ذَلِكَ، إِنَّهَا مُهَاجِرٌ

نبي، وليس ذلك لاحد حتى يكون ذلك، فقال لهم: فاني مخلف فيكم من أسرتي من اذا كان ذلك ساعده ونصره، فخلف حين تراهم الاوس والخزرج، فلما كثروا بها كانوا يتناولون أموال اليهود، فكانت اليهود تقول لهم: أما لو بعث محمد لنخرجنكم من ديارنا وأموالنا، فلما بعث الله محمداً (صلى الله عليه وآله) آمنت به الأنصار و كفرت به اليهود، وهو قوله تعالى: (وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا...) الى آخر الآية».

نعم، هذا الفئة التي كانت تبحث بولع شديد عن منطلق البعثة المحمدية، لتكون اول من تؤمن برسول الله (صلى الله عليه وآله)، وكانت تفتخر أمام الاوس والخزرج بأنها ستكون من خاصة صحابة النبي المبعوث، اذا هي تقف-بسبب لجأها وعنادها - الى جانب أعداء النبي، بينما التف حول الرسول من كان بعيداً عن هذه الاجواء.

التفسير

كفروا بما عرفوا من قبل

هذه الآيات تتحدث ايضاً عن اليهود ومواقفهم، هؤلاء - كما ورد في اسباب النزول - هاجروا ليتخذوا من يثرب سكناً بعد أن وجدوا فيها ما يشير الى انها ارض الرسول المرتقب، وبقوا فيها ينتظرون بفارغ الصبر النبي الذي بشرت به التوراة، كما كانوا ينتظرون الفتح والنصر على الذين كفروا تحت لواء هذا النبي، لكنهم مع كل ذلك أعرضوا عن الرسول وعن الرسالة «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ».

وهكذا تستطيع الأهواء والمصالح الشخصية أن تقف بوجه طالب الحقيقة، مهما كان الفرد عاشقاً لهذه الحقيقة و تواقاً للوصول اليها، بل تستطيع أيضاً أن تحوّل هذا الفرد الى عدو لدود لهذه الحقيقة.

* * *

ما أشد خسارة هؤلاء القوم، تركوا أوطانهم وهاموا في الارض بحثاً عن علامات أرض الرسالة، ثم هاهم خسروا كل شيء وباعوا أنفسهم بأسوأ ثمن: «بِئْسَ مَا اشْتَرَوْا أَنفُسَهُمْ».

لقد ضيعوا كل شيء لأن المبعوث لم يكن ممن شأؤوه هم، بل ممن شاءه الله: «أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».
و لذلك شملهم غضب الله المتوالي: «بَاءٌ وَبِغْضٍ عَلَى غَضَبٍ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ».

* * *

وقفتان

١- صفة خاسرة

إنه لخسران عظيم أن تتهبأ للانسان كل سبل الهداية ثم يعرض عنها لأمر تافهة. واليهود المعاصرون للنبي الخاتم هم من أولئك، توقرت لهم كل هذه السبل، بل تحركوا زمنا يبتغون مصدر هذه الهداية، وعثروا بعد جهد على مبتغاهم حين حطوا رحالهم بين «العير» و «أحد» انتظاراً للنبي الموعود، ثم إذا هم يخسرون كل شيء، ويبيعون كل شيء حين أحسوا أن هذا النبي المبعوث لا يحقق مصالحهم الفردية أو الفئوية.

ما أكبر الخسارة حين يبيع الانسان نفسه بهذا الشكل! بينما ليس لوجود الانسان ثمن الاجنثة كما يقول أمير المؤمنين علي (عليه السلام): «إِنَّهُ لَيْسَ لِأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا الْجَنَّةَ فَلَا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهَا»^١.

عبارة «اشترى النفس» أي يبيعها توحى أن الاتجاه نحو طريق الضلال يبيع للنفس، وكأن الكافر يبيع شخصيته الانسانية، ويصبح عبداً لاهوائه وللشيطان.

* * *

٢- غضب على غضب

القرآن الكريم قال عن بني اسرائيل حين تاهوا في صحراء سيناء بأنهم «بَاءٌ وَبِغْضٍ مِنَ اللَّهِ» بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء، وهؤلاء أحفادهم من اليهود المعاصرين للبعثة المحمدية بَاءٌ وَبِغْضٍ عَلَى غَضَبٍ، لأنهم ساروا على طريق أسلافهم في الكفر بالرسالة، وزادوا على ذلك بوقوفهم بوجه الرسول وتأميرهم على الدعوة.

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة رقم ٤٥٦.

و «باءُ و» بمعنى رجعوا، وأقاموا في المكان - وهنا تعني استحقاقهم لعذاب الله. فكأنهم عادوا وهم محملون بهذا الغضب الالهي، أو كأنهم اتخذوا موقفا يغضب الله. هؤلاء القوم كانوا يعيشون أمل ظهور النبي المنقذ، قبل دعوة موسى وقبل دعوة النبي الخاتم (صلّى الله عليه وآله)، وكان موقفهم من الرسولين الكريمين واحداً، هو النكول والاعراض، واستحقوا على مرّ الاجيال غضب الله وسخطه.

* * *

الآيات

٩١- «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَ يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

٩٢- «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظَالِمُونَ».

٩٣- «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَ أَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

التفسير

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، قَالُوا: تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا. وَ يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ».

فهم لم يؤمنوا بالانجيل ولا بالقرآن، بل إنهم يدورون حول محور العنصرية والمصلحية. فيجرون على رفض الدعوة التي جاءت تصديقا لما معهم في التوراة «وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ».

ويكشف القرآن زيف ادعائهم مرة أخرى حين يقول لهم: «قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»، هؤلاء يدعون أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم، فهل التوراة تبيح لهم قتل الانبياء؟!

وهذا الذي يقوله بنو اسرائيل: «تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا»، ينطلق من روح ذاتية فردية أو فئوية، وهي تخالف روح التوحيد. فالتوحيد يستهدف القضاء على كل المحاور الذاتية في حركة الانسان ومواقفه، وتكريس نشاطات الفرد حول محور العبودية لله لاغير.

عبارة أخرى، لو كان الانصياع للاوامر الالهية متوقفا على نزولها عليهم، فهو الشرك لا الايمان، وهو الكفر لا الاسلام، ومثل هذا الانصياع ليس بدليل على الايمان قط.

وعبارة «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ» تحمل مفهوم نبي كل ذاتية بشرية في الرسالة، بما في ذلك ذات النبي المرسل، فلم تتضمن العبارة اسم محمد وعيسى وموسى عليهم افضل الصلاة والسلام، بل التأكيد على الايمان بما أنزل الله تعالى.

يعرض القرآن وثيقة أخرى لادانة اليهود ولكشف زيف ادعائهم فيقول: «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ».

ما هذا الانحراف نحو عبادة العجل بعد أن جاءكم البينات إن كنتم في ايمانكم صادقين؟! لو كنتم آمنتم به حقا، فَلِمَ تبدل ايمانكم الى كفر عند غياب موسى وذهابه الى جبل الطور، وبذلك ظلمتم أنفسكم ومجتمعكم والاجيال المتعاقبة بعدكم؟! *

في الآية الثالثة يطرح القرآن وثيقة إدانة أخرى، فيشير الى مسألة ميثاق جبل الطور و يقول: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ، وَاسْمَعُوا، قَالُوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا».

وما كان عصيانهم إلا عن انغماس في حب الدنيا الذي تمثل في حب عجل السامري الذهبي: «وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ».

أإيمانكم دعاكم الى كل هذه الجرائم والسيئات؟! إذن «قُلْ بِسْمِ اللَّهِ يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»^١.

وقفتان

١ - عبارة «قَالُوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا» ليست حكاية عما قالوه بألسنتهم، بل هي تعبير عن واقع عملي هؤولاء القوم، وكناية رائعة عن انحرافهم.

(١) مرينا في الآيتين ٥١، ٦٣ من هذه السورة المباركة موضوع ميثاق بني اسرائيل وخصائصه.

٢ - عبارة «وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ» هي ايضاً كناية رائعة تعبر عن وضع

هذه الجماعة.

والأشراب له معنيان: الأحكام كقولك «أشربت البعير» إذا شددت رقبته بالحبل. وكذلك الإرواء، ويكون المعنى على الوجهين أن حب العجل قد غمر قلوب بني اسرائيل واستحكم في أنفسهم.

والعبارة توحى أيضاً أن ما يصدر عن هؤلاء القوم من انحراف، إنما هو ظاهرة طبيعية ناتجة عن تغلغل روح الشرك في قلوبهم. والقلوب التي أشربت الشرك لا يصدر عنها الا القتل والانكار والخيانة.

وتبين أهمية الموضوع أكثر لو طالعنا مقدار ما أكدت عليه الديانة اليهودية من تقبيح لعملية القتل ونهي عنها فقد جاء في قاموس الكتاب المقدس، ص ٦٨٧: «القتل العمدي وتقبيحه كان على درجة من الاهمية لدى بني اسرائيل، بحيث لا تبرأ ذمة القاتل لولجأ الى الاماكن المقدسة، بل لا بد من انزال عقوبة القصاص به بأي حال من الاحوال.

هذا هو معنى قتل الانسان في نظر التوراة، فما بالك بقتل الانبياء؟

الآيات

- ٩٤ - «قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».
- ٩٥ - «وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ آيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».
- ٩٦ - «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْخِزِجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ».

التفسير

فئة مغرورة

يبدو من تاريخ اليهود - اضافة الى احاديث القرآن عنه - أن هؤلاء القوم كانوا يعتبرون أنفسهم فئة متميزة في العنصر، ومتفوقة على سائر الاجناس البشرية، وكانوا يعتقدون أن الجنة خلقت لهم لالسواهم، وأن نار جهنم لن تمسهم، و أنهم أبناء الله وخاصته، وأنهم يحملون جميع الفضائل والمحاسن.

هذا الغرور الأرعن تعكسه كثير من آيات الذكر الحكيم الآية ١٨ من سورة المائدة تقول عن لسانهم: «نَحْنُ أَوْلَادُ اللَّهِ وَآحِبَّاءُهُ». وفي الآية ١١١ من سورة البقرة نرى ادعاء آخر لهم: «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارًا»، وهكذا في الآية ٨٠ من سورة البقرة: «وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً».

هذه التصورات الموهومة كانت تدفعهم من جهة الى الظلم والجريمة والطغيان، وتبعث فيهم - من جهة أخرى - الغرور والتكبر والاستعلاء.

القرآن الكريم يجيب هؤلاء القوم جوابا دامغا إذ يقول: «قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». لماذا تفرون من الموت، وكل ما في الآخرة من نعيم هو لكم كما تدعون؟! لماذا

هذا الالتصاق بالارض وبالمصالح الذاتية الفردية، إن كنتم مؤمنين بالآخرة وبنعيمها حقاً؟! هذا الشكل فضح القرآن كذوبة هؤلاء وبيّن زيف ادعائهم.

* * *

في الآية التالية تأكيد على ما سبق بشأن ابتعاد القوم عن الموت: «وَلَنْ يَّمْتَنُوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيهِمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ». هؤلاء يعلمون ما في ملق أعمالهم من وثائق سوداء ومن صحائف إدانة، والله عليم بكل ذلك، ولذلك فهم لا يتمنون الموت، لأنه بداية حياة يحاسبون فيها على كل أعمالهم.

* * *

الآية الأخيرة تذكر انشداد هؤلاء بالأرض وحرصهم الشديد على المال والمتاع: «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ»، وتذكر الآية أن حرصهم هذا يفوق حرص الذين أشركوا: «وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا».

المشركون ينبغي أن يكونوا أحرص من غيرهم على جمع المال والمتاع، لكن هؤلاء من أصحاب الادعاءات الفارغة، بلغوا من الحرص ما لم يبلغه المشركون. وبلغ شغفهم بالدنيا أنه «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ»، لجمع مزيد من متاع الدنيا، أو خوفاً من عقاب الآخرة! لكن هذا العمر الذي يتمناه كل واحد منهم لا يبعده عن العذاب، ولا يغيّر من مصيره شيئاً «وَمَا هُوَ بِمُرْخِزِجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ»، إذ كل شيء محصى لدى الله ولا يعزب عن علمه شيء: «وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ».

* * *

وقفات

١ - المقصود من الأعوام الألف في قوله تعالى: «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ» ليس هذا العدد المعروف بل يعني العمر الطويل المديد. فهو ليس للتعداد بل للتكثير. وذهب بعض المفسرين الى أن العرب لم يكن تعرف آنذاك عدداً اكبر من الالف، ولم يكن لما يزيد على الألف اسم عند العرب، ولذلك كان أبلغ تعبير عن الكثرة.^١

٢ - تنكير الحياة في تعبير الآية «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ» تفيد - كما ذهب الى ذلك جمع من المفسرين - الاستهانة والتحقيق، أي إن هؤلاء حريصون حتى على أتفه حياة و أرخصها وأشقاها، ويفضلونها على الآخرة.^١

* * *

٣- جرائم العنصريين

كان التعصب العنصري وراء كثير من الحروب والمآسي التي حدثت على الساحة البشرية خلال جميع عصور التاريخ، وفي عصرنا الحديث كان التعصب العرقي الالمانى عاملاً فعالاً في إشعال لظى الحربين العالميتين الاولى والثانية.

واليهود يحتلون دون شك مكان الصدارة بين العنصريين المتعصبين على مر التاريخ وها هي دويلتهم المسماة باسرائيل أُقيمت على أساس هذه العنصرية المقيتة، وما يرتكبه هذا الكيان العنصري الصهيوني من جرائم فظيعة، إنما هو استمرار لجرائمه التاريخية الناشئة عن عنصريته البغيضة.

لقد دفعتهم عنصريتهم لأن يحتكروا حتى تعاليم موسى، ويزيلوا عنصر الدعوة من دينهم، كي لا يعتنق تعاليمهم أحد غيرهم.

وهذه النزعة الأنانية هي التي جعلت هؤلاء القوم منبوذين ممقوتين من قبل كل شعوب العالم.

التعصب العنصري شعبة من الشرك، ولذلك حاربه الاسلام بشدة، مؤكداً أن كل أبناء البشر من أب واحد وأم واحدة، ولا تمايز بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح.

* * *

٤- عوامل الخوف من الموت

أكثر الناس يخافون من الموت وخوفهم من الموت يعود الى عاملين:

١ - الخوف من الفناء والعدم، فالذين لا يؤمنون بالآخرة لا يرون بعد هذه الحياة استمرار لحياتهم، ومن الطبيعي أن يخاف الانسان من الفناء، وهذا الخوف يلاحق هؤلاء

حتى في أسعد لحظات حياتهم فيحوّلها الى علقم في أفواههم.

٢ - الخوف من العقاب، ومثل هذا الخوف يلاحق المذنبين المؤمنين بالآخرة، فيخافون ان يحين حينهم وهم مثقلون بالآثام والاوزار، فينالوا جزاءهم. ولذلك يودّون أن تتأخر ساعة انتقالهم الى العالم الآخر.

الانبياء العظام أحيوا في القلوب الايمان باليوم الآخر، وبذلك أبعثوا شبح الفناء والإندام من الازهان، وبينوا أن الموت انتقال الى حياة أبدية خالدة منعمة.
من جهة أخرى دعا الانبياء الى العمل الصالح، كي يتعد الانسان عن الخوف من العقاب، ولكي يزول عن القلوب والأذهان كل خوف من الموت.

* * *

الآيتان

- ٩٧ - «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ».
- ٩٨ - «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ».

أسباب النزول

روي عن ابن عباس أن سبب نزول هذه الآية، ما روي أن ابن سوريا وجماعة من يهود أهل فدك ، لما قدم النبي (صلى الله عليه وآله) المدينة، سأله أسئلة، وكان رسول الله يجيبهم وهم يصدقون جوابه، من ذلك أنهم قالوا له: يا محمد كيف نومك؟ فقد أخبرنا عن نوم النبي الذي يأتي في آخر الزمان، فقال: تنام عيناى وقلبي يقظان. قالوا: صدقت يا محمد... ثم قال له ابن سوريا: خصلة واحدة إن قلتها آمنت بك واتبعتك: أي ملك يأتيك بما ينزل الله عليك؟ قال: جبريل. قال ابن سوريا: ذاك عدونا ينزل بالقتال والشدة والحرب، و ميكائيل ينزل باليسر والرخاء، فلو كان ميكائيل هو الذي يأتيك لآمتا بك!!^١.

* * *

التفسير

قومٌ جدلون

سبب نزول الآية الكريمة يبين طبيعة العناد واللجاج والجدل في اليهود، ابتداء من زمان موسى (عليه السلام) و مروراً بعصر خاتم الانبياء، وحتى يومنا هذا... يعرضون

(١) مجمع البيان، في تفسير الآية، مع شيء من الاختصار

عن الحقّ بالوان الحجج الواهية.

حجتهم في هذا الموضوع المذكور في الآية ثقل التكاليف التي يأتي بها جبرائيل، و
عداؤهم لهذا الملك، و رغبتهم في أن يكون ميكائيل أميناً للوحي!! و كأن الملائكة هم
مصدر الأحكام الالهية! والقرآن الكريم يصرّح بأن الملائكة ينقذون أوامراً لله ولا ينحرفون
عن طاعته: «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ» (التحریم، ٦).

القرآن يجيب عن ذريعة هؤلاء: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ
قَلْبًا بِإِذْنِ اللَّهِ» وما جاء به جبرائيل يصدّق ما نزل في الكتب السماوية السابقة:
«مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» وهو إضافة الى كل هذا: «وَهُدًى وَبُشْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ» (البقرة، ٩٧)
فالجواب ينطوي على ثلاث شعب:

أولاً - جبريل لا يأتي بشيء من عنده بل ما يأتي به هو «بِإِذْنِ اللَّهِ».

ثانياً - ما جاء به جبريل تصدّقه الكتب السماوية السابقة، لانطباقه

على العلامات والدلالات المذكورة في تلك الكتب.

ثالثاً - محتوى ما جاء به جبرائيل يدلّ على أصالته وحقانيته.

* * *

الآية التالية تؤكد نفس هذا الموضوع تأكيداً مقروناً بالتهديد وتقول: «مَنْ
كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ» (البقرة، ٩٨) مشيرة
بذلك الى أن موقف الانسان من الله وملائكته و رسله، ومن جبرائيل وميكائيل، لا يقبل

التفكيك، وان الموقف المعادي من أحدهم هو معاداة للآخرين^١.

بعبارة أخرى، الأوامر الالهية الباعثة على تكامل الانسان، تنزل عن طريق

الملائكة على الرسل، وان كان بين مهمات الملائكة اختلاف، فذلك يعود الى تقسيم
المسؤوليات لا الى التناقض بين المهمات. واتخاذ موقف معاد من أحدهم هو عداة لله
سبحانه.

* * *

جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ

ورد اسم جبريل ثلاث مرات واسم ميكال مرة واحدة في القرآن الكريم.^١ و يستفاد من الآيات أنها ملكان مقربان من ملائكة الله تعالى. قيل ان اسم جبريل عبري يعنى «رجل الله» أو «قوة الله» (جبر تعني الرجل أو القوة، وثيل بمعنى الله).

هذه الآيات الكريمة تعرّف جبريل أنه رسول الوحي الالهي الى النبي، ومنزل القرآن على قلبه، ولواسطة الوحي اسم آخر في الآية ١٠٢ من سورة النحل هو: «رُوحُ الْقُدُسِ» أما الآية ١٩١ من سورة الشعراء فتسميه «الرُّوحُ الْأَمِينُ»، ويصرح المفسرون أن المقصود من روح القدس والروح الامين، هو جبرائيل.

وهناك أحاديث تدور حول تشكل جبرائيل بصور متعددة لدى نزوله على النبي، وكان في المدينة ينزل على صورة (دحية الكلبي) وهو رجل جميل الطلعة.

يستفاد من سورة النجم أن النبي (صلى الله عليه وآله) شاهد جبرائيل مرتين على هيئته الاصلية.^٢

ذكرت المصادر الاسلامية أسماء أربعة من الملائكة المقربين هم: جبرائيل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل، واعظمهم مرتبة جبرائيل.

وفي كتب اليهود ورد ذكر جبريل وميكال، ومن ذلك ما ورد في كتاب دانيال حيث وصف جبرائيل بأنه الغالب وأنه رئيس الشياطين، ووصف ميكائيل بأنه حامى قوم بني اسرائيل.^٣

ذكر بعض المحققين أن المصادر اليهودية خالية من الدلالة على خصومة جبرائيل لهؤلاء القوم، وهذا يؤيد أن ادعاءات اليهود بشأن موقفهم من جبرائيل، لم يكن الا ذريعة للتنصل من الاسلام إذ لا يوجد في مصادرهم الدينية ما يشير الى وجود مثل هذه العداوة بينهم وبين جبرائيل.

(١) اسم «جبريل» ورد مرتين في هذه الآيات ومرة في سورة التحريم الآية ٤ واسم ميكال لم يرد الا في هذا الموضع من القرآن.

الآيات

٩٩ - «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ».

١٠٠ - «أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ».

١٠١ - «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

سبب النزول

قال ابن عباس: إن ابن صوريا - وهو من أحبار اليهود - قال لرسول الله (صلى الله عليه وآله): يا محمد ما جئتنا بشئ نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك لها، فأنزل الله هذه الآية^١.

التفسير

الناكثون من اليهود

الآية الاولى تشير الى الآيات والعلامات والدلائل الكافية الواضحة التي توفرت لدى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وتؤكد أن المعرضين عن هذه الآيات البينات - ادركوا في الواقع - حقانية الدعوة، لكنهم هبوا للمعارضة مدفوعين بأغراضهم الشخصية: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ».

التفكير في آيات القرآن ينير الطريق لكل طالب حق منصف، وبمطالعة هذه الآيات يمكن فهم صدق دعوة نبي الاسلام (صلى الله عليه وآله)، وعظمة القرآن.

(١) جمع البيان، وتفسير القرطبي.

لكن هذه الحقيقة الواضحة لا يفهمها الذين انطفأ نور قلوبهم بسبب الذنوب، من هنا نرى الفاسقين الملوئين بالخطايا يعرضون عن الايمان بالرسالة. ثم يتطرق القرآن الى صفة مجموعة من اليهود، وهي صفة النكول ونقض العهود والمواثيق، وكأنها صفة تاريخية تلازمهم على مرّ العصور «أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا تَبَدَّه قَرِيبٌ مِنْهُمْ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ».

لقد أخذ الله ميثاقهم في جانب الطور أن يعملوا بالتوراة لكنهم نقضوا الميثاق! و أخذ منهم الميثاق أن يؤمنوا بالنبى الخاتم المذكور عندهم في التوراة، فلم يؤمنوا

به!

و هؤلاء القوم عقدوا الميثاق مع النبى لى هجرته المباركة الى المدينة أن لا يتواطؤوا مع أعدائه، لكنهم نقضوا العهد و تعاونوا مع مشركى مكة في حرب الاحزاب ضد المسلمين!

وهذه الخصلة في هذا الفريق من اليهود، نجدها اليوم متجسدة في الصهيونية العالمية التي تضع كل المواثيق والقرارات والمعاهدات الدولية تحت قدميها، متى ما تعرضت مصالحها للخطر.

* * *

الآية الأخيرة تؤكد بصراحة أكثر على هذا الموضوع: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ تَبَدَّ قَرِيبٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

كان أحبار اليهود يبشرون الناس قبل البعثة النبوية بالرسول الموعود و يذكرون لهم علاماته وصفاته، فلما بعث نبى الاسلام، أعرضوا عما جاء في كتابهم، وكانهم لم يروا ولم يقرأوا ما ذكرته التوراة في هذا المجال.

هذه هي النتيجة الطبيعية للأفراد الغارقين في ذاتياتهم، هؤلاء - حتى في دعوتهم الى حقيقة من الحقائق - لا يتجردون عن ذاتياتهم، فان وصلوا الى تلك الحقيقة ووجدوها لا تنسجم مع أهوائهم، أعرضوا عنها ونبذوها وراء ظهورهم.

* * *

وقفات

١ - واضح أن تعبير «التُّزول» أو «الإِنْزالِ» بشأن القرآن الكريم، لا يعني الانتقال المكاني من الاعلى الى الأسفل، بل التعبير يشير الى علو مكانة ربِّ العالمين.

* * *

٢ - كلمة «فاسق» من مادة «فسق» وتعني خروج النواة من الرطب. فقد تسقط الرطبة من النخلة، و تنفصل عنها النواة. ويقال عن هذا الانفصال في العربية «فسقت النواة»، ثم اطلقت الكلمة على كل انفصال عن خط طاعة الله، وعن طريق العبودية.

فكما ان النواة تفسق إذا نزعت عنها لباسها الحلو المفيد المغذي، كذلك الفاسق. تنزع عنه بفسقه كل قيمه وشخصيته الانسانية.

* * *

٣ - القرآن في حديثه عن اليهود لا يُوخِّج الجميع بسبب ذنوب الاكثرية، بل يستعمل كلمات مثل «فريق» «اكثر» ليصون حق الاقلية المؤمنة المتقية، وطريقة القرآن هذه في حديثه عن الامم درس لنا كي لا نحيد في أحاديثنا ومواقفنا عن الحق والحقيقة.

* * *

الآيتان

١٠٢ - «وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

١٠٣ - «وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوتَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

التفسير

سليمان وسحرة بابل

يفهم من الاحاديث أن مجموعة من الناس مارست السحر في عصر النبي سليمان (عليه السلام)، فأمر سليمان بجمع كل أوراقهم وكتاباتهم، واحتفظ بها في مكان خاص. (لعل الاحتفاظ بها يعود الى إمكان الاستفادة منها في إبطال سحر السحرة). بعد وفاة سليمان عمدت جماعة الى إخراج هذه الكتابات، وبدأوا بنشر السحر وتعليمه. واستغلت فئة هذه الفرصة فأشاعت أن سليمان لم يكن نبيا أصلا، بل كان يسيطر على ملكه ويأتي بالامور الخارقة للعادة عن طريق هذا السحر! مجموعة من بني اسرائيل سارت مع هذه الموجة ولجأت الى السحر، وتركت التوراة.

عند ما ظهر النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله)، وجاءت آيات القرآن مؤيدة لنبوة سليمان، قال بعض أحبار اليهود: الا تعجبون من محمد يقول: سليمان نبي وهو ساحر!

وجاءت الآية ترد على مزاعم هؤلاء وتنتفي هذه التهمة الكبرى عن سليمان (عليه السلام)^١.

* * *

الآية الاولى إذن تكشف فضيحة أخرى من فضائح اليهود وهي اتهامهم لنيبي الله بالسحر والشعوذة، تقول الآية عن هؤلاء القوم: «وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ».

والضمير في «وَأَتَّبَعُوا» قديعود الى اليهود المعاصرين للنبي، أو الى اولئك اليهود المعاصرين لسليمان، أو لكلا الفريقين. والمقصود بكلمة «الشَّيَاطِينُ» قد يكون الطغاة من البشر أو من الجن أو من كليهما.

ثم تؤكد الآية على نفي الكفر عن سليمان: «وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ». فسليمان (عليه السلام) لم يلجأ الى السحر، ولم يحقق أهدافه عن طريق الشعوذة: «وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ».

هؤلاء اليهود لم يستغلوا ما تعلموه من سحر الشياطين فحسب، بل أساءوا الاستفادة أيضاً من تعليمات هاروت وماروت: «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ الْمَلَكِينَ بِأَبْلِ هَارُوتَ وَ مَارُوتَ»^٢.

هاروت وماروت جاء الى الناس في وقت راج السحر بينهم وابتلوا بالسحرة والمشعوذين، وكان هدفهم تعليم الناس سبل ابطال السحر وكما إن احباط مفعول القنبلة يحتاج الى فهم لطريقه فعل القنبلة، كذلك كانت عملية احباط السحر تتطلب تعليم الناس اصول السحر، ولكنها كانا يقرنان هذا التعليم بالتحذير من السقوط في الفتنة بعد تعلم السحر «وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ».

وسقط اولئك اليهود في الفتنة، وتوغلوا في انحرافهم، فزعموا أن قدرة سليمان لم

(١) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٩٢. وجمع البيان في تفسير الآية، مع قليل من الاختلاف.

(٢) بعض المفسرين عطفوا جملة «مَا أَنْزَلْنَا» على «مَا تَتْلُوا» وعلى هذا الاساس فسرنا الآية اعلاه، و

بعضهم عطفوها على (السحر)

تكن من النبوة بل من السحر والسحرة. وهذا هو دأب المنحرفين دائماً، يحاولون تبرير انحرافاتهم باتهام العظماء بالانحراف.

هؤلاء القوم لم ينجحوا في هذا الاختبار الالهي، فاخذوا العلم من الملكين واستغلوه على طريق الافساد لا الاصلاح، لكن قدرة الله فوق قدرتهم وفوق قدرة ما تعلموه: «فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ».

لقد تهافتوا على اقتناء هذا المتاع الدنيوي وهم عالمون بأنه يصادر آخرتهم «وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ». لقد باعوا شخصيتهم الانسانية بهذا المتاع الرخيص «وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

* * *

لقد اضاعوا سعادتهم و سعادة مجتمعهم عن علم ووعي، وغرقوا في مستنقع الكفر والانحراف «وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَوْا لَمَثُوبَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

* * *

وقفات

١- قصة هاروت وماروت

كثير الحديث بين اصحاب القصص والاساطير عن هذين الملكين، واختلطت الخرافة بالحقيقة بشأنها، حتى ما عاد بالامكان استخلاص الحقائق مما كتب بشأن هذه الحادثة التاريخية، ويظهر أن أصح ما قيل بهذا الشأن و أقربه الى الموازين العقلية والتاريخية هو مايلي:

شاع السحرفي أرض بابل و اذى الى إحراج الناس وازعاجهم، فبعث الله ملكين بصورة البشر، و أمرهما أن يعلما الناس طريقة احباط مفعول السحر، ليتخلصوا من شرّ السحرة.

كان الملكان مضطرين لتعليم الناس أصول السحر، باعتبارها مقدمة لتعليم

(١) الخَلاق يعنى الخُلُق، وقد يعنى الحظّ والنصيب وهذا هو معنى الكلمة في الآية.

طريقة احباط السحر. واستغلت مجموعة هذه الاصول، فانخرطت في زمرة الساحرين، واصبحت مصدر أذى للناس.

الملكان حذرا للناس- حين التعليم - من الوقوع في الفتنة، و من السقوط في حضيض الكفر بعد التعلم، لكن هذا التحذير لم يؤثر في مجموعة منهم.^١

وهذا الذي ذكرناه ينسجم مع العقل والمنطق، و تؤيده أحاديث أئمة آل البيت (عليهم السلام). أما ما تتحدث عنه بعض كتب التاريخ و دوائر المعارف بهذا الشأن فمشوب بالخرافات والاساطير، وبعيد كل البعد عما ذكره القرآن، من ذاك مثلاً أن الملكين أرسلوا الى الأرض ليثبت لهما سهولة سقوطهما في الذنب إن كانا مكان البشر، فنزلا وارتكبا انواع الآثام والذنوب والكبائر!! والنص القرآني بعيد عن هذه الاساطير ومنزه منها.

* * *

٢- لفظ هاروت وماروت

زعم بعض المحققين أن «هاروت» و«ماروت» لفظان فارسيان قديمان. وقال: ان كلمة «هوروت» تعني «الخصب»، و«موروت» تعني «عديم الموت» واسما هاروت و ماروت مأخوذان، من هذين اللفظين. وهذا الاتجاه في فهم معنى الاسمين لا يقوم على دليل.

وفي كتاب «أوستا» وردت الفاظ مثل: «هرودات» ويعني «شهر خرداد»، و كذلك «امردات» بمعنى عديم الموت، وهو نفسه اسم «شهر مرداد».^٣ وفي معجم (دهخدا) تفسير للفظين شبيه بما سبق.

وقيل في هاروت وماروت انهما من البشر ومن سكنة بابل!، وقيل أيضاً أنها من الشياطين!! والآيات المذكورة ترفض ذلك طبعاً.

* * *

(١) مجمع البيان، في تفسير الآية المذكورة. الوسائل، ج ١٢، ص ١٠٦-١٠٧.

(٢) أعلام القرآن، ص ٦٥٥. (٣) نفس المصدر.

٣- كيف يكون الملك معلماً للإنسان؟

يبقى السؤال عن الرابطة بين الملك والإنسان، وهل يمكن أن تكون بينها رابطة تعليمية؟ الآيات المذكورة تصرح بأن هاروت وماروت علما للناس السحر، وهذا تمّ طبعاً من أجل احباط سحر السحرة في ذلك المجتمع. فهل يمكن للملك أن يكون معلماً للإنسان؟

الاحاديث الواردة بشأن الملكين تجيب على هذا السؤال، وتقول: إن الله بعثها على شكل البشر، وهذه الحقيقة يمكن فهمها من الآية التاسعة لسورة الانعام ايضاً، حيث يقول تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا». (انعام، ٩)

* * *

٤- لا قدرة لاحد على عمل دون إذن الله

نفهم من قول الله في هذه الآيات أن السحرة ما كانوا قادرين على إنزال الضرر باحد دون إذن الله سبحانه. وليس في الأمر «جبر» ولا إرغام، بل أن هذا المعنى يشير الى مبدأ أساس في التوحيد، وهو إن كل القوى في هذا الكون تنطلق من قدرة الله تعالى، النار إذ تحرق إنما تحرق باذن الله، والسكين إذ تقطع إنما تقطع بأمر الله. لا يمكن للساحر أن يتدخل في عالم الخليقة خلافا لارادة الله.

كل ما نراه من آثار وخواص إنما هي آثار وخواص جعلها الله سبحانه للموجودات المختلفة، ومن هذه الموجودات من يحسن الاستفادة من هذه الهبة الالهية و منهم من يسي الاستفادة منها. و «الاختيار» الذي منحه الله للإنسان وسيلة لاختباره وتكامله.

* * *

٥- السحر وتاريخه

الحديث من السحر و تاريخه طويل و نكتفي هنا بالقول إن جذوره ضاربة في أعماق التاريخ، ولكن بداياته و تطوراته التاريخية يلفها الغموض. و بشأن معناه يمكن القول: إنه نوع من الاعمال الخارقة للعادة، تؤثر في

وجود الانسان، وهو أحيانا نوع من المهارة والخفة في الحركة وإيهام للانظار، كما إنه أحيانا ذو طابع نفسي خيالي.

والسحر في اللغة له معنيان:

١- الخداع والشعوذة والحركة الماهرة.

٢- كل ما لطف ودق.

والراغب ذكر للفظ السحر ثلاثة معان قرآنية:

الاول: الخداع و تخييلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعبد بصرف الابصار

عما يفعله لحنة يده، وما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للاسماع.

الثاني: استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب اليه.

الثالث: هو اسام لفعل يزعمون انه من قوته يغير الصور والطباع فيجعل الانسان

حمارا ولا حقيقة لذلك^١.

نستنتج من دراسة ٥١ موضعاً من مواضع ذكر كلمة «سحر» في القرآن الكريم

أن السحر ينقسم في رأي القرآن الكريم على قسمين:

١- الخداع والشعوذة وخفة اليد وليس له حقيقة كما جاء في قوله تعالى: «فَإِذَا

جِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى» (طه، ٦٦) وقوله: «فَلَمَّا آَلَقُوا سَحْرًا أَعْيَنَ النَّاسَ وَأَسْرَهُبُوهُمْ» (الاعراف، ١١٦).

٢- استفاد من آيات أخرى أن للسحر أثراً واقعياً، كقوله سبحانه: «فَيَتَعَلَّمُونَ

مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ»، وقوله: «وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ»، كما مر في الآيات التي نحن بصدددها.

وهل إن للسحر تأثيراً نفسياً فقط أم يتعدى ذلك الى الجسم أيضاً؟ لم تشر

الآيات أعلاه الى ذلك، ويعتقد بعض الناس أن هذا التأثير نفسي لا غير.

جدير بالذكر أن بعض ألوان السحر كانت تُمارس عن طريق الاستفادة من

خواص المواد الكيماوية والفيزياوية لخداع الناس. فيحدثنا التاريخ أن سحرة فرعون

(١) مفردات الراغب، مادة سحر.

وضعوا داخل جبالهم وعصيهم مادة كيميائية خاصة (ولعلها الزئبق)، كانت تتحرك بتأثير حرارة الشمس أو أية حرارة أخرى، وتوحي للمشاهد أنها حية. وهذا اللون من السحر ليس بقليل في عصرنا الراهن.

* * *

السحري رأي الاسلام

اجمعت الفقهاء على حرمة تعلم السحر و ممارسته، وجاء عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام): «مَنْ تَعَلَّمَ مِنَ السَّحْرِ قَلِيلاً أَوْ كَثِيراً فَقَدْ كَفَرَ وَ كَانَ آخِرُ عَهْدِهِ بِرَبِّهِ»^١.

ولكن - كما ذكرناه يجوز تعلم السحر لابطال سحر السحرة، بل يرتفع الجواز أحيانا الى حد الوجوب الكفائي، لاحتباط كيد الكائدين والحيلولة دون نزول الاذى بالناس من قبل المحتالين. دليلنا على ذلك حديث روي عن الامام ابي عبدالله جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام):

«كَانَ عَيْسَى بْنُ شَقْفٍ سَاحِرًا يَأْتِيهِ النَّاسُ وَيَأْخُذُ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْأَجْرَ فَقَالَ لَهُ جُعِلَتْ فِدَاكَ أَنَا رَجُلٌ كَأَنَّتْ صِنَاعَتِي السَّحْرَ وَ كُنْتُ آخِذٌ عَلَيْهِ الْأَجْرَ وَ كَانَ مَعَاشِي وَ قَدْ حَجَجْتُ مِنْهُ وَمَنْ اللَّهُ عَلَيَّ يَلْقَائِكَ وَ قَدْ ثُبْتُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهَلْ لِي فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مَخْرَجٌ فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ حُلٌّ وَلَا تَعْقُدْ»^٢.

* * *

السحري رأي التوراة

أعمال السحر والشعبذة في كتب العهد القديم (التوراة وملحقاتها) هي أيضاً ذميمة غير جائزة. فالتوراة تقول: «لا تلتفتوا الى الجان ولا تطلبوا التوابع فتنجسوا بهم و انا الرب الهكم»^٣.

(١) وسائل الشيعة، الباب ٢٥ من ابواب ما يكتسب به، حديث ٧.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٢ ص ١٠٥ ح ١.

(٣) الكتاب المقدس سفر لاويين الاصحاح ١٩ الرقم ٣١.

وجاء في موضع آخر من التوراة: «والنفس التي تلتفت الى الجان والى التوابع لتزني ورائهم اجعل وجهي ضد تلك النفس واقطعها من شعبها»^١.
ويقول قاموس الكتاب المقدس: «واضح أن السحر لم يكن له وجود في شريعة موسى، بل ان الشريعة شددت كثيراً على أولئك الذين كانوا يستمدون من السحر». ومن الطريف أن قاموس الكتاب المقدس الذي يؤكد على أن السحر مذموم في شريعة موسى، يصرح بأن اليهود تعلموا السحر وعملوا به خلافا لتعاليم التوراة فيقول: «.. ولكن مع ذلك تسربت هذه المادة الفاسدة بين اليهود، فأمن بها قوم، ولجأوا اليها في وقت الحاجة»^٢.

ولذلك ذمهم القرآن، وأدانهم لجشعهم وطمعهم وتهاقهم على متاع الحياة الدنيا.

السحر في عصرنا

توجد في عصرنا مجموعة من العلوم كان السحرة في العصور السالفة يستغلونها للوصول الى مآربهم.

١ - الاستفادة من الخواص الفيزيائية والكيميائية للاجسام، كما ورد في قصة سحرة فرعون واستفادتهم من خواص الزئبق أو أمثاله لتحريك الجبال والعصي. واضح أن الاستفادة من الخصائص الكيميائية والفيزيائية للاجسام ليس بالعمل الحرام، بل لابد من الاطلاع على هذه الخصائص لاستثمار مواهب الطبيعة، لكن المحرم هو استغلال هذه الخواص المجهولة عند عامة الناس لايهام الآخرين وخذاعهم وتضليلهم، مثل هذا العمل من مصاديق السحر، (تأمل بدقة).

٢ - الاستفادة من التنويم المغناطيسي، والهيبنوتيزم، والمانية تيزم، والتله يأتي (انتقال الافكار من المسافات البعيدة).

هذه العلوم هي أيضا إيجابية يمكن الاستفادة منها بشكل صحيح في كثير من

(١) الكتاب المقدس سفر لاويين الاصحاح ٢٠ الرقم ٦.

(٢) قاموس الكتاب المقدس، تأليف المسترها كس الامريكي، ص ٤٧١.

شؤون الحياة. لكن السحرة كانوا يستغلونها للخداع والتضليل.
ولو استخدمت هذه العلوم اليوم أيضاً على هذا الطريق المنحرف فهي «السحر»
المحرم.
بعبارة موجزة إن السحر له معنى واسع يشمل كل ما ذكرناه هنا وما أشرنا إليه
سابقاً.

ومن الثابت كذلك أن قوة الإرادة في الإنسان تنطوي على طاقات عظيمة،
وتزداد هذه الطاقات بالرياضات النفسية، ويصل بها الأمر أنها تستطيع أن تؤثر
على الموجودات المحيطة بها، وهذا مشهود في قدرة المرتاضين على القيام بأعمال خارقة للعادة
نتيجة رياضاتهم النفسية.
جدير بالذكر أن هذه الرياضات تكون مشروعة تارة وغير مشروعة تارة أخرى.
الرياضات المشروعة تخلق في النفوس الطاهرة قوة إيجابية بناءة، والرياضات غير المشروعة
تخلق قوة شيطانية، وقد تكون كلا القوتين قادرتين على القيام بأعمال خارقة للعادة، لكن
الأولى إيجابية بناءة، والأخرى مخربة هدامة.

* * *

الآيتان

١٠٤ - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَ
لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

١٠٥ - «مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ
يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ».

سبب النزول

روي أن الصحابة كانوا يطلبون من رسول الله (صلى الله عليه وآله) لدى تلاوته الآيات و بيانه الاحكام الالهية أن يتمهل في حديثه حتى يستوعبوا ما يقوله، وحتى يعرضوا عليه أسئلتهم، وكانوا يستعملون لذلك عبارة: «راعنا» أي أمهلنا. واليهود حوِّروا معنى هذه الكلمة لتكون من «الرعونة» فتكون راعنا بمعنى اجعلنا رعناء، واتخذوا ذلك وسيلة للسخرية من النبي والمسلمين.

الآية تطلب من المسلمين أن يقولوا «انظُرْنَا» بدلا من «راعِنَا» لسد الطريق أمام طعن الاعداء.

وقال بعض المفسرين أن عبارة «راعِنَا» في كلام اليهود سبّة تعني «اسمع ولما تسمع»، وكانوا يرددون هذه العبارة مستهزئين!

وقيل ان اليهود كانوا يقولون بدلاً من راعِنَا «راعينا» = (راعي + نا) و يخاطبون بذلك النبي ساخرين.^١ وليس بين هذه العلل المذكورة لنزول الآية الكريمة تناقض، فقد تكون بأجمعها صحيحة.

(١) تفسير القرطبي، و تفسير المنار وتفسير الفخر الرازي، ذيل الآية المذكورة.

التفسير

لا توفروا للاعداء فرصة الطعن

الآية الكريمة تخاطب المسلمين قائلة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَ قُولُوا انظُرْنَا، وَاسْمَعُوا، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

مما سبق أن ذكرناه من سبب نزول هذه الآية الكريمة نستنتج أنّ على المسلمين أن لا يوفروا للاعداء فرصة الطعن بهم، وأن لا يتيحوا لهم بفعل أو قول ذريعة يسيئون بها الى الجماعة المسلمة. عليهم أن يتجنبوا حتى ترديد عبارة يستغلها العدو لصالحه. الآية تصرّح بالنهي عن قول عبارة تمكن الاعداء أن يستثمروا أحد معانيها لتضعيف معنويات المسلمين، وتأمروهم باستعمال كلمة أخرى غير تلك الكلمة القابلة للتحريف ولطعن الاعداء.

حين يشدّد الاسلام الى هذا الحد في هذه المسألة البسيطة، فان تكليف المسلمين في المسائل الكبرى واضح، عليهم في مواقفهم من المسائل العالمية أن يسدوا الطريق أمام طعن الاعداء، وأن لا يفتحوا ثغرة ينفذ منها المفسدون الداخليون والاجانب للاساءة الى سمعة الاسلام والمسلمين.

جدير بالذكر أن عبارة راعنا - اضافة الى ما فيها من معنى آخر استغله اليهود - فيها نوع من سوء الادب، لانها من باب المفاعلة، و باب المفاعلة يفيد المبادلة والاشترار ، وهي لذلك تعني: راعنا لنراعيك ، وقد نهى القرآن عن ترديدها.^١

* * *

الآية التالية تكشف من حقيقة ما يكته مجموعة من اهل الكتاب والمشركين من حقد واعداء للجماعة المؤمنة: «مَا يَبُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ»، و سواء ودّ هؤلاء أم لم يودّوا فرحمة الله لها ستة الهية ولا تخضع للميول والاهواء: «وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

(١) تفسير الفخر الرازي، والمنار، ذيل الآية المذكورة.

الحاقدون لم يطبقوا أن يروا ما شمل الله المسلمين من فضل و نعمة، وما منّ عليهم من رسالة عظيمة، ولكن فضل الله عظيم.

* * *

وقفه

مغزى قوله تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»

أكثر من ثمانين موضعاً خاطب الله المسلمين في كتابه الكريم بهذه العبارة، وكل هذه المواضع من القرآن الكريم نزلت في المدينة، ولا وجود لهذه العبارة في الآيات المكية، ولعل ذلك يعود الى تشكل الجماعة المسلمة في المدينة، والى ظهور المجتمع الاسلامي بعد الهجرة. ولذلك خاطب الله الجماعة المؤمنة بعبارة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا».

وهذا الخطاب يتضمن اشارة الى ميثاق التسليم الذي عقدته الجماعة المسلمة مع ربها بعد الايمان به، وهذا الميثاق يفرض على الجماعة الطاعة والانصياع لاوامر رب العالمين، والاستجابة لما يأتي بعد هذه العبارة من أحكام.

جدير بالذكر أن كثيراً من المصادر الاسلامية بما في ذلك مصادر أهل السنة، روت عن الرسول (صلى الله عليه وآله) قوله: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةً فِيهَا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِلَّا وَعَلِيٌّ رَأْسُهَا وَآمِيرُهَا»^{١٠}.

* * *

(١) الدر المنثور، نقلاً عن أبي نعيم في «حلية الاولياء» عن ابن عباس.

الآيتان

- ١٠٦ - «مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».
- ١٠٧ - «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

التفسير

الغرض من النسخ

الآية الاولى تشير أيضاً الى بعد آخر من أبعاد حملة التشكيك اليهودية ضد المسلمين.

كان هؤلاء القوم يخاطبون المسلمين أحيانا قائلين لهم إن الدين دين اليهود وأن القبلة قبله اليهود، ولذلك فإن نبيكم يصلي تجاه قبلتنا (بيت المقدس)، وحينما نزلت الآية ١٤٤ من هذه السورة و تغيرت بذلك جهة القبلة، من بيت المقدس الى مكة، غير اليهود طريقة تشكيكهم، وقالوا: لو كانت القبلة الاولى هي الصحيحة، فلم هذا التغيير؟، واذا كانت القبلة الثانية هي الصحيحة، فكل أعمالكم السابقة - إذن - باطلة.

القرآن الكريم في هذه الآية يردّ على هذه المزاعم وينير قلوب المؤمنين^١ ويقول: «مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا»... وليس مثل هذا التغيير على الله بعسير «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»؟!

* * *

الآية التالية تؤكد مفهوم قدرة الله سبحانه وتعالى وحاكميته في السماوات

(١) يحتمل أيضاً أن تشير الآية الى نسخ أحكام اسلامية اخرى، كما ذكر الفخر الرازي في تفسيره، وسيد

قطب في ظلاله.

والارض وفي الاحكام، فهو البصير بمصالح عباده: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»، وفي هذه العبارة من الآية ايضاً تثبيت لقلوب المؤمنين، كي لا تنزل أمام حملات التشكيك هذه، وتستمر الآية في تعميق هذا التثبيت، مؤكدة أن المجموعة المؤمنة ينبغي أن تعتمد على الله وحده، وتستند الى قوته وقدرته دون سواه، فليس في هذا الكون سند حقيقي سوى الله سبحانه: «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

* * *

وقفات

١- هل يجوز النسخ في الاحكام؟

النسخ في اللغة الازالة، وفي الاصطلاح تغيير حكم شرعي واحلال حكم آخر محله، من ذلك :

١ - المسلمون كانوا يصلون بعد الهجرة تجاه بيت المقدس، واستمروا على ذلك ستة عشر شهراً، ثم نزل الامر بتغيير القبلة، فوجب على المسلمين أن يصلوا تجاه الكعبة.

٢ - الآية ١٥ من سورة النساء قررت معاقبة الزانية بعد شهادة أربعة شهود بامساكها في البيت حتى الوفاة، أو يجعل الله لها سبيلاً، والآية الثانية من سورة النور نسخت الآية المذكورة وبدلت الحكم بمائة جلدة.

وهنا يطرح سؤال معروف بشأن سبب النسخ يقول: لو كان في الحكم مصلحة فلماذا نُسخ؟ وان لم يكن كذلك فلماذا شُرّع؟ لماذا لم تطرح الشريعة منذ البداية حكماً غير قابل للنسخ؟

علماء الاسلام أجابوا على هذا السؤال، وهذا الجواب باختصار وتوضيحه مايلي :
نعلم أن بعض احتياجات الانسان ثابتة لا تقبل التغيير، لانها ترتبط بفطرة الانسان وطبيعته، وبعضها الآخر تتغير بتغير الزمان وظروف البيئته، وهذه المتغيرات قد تضمن سعادة الانسان في زمن معين، لكنها تصبح عقبة أمام تقدم الفرد في زمان آخر.
قد يكون نوع من الدواء نافعاً للمريض في ظرف زمني معين، وقد لا يكون نافعاً بل ضاراً - في مرحلة نقاهة هذا المريض، لذلك يأمر الطبيب بدواء في وقت، ثم يأمر بقطعه والامتناع عن تناوله في وقت آخر.

قد يكون درس معين مفيداً للطالب في مرحلة دراسية معينة، لكن هذا الدرس يصبح عديم الفائدة في المراحل الدراسية التالية. المنهج التعليمي الصحيح ينبغي أن ينظم الدروس بشكل يتناسب مع حاجة الطالب في كل مرحلة من مراحل الدراسة. هذه المسألة تتضح أكثر في إطار القانون اللازم لتكامل الانسان والمجتمع الانساني، هذا القانون لا بد أن يتضمن متغيرات كي يكون المنهج التكاملي مفيداً لكل مراحل مسيرة المجتمع. و تزداد أهمية هذه التغيرات عند اندلاع الثورات الاجتماعية والعقائدية، وتزداد ضرورة مواكبة متطلبات التغيير في كل مرحلة من مراحل الثورة. لا بد من التأكيد أنّ أصول الاحكام الالهية ثابتة لا يعترها التغيير، فالتوحيد والعدالة الاجتماعية و سائر الاصول والمبادئ المشابهة ثابتة لا تتغير، وانما يطرأ التغيير على المسائل الفرعية والثانوية.

ومن الضروري أن نؤكد أيضاً أن تكامل الدين قد يبلغ مرحلة يصبح فيها (الدين الخاتم)، و تصبح جميع أحكامه ثابتة لا تقبل التغيير (سنشرح مسألة خاتمية الرسالة في تفسير الآية ٤٠ من سورة الاحزاب).

اليهود، مع اعتراضهم على المسلمين بشأن نسخ حكم القبلة الاولى، اقرّوا النسخ في الاحكام الالهية، استناداً الى ما جاء في مصادرهم الدينية.

تذكر التوراة أن كل الحيوانات كانت حلاً لنوح (عليه السلام) حين نزل من سفينته، لكن هذا الحكم نُسخ في شريعة موسى، و حرّم قسم من الحيوانات^١.

* * *

٢- المقصود من الآية

الآية في اللغة العلامة، وفي القرآن لها معانٍ متعددة:

١ - مقاطع من القرآن، مفصولة عن بعضها بعلام خاصة، وهذا المعنى للآية نجده

في قوله تعالى: «تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ» (البقرة، ٢٥٢).

٢ - المعجزة سميت في القرآن آية كقوله سبحانه: «وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ

تَخْرُجُ بِيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءِ آيَةٍ أُخْرَى» (طه، ٢٢).

٣ - الدليل على وجود الله او المعاد كقوله: «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ» (الاسراء، ١٢) وقوله: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ، إِنَّ اللَّهَ يُحْيِيهَا لِمَنْحِيِّ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلِيُّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (فصلت، ٣٩).

٤ - الاشياء البارزة الملفتة للانظار كالابنية الشاهقة، كما في قوله تعالى: «أَتَبْتُونَنِي بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ» (الشعراء، ١٢٨).

والمعنى المشترك بين كل هذه المعاني هو «العلامة».

وقوله سبحانه «مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ...» يشير الى نسخ الاحكام، فالحكم الناسخ خير من المنسوخ أو مثله، أو إنه يشير الى نسخ معجزة الانبياء، فيكون المعنى أن معجزة النبي التالي أفصح وأوضح من معجزة النبي السابق.

ثمة روايات في تفسير هذه الآية ذكرت أن المقصود من نسخ الآية هو وفاة الامام ومجيئ الامام التالي بعده، وهذا طبعا بيان مصداق من مصاديق الآية، لا تحديداً لمفهومها.

* * *

٣- تفسير عبارة «ننسخها»

جملة «نُنسِئها» في الآية معطوفة على جملة «نَنْسِئُ» وهي من مادة «انساء» بمعنى التأخير أو الحذف من الاذهان.^١

فما هو معنى هذه العبارة في الآية الكريمة؟

المقصود من العبارة هو: ما ننسخ من آية أو تؤخر نسخها استناداً الى مصالح معينة.. نأت بخير منها أو مثلها..

فعبارة «نَنْسِئُ» تشير الى النسخ على المدى القصير، وعبارة «نُنسِئها» الى النسخ على المدى البعيد، (لاحظ بدقة).

ثمة احتمالات اخرى ذكرت في هذا المجال لا تبلغ أهميتها ما ذكرناه.

(١) إن كانت بمعنى التأخير فهي من مادة (نسا) وإن كانت بمعنى الحذف من الاذهان فهي من مادة

(نسي).

٤- تفسير «أَوْ مِثْلُهَا»

سؤال آخر يطرح في هذا المجال بشأن عبارة «أَوْ مِثْلُهَا»، فلو كان الحكم الناسخ مثل الحكم المنسوخ فلا فائدة من هذا التغيير، النسخ تظهر فائدته حين يكون الناسخ خيراً من المنسوخ.

والجواب على ذلك هو ان الآية الناسخة لها آثار في زمانها كتلك الآثار التي كانت للآية المنسوخة في زمانها.

بعبارة اوضح: قد يكون لحكم اليوم فوائد معينة، لكن هذه الفوائد لا تظهر لهذا الحكم غداً، ولا بد أن ينسخ هذا الحكم بحكم آخر تكون له في زمن لاحق، على الاقل، نفس الفوائد التي كانت للمنسوخ في زمن سابق.

* * *

الآية

١٠٨ - «أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ».

التفسير

حُجج واهية

هذه الآية الكريمة، وان كانت تخاطب مجموعة من المسلمين ضعاف الايمان أوالمشركين، ترتبط أيضاً بمواقف اليهود.

لعل هذاالسؤال وجه الى الرسول بعد تغيير القبلة، و بعد حملات التشكيك التي شنها اليهود بين المسلمين وغيرالمسلمين والله سبحانه في هذه الآية الكريمة نهى عن توجيه مثل هذه الاسئلة السخيفة «أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ»؟!!

مثل هذا العمل إعراض عن الايمان واتجاه نحوالكفر، ولذلك قالت الآية: «وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ».

الاسلام طبعاً لايمنع طرح الاسئلة العلمية والمنطقية، ولا يحول دون طلب المعجزة من أجل اثبات صحة الدعوة، لان مثل هذه الاسئلة والطلبات هي طريق الادراك والفهم والايان. وهذه الآية الكريمة تشير الى اولئك الذين يتذرعون بمختلف الحجج الواهية كي يتخلصوا من حمل أعباء الرسالة.

هؤلاء كانوا قد شاهدوا من الرسول معجز كافية لايمانهم بالدعوة وصاحبها، لكنهم يتقدمون الى النبي بطلب معجز اقتراحية اخرى!

المعجزة ليست العوية بيد هذا و ذاك كي تحدث وفق الميول والاقتراحات والمشهيات، بل انها ضرورة لازمة للاطمئنان من صدق اقوال النبي (صلى الله عليه وآله)، وليست مهمة النبي صنع المعاجز لكل من تهوى نفسه معجزة.

ثم هناك من الاسئلة ما هو بعيد عن العقل والمنطق، كرؤية الله جهرة و كطلب اتخاذ الصنم.

القرآن الكريم ينبه في هذه الآية بأن المجموعة البشرية التي لا تسلك طريق العقل والمنطق في اسئلتها ومطالباتها، سينزل بها ما نزل بقوم موسى .

* * *

الآيات

- ١٠٩ - «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».
- ١١٠ - «وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

التفسير

حسد وعناد

كثير من أهل الكتاب وخاصة اليهود، لم يكتفوا باعراضهم عن الدين المبين، بل كانوا يودّون أن يرتد المسلمون عن دينهم، ولم يكن ذلك إلا عن حسد يستعري في أنفسهم، تقول الآية: «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ».

وامام هذه المواقف الدنيئة والنظرات الضيقة والآمال التافهة والنوايا الخبيثة التي تحملها الفئة الكافرة، يحدد الاسلام موقف الجماعة المسلمة، على أساس من رحابة الصدر وسعة الافق وبعد النظرة «فَاعْتُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

هذا الأمر الالهي نزل حيث كان المسلمون بحاجة الى بناء المجتمع الاسلامي . و في تلك الظروف يوجب على المسلمين أن يلجأوا الى سلاح العفو والصفح حتى يأتي الله بأمره .

كثير من المفسرين قالوا إن أمر الله في هذه الآية يعني «أمر الجهاد»، ولعل الجماعة المسلمة لم تكن على استعداد شامل لخوض معركة دامية حين نزلت هذه الآية، ولذلك قيل إن آيات الجهاد نسخت هذه الآية.

ولعل التعبير بالنسخ في هذا الموضع ليس بصحيح، لان الآية تحمل في عبارتها

الاطار الذي يحدها بفترة زمنية محدودة.
 الآية التالية تأمر المسلمين بحكمين هامين: إقامة الصلاة باعتبارها رمز ارتباط
 الانسان بالله، وإيتاء الزكاة وهي أيضا رمز التكافل بين أبناء الامة المسلمة. وكلاهما
 ضروريان لتحقيق الانتصار على العدو: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ».
 ثم تؤكد الآية على خلود العمل الصالح وبقائه: «وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ
 خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ». والله سبحانه عالم بالسرائر، ويعلم دوافع الاعمال، ولا يضيع عنده
 أجر العاملين «إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

* * *

وقفات

- ١ - «اصفحوا» من «صفح»، وصفح الشيء عرضه وجانبه كصفحة الوجه
 وصفحة السيف وصفحة الحجر، والامر بالصفح هو الامر بالاعراض، لكن عطفها على
 «فَاعْفُوا» يفهم أنه أمر بالاعراض لاعن جفاء بل عن عفو وسماح.
 وهذا التعبير يوحي أيضاً أن المسلمين كانت لهم قدرة المقابلة وعدم الصفح،
 لكن الامر بالعفو والصفح يستهدف اتمام الحجة على العدو، كي يهتدي من هو قابل
 للاصلاح. بعبارة أخرى ممارسة القوة ليست المرحلة الاولى في مواجهة العدو بل العفو
 والصفح، فان لم يُجد نفعاً فالسيف.
- ٢ - عبارة «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، قد تشير الى أن الله قادر على أن ينصر
 المسلمين على أعدائهم بطرق غيبية، ولكن طبيعة حياة البشر والكون قائمة على أن
 الاعمال لا تتم الا بالتدرج و بعد توفر المقدمات.
- ٣ - عبارة «حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ» قد تكون اشارة الى توغل هؤلاء الحسدة في
 ذاتياتهم، فالحسد قد يتخذ احيانا شكل هدف ورسالة، لكن حسد هؤلاء لم يكن له حتى
 هذا الظاهر، بل كان ضيقاً شخصياً^١.
 ويحتمل أيضاً أن تكون إشارة الى الحسد الكامن في نفوسهم.

(١) تفسير النار، الآية المذكورة.

الآيتان

- ١١١ - «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».
- ١١٢ - «بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ، فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

التفسير

احتكار الجنة!

القرآن في هاتين الآيتين يشير الى ادعاء آخر من الادعاءات الفارغة لمجموعة من اليهود والنصارى، «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى»، ثم يجيبهم جوابا رادعا قائلا «تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ» ثم تخاطب الآية رسول الله وتقول: «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

* * *

بعد التأكيد على أن ادعاء هؤلاء فارغ لاقيمة له، وانه مجرد أمنية تخامر أذهانهم، يطرح القرآن المعيار الاساس لدخول الجنة على شكل قانون عام «بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ». ومن هنا فالمشمولون بهذا القانون هم في ظلال رحمة الله «وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

بعبارة موجزة: الجنة ومرضاة الله والسعادة الخالدة ليست حكرا على طائفة معينة، بل هي نصيب كل من يتوفرقه شرطان:
الاول: التسليم التام لله تعالى، أو الانصياع التام لاوامره سبحانه، وعدم

(١) واضح أن المقصود من «قالوا» ادعاء اليهود من جهة بأن الجنة خاصة بهم، وادعاء النصارى من جهة أخرى بأن الجنة حكرا عليهم.

التفريق بين هذه الاوامر، أي عدم ترك ذلك القسم من الأوامر الذي لا ينسجم مع المصالح الفردية الذاتية.

الثاني: وهو ما يترتب على التسليم في المرحلة الاولى، من القيام بالاعمال الصالحة والاحسان في جميع المجالات.

والقرآن، بطرحه هذه الحقيقة، يرفض بشكل تام مسألة التعصب العنصري و يكسر طوق احتكار فئة معينة للسعادة و يضع ضمناً معيار الفوز متمثلاً بالايان والعمل الصالح.

* * *

وقفات

١- «الاماني» جمع «أمنية» وهي الرجاء الذي لا يتحقق للانسان.
والآية تطرح أمنية واحدة من امنيات أهل الكتاب، ولكن هذه الامنية - أي أمنية احتكار الجنة - هي مصدر أمان أخرى، و بعبارة اخرى: امنيتهم لها فروع وامتدادات، ولذلك عبر عنها القرآن بلفظ (أماني).

* * *

٢- نسبت الآية الكريمة التسليم الى (الوجه): «بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ...»، و ذلك يعود الى أن الانسان حين يستسلم لشيء، فواضح مظهر لهذا الاستسلام هو ان يولي وجهه تجاه ذلك الشيء. ومن المحتمل أيضاً أن «الوجه» يعني في الآية الذات، ويكون المعنى أن هؤلاء اسلموا بكل وجودهم لاوامرالله.

* * *

٣- الآيتان المذكورتان تعلمان المسلمين عدم الانجراف وراء الادعاءات الباطلة غير القائمة على دليل، و تعلمهم أن يطلبوا الدليل والبرهان من صاحب الادعاء، وبذلك يسد القرآن الطريق أمام الانجراف الاعمى وراء التقليد، و يجعل التفكير المنطقي سائداً في المجتمع.

* * *

٤- ذكر عبارة «وَهُوَ مُخْسِنٌ» بعد طرح مسألة التسليم، اشارة الى أن الاحسان

بالمعنى الواسع للكلمة، لا يتحقق الا بفسوخ الايمان في النفوس. كما تفهم العبارة أن صفة الاحسان ليست طارئة في نفوس المؤمنين، بل هي خصلة نافذة في أعماق هؤلاء.
ونفي الخوف والحزن عن أتباع خط التوحيد سببه واضح، لأن هؤلاء يخافون الله دون سواه، بينما المشركون يخشون من كل ما يهدد مصالحهم الدنيوية التافهة، بل يخشون أموراً خرافية موهومة تقلقهم وتقضّ عليهم مضاجعهم.

* * *

الآية

١١٣ - «وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

سبب النزول

قال ابن عباس انه لما قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله (صلى الله عليه وآله) آتتهم أئمة اليهود فتنازعوا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة عيسى وكفر بالانجيل. فقال رجل من أهل نجران: ليست اليهود على شيء، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فانزل الله هذه الآية^١.

* * *

التفسير

تعصب وتناقض

فيما مررنا من آيات رأينا جانبا من الادعاءات الفارغة التي اطلقها جمع من اليهود والنصارى، ورأينا أن هذه الادعاءات الفارغة تستتبعها روح احتكارية ضيقة ثم وقوع في التناقضات.

تقول الآية: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ».

عبارة «لَيْسَتْ عَلَىٰ شَيْءٍ» تعني أن أفراد هذا الدين لا مكانة لهم ولا منزلة لدى الله سبحانه، أو تعني أن هذا الدين لا وزن له ولا قيمة.

(١) تفسير مجمع البيان، وتفسير القرطبي، وتفسير المنار في تفسير الآية المذكورة.

ثم تضيف الآية: «وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ».

أي إن هؤلاء لديهم الكتاب الذى يستطيع أن ينير لهم الطريق في هذه المسائل، ومع ذلك ينطلقون في أحكامهم من التعصب واللجاج والعناد!!

ثم تقول الآية: «كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ».

وهذه الآية الكريمة تجعل أقوال هذه المجموعة من أهل الكتاب المتعصبين شبيهة بأقوال الجهلة من الوثنيين. بعبارة أخرى: هذه الآية تقرر أن المصدر الاساسى للتعصب هو الجهل والبعد عن العلم، لأن الجاهل مطوق بمحيطة المحدود، لا يقبل غيره، بل هو ملتصق بما ملأ ذهنه منذ صغره و ان كان خرافيا، ويرفض ما سواه.

ثم اختتمت الآية بالتأكيد على أن الحقائق إن خفيت في هذه الدنيا، فهي لا تخفى في الآخرة حيث تنكشف كل الاوراق: «فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

وهذه الآية فيها أيضاً تثبيت للقلوب وطمأنة للنفوس، فهي تؤكد للمسلمين أن الجبهة الواسعة التي تجهزت لمحاربتهم لا تتميز بالانسجام والوحدة، بل إن مجاميعها يكفر بعضها بعضاً، والذي يجمع بينهم على الظاهر هو الجهل، و بالتالي التعصب الناشئ عن هذا الجهل.

* * *

الآية

١١٤ - «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَتَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

سبب النزول

روي عن ابن عباس أن الآية نزلت في «فطلوس» الرومي وجنده النصارى الذين حاربوا بني اسرائيل، واحرقوا التوراة، واسروا الابناء وهدموا بيت المقدس. وعن ابن عباس ايضا انها نزلت في الروم، غزوا بيت المقدس وسعوا في خرابه حتى اظهر الله المسلمين عليهم.

وعن الامام الصادق (عليه السلام) انها نزلت في قريش حين حالوا دون دخول الرسول (صلى الله عليه وآله) مدينة مكة والمسجد الحرام. وقيل إنها نزلت في مشركي مكة ممن هدموا الاماكن التي اتخذها المسلمون للصلاة في مكة، بعد هجرة النبي (صلى الله عليه وآله) منها.^١ ولا ينع أن يكون نزول الآية بسبب كل هذه الاحداث، وبذلك يكون كل واحد من اسباب النزول المذكورة قد تناول بُعْداً واحداً من أبعاد المسألة.

* * *

التفسير

أظلم الناس

أسباب النزول توضح أن الآية تتحدث عن اليهود والنصارى والمشركين، مع إن

(١) مجمع البيان، والميزان في تفسير الآية المذكورة.

الآيات السابقة تتحدث أكثر ما تتحدث عن اليهود و احيانا عن النصارى.

على أي حال «اليهود» بوسوستهم بشأن مسألة تغيير القبلة، سعوا الى أن يتجه المسلمون في صلاتهم نحو بيت المقدس، ليتفوقوا بذلك على المسلمين، وليحطوا من مكانة الكعبة.^١

و «مشركو مكة» بمنعهم النبي (صلى الله عليه وآله) والمسلمين زيارة الكعبة سعوا عملياً في هدم هذا البناء الالهي.

و «النصارى» باستيلائهم على بيت المقدس والعبث فيه سعوا في تخريبه .

القرآن يقول هؤلاء جميعا ولكل من يسلك طريقا مشابهاً هؤلاء: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا».

القرآن الكريم أطلق على مثل هذا العمل اسم «الظلم الكبير»، وعلى العاملين اسم «أظلم الناس»، وأتى ظلم اكبر من تخريب قاعدة التوحيد وصد الناس عن ذكر الله؟! ثم تقول الآية «أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ».

اي إن المسلمين والموحدين ينبغي أن يكونوا على درجة من القوة والمقاومة بحيث لا يستطيع الظلمة أن يمدوا أيديهم الى هذه الاماكن المقدسة، ولا يستطيعون أن يدخلوها جهرة بدون خوف أو خشية.

ومن المحتمل أيضاً أن الآية تقول: ان الظلمة لن يستطيعوا أبداً أن ينجحوا في الاستيلاء على هذه المراكز العبادية، بل إنهم سوف لا يستطيعون في المستقبل أن يدخلوا هذه المساجد الآ وهم خائفون مذعورون، تماماً كالمصير الذي لاقاه مشركو مكة بشأن المسجد الحرام.

والآية تبين بعد ذلك العقاب الذي ينتظر هؤلاء الظلمة ممن يريد أن يفصل بين الله وعباده: «لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

* * *

وقفتان

١- تخريب المساجد

مفهوم الآية المذكورة واسع - دون شك - غير محدود بزمان أو مكان معينين. انها مثل سائر الآيات التي نزلت في ظروف خاصة لكن حكمها ثابت على مآل العصور والدهور. فكل الذين يسعون بنوع من الانواع في تخريب المساجد مشمولون بهذا الخزي والعذاب العظيم.

من الضروري أن نؤكد أن منع الذكر في مساجد الله والسعي في خرابها، لا يقتصر على هدم بنائها، بل إن كل عمل يؤدي الى القضاء على دور المسجد في المجتمع مشمول بهذه الآية.

سوف نرى في الآية «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ...» (التوبة، ١٨) أن المقصود من العمران - استناداً الى الاحاديث والروايات الصريحة - ليس هو تشييد البناء فحسب، بل الحضور فيها و احيائها بالذكر، هو نوع من العمران، بل أهم انواع العمران. وفي النقطة المقابلة - اذن - يكون كل عمل يبعد الناس عن المساجد، و يبعد المساجد عن دورها ظلماً كبيراً.

ومن المؤسف أن عصرنا يشهد ظهور مجموعة جاهلة متعصبة متعنتة بعيدة عن المنطق، تطلق على نفسها اسم الوهابية تسعى في تخريب المساجد بحجة احياء التوحيد!!

هؤلاء عمدوا الى تخريب المساجد المبنية على قبور الائمة والصالحين، والتي كانت مركزاً للذكر والدعاء والارتباط بالله وبخط الصالحين من آل الله. ومن الغريب أنهم يمارسون هذه الاعمال تحت عنوان مكافحة الشرك مرتكبين بذلك أفظع الكبائر. ولو افترضنا حدوث ما يخالف الشرع في بعض هذه الأماكن الدينية من قبل الجهلة، فيجب الوقوف بوجه مثل هذه الأعمال، لا أن تتجه الجهود الى تخريب هذه القواعد التوحيدية، فهذا عمل يشبه عمل المشركين الجاهليين.

٢-١ كبر الظلم

و مسألة أخرى تلفت النظر في هذه الآية، هي وصفها مثل هؤلاء الأفراد بأنهم أظلم الناس. وهم كذلك، لأن تعطيل المساجد وتخريبها ومنع ذكر الله فيها، يؤدي الى ابتعاد الناس عن الدين، وبالتالي الى عواقب سيئة ومأساة اجتماعية عظيمة. وصفة «الأظلم» ذكرها القرآن الكريم في مواضع أخرى لمذنبين آخرين، لكن كل هؤلاء المذنبين ينتهون الى خط واحد هو صد الناس عن طريق التوحيد. سيأتي شرح ذلك أكثر في المجلد الخامس من هذا التفسير عند الحديث عن الآية ٢١ من سورة الانعام.

* * *

الآية

١١٥ - «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيُّمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

سبب النزول

اختلفت الروايات في سبب نزول هذه الآية: روي عن ابن عباس أن الآية ترتبط بتغيير القبلة، فعند ما تغيرت قبلة المسلمين من بيت المقدس الى الكعبة، بدأ اليهود يشككون قائلين: وهل من الممكن أن تتغير الكعبة؟ فنزلت الآية ترد عليهم وتقول إن المشرق والمغرب لله. و روي أيضاً أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الصَّلَاةِ الْمُسْتَحَبَّةِ يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُوَدِّيَهَا عَلَى رَاحِلَتِهِ أَيْتَمَا اتَّجَهَتْ الرَّاحِلَةُ، دُونَ اشْتِرَاطِ الْإِتِّجَاهِ نَحْوَ الْقِبْلَةِ. و روي عن جابر أَنَّ الرَّسُولَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) بَعَثَ جَمَاعَةً فِي غَزْوَةٍ فَجَنَّ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ وَ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَعْرِفُوا اتِّجَاهَ الْقِبْلَةِ، فَصَلَّتْ كُلُّ مَجْمُوعَةٍ صَوْبَ جَهَةٍ، وَ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ تَبَيَّنَ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا الْقِبْلَةَ، سَأَلُوا النَّبِيَّ عَنْ ذَلِكَ فَتَرَكْتَ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ (هذا الحكم له شروط طبعاً تذكره الكتب الفقهية). ومن الممكن أن تكون أسباب النزول المذكورة كلها ثابتة للآية، أضف إلى ذلك أن كل آية في القرآن لا تنحصر بأسباب نزولها، بل ينبغي أن يؤخذ مفهومها بشكل حكم عام، وربما استخراج منها أحكام متعددة.

التفسير

أَيُّمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ

الآية السابقة تحدثت عن الظالمين الذين ينعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه و يسعون في خرابها، وهذه الآية تواصل موضوع الآية السابقة فتقول: «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيُّمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ».

تؤكد هذه الآية أن منع الناس عن إحياء المساجد لا يقطع الطريق أمام عبودية الله، فشرق هذا العالم وغربه لله سبحانه، وأينا تولوا وجوهكم فالله موجود. و تغيير القبلة تم لظروف خاصة وليس له علاقة بمكان وجود الله، فالله سبحانه وتعالى لا يحده مكان ولذلك تقول الآية بعد ذلك «إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

واضح أن المقصود بالمشرق والمغرب في الآية ليس هو الجهتين الخاصتين، بل هو كناية عن كل الجهات. كأن يقول أحد مثلاً: أعداء علي سعوا للتغطية على فضائله، لكن فضائله انتشرت في شرق العالم وغربه، (أي في كل العالم). ولعل شيوع استعمال الشرق والغرب في الكلام سببه أن الانسان يتعرف أولاً على هاتين الجهتين ثم يعرف بقية الجهات عن طريق هاتين الجهتين.

وفي آية أخرى يقول القرآن الكريم: «وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا» (الاعراف، ١٣٧).

* * *

وقفات

١- فلسفة القبلة

الله موجود في كل جهة ومكان، فلماذا وجب الاتجاه نحو القبلة في الصلاة؟ واضح أن الاتجاه نحو القبلة لا يعني تحديد ذات البارئ تعالى في مكان وفي جهة، بل إن الانسان موجود مادي، ولا بد أن يصلي باتجاه معين، ثم إن ضرورة الوحدة والتنسيق في صفوف المسلمين تفرض اتجاههم في الصلاة نحو قبلة واحدة، والآساد المهرج والفضوى، وتفرقت الصفوف وتشتتت.

أضف الى ذلك أن الكعبة قبلة المسلمين نقطة مقدسة ومن أقدم قواعد التوحيد، والاتجاه نحوها يوقظ في النفوس ذكريات المسيرة التوحيدية.

٢- عبارة «وَجْهَ اللَّهِ» لا تعني هذا الوجه المتعارف، بل تعني ذات الله تعالى.

٣- استدلت الروايات بهذه الآية على صحة الصلاة الى غير القبلة لسهواً واضطراراً،

وعلى صحة الصلاة على ظهر الراحلة.

(لمزيد من التوضيح راجع وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، باب القبلة).

الآيتان

- ١١٦ - «وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ كَلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ».
- ١١٧ - «بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ».

التفسير

خرافات اليهود والنصارى والمشركين

المسيحيون وجمع من اليهود والمشركون تبنوا عقيدة تافهة بشأن اتخاذ الله ابنا.
قال سبحانه: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰ ابْنُ اللَّهِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ
ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ».
(التوبة، ٣٠).

وقال عزّ شأنه: «قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ» (يونس، ٦٨).

وهناك آيات اخرى ذكرت هذا المعتقد المنحرف.

وهذه الآية الكريمة التي نحن بصددتها تقول: «وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا» ثم تجيب
عليهم أولاً بتنزيه الله عن هذه النسبة: «سُبْحَانَهُ»، فما حاجة الله الى الولد؟ هل هو محتاج
الى المساعدة أو الى بقاء النسل؟! نعم، لا يمكن نسبة أي احتياج الى الله «بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» وجميع الكون خاضع له «كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ».

ليس هو مالك جميع موجودات الكون فحسب، بل هو خالقها.. بل مبدعها أي
موجدها دون احتياج الى مادة اولية في هذا الابداع «بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».
ما حاجة الله الى الولد وهو النافذ الارادة في جميع الموجودات؟! «وَإِذَا قَضَىٰ

أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (غافر، ٦٨).

* * *

وقفات

١- دلالات نبي الولد

نسبة الولد الى الله سبحانه، هي دون شك وليدة سذاجة فكرية، قائمة على أساس مقارنة كل شيء بالوجود البشري المحدود.

الانسان يحتاج الى الولد لأسباب عديدة: فهو من جانب ذو عمر محدود يحتاج الى توليد المثل لاستمرار نسله.

ومن جهة أخرى هو ذو قوة محدودة تضعف بالتدرج، ويحتاج لذلك- وخاصة في فترة الشيخوخة- الى من يساعده في أعماله.

وهو أيضاً ينطوي على عواطف وحب للانيس، وذلك يتطلب وجود فرد أنيس في حياة الانسان، والولد يلي هذه الحاجة.

واضح أن كل هذه الأمور لا يمكن أن تجد لها مفهوما بشأن الله سبحانه، وهو خالق عالم الوجود والقادر على كل شيء، وهو الأزلي الأبدي.

أضف الى ذلك، الولد يستلزم أن يكون الوالد جسماً والله منزه عن ذلك.^١

* * *

٢- تفسير «كُنْ فَيَكُونُ»

هذا التعبير ورد في آيات عديدة، و يتحدث عن الارادة التكوينية لله تعالى وحاكميته في الخليقة.

بعبارة أوضح: المقصود من جملة «كُنْ فَيَكُونُ» ليس هو صدور الامر اللفظي «كُنْ» من قبل الله تعالى، بل المقصود تحقق ارادة الله سبحانه حينما تقتضي إيجاد شيء من الأشياء، صغيراً بحجم الذرة كان أم كبيراً بحجم السماوات والارض، بسيطاً كان أم معقداً، دون أن يحتاج في ذلك الایجاد الى أية علة أخرى، و دون أن تكون هناك أية فترة

(١) هذه المسألة درسناها في سورة الانبياء الآية ٢٦، المجلد الثالث عشر من هذا التفسير.

زمنية بين الارادة والايجاد.

لا يمكن للزمان أن يفصل بين الامر والكينونة، ولذلك فإن الفاء في جملة (فَيَكُونُ)، لا تدل على تأخير زمني كما هو الحال في الجمل الاخرى، بل إنها تدل فقط على التأخير في الرتبة (الفلسفة أثبتت تأخر المعلول عن العلة، وهذا التأخر ليس زمنيا بل في الرتبة - تأمل بدقة).

ليس المقصود أن الشيء يصبح موجوداً متى ما أراد الله ذلك، بل المقصود أن الشيء يصبح موجوداً بالشكل الذي أراده الله.

على سبيل المثال، لو أراد الله أن يخلق السماوات والارض في ستة أيام، لكان ذلك، دون زيادة أو نقص، ولو أراد أن توجد في لحظة واحدة لوجدت بأجمعها في لحظة واحدة، فذلك تابع لكيفية إرادته ولما يراه من مصلحة.

ولو شاء الله - مثلاً - أن يبقى الجنين في رحم أمه تسعة أشهر وتسعة أيام ليطوي مراحل تكامله، لما زادت هذه المدة وما نقصت. أما لو شاء أن يطوي هذا الجنين مراحل تكامله خلال لحظة واحدة لحدث ذلك قطعاً، لأن إرادته علة تامة للخليقة، ولا يمكن أن توجد فاصلة بين العلة التامة وجود المعلول.

* * *

٣- كيف يوجد الشيء من العدم؟

كلمة «بَدِيع» من «بَدَع»، والابداع إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء منه، وفي الآية بمعنى ايجاد الشيء من غير مادة سابقة.^١

والسؤال الذي يطرح في هذا المجال يدور حول إمكان ايجاد الشيء من العدم، فكيف يمكن للعدم، وهو نقيض الوجود، أن يكون منشأً للوجود؟ وهذه هي الشبهة التي يوردها الماديون في مسألة «الابداع» ليستنتجوا منها أن المادة الاصلية للعالم أزلية أبدية، ولا يطرأ عليها وجود وعدم إطلاقاً.

(١) المفردات، مادة بَدَع.

الجواب

في المرحلة الاولى، يوجه نفس هذا الاعتراض الى الماديين فهؤلاء يعتقدون أن مادة هذا العالم قديمة ازلية، ولم ينقص منها شيء حتى الآن، والذي نراه يتغير هو «الصورة» وحدها، لا أصل المادة. ونحن بدورنا نسأل: كيف وجدت الصورة الحالية للمادة ولم تكن موجودة من قبل؟ هل وجدت من العدم؟ إذا كان كذلك، فكيف يمكن للعدم أن يكون منشأ للوجود؟ (تأمل بدقة).

على سبيل المثال، يقول الماديون في لوحة زيتية مرسومة على ورقة أن زيوت التلوين كانت موجودة، ونحن نسأل: كيف وجدت هذه «الصورة» التي لم تكن موجودة من قبل؟ كل جواب يقدمونه بشأن إيجاد «الصورة» من «العدم» نقدمه نحن أيضاً بشأن إيجاد «المادة».

و في المرحلة الثانية، ينبغي التأكيد على أن خطأ الماديين ناتج عن كلمة «من». هؤلاء تصوروا قولنا: (أن العالم وجد من العدم) شبيه بقولنا (أن المنضدة وجدت من الخشب) حيث لا بد من وجود الخشب أولاً لكي توجد المنضدة. بينما جملة «وجود العالم من العدم» لا تعني ذلك. بل تعني «أن العالم لم يكن موجوداً ثم وجد». وهل في هذه العبارة تضاد أو تناقض؟!

و بالتعبير الفلسفي: كل موجود ممكن (الذي لا يملك الوجود ذاتياً) له جانبان: ماهية ووجود، «الماهية» هي «المعنى الاعتباري» الذي يتساوى في نسبته للعدم والوجود. وبعبارة أخرى، الماهية هي المقدار المشترك الذي نفهمه من ملاحظة وجود شيء وعدمه. فهذه الشجرة لم تكن موجودة سابقاً وهي موجودة الآن، والشخص الفلاني لم يكن موجوداً سابقاً وهو الآن موجود، وما أسندنا إليه الحالتين (الوجود والعدم) هي «الماهية».

من هنا يكون معنى قولنا (ان الله أوجد العالم من العدم) هو أنه سبحانه نقل الماهية من حالة العدم الى حالة الوجود، وبعبارة أخرى وضع لباس «الوجود» على جسد «الماهية»..

الآيتان

١١٨ - «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

١١٩ - «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ».

التفسير

حجج أخرى

بمناسبة ذكر حجج اليهود في الآيات السابقة، نتحدث الآية عن حجج مجموعة أخرى من المحاججين، ويبدو أنهم المشركون العرب فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ».

هؤلاء الجاهلون - او الذين لا يعلمون - بتعبير الآية، طرحوا طلبين بعيدين عن المنطق، طلبوا:

١ - أن يكلمهم الله: «لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ».

٢ - أن تنزل عليهم آية: «أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ».

والقرآن يجب على هذه الطلبات التافهة قائلاً: «كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

لو أن هؤلاء يستهدفون حقاً ادراك الحقيقة، ففي هذه الآيات النازلة على رسول الله (صلى الله عليه وآله) دلالة واضحة بينة على صدق أقواله، فما الداعي الى نزول آية مستقلة على كل واحد من الافراد؟! وما معنى الاصرار على أن يكلمهم الله مباشرة؟!

مثل هذا الطلب تذكره الآية ٥٢ من سورة المدثر: «بَلْ يُرِيدُ كُلُّ اٰمِرٍيٍّ مِنْهُمْ

أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّبَشِّرَةً».

مثل هذا الطلب لا يمكن أن يتحقق، لان تحققه - إضافة الى عدم ضرورته - مخالف لحكمة الباري سبحانه، لما يلي:

اولاً- اثبات صدق الانبياء ممكن لجميع الناس عن طريق الآيات التي تنزل عليهم.

ثانيا - لا يمكن للآيات والمعجز أن تنزل على أي فرد من الافراد، فذلك يتطلب نوعا من اللياقة والاستعداد والطهارة الروحية. فالاسلاك الكهربية تتحمل من التيار ما يتناسب مع ضخامتها. الاسلاك الرقيقة لا تتحمل التيار العالي، ولا يمكن أن تتساوى بالاسلاك الضخمة القادرة على توصيل التيارات العالية. والمهندس يفرق بين الاسلاك التي تستقبل التيارات العالية من المولدات مباشرة، والاسلاك التي تنقل التيار الواطئ داخل البيوت.

* * *

الآية التالية تخاطب النبي، وتبين موقفه من الطلبات المذكورة وتقول: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا».

فمسؤولية الرسول بيان الاحكام الالهية وتقديم المعجز، وتوضيح الحقائق، وهذه الدعوة ينبغي أن تقترن ببشارة المهتدين وانذار العاصين. هذه مسؤوليتك أيها الرسول «وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ».

* * *

وقفتان

١- «تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ»

مرّ علينا في الآية أن القرآن يصف الحجج الواهية التي يطرحها المعاصرون لصاحب الرسالة الخاتمة، بأنها شبيهة بتلك التي كان يتذرع بها المنحرفون من الامن السابقة، فقلوبهم متشابهة.

القرآن يشير بهذا التقريع واللوم الى أنّ مرور الزمن ينبغي أن يكون عاملاً على زيادة وعي الاجيال البشرية، وعلى تفهم هذه الاجيال اللاحقة اكثر من السابقة لتعاليم

الانبياء، لكن مرور الزمن لا يرفع مستوى المنحرفين، بل يبقى خط الانحراف واحداً متشابهاً على مرّ الاجيال.

* * *

٢- اصلان تربويان

«البشارة» و «الانذار» أو «التشجيع» و «التهديد» من أهم الاصول اللازمة للتربية وللحركة الاجتماعية. ينبغي أن يلقي الفرد تشجيعاً على أعماله الصالحة، وتوبيخاً على أعماله الطالحة، كي يواصل مسيره الاول، ويرتدع عن ارتياد المسير الثاني. «التشجيع» وحده لا يكفي لدفع الفرد والمجتمع على طريق التكامل، لفقدان الرادع عن ارتكاب المعاصي.

على سبيل المثال، نرى ارتكاب المعاصي بين النصارى الحاليين أمراً عادياً، لأنهم يعتقدون بالفداء، أي بان السيد المسيح (عليه السلام) قد ضحى بنفسه لغفران ذنوب أتباعه، أو لاعتقادهم بأن أحبارهم قادرين أن يغفروا لهم ذنوبهم بسبل شتى منها منحهم صكوك الغفران. مثل هؤلاء القوم يسمحون لانفسهم ارتكاب الذنوب بسهولة. جاء في قاموس الكتاب المقدس: «... الفداء أيضاً اشارة الى كفارة دم المسيح، الذي أخذ على عاتقه كل ذنوبنا وتحمل ذنوبنا في جسده على الصليب». هذا المنطق يجعل الافراد دون شك جزيئين على ارتكاب المعاصي.

بعبارة أخرى، أولئك الذين يرون أن التشجيع وحده كاف لتربية الانسان (طفلاً كان أم كبيراً)، ويرون ضرورة ترك التهديد والتقريع، هم خاطئون أيما خطأ. وهكذا أولئك الذين يعتقدون أن التربية ينبغي أن تقوم على أساس التخويف والتأنيب لاغير، ضالون في آرائهم.

الفريقان المذكوران خاطئان في فهم الانسان لم يفهما أن الانسان مجموعة من الخوف والرجاء، من حب الذات وكره الفناء، من تحصيل المنفعة ودفع الضرر. وهل يمكن لموجود يحمل في ذاته هذين البعدين، أن يرتبى وفق بعد واحد؟!

والتعادل ضروري بين هذين الجانبين، فلو تجاوز التشجيع حدّه لأدّى الى التجرؤ والغفلة، ولو تعدّى التخويف حدّه لبعث على اليأس والقنوط وانطفاء شعلة الشوق

والتحرك في النفوس.

مما سبق نفهم سبب اقتران البشارة بالانذار أو «البشير» بـ «النذير» في القرآن الكريم، فتارة تقدم كلمة البشير على النذير كالأية التي نحن بصددھا: «بَشِيرًا وَنَذِيرًا» و تارة تقدم كلمة النذير كقوله تعالى في الآية ١٨٨ من سورة الأعراف: «إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

و لعل زيادة المواضع القرآنية التي تتقدم فيها صفة البشير تعود الى أن رحمة الله من حيث المجموع سابقة على غضبه: «يَا مَنْ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ».

* * *

الآيتان

١٢٠ - «وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» .
١٢١ ، «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» .

اسباب النزول

روي عن ابن عباس بشأن نزول الآية الاولى أن يهود المدينة ونصارى نجران، كانوا يأملون أن تكون قبلة المسلمين موافقة دائماً لقبلتهم، فلما تغيرت قبلة المسلمين من بيت المقدس الى الكعبة يسوا من نبي الاسلام. ولعل بعض المسلمين لم يرق له هذا التغيير، لرغبته أن لا يحدث عملاً يؤدي الى ازعاج اليهود والنصارى.^١

الآية الاولى نزلت لتعلن للنبي أن هذه الفئة من اليهود والنصارى لا ترضى عنك بالاشترائك في قبلتهم ولا بأي شيء آخر، إلا أن تقبل كل ما يتبعونه. وقيل: ان الآية نزلت إثر إصرار النبي على إرضاء أهل الكتاب طمعاً في قبولهم الاسلام، فنزلت الآية لتؤكد أن رضى هؤلاء غاية لا تدرك إلا باعتناق دينهم.^٢ وبشأن نزول الآية الثانية وردت روايات مختلفة، قيل إنها نزلت فيمن التحق بجعفر بن ابي طالب لدى عودته من الحبشة وهم أربعون، إثنان و ثلاثون من أهل الحبشة

(١) تفسير ابي الفتوح الرازي، و تفسير الفخر الرازي (مع اختلاف بسيط).

(٢) مجمع البيان، الآية المذكورة.

وثمانية رهبان فيهم «بجيرا» الراهب المعروف. وقيل إنها نزلت في يهود اسلموا وحسن إسلامهم من أمثال: عبدالله بن سلام وسعيد بن عمرو، وتمام بن يهودا^١.

التفسير

إرضاء هذه المجموعة محال

الآية السابقة رفعت المسؤولية عن النبي (صلى الله عليه وآله) إزاء الضالين المعاندين. والآية أعلاه تواصل الموضوع السابق وتخطب الرسول بالقول: «وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ».

واجبك أن «فَلَنْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ»، هدى الله هو الهدى البعيد عن الخرافات وعن الافكار التافهة التي تفرزها عقول الجهال، ويجب اتباع مثل هذا الهدى الخالص.

ثم تقول الآية: «وَلَنْ أَتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

بعد أن ذم القرآن الفئة المذكورة من اليهود والنصارى، أشاد بأولئك الذين آمنوا من أهل الكتاب وانضوا تحت راية الرسالة الخاتمة «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» .. «وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

هؤلاء كانوا قد تلوا كتبهم السماوي حقاً، وكان ذلك سبب هدايتهم، فهم قرأوا فيه بشارات ظهور النبي الموعود، وقرأوا صفات هذا النبي المنطبقة مع صفات نبي الاسلام (صلى الله عليه وآله) والله مدحهم وأشار بهم.

وقفات

١ - سؤال بشأن عصمة الأنبياء

العبارة القرآنية: «وَلَنْ أَتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ» قد تثير سؤالاً بشأن عصمة الانبياء،

(١) تفسير ابي الفتح الرازي، وجمع البيان.

فهل يمكن للنبي (صلى الله عليه وآله) - وهو معصوم - أن يتبع أهواء المنحرفين من اليهود والنصارى؟

في الجواب نقول: مثل هذه التعبيرات تتكرر في القرآن الكريم، ولا تتعارض مع مقام عصمة الانبياء، لأنها - من جهة - جملة شرطية، والجملة الشرطية لا تدل على تحقق الشرط. ومن جهة أخرى، عصمة الانبياء لا تجعل الذنب على الانبياء محالاً، بل المعصوم له قدرة على ارتكاب الذنب، ولم يسلب منه الاختيار، ومع ذلك لم يتلوث بالذنوب. بعبارة أخرى المعصوم قادر على الذنب، ولكن إيمانه وعلمه وتقواه بدرجة لا يتجه معها الى ذنب. من هنا فالتحذيرات المذكورة بشأنهم مناسبة تماماً.

من جهة ثالثة، هذا الخطاب، وان اتجه الى النبي قد يكون موجها الى الناس

جميعاً.

٢- للاسترضاء حدود

صحيح أن الانسان الرسالي يجب أن يسعى بأخلاقه الى جذب الأعداء الى صفوف الدعوة، لكن مثل هذا الموقف يجب أن يكون تجاه المخالفين المرين اللتين، أما الموقف تجاه المعاندين المتصلبين فينبغي أن يكون غير ذلك. لا يجوز إهدار الوقت مع هؤلاء، بل لابد من الاعراض عنهم وتركهم.

٣- إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى

نفهم من الآية المذكورة أن القانون الوحيد القادر على إنقاذ البشرية هو قانون الهداية الالهية، لأن علم البشر - مهما قدر له من التكامل - يبقى مخلوطاً بالجهل والشك والقصور في جهات مختلفة. والهداية في ضوء مثل هذا العلم الناقص، لا يمكن أن تكون هداية مطلقة ولا يستطيع أن يضع للانسان برنامج «الهداية المطلقة» الا من له «علم مطلق» ومن هو خال من الجهل والنقص، وهو الله وحده.

٤- حق التلاوة

عبر القرآن عن الفئة المهتدية من أهل الكتاب بأنهم «يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ»،

وهو تعبير عميق يضع لنا خطأ واضحاً تجاه القرآن الكريم والكتب السماوية، فالناس أمام الآيات الالهية على أقسام.

قسم يكرسون اهتمامهم على أداء الالفاظ بشكل صحيح وعلى قواعد التجويد، ويشغل ذهنهم دوماً الوقف والوصل والادغام والغنة في التلاوة، ولا يهتمون إطلاقاً بمحتوى القرآن فما بالك بالعمل به! وهؤلاء بالتعبير القرآني «كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَخْمِلُ أَشْفَاراً» (الجمعة، ٥).

وقسم يتجاوز إطار الالفاظ ويتعمق في المعاني ويدقق في الموضوعات القرآنية، ولكن لا يعمل بما يفهم!

وقسم ثالث، وهم المؤمنون حقاً، يقرأون القرآن باعتباره كتاب عمل، ومنهجاً كاملاً للحياة، ويعتبرون قراءة الالفاظ والتفكير في المعاني وإدراك مفاهيم الآيات الكريمة مقدمة للعمل، ولذلك تصحوفي نفوسهم روح جديدة كلما قرأوا القرآن، وتتصاعد في داخلهم عزيمة وإرادة جديدتان واستعداد جديد للأعمال الصالحة، وهذه هي التلاوة الحقة.

ورد عن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) في تفسير هذه الآية «يُرْتَلُونَ آيَاتِهِ، وَيَتَفَقَّهُونَ بِهِ، وَيَعْمَلُونَ بِأَحْكَامِهِ، وَيَرْجُونَ وَعْدَهُ، وَيَخَافُونَ وَعِيدَهُ، وَيَعْتَبِرُونَ بِقِصَصِهِ، وَيَأْتِمِرُونَ بِأَوَامِرِهِ، وَيَنْتَهُونَ بِنَوَاهِيهِ، مَا هُوَ وَاللَّهُ حَفِظَ آيَاتِهِ وَدَرَسَ حُرُوفَهُ، وَتَلَاوَهُ سُورِهِ وَدَرَسَ أَعْشَارِهِ وَأَخْمَاسِهِ، حَفِظُوا حُرُوفَهُ وَأَضَاعُوا حُدُودَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ تَدَبُّرُ آيَاتِهِ وَالْعَمَلُ بِأَرْكَانِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ»^٢.

* * *

(١) المقصود من الاعشار والاحماس تقسيمات القرآن.

(٢) الميزان، نقلاً عن ارشاد الديلمي.

الآيات

١٢٢ - «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» .
١٢٣ - «وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» .

التفسير

مرة أخرى يتجه الخطاب الالهي الى بني اسرائيل ليذكرهم بالنعم التي أحيطوا بها، وخاصة نعمة تفضيلهم على أمم زمانهم، فتقول الآية: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» اي على كل من كان يعيش في ذلك الزمان.

* * *

كل نعمة تقترب بمسؤولية، وتقترب بالتزام وتكليف الهي جديد، ولذلك قال سبحانه في الآية التالية: «وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا» .. «وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ» أي غرامة أو فدية، «وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ» الا باذن الله، ولا يستطيع أحد غير الله أن يساعد أحداً «وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» .

فكل طرق النجاة التي تتوسلون بها في هذه الدنيا مغلوقة يوم القيامة، والطريق الوحيد المفتوح أمامكم هو طريق الايمان والعمل الصالح، وطريق التوبة من الذنوب. هذه المفاهيم مطروحة في الآيتين ٤٧ و ٤٨ من هذه السورة، حيث تعرضنا لها بالتفصيل، و نكتفي هنا بهذا القدر.

* * *

الآية

١٢٤- «وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ».

التفسير

الامامة قمة مفاخر ابراهيم (ع)

هذه الآية وما بعدها تتحدث عن بطل التوحيد نبي الله الكبير ابراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وعن بناء الكعبة واهمية هذه القاعدة التوحيدية العبادية.

والهدف من هذه الآيات - وعددها ثمانى عشرة آية - ثلاثة أمور:

أولاً - أن تكون مقدمة لمسألة تغيير القبلة التي ستطرح بعد ذلك، كي يعلم المسلمون أن هذه الكعبة من ذكريات ابراهيم محطم الاصنام، ولكي يفهموا أن التلويت الذي طرأ على الكعبة إذ حوفا المشركون الى بيت للاصنام، إنما هو تلويت سطحى لا يحط من قيمة الكعبة ومكانتها.

ثانياً- لفضح ادعاءات اليهود والنصارى بشأن انتسابهم لابراهيم، وأنهم ورثة دينه و طريقتة، ولتوضيح مدى ابتعاد هؤلاء عن ملة ابراهيم.

ثالثاً- لتفهيم مشركي العرب أيضاً ببعدهم عن منهج النبي الكبير محطم الاصنام، والرد على ما كانوا يتصورونه من ارتباط بينهم وبين ابراهيم.

الآية الكريمة تقول أولاً: «وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ».

هذه الفقرة من الآية تشير الى الاختبارات المتتالية التي اجتازها ابراهيم بنجاح، و تبين من خلالها مكانة ابراهيم وعظمتة وشخصيته.

و بعد أن اجتاز هذه الاختبارات بنجاح استحق أن يمنحه الله الوسام الكبير «قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا».

وهنا تمتى ابراهيم أن يستمر خط الامامة من بعده، وأن لا يبقى محصوراً بشخصه

«قَالَ: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِي؟»»

لكن الله أجابه «قَالَ: لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ».

فطلب إبراهيم في استمرار خط الامامة في ذريته قد استجيب، لكن هذا المقام لا يناله الا الطاهرون المعصومون من ذريته لاغيرهم.

* * *

وقفات

١- المقصود من «الكلمات»

من دراسة آيات القرآن الكريم بشأن إبراهيم، وما أذاه هذا النبي العظيم من أعمال جسيمة استحق ثناء الله، نفهم أن المقصود من الكلمات هو مجموعة المسؤوليات والمهام الثقيلة الصعبة التي وضعها الله على عاتق إبراهيم، فحملها وأحسن حملها وأدى ما عليه خير أداء، وهي عبارة عن:

أخذ ولده الى المذبح والاستعداد التام لذبحه، إطاعة لأمر الله سبحانه.

إسكان الزوج والولد، في واد غير ذي زرع بمكة، حيث لم يسكن فيه إنسان.

والنهوض بوجه عبدة الاصنام وتحطيم الاصنام، والوقوف ببطولة في تلك المحاكمة التاريخية، ثم رباطة جأشه في وسط النيران.

الهجرة من أرض عبدة الاصنام والابتعاد عن الوطن، والاتجاه نحو اصقاع نائية لاداء رسالته.. وأمثالها^١.

كان كل واحد من هذه الاختبارات ثقيلًا وصعبًا حقاً، لكنه بقوة إيمانه نجح فيها جميعاً وأثبت لياقته لمقام «الإمامة».

* * *

٢- من هو الامام

يتبين من الآية الكريمة التي نحن بصددھا، أن منزلة الإمامة الممنوحة لابراهيم

(١) روي عن ابن عباس انه استخرج اختبارات ابراهيم من اربع سور قرآنية فكانت ثلاثين موضعاً

(تفسير المنار، تفسير الآية المذكورة)، و خلاصتها ما ذكرناه.

بعد كل هذه الاختبارات، تفوق منزلة النبوة والرسالة.
ولتوضيح ذلك نقول: إن للإمامة معاني مختلفة:

١ - الامامة بمعنى الرئاسة والزعامة في أمور الدنيا، (قال بذلك فريق من علماء أهل السنة).

٢ - الامامة بمعنى الرئاسة في أمور الدين والدنيا، (قال بذلك فريق آخر من علماء أهل السنة).

٣ - الامامة بمعنى تحقيق المناهج الدينية بما في ذلك منهج الحكم بالمعنى الواسع للحكومة، واجراء الحدود وأحكام الله، وتطبيق العدالة الاجتماعية، وتربية الافراد في محتوهم الداخلي وفي سلوكهم الخارجي. وهذه المنزلة أسمى من منزلة النبوة والرسالة، لأن منزلة النبوة والرسالة تقتصر على إبلاغ أوامر الله والبشارة والانداز، أما الامامة فتشمل مسؤوليات النبوة والرسالة إضافة الى «إجراء الاحكام» و «تربية النفوس ظاهريا وباطنيا» (واضح طبعاً أن كثيرا من الانبياء كانوا يتمتعون بمنزلة الامامة).
منزلة الامامة هي في الحقيقة منزلة تحقيق أهداف الدين والهداية أي «الايصال الى المطلوب» وليست هي «إراءة الطريق» فحسب.

إضافة الى ما سبق تشتمل الامامة أيضاً على «الهداية التكوينية» أي النفوذ الروحي للامام، وتأثيره على القلوب المستعدة للهداية المعنوية (تأمل بدقة).
الامام في ذلك يشبه الشمس التي تبعث الحياة في الموجودات.

يقول سبحانه: «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا» (الاحزاب، ٤٣).

ومن هذه الآية نفهم بوضوح أن رحمة الله الخاصة وإمداداته الغيبية عن طريق الملائكة تستطيع أن تخرج المؤمنين من الظلمات الى النور.
هذا الموضوع يصدق على الامام أيضاً، فالقوه الروحية للامام وللانبياء الحائزين على منزلة الامامة وخلفائهم، لها التأثير العميق على تربية الافراد المؤهلين، وإخراجهم من ظلمات الجهل والضلالة الى نورالهداية.

لا شك أن المراد من الامامة في الآية التي نحن بصدد تفسيرها هوالمعنى الثالث

للإمامة، لأنه يستفاد من آيات متعددة أن مفهوم «الإمامة» ينطوي على مفهوم «الهداية»، كقوله تعالى: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ» (السجدة، ٢٤).

هذه الهداية لا تعني إراءة الطريق، لأن إبراهيم كانت له قبل ذلك مكانة النبوة والرسالة، أي مكانة إراءة الطريق.

القرائن الواضحة تشير الى أن منزلة الإمامة الممنوحة لإبراهيم بعد الامتحانات العسيرة، واجتياز مراحل اليقين والشجاعة والاستقامة، هي غير منزلة البشارة والابلاغ والانذار.

إذن، الهداية التي يتضمنها مفهوم الإمامة ماهي الآ «الايصال الى المطلوب» و «تحقيق روح الدين» و تطبيق المناهج التربوية في النفوس المستعدة.

هذه الحقيقة يوضحها باجمال حديث عميق المعنى روي عن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) يقول:

«إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ نَبِيًّا، وَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ نَبِيًّا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ رَسُولًا، وَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ رَسُولًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ خَلِيلًا، وَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ خَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يَجْعَلَهُ إِمَامًا، فَلَمَّا جَمَعَ لَهُ الْأَشْيَاءَ، قَالَ: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) قَالَ: فَمِنْ عِظْمِهَا فِي عَيْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: (وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) قَالَ: لَا يَكُونُ السَّفِيهَ إِمَامَ التَّقِيِّ»^١

* * *

٣- الفرق بين النبوة والإمامة والرسالة

يفهم من الآيات الكريمة والمأثور عن المعصومين، أن حملة المهمات من قبل الله تعالى لهم منازل مختلفة:

١ - منزلة النبوة: أي استلام الوحي من الله، فالنبي هو الذي ينزل عليه الوحي، وما يستلمه من الوحي يعطبه للناس إن طلبوا منه ذلك.

٢ - منزلة الرسالة: وهي منزلة ابلاغ الوحي ونشر أحكام الله وتربية الافراد عن طريق التعليم والتوعية. فالرسول إذن هو المكلف بالسعي في دائرة مهمته لدعوة الناس الى الله وتبليغ رسالته، وبذل الجهد لتغيير فكري عقائدي في مجتمعه.

٣ - منزلة الامامة: وهي منزلة قيادة البشرية، فالامام يسعى الى تطبيق أحكام الله عملياً عن طريق إقامة حكومة الهية واستلام مقاليد الامور اللازمة. وان لم يستطع إقامة الدولة يسعى قدر طاقته في تنفيذ الاحكام.

بعبارة أخرى، مهمة الامام تنفيذ الاوامر الالهية، بينما تقتصر مهمة الرسول على تبليغ هذه الاوامر. وبتعبير آخر ايضاً، مهمة الرسول، اراءة الطريق، ومهمة الامام «الايصال الى المطلوب» (اضافة الى المهام الثقيلة الاخرى المذكورة).

من نافلة القول أن كثير من الانبياء كنبى الاسلام عليه أفضل الصلاة والسلام حازوا على المنازل الثلاث، كانوا يستلمون الوحي، و يبلغون أوامره، و يسعون الى إقامة الحكومة وتنفيذ الاحكام، و ينهضون - بما لهم من تأثير وحي - بمهمة تربية النفوس. الامامة - بعبارة موجزة - هي منزلة القيادة الشاملة لجميع المجالات المادية والمعنوية والجسمية والروحية والظاهرية والباطنية. الامام رئيس الدولة وزعيم المجتمع ومعلم الاخلاق وقائد المحتوى الداخلي للافراد المؤهلين. فهو بقوته المعنوية يقود النفوس المؤهلة على طريق التكامل، و بقدرته العلمية يعلم الجهلة، و بقوة حكومته أو أية قوة تنفيذية أخرى، يطبق مبادئ العدالة.

* * *

٤- الامامة أو آخر مراحل مسيرة ابراهيم التكاملية

بما تقدم في بيان حقيقة الامامة يتضح أنه من الممكن أن تكون لشخص منزلة النبوة وتبليغ الرسالة، بينما لا تكون له منزلة الامامة. وهذه المنزلة تحتاج الى مؤهلات كثيرة في جميع المجالات، وهى المنزلة التي نالها ابراهيم بعد كل هذه الامتحانات والمواقف العظيمة، وكانت آخر مرحلة من مراحل مسيرته التكاملية.

اولئك الذين ظنوا أن الامامة هي «أن يكون الفرد لائقاً ونموذجياً» فقط، ما فهموا أن هذه الصفة كانت موجودة في ابراهيم منذ بداية النبوة.

ومن قال أن المقصود من الامامة «أن يكون الفرد قدوة» فانه أن هذه صفة جميع الأنبياء منذ ابتدائهم بدعوة النبوة، ولذلك وجب أن يكون النبي معصوماً لان أعماله قدوة للآخرين.

من هنا، فنزلة الامامة أسمى مما ذكر، بل أسمى من النبوة والرسالة، وهي المنزلة التي نالها إبراهيم من قبل الله بعد أن اجتاز الامتحان تلوالامتحان.

* * *

٥- من الظالم؟

المقصود من «الظلم» في التعبير القرآني «لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» لا يقتصر على ظلم الآخرين، بل الظلم (مقابل العدل) استعمل هنا بالمعنى الواسع للكلمة، ويقع في النقطة المقابلة للعدل: وهو وضع الشيء في محله.

فالظلم إذن وضع الشخص أو الشيء في غير ما وضع له.

ما كانت منزلة الامامة والقيادة الظاهرية والباطنية للبشرية منزلة ذات مسؤوليات جسيمة هائلة عظيمة، فان لحظة من الذنب والمعصية خلال العمر تسبب سلب لياقة هذه المنزلة عن الشخص.

لذلك نرى أمة آل البيت (عليهم السلام) يثبتون بهذه الآية تعين الخلافة بعد النبي مباشرة لعلي وإحصارها به، مشيرين إلى أن الآخرين عبدوا الأصنام في الجاهلية، وعلي وحده لم يسجد لصنم. وأي ظلم أكبر من عبادة الأصنام؟! ألم يقل لقمان لابنه: «يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» (لقمان، ١٣)؟!

من هذه الاستدلالات ما رواه هشام بن سالم عن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) قال: «قَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ نَبِيًّا وَوَيْسَ بِإِمَامٍ، حَتَّى قَالَ اللَّهُ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، قَالَ: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي، فَقَالَ اللَّهُ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ، مَنْ عَبَدَ صَمًا أَوْ وثنًا لَا يَكُونُ إِمَامًا.»^١

وفي حديث آخر عن عبدالله بن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله): «إِنَّ اللَّهَ

(١) اصول الكافي، ج ١، باب «طبقات الانبياء والرسول» حديث ١.

قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ: «لَا أَعْطِيكَ عَهْدًا لِلظَّالِمِ مِنْ دُرَّتِكَ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَنِ الظَّالِمُ مِنْ وَدَيْي
الَّذِي لَا يَنَالُ عَهْدَكَ؟ قَالَ: مَنْ سَجَدَ لِصَمِّمْ مِنْ دُونِي لَا أَجْعَلُهُ إِمَامًا أَبَدًا، وَلَا يَصْلُحُ
أَنْ يَكُونَ إِمَامًا»^١.

٦- الامام يعينه الله

من الآية التي نفسرها نفهم ضمنيا أن الامام (القائد المعصوم لكل جوانب المجتمع) يجب أن يكون معينا من قبل الله سبحانه، لما يلي:
أولاً - الامامة ميثاق الهي، وطبيعي أن يكون التعيين من قبل الله لأنه طرف هذا الميثاق.

ثانياً - الافراد الذين توجد في حياتهم لحظة ارتكاب ظلم بحق أنفسهم أو بحق الآخرين، كأن تكون لحظة شرك مثلا، لا يليقون للامامة، فالامام يجب أن يكون عمره معصوما.

وهل يعلم ذلك في نفوس الافراد الآ الله؟!.

ولو أردنا بهذا المعيار أن نعين خليفة لرسول الله (صلى الله عليه وآله)، فلا يمكن أن يكون غير علي (عليه السلام).

جدير بالذكر أن صاحب «المنار» نقل عن أبي حنيفة قوله: أن الخلافة لا تليق الا بالعلويين، ومن هنا أجاز الخروج على حكومة العباسيين، ومن هنا أيضاً رفض منصب القضاء في حكومة خلفاء بني العباس.

ويقول صاحب المنار ايضاً: إن أئمة المذاهب الأربعة كانوا معارضين لحكام زمانهم، وكانوا يعتبرون أولئك الحكام غير لائقين لزعامة المسلمين، لأنهم ظالمون.^٢
ومن العجيب أن كثيراً من علماء أهل السنة في عصرنا هذا، يؤيدون ويدعمون الحكومات الظالمة المتجبرة المرتبطة ارتباطاً واضحاً جلياً بجهة الكفر العالمية، والمفسدة في الارض إفساداً لا يخفى على أحد، بل أكثر من ذلك يعتبرون هؤلاء الحكام «أولي الامر»

(١) امالي الشيخ المفيد، ومناقب ابن المغازلي، نقلاً عن الميزان، تفسير الآية المذكورة.

(٢) المنار، ج ١، ص ٤٥٧ - ٤٥٨.

ويركزون على وجوب طاعتهم!!

* * *

٧- جواب عن سؤالين

١ - قلنا في تفسير معنى الامامة أن عمل الامام هو «الايصال الى المطلوب» و «تنفيذ المناهج الالهية»، وهنا قد يقول قائل: إن هذا المعنى لم يتحقق في كثير من الانبياء، بل لم يتحقق حتى بالنسبة للنبي الخاتم (صلى الله عليه وآله) والائمة الاطهار في المقياس العام، فقد كان امامهم دوماً أفراد ضالون مضلون.

جوابا على ذلك نقول: تعريفنا لعمل الامام لايعني أن الامام يجبر الامة قسراً نحوالحق، بل ان الافراد يستطيعون - وهم مختارون - أن يهتدوا بما يمتلكه الامام من قوة ظاهرية وباطنية، على شرط امتلاك هؤلاء الافراد للياقة والاستعداد.

كقولنا ان الشمس خلقت لاستمرارحياة الموجودات الحية، أو ان المطر يعمل على احياء الارض الميتة، تأثيرالشمس والمطر له طابع عام، لكنه لا يصدق الآ في الموجودات المستعدة لقبول هذاالتأثير.

٢ - التفسير المذكور للامام يستدعي أن يكون كل إمام نبياً ورسولاً أولاً، وبعد ذلك يبلغ درجة الامامة. بينما لم يكن الخلفاء المعصومون لنبى الاسلام (صلى الله عليه وآله) كذلك .

نقول في الجواب: لا يلزم أن يكون الإمام قد بلغ حتماً منزلة النبوة والرسالة، فالذي اجتمعت فيه منزلة النبوة والرسالة والامامة (مثل النبي الخاتم) يمكن لخليفته أن يواصل طريق الإمامة، و ذلك حين تنتفي الحاجة الى رسالة جديدة كما هوالحال بعد خاتم الأنبياء.

بعبارة أخرى، حين تكون مرحلة استلام الوحي الالهي وتبليغ جميع الاحكام قد انتهت و بقيت المرحلة التنفيذية، فان خليفة النبي يستطيع أن يواصل الخط التنفيذي، ولا حاجة لان يكون هذه الخليفة نبياً أو رسولاً.

* * *

٨- شخصية إبراهيم المثالية

ورد اسم ابراهيم في ٦٩ موضعاً من القرآن الكريم، وتحدثت عنه آيات تتوزع بين خمس وعشرين سورة. والقرآن يثني كثيراً على هذا النبي الكريم ويذكره بصفات جليلة عظيمة.

إنه قدوة وأسوة في كل المجالات، ونموذج للانسان الكامل.

مكانته في سُلّم معرفة الله.. ومنطقه الصريح أمام عبدة الاوثان.. ونضاله المرير ضد الجبابرة.. و تضحياته على طريق الله، وصموده الغريب أمام عواصف الحوادث والاختبارات الصعبة.. كل واحدة من هذه الصفات تشكل النموذج الاعلى للساثرين على طريق التوحيد.

ابراهيم كما يصفه القرآن من «الْمُحْسِنِينَ»^١، و من «الصَّالِحِينَ»^٢، ومن «القانتين»^٣، و من «الصدّيقين»^٤، ومن «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ»^٥، و «من الموفين بعهدهم»^٦، ذوسخاء عظيم وشجاعة منقطعة النظير.

في تفسير سورة ابراهيم (خاصة في القسم الاخير من السورة) سنفصل الحديث في هذا المجال. (راجع المجلد العاشر من هذاالتفسير).

* * *

(١) سورة الصافات، الآية ١٠٥

(٢) سورة النحل، الآية ١٢٢.

(٣) سورة النحل، الآية ١٢٠.

(٤) سورة مريم، الآية ٤١.

(٥) سورة التوبة، الآية ١١٤.

(٦) سورة النجم، الآية ٣٧.

الآية

١٢٥ - «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ
إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَوَعَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَاسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ».

التفسير

عظمة بيت الله

بعد الإشارة الى مكانة إبراهيم في الآية السابقة، تناولت هذه الآية موضوع عظمة الكعبة التي وضع قواعدها إبراهيم، فهي تبدأ بالتذكير بعبارة «وَإِذْ» أي أذكروا: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا».

المثابة من الثوب أي عودة الشيء الى حالته الاولى. ولما كانت الكعبة مركزا يتجه اليه الموحدون كل عام، فهي محل لعودة جسمية وروحية الى التوحيد والفترة الاولى، ومن هنا كانت مثابة. وكلمة «مَثَابَةً» تتضمن معنى الراحة والاستقرار، لأن بيت الانسان - وهو محل عودته الدائم - مكان للراحة والاستقرار، وهذا المعنى تؤكد كلمة «أَمْنًا» التي تلي كلمة «مَثَابَةً» في الآية. وكلمة «لِّلنَّاسِ» توضح أنه قاعدة لأمن عام لكل العالمين ولكل الشعوب المحرومة.

وهذه الصفة للبيت هي في الحقيقة استجابة لأحد مطالب إبراهيم من ربه كما

سيأتي.

ثم تضيف الآية: «وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى».

اختلف المفسرون في معنى «مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ»، قيل أن كل الحج هو مقام إبراهيم.

وقيل أنه «عَرَفَةَ» و «المشعر الحرام» و «الجمار الثلاث»، وقيل: كل حرم مكة مقام.

وكما يبدو من ظاهر الآية أن المقام هو مقام إبراهيم المعروف الكائن قرب

الكعبة، وذهبت الى ذلك الروايات وكثير من المفسرين. وعلى الحجاج أن يصلوا خلفه بعد الطواف، ومن هنا كان هذا المقام «مصلّى».

ثم تشير الآية الى المسؤولية المعهودة الى ابراهيم وابنه اسماعيل بشأن تطهير البيت للطائفين والمجاورين والمصلين: «وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَائِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ».

وفي التطهير قيل: إنه التطهير من لوثه وجود الاصنام. وقيل: إنه التطهير من الدنس الظاهر، كالدّم وأحشاء الذبائح، التي كان يلقي بها الجهلة في البيت.

وقيل: إنه يعني اخلاص النية عند بناء البيت.

ولا دليل على تحديد مفهوم الطهارة، فهي تعني تطهير هذا البيت ظاهرياً ومعنوياً من كل تلويث.

لذلك نجد بعض الروايات فسرت التطهير في الآية بأنه تطهير الكعبة من المشركين، وبعضها بأنه تطهير البدن وازالة الادران.

* * *

وقفتان

١- الأثار الاجتماعية والتربوية للبيت الأيمن

الكعبة - طبعاً للآية أعلاه - ملاذ وبيت أمن، والاسلام وضع الاحكام المشددة بشأن ابعاد هذه الارض المقدسة عن كل نزاع واشتباك وحرب واراقة دماء. وليس افراد البشر آمنين هناك فحسب، بل الحيوانات والطيور آمنة ايضا في هذه البقعة، ولا يحق لأحد أن يمسه بسوء.

وفي عالم يعجّ دوماً بالنزاع والصراع، يستطيع مثل هذا المركز الأيمن أن يكون له الاثر العميق في حل المشاكل وفضّ النزاعات، إذ يستطيع الفرقاء المتنازعون أن يجلسوا حول طاولة واحدة عند هذا البيت الأيمن، ويفتحوا بينهم حواراً قد يكون مقدمة لازالة الخصومات والنزاعات.

وقد يتفق أن ترغب الاطراف المتنازعة في اجراء مباحثات، لكنهم لا يتفقون

على مكان مقبول ومحترم و آمن لدى جميع الاطراف، والاسلام أقر مكة لتكون مركزا كهذا.

واليوم، اذ المسلمون - مع الاسف الشديد - يعانون من الوان النزاعات والاختلافات حربيّ بهم أن يستفيدوا من قداسة هذا البيت وأمنه لفتح باب المحادثات بينهم، ولرفع ما بينهم من اختلافات بفضل معنوية هذا المكان المقدس.^١

* * *

٢- بيت الله

وصفت الكعبة بأنها بيت الله، وعبرت الآية عن الكعبة بـ «بَيْتِي». وواضح أن الله ليس بجسم ولا يحده بيت ولا يحتاج الى ذلك، وهذه الاضافة هي «اضافة تشريفية» تبين قدسية الشيء الذي ينسب الى الله، ولذلك كان شهر رمضان «شهر الله» وكانت الكعبة «بيت الله».

* * *

(١) بشأن أمن أرض مكة لنا بحث آخر في تفسير الآية ٣٥ من سورة ابراهيم. (راجع المجلد العاشر من

هذا التفسير).

الآية

١٢٦ - «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ اضْطَرَّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

التفسير

ابراهيم يدعوربه

في هذه الآية توجه ابراهيم الى ربه بطلبين هامين لسكنة هذه الارض المقدسة،
أشرنا الى أحدهما في الآية السابقة. القرآن يذكر بما قاله إبراهيم: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ
اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا».

وكما ذكرنا في الآية السابقة، استجاب الله لدعاء إبراهيم، وجعل الله هذه
الارض المقدسة مركزا آمنا بالمعنى الواسع لكلمة الأمان.
والطلب الآخر هو: «وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ».

وهكذا يطلب ابراهيم «الأمن» أولاً، ثم «المواهب الاقتصادية»، إشارة الى أنَّ
الإقتصاد السالم لا يتحقق الا بعد الأمان الكامل.

و للمفسرين آراء عديدة في معنى «الثمرات»، و يبدو أن معناها واسع يشمل
النعم المادية والنعم المعنوية. وعن الامام الصادق (عليه السلام): «هِيَ ثَمَرَاتُ
الْقُلُوبِ» إشارة الى جعل قلوب الناس تهوي الى هذه الارض.

ابراهيم في دعائه إقتصر على المؤمنين بالله واليوم الآخر، ولعل ذلك كان بعد أن
قال له الله سبحانه: «لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» ففهم أن مجموعة من ذريته سيسلكون
طريق الشرك والظلم، فاستثناهم في دعائه.

والله سبحانه استجاب لابراهيم طلبه الثاني أيضاً ولكنه «قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَمَتَّعُهُ قَلِيلًا» فِي الدُّنْيَا، «ثُمَّ اضْطَرَّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ. هذه في الواقع صفة «الرحمانية» أي صفة الرحمة العامة للباري تعالى التي تشمل كل المخلوقات، صالحهم وطالحهم. أما الآخرة فهي عالم رحمته الخاصة التي لا ينالها إلا من آمن وعمل صالحاً.

* * *

الآيات

١٢٧ - «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

١٢٨ - «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَارِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

١٢٩ - «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

التفسير

ابراهيم يبنى الكعبة

نفهم بوضوح من خلال آيات الذكر الحكيم أن بيت الكعبة كان موجودا قبل ابراهيم، وكان قائماً منذ زمن آدم. تتحدث الآية ٣٧ من سورة ابراهيم عن لسان ابراهيم تقول: «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ».

وهذه الآية تدل على أن بيت الكعبة كان له نوع من الوجود حين جاء ابراهيم مع زوجته وابنه الرضيع الى مكة.

وتقول الآية ٩٦ من سورة آل عمران: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا». ومن المؤكد أن عبادة الله واقامة أماكن العبادة لم تبدأ في زمن ابراهيم، بل كانت منذ أن خلق الانسان على ظهر هذه الارض.

وتعبير الآية الاولى من الآيات التي نحن بصدد تفسيرها يؤكد هذا المعنى، إذ تقول: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

فابراهيم واسماعيل قد رفعوا قواعد البيت التي كانت موجودة.

وفي خطبة للامام أميرالمؤمنين علي في نهج البلاغة، وهي المسماة بالقاصعة، يقول:

«أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ بِأَحْجَارٍ.. فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ... ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ (عليه السلام) وَوَلَدَهُ أَنْ يَتَشْتُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ ١...» ٢

القرائن القرآنية والروائية تؤيد أن الكعبة بنيت أولاً بيد آدم، ثم انهدمت في طوفان نوح، ثم اعيد بناؤها على يد إبراهيم واسماعيل. ٣

* * *

في الآيتين التاليتين يتضرع ابراهيم واسماعيل الى رب العالمين بخمسة طلبات هامة. وهذه الطلبات المقدسة حين الاشتغال باعادة بناء الكعبة جامعة ودقيقة بحيث تشمل كل احتياجات الانسان المادية والمعنوية، و تفصح عن عظمة هذين النبيين الكبارين.

قالا أولاً: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ».

ثم اضافة: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ».

وطلباً تفهم طريق العبادة: «وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا»، ليعبدالله حقّ عبادته.

ثم طلباً التوبة: «وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

* * *

الآية الاخيرة تضمنت الطلب الخامس، وهو هداية الذرية «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

(١) أي أن يطوفوا حوله.

(٢) نهج البلاغة صبحي صالح ص ٢٩٢ - الخطبة القاصعة

(٣) صاحب المنار ينكر هذا الموضوع بالمرة، ويرى أن إبراهيم وإسماعيل أول من بنى الكعبة، وهذا مالا

تؤيده الروايات، ولا عبارات القرآن الكريم.

وقفات

١- هدف بعثة الانبياء- في الآيات أعلاه، بعد أن يطلب إبراهيم واسماعيل من الله ظهور نبي الاسلام، يبينان ثلاثة أهداف لبعثته:

الاول، تلاوة آيات الله على الناس، أي إيقاظ الافكار والارواح في ظل الآيات الالهية المبشرة والمنذرة.

«يتلو» من تلا أي اتبع الشئ بالشئ، وسميت «التلاوة» كذلك لأنها قراءة وفق تتابع ونظم. وهي مقدمة لليقظة والاعداد والتعليم والتربية.

ثم «تعليم الكتاب والحكمة» ولا تتحقق التربية الا بالتعليم. لعل التفاوت بين «الكتاب» و «الحكمة» في أن الكتاب يعني الكتب السماوية، والحكمة تعني العلوم والاسرار والعلل والنتائج الموجودة في الاحكام، وهي التي يعلمها النبي أيضاً.

ثم يطرح الهدف الاخير وهو «التزكية»

و «التزكية» في اللغة هي الانماء، وهي التطهير أيضاً.

و بذلك يتلخص الهدف النهائي من بعثة الانبياء في دفع الانسان على مسيرة التكامل «العلمي» و «العملي».

ينبغي التأكيد هنا على أنّ علوم البشر محدودة، مقرونة بآلاف الفجوات المهمة والاطعاء الكبيرة، والانسان ايضاً لا يطمئن بدقة الى معلوماته، لأنه شاهد أخطاه و أخطاء الآخرين.

من هنا يجب أن يأتي الى الناس الانبياء، بعلومهم الحقّة الخالية من الاخطاء المستمدة من مبداء الوحي، ليزيلوا أخطاءهم، ويملاؤا فراغات جهلهم، ويبعثوا فيهم اطمئنانا بعلمهم.

ويلزم التأكيد ايضاً على أن الشخصية البشرية تتكون من «عقل» و «غرائز»، ولذلك كان الانسان بحاجة الى «التربية» بقدر حاجته الى «العلم»، وينبغي أن يتكامل عقله، وأن تتجه غرائزه نحو هدف صحيح.

لذلك فان الانبياء معلمون، و مربون، يزودون الناس بالعلم، و بالتربية.

* * *

٢ - «التعليم» مقدم أو «التربية»؟ - في أربعة مواضع ذكر القرآن مسألة التربية والتعليم باعتبارها هدف الانبياء، وفي ثلاثة مواضع منها قُدمت «التربية» على «التعليم» (البقرة، ١٥١- آل عمران، ١٦٤ - الجمعة، ٢).

وفي موضع واحد تقدم التعليم على التربية (آية بحثنا). ونعلم أن التربية لا تتم الا بالتعليم.

لذلك حين يتقدم التعليم على التربية في الآية فانما ذلك بيان للتسلسل المنطقي الطبيعي لهما. وفي المواضع التي تقدمت فيها التربية، فقد يكون ذلك اشارة الى انها الهدف، لان الهدف الاصلي هو التربية، وما عداها مقدمة لها.

* * *

٣ - النبي من الناس - تعبير «منهم» في الآية «وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ» يشير الى أن قادة البشرية ينبغي أن يكونوا بشراً بنفس صفات البشر الغربية، كي يكونوا القدوة اللائقة في الجوانب العملية. ومن الطبيعي أنهم - لو كانوا من غيرالبشر - ما استطاعوا.

* * *

الآيات

- ١٣٠ - «وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ».
- ١٣١ - «إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ».
- ١٣٢ - «وَوَصَّيْنَا بَهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ، فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ».

التفسير

ابراهيم الانسان النموذج

الآيات السابقة القت الضوء على جوانب من شخصية ابراهيم، فتحدثت عن بعض خدماته، و طلباته الشاملة للجوانب المادية والمعنوية. من مجموع مامرّ نفهم أن الله سبحانه شاء أن يكون هذا النبي، شيخ الموحدين وقدوة الرسالين، علي مرّ العصور. لذلك تقول الآية الاولى من آيات بحثنا هذا: «وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ»؟!

ليس من السفاهة أن يعرض الانسان عن مدرسة الطهر والنقاء والفضرة والعقل وسعادة الدنيا والآخرة، ويتجه الى طريق الشرك والكفر والفساد وضياع العقل والانحراف عن الفطرة وفقدان الدين والدنيا؟!

ثم تضيف الآية: «وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ». نعم، ابراهيم اصطفاه الله في الدنيا ليكون «الاسوة» و «القدوة» للصالحين.

* * *

الآية التالية تؤكد على صفة أخرى من صفات ابراهيم التي هي في الواقع أساس

بقية صفاته العظيمة وتقول: «إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ، قَالَ: أَسَلَّمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ». هذا الانسان المتحرر من الانشدادات الوضيعة يسارع الى التسليم التام حال سماعه نداء ربه: «أسلم»، ولا يتوانى في رفض كل أوهام زمانه القائمة على عبادة النجوم والشمس والقمر، فيتركها بعد أن رآها محكومة بالقوانين التي تسود الخليقة ويقول: «إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (الانعام، ٧٩).

مرّ بنا في الآيات السابقة أن ابراهيم واسماعيل بعد بناء الكعبة طلبا من الله سبحانه أن يتقبل أعمالهما، ثم بعد ذلك طلبا أن يمينّ عليهما الله بنعمة التسليم لوجهه الكريم: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ» ومثل هذا طلباه لذريتهما: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ». ذلك لأن الخطوة الاولى في سَمَوَالِشْخِصِيَةِ الانسانية الطهر والاخلاص، ومن هنا أسلم ابراهيم وجهه لربه دون سواه، فكان خليل الله وكان من المصطفين.

* * *

حياة إبراهيم بأجمعها كانت مفعمة بأعمال جسيمة نادرة، نضاله المرير ضدالمشركين، صموده الكبير في قلب النيران، هذاالصمود الذي أثار اعجاب نمرود الطاغية نفسه حيث راح يردد دون وعي: «مَنْ آتَخَذَ إِلَهًا فَلْيَتَّخِذْ إِلَهًا مِثْلَ إِلَهِ إِبْرَاهِيمَ»^١.

وكذلك اسكان الزوج والطفل الرضيع في تلك الارض الجافة القاحلة.. والمقدسة، و بناء الكعبة، وتقديم الولد على مذبح التضحية والفاء استجابة لامر الله تعالى.. كل واحدة من هذه الاعمال قمة من سلسلة قم حياة ابراهيم (عليه السلام).

* * *

ووصية إبراهيم بنيه في أواخر أيام حياته تجسيد آخر لهذه الحياة الشاخنة: «وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ».. فكل من إبراهيم ويعقوب وصيًا أبناءهما بالقول: «يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ».

لعلّ القرآن الكريم، بنقله وصية ابراهيم، يريد أن يقول للانسان إنه مسؤول عن مستقبل أبنائه، عليه أن يهتم بمستقبلهم المعنوي قبل أن يهتم بمستقبلهم المادي.

يعقوب كابراهيم وصّى أيضا أبناءه بنفس هذه الوصايا، وأكد لأبنائه أن رمز نجاحهم يتلخص في جملة واحدة هي التسليم أمام رب العالمين.

ربما يعود ذكر اسم يعقوب هنا من بين سائر الانبياء، الى أن اليهود والنصارى كانوا يعتقدون بانتسابهم الى يعقوب بشكل من الاشكال، فأرادت الآية أن توضح لهم أن خط الشرك الذي يسلكونه، لا يتناسب اطلاقا مع منهج يعقوب وهو منهج التسليم المحض أمام رب العالمين.

الآيتان

١٣٣ - «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي؟ قَالُوا: نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِيَّاهُمْ وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

١٣٤ - «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

سبب النزول

كان جمع من اليهود يعتقدون أن يعقوب عند ما حضرته الوفاة، اوصى بنيه أن يعتنقوا اليهودية (بتحريفاتها السائدة خلال عصر البعثة المباركة)، والله سبحانه انزل هذه الآية^١.

* * *

التفسير

كما رأينا في سبب النزول، و ظاهر الآية يدل على ذلك أيضاً، كان جمع من منكري الاسلام ينسبون مالا ينبغي نسبته الى النبي يعقوب، والقرآن يرد عليهم بالقول: «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ»؟! هذا الذي نسبوه اليه ليس بصحيح، بل الذي حدث آنذاك «إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ: مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي»؟ في الجواب «قَالُوا: نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِيَّاهُمْ وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

(١) تفسير ابي الفتوح الرازي، آية البحث.

من الآيّة يبدو أن قلّقا ساور يعقوب لدن أن حضرته الوفاة بشأن مستقبل أبنائه، و عبر عن قلقه هذا متسائلاً: «مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي؟» وإنما قال «مَا تَعْبُدُونَ..» ولم يقل «مَنْ تَعْبُدُونَ..» لتلوث البيئه الاجتماعية آنذاك بالشرك والوثنية، أي بعبادة الاشياء من دون الله. فاراد يعقوب أن يفهم ما في قرارة أنفس أبنائه من ميول واتجاهات، و بعد أن استمع الجواب أطمأنت نفسه.

و يلفت النظر هنا أن اسماعيل لم يكن أباً يعقوب ولا جدّه، بل عمّه، بينما الآيّة استعملت كلمة «آباء»، و يتضح من ذلك أن كلمة «الاب» تطلق أيضاً على «العم» توسعاً، ومن هنا نقول بالنسبة لآزر، الذي ذكره القرآن باعتباره والد ابراهيم، أنه لا يمنع أن يكون عمّ ابراهيم لا والده. (تأمل بدقّة).

* * *

آخر آية في بحثنا، تجيب على توهم آخر من توهمات اليهود، فكثير من هؤلاء كانوا يستندون الى مفاخر الآباء والاجداد وقرب منزلة اسلافهم من الله تعالى، فلا يرون بأساً في انحرافهم هم، ظانين أنهم ناجون بوسيلة أولئك الاسلاف. يقول القرآن: «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» .

و بذلك أرادت الآيّة أن توجه أنظار هؤلاء الى أعمالهم وسلوكهم و افكارهم، وتصرفهم عن الانغماس في الافتخار بالماضين.

هذه الآيّة - و إن اتجهت في الخطاب الى فئة معينة في عصر البعثة - تخاطب المسلمين اليوم أيضاً و تطرح أمامهم مبدأ:

ان الفتى من يقول ها أناذا ليس الفتى من يقول كان أبي

الآيات

- ١٣٥ - «وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» .
- ١٣٦ - «قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» .
- ١٣٧ - «فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» .

سبب النزول

عن ابن عباس ان جماعة من علماء اليهود ونصارى أهل نجران خاصموا أهل الاسلام، كل فرقة تقول إنها أحق بدين الله من غيرها فقالت اليهود نبينا موسى أفضل الانبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وقالت النصارى: عيسى أفضل الانبياء وكتابنا الانجيل أفضل الكتب، وكل فريق منها قال للمؤمنين: كونوا على ديننا، فانزل الله تعالى هذه الآية.

التفسير

نحن على حق لا غيرنا!

التحور والانغماس في الذاتية يؤدي الى أن يحتكر الانسان الحق لنفسه، ويعتبر الآخرين على باطل، ويسعى الى أن يجبرهم الى معتقداته.

الآية الاولى تتحدث عن مجموعة من أهل الكتاب يحملون مثل هذه النظرة الضيقة، ونقلت عنهم القول: «وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا» .

فیردّ علیهم القرآن مؤكداً أن الأديان المحرّفة لا تستطيع إطلاقاً أن تهدي الانسان
«قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَنيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

التدين الخالص هو اتباع الخط التوحيدى الخالص غير المشوب بالشرك . و رعاية
هذا الأساس أهم معيار للتمييز بين الأديان الصحيحة والأديان المنحرفة.
يعلمنا الاسلام أن لانفرق بين الرسل، وأن نحترم رسالاتهم، لان المبادئ
الاساسية للأديان الحقّة واحدة، موسى وعيسى كانا أيضاً من أتباع ملة إبراهيم .. أي من
أتباع الدين التوحيدى الخالص من الشرك ، وإن حرّف المغرضون من أتباعها ما جاء
به، وجعلوه مشوباً بالشرك .(وكلامنا هذا لا يتنافى طبعاً مع إيماننا بأن البشرية يجب أن
تتبع آخر الأديان السماوية أي الاسلام).

* * *

الآية التالية تأمر المسلمين أن «قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ
النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لَا نَفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

لا يجوز أن ننطلق من محور الذاتية في الحكم على هذا النبي أو ذاك ، بل يجب أن
ننظر الى الأنبياء بمنظار رسالي، و نعتبرهم جميعاً رسل رب العالمين ومعلّمي البشرية، قد
أدى كلّ منهم دوره في مرحلة تاريخية معينة، وكان هدفهم واحداً، وهو هداية الناس في
ظل التوحيد الخالص والحق والعدالة.

* * *

ثم يضيف القرآن قائلاً: «فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا
فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ».

ولو تخلى هؤلاء عن عنصرتهم و ذاتياتهم، و آمنوا بجميع أنبياء الله فقد اهتدوا
أيضاً، والآ فقد ضلوا سواء السبيل.

و «الشقاق» النزاع والحرب، وفسرت في الآية بالكفر والضلال، و بالابتعاد
عن الحق والاتجاه نحو الباطل، وكل هذه المعاني تعود الى حقيقة واحدة.

ذكر بعض المفسرين أن الآية السابقة التي ساوت بين عيسى وسائر الانبياء.

آثارت اعتراض جمع من النصارى وقالوا: إن عيسى ليس كسائر الانبياء، بل هو ابن الله، فنزلت هذه الآية لتؤكد على انحراف هؤلاء وأنهم في شقاق. ثم تثبت الآية على قلوب المؤمنين وتبعث فيهم الثقة والطمأنينة بالقول: «فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ» لاقوالهم «الْعَلِيمُ» بمؤامراتهم.

* * *

وقفات

١- وحدة دعوة الانبياء

في مواضع عديدة أكد القرآن على أن هدف الانبياء واحد ولا انفصال في خط النبوات، فكل الانبياء يصدرن عن منبع الوحي الالهي، ولذلك يوصى القرآن باحترام جميع الانبياء، لكن هذا لا يمنع - كما قلنا - أن تنسخ كل رسالة جديدة تنزل من الله سبحانه الرسالات السابقة، والاسلام خاتم الرسالات السماوية. أنبياء الله كالمعلمين ربى كل منهم البشرية في فصل دراسي، و بعد انتهاء المرحلة الدراسية الخاصة به يسلم المجتمع البشري الى معلم آخر ليجتاز الافراد مرحلة دراسية أعلى. ومن هنا فالمجتمع البشري مكلف بتحمل مسؤوليات ما يأتي به آخري، وهذا لا يتعارض مع كون سائر الانبياء على حق.

* * *

٢- من هم الاسباط؟

الاسباط جمع سبط، والاسباط احفاد يعقوب، وهم اثنا عشر سبطاً من اثني عشر ابناً أو انهم قبائل من بني اسرائيل والسبط في اللغة: الجماعة يرجعون الى أب واحد، والسبط في اللغة: الشجر، والاسباط الذين هم من شجرة واحدة، ويقال: سبط عليه العطاء، اذا تابع عليه حتى يصل بعضه ببعض.

المقصود من الاسباط - إذن - ليس ابناء يعقوب، فهؤلاء ارتكبوا جميعاً ذنباً بحق أخيه ولا يصلحون للنبوة، بل المقصود قبائل بني اسرائيل، أو احفاد يعقوب ممن كان لهم انبياء. ولما كان بين هؤلاء الاسباط انبياء، فالآية عدتهم بين اولئك الذين نزلت عليهم آيات الله.

٣- الحنيف

الحنيف، من مادة حَنَفَ: أى مال عن الاديان الباطلة الى الدين الحق، وبه سميت الحنيفية لانها مالت عن اليهودية والنصرانية. وعكس ذلك «جَنَفَ» أي ارتد عن الطريق المستقيم الى الانحراف.

وللمفسرين آراء في الحنيفية منها حج بيت الله، واتباع الحق، واتباع ابراهيم، والاخلاص في العمل، وكلها ترجع الى معنى عام وشامل، وما ذكره المفسرون مصاديق لذلك.

* * *

الآيات

- ١٣٨ - «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ» .
- ١٣٩ - «فُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ» .
- ١٤٠ - «أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ إِنْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَعْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» .
- ١٤١ - «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» .

التفسير

التخلي عن غير صبغة الله

بعد الدعوة التي وجهتها الآيات السابقة لإتباع الأديان بشأن إنتهاج طريق جميع الأنبياء، اول آية في بحثنا تأمرهم جميعاً بترك كل صبغة، أي دين، غير «صبغة الله»^١. ثم تضيف الآية: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً؟! أي لا أحسن من الله صبغة، «وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ» في إتباع ملة إبراهيم التي هي صبغة الله، وقيل المعنى: من نحن له عابدون يجب أن تتبع صبغته، لا ما صَيغنا عليه الآباء والاجداد.^٢ وهذا أمر القرآن بالتخلي عن الصبغات العنصرية والطائفية والذاتية وعن كل

(١) «صِبْغَةً» منصوبة على أنها مفعول مطلق لفعل محذوف أي (اصطبغوا) صبغة الله أو أنها بدل من

«ملة إبراهيم» في الآيات المتقدمة، أو مفعول به لفعل محذوف والتقدير (اتبعوا صبغة الله) والله أعلم!

(٢) مجمع البيان، الآية.

الصبغات المفرّقة، والاتّجاه نحو صبغة الله.

ذكر المفسرون أن النصارى دأبوا على غسل أبنائهم بعد ولادتهم في ماء اصفراللون، و يسمونه غسل التعميد، ويجعلون ذلك تطهيرا للمولود من الذنب الذاتي الموروث من آدم!

القرآن يرفض هذا المنطق الخاوي، و يقول من الافضل أن تتركوا هذه الصبغات الظاهرية الخرافية المفرقة، و تصطبغوا بصبغة الله، لتطهر روحيكم. ما اجهل تعبير «الصبغة» في هذه الآية! وما اروع هذه الدعوة الى الاصطباغ بصبغة الله!

لو حدث ذلك .. لو اختارت البشرية صبغة الله.. أي صبغة الطهر والتقوى والعدالة والمساواة والاخوة.. صبغة التوحيد والاحلاص.. لاستطاعت أن تستأصل جذور الشرك والنفاق والتفرقة.

وعن الامام الصادق (عليه السلام): أن «صِبْغَةَ اللَّهِ» هِيَ الْإِسْلَامُ^١، وهذا اشارة الى ما ذكرناه.

* * *

كان اليهود وغيرهم يحاجّون المسلمين بصور شتى، كانوا يقولون: إن جميع الانبياء مبعوثون منا، و إن ديننا أقدم الاديان، و كتابنا أعرق الكتب السماوية.

وكانوا يقولون: ان عنصرا ناسى من عنصر العرب، و نحن المؤهلون لحمل الرسالة لاغيرنا، لان العرب أهل اوّثان.

وكانوا يدعون أحيانا أنهم أبناء الله وأن الجنة لهم لا لغيرهم.

القرآن يرد على كل هذه الاقاويل و يقول: «أَتَحَابُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ».

فالله سبحانه ليس ربّ شعب او قبيلة معينة، انه ربّ العالمين.

واعلموا أيضاً أن لا امتياز لاحد على غيره الا بالاعمال وكل شخص رهن أعماله «وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ».
مع فارق هو إن كثيرا منكم مشركون «وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ».

* * *

الآية التالية تجيب على واحد آخر من هذه الادعاءات الفارغة وتقول: «أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُوداً أَوْ نَصَارَى؟!»
ثم تجيب الآية عن هذا الادعاء بشكل رائع فتقول: «قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ؟!»
فالله أعلم أنهم ما كانوا يهودا ولا نصارى.
وقد تعلمون انتم ايضا أن هؤلاء الانبياء ادّوا رسالتهم قبل موسى وعيسى. وان كنتم لا تعلمون فاطلاق مثل هذه الاقوال بدون علم وتثبيت تهمة و ذنب و كتمان للحقيقة «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ».
اعلموا أنه «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

حين ينتهج الانسان خط العناد واللجاج فان اعراضه عن الحقيقة لاحد له، ينكر ابسط المسلّمات، ويرفض اوضح الواضحات. والآية تذكر نموذجا لذلك في هذه المجموعة التي بلغ بها العناد واللجاج أن تعتبر انبياء الله، الذين سبقوا موسى وعيسى، من امثال ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب، من اليهود أو النصارى. و بذلك يكتمون حقيقة واضحة لها ارتباط بايمان الناس و معتقداتهم، ولذلك يصف القرآن هؤلاء الذين يكتمون الحقائق بأنهم أظلم الناس، لانه لاظلم اكبر من كتمان الحقائق عن الناس عمدا، وجرّ الآخرين الى طريق الضلال.

* * *

في آخر آية من الآيات التي نحن بصددھا يقول سبحانه هؤلاء القوم العنودين الجدليين، افترضوا أن ادعاءاتكم صحيحة، فهذا لا يعود عليكم بالنفع لانه «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ، وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».
الامة الحية ينبغي أن تعتمد على أعمالها لاعلى ذكريات تاريخها، والانسان يجب أن يستند الى فضائله لا أن يجترّ مفاخر الآباء والاجداد.

الجزء الثاني من القرآن الكريم

من الآية ١٤٢ من سورة البقرة

الآية

١٤٢ - «سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

التفسير

تغيير القبلة

هذه الآية و آيات تالية تتحدث عن حادث مهم من حوادث التاريخ الاسلامي، كان له آثاره الكبيرة في المجتمع آنذاك .
رسول الاسلام (صلى الله عليه وآله) صلى صوب (بيت المقدس) بأمر ربه مدة ثلاثة عشر عاماً بعد البعثة في مكة، وبضعة أشهر في المدينة بعد الهجرة. ثم تغيرت القبلة، وأمر الله المسلمين أن يصلوا تجاه (الكعبة).
واختلف المفسرون في المدة التي صلى خلالها المسلمون بعد الهجرة تجاه بيت المقدس، فذكروا مددا مختلفة تتراوح بين سبعة أشهر وسبعة عشر شهرا.
كانت الجماعة المسلمة تتعرض خلال كل هذه المدة (مدة صلاة المسلمين تجاه بيت المقدس) الى لوم اليهود و تقييعهم، وكان اليهود يقولون عن المسلمين: إن هؤلاء غير مستقلين لأنهم يصلون تجاه قبلتنا، وهذا دليل أننا على حق.
كانت هذه الاقوال تؤلم الرسول وصحبه، فالامر الالهي يوجب ان يصلوا تجاه بيت المقدس، واليهود لا ينفكون يرشقون المسلمين بوابل تهمهم و تقييعهم. وبلغ الامر أن الرسول (صلى الله عليه وآله) بدأ يقلب وجهه في السماء انتظارا للوحي.
واستمر الانتظار مدة، حتى نزل الوحي يأمر بتغيير القبلة، كان الرسول (صلى الله عليه وآله) في مسجد «بني سالم» يصلي الظهر، فما أن أتت ركعتين حتى أمر

جبرائيل أن يأخذ بعض الرسول و يدير وجهه تجاه الكعبة.^١
 لم يكف اليهود بعد هذا التغيير عن اعتراضاتهم، بل واصلوا حربهم الاعلامية
 بشكل آخر، بدأوا يلقون التشكيكات بشأن هذا التغيير، والقرآن الكريم يتحدث عن هذه
 الاعتراضات: «سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا».
 بدأوا يرددون: لو كانت القبلة الاولى هي الصحيحة فلِمَ هذا التغيير؟ وان كانت
 الثانية صحيحة فلماذا صلى المسلمون اكثر من ثلاثة عشر عاماً تجاه بيت المقدس؟!
 والله سبحانه يجيب على هذا الاعتراض، فامر رسوله أن «قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ
 وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».
 فليس لمكان قداسة ذاتية، انما يكتسب قداسه باذن الله، وكل مكان ملك لله،
 والمهم هو اطاعة والاستسلام لرب العالمين.
 تغيير القبلة في الواقع مرحلة من مراحل الاختبار الالهي، وكل مرحلة خطوة
 على الصراط المستقيم نحو الهداية الالهية.

* * *

وقفات

١ - «السفهاء» جمع «سفيه» اطلقت في الاصل على من خفت حركة جسمه،
 وقيل زمام سفيه أي كثير الاضطراب. ثم استعملت الكلمة في خفة النفس لنقصان
 العقل في الامور الدينية والدنيوية.

* * *

٢ - ذكرنا أن مسألة «النسخ» في الاحكام و تغيير المنهج التربوي بتغيير المراحل
 الزمانية، ليست مسألة غريبة جديدة في تاريخ الرسالات. لكن هؤلاء القوم العنودين
 الجدلين اتخذوا من هذا التغيير ذريعة لاعلامهم المضاد، و القرآن يجيبهم بشكل يفهمهم.
 ٣ - جملة «يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» لا تعني كما ذكرنا أن هداية الله ليس لها حساب،
 لأن المشيئة الالهية تنطلق من «حكمة» الله ومن محاسبات المصالح والمفاسد.

الآية

١٤٣ - « وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ
يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ
يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ
هَدَى اللَّهُ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ»

التفسير

الامة الوسط

هذه الآية تشير الى جانب من أسباب تغيير القبلة، تقول أولاً: «وَ كَذَلِكَ
جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا»، أي كما جعلنا القبلة وسطاً، كذلك جعلناكم أمة في حالة اعتدال،
لا يشوبها افراط ولا تفريط في كل جوانب حياتها.

أما سبب كون قبلة المسلمين قبلة وسطاً، فلان النصارى - الذين يعيش
معظمهم في غرب الكرة الارضية - يولون وجوههم صوب الشرق تقريباً حين يتجهون الى
قبلتهم في بيت المقدس حيث مسقط رأس السيد المسيح. واليهود - الذين يتواجدون غالباً
في الشامات وبابل - يتجهون نحو الغرب تقريباً حين يقفون تجاه بيت المقدس.

اما «الكعبة» فكانت بالنسبة للمسلمين في المدينة تجاه الجنوب، وبين المشرق
والمغرب، وفي خط وسط.

وهذا ما نفهمه من عبارة «وَ كَذَلِكَ» وان كان للمفسرين آراء أخرى في هذه
العبارة.

القرآن يؤكد أن المنهج الاسلامي في كل أبعادها - لا في بعد القبلة فقط - يقوم على
أساس التوازن والاعتدال.

والهدف من ذلك «لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا».

و «شهادة» الامة المسلمة على الناس، و «شهادة» النبي على المسلمين، قد تكون اشارة الى الأسوة والقُدوة، لان «الشهداء» ينبغي أن يكونوا من أركى الناس وامثلهم.

فيكون معنى هذا التعبير القرآني أن الامة المسلمة أمة نموذجية بما عندها من عقيدة ومنهج، تماما ككون النبي فردا نموذجياً بين ابناء الامة.

الامة المسلمة بعملها وبتطبيقها المنهج الاسلامي تشهد أن الانسان بمقدوره أن يكون رجل دين ورجل دنيا، مع أن يكون انسانا يعيش في خضم الاحداث الاجتماعية وفق معايير روحية ومعنوية. الامة المسلمة بمعتقداتها ومناهجها تشهد بعدم وجود أي تناقض بين الدين والعلم، بل إن كلا منهما يخدم الآخر.

ثم تشير الآية الى واحد آخر من أسرار تغيير القبلة فتقول: «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لَتَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلٰى عَقْبَيْهِ».

الآية لم تقل يتبع بل قالت «يَتَّبِعُ الرَّسُولَ» اشارة الى أن هذا الاتباع انما هو تسليم لأمر الله، وكل اعتراض على ذلك انما هو عصيان وتمرد على الله، ولا يصدر ذلك الا عن مشرك جاهلي.

و عبارة «مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلٰى عَقْبَيْهِ» تعني في الاصل الرجوع على مؤخر الرجل، و تعني هنا الانتكاس والتراجع.

ثم تضيف الآية: «وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ».

لولا الهداية الالهية، لما وجدت في نفس الانسان روح التسليم المطلق أمام أوامر الله. المهم أن يكون الانسان المسلم مستسلما الى درجة لا يحس معها بثقل مثل هذه الأوامر، بل يشعر بلذتها وحلاوتها.

وامام وسوسة الاعداء المضللين والاصدقاء الجاهلين، الذين راحوا يشككون في صحة ما سبق من العبادات قبل تغيير القبلة، تقول الآية: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ».

فأوامر الله مثل وصفات الطبيب لكل مرحلة من مراحل العلاج نسخة خاصة، وكلها شافية وافية تضمن سعادة الانسان وسلامته، والعمل بأجمعها صحيح لا غبار عليه.

وقفات

١- اسرار تغيير القبلة

تغيير القبلة من بيت المقدس الى الكعبة أثار لدى الجميع تساؤلات عديدة، أولئك الذين قالوا ان الاحكام ينبغي أن تبقى ثابتة راحوا يتساءلون عن سبب هذا التغيير، فلو كانت القبلة الصحيحة هي الكعبة، فلماذا لم يؤمر المسلمون بالصلاة نحوها منذ البدء، وإن كانت بيت المقدس فليَم هذا التغيير؟!

و أعداء الاسلام وجدوا الفرصة سانحة لبث سمومهم ولاعلامهم المضادة. قالوا إن تغيير القبلة تم بدافع عنصري، وزعموا أن النبي اتجه أولاً الى قبلة الانبياء السابقين، ثم عاد الى قبلة قومه بعد تحقيق انتصاراته! وقالوا: إن محمداً (صلى الله عليه وآله) أراد استعفاف أهل الكتاب بانتخابه بيت المقدس قبلة له، ولمائس منهم استبدل الكعبة بها. واضح مدى القلق والاضطراب الذي تتركه هذه الوسوس على مجتمع لم يتغلغل نور العلم والايان في كل زواياه، ولم يتخلص بعد تماماً من رواسب الشرك والعصبية. لذلك تصرّح الآية أعلاه أن تغيير القبلة اختبار كبير لتمييز المؤمنين من المشركين. لا نستبعد أن يكون أحد أسباب تغيير القبلة مايلي:

لما كانت الكعبة في بداية البعثة المباركة بيتاً لاصنام المشركين، فقد أمر المسلمون مؤقتاً بالصلاة تجاه بيت المقدس، ليتحقق الانفصال التام بين الجبهة الاسلامية وجبهة المشركين.

و بعد الهجرة واقامة الدولة الإسلامية والمجتمع الاسلامي، حدث الانفصال الكامل بين الجبهتين، ولم تعد هناك ضرورة لاستمرار وضع القبلة، حينئذ عاد المسلمون الى الكعبة أقدم قاعدة توحيدية، وأغرق مركز للانبياء.

ومن الطبيعي أن يستثقل الصلاة نحو بيت المقدس لأولئك الذين كانوا يعتبرون الكعبة الرصيد المعنوي لقوميتهم، وأن يستثقلوا أيضاً العودة الى الكعبة بعد أن إعتادوا على قبلتهم الاولى (بيت المقدس).

المسلمون بهذا التحول وُضعوا في بوتقة الاختبار، لتخليصهم مما علّق في نفوسهم

من آثار الشرك ، و لتقطع كل انشاداتهم بماضيهم المشرك ، و لتنمو في وجودهم روح التسليم المطلق أمام أوامر الله سبحانه .
 إن الله سبحانه ليس له مكان ومحل - كما ذكرنا - والقبلة رمز لوحدة صفوف المسلمين ولاحياء ذكريات خط التوحيد، وتغييرها لا يغير شيئاً، المهم هو الاستسلام الكامل أمام الله، وكسر أوثان التعصب واللجاج والاناية في النفوس .

٢- الامة الوسط

«الوسط» ما توسط بين شيئين، و بمعنى الجميل والشريف، والمعنيان يعودان ظاهراً الى حقيقة واحدة لان الجمال والشرف فيما اعتدل وابتعد عن الإفراط والتفريط .
 ما أجمل التعبير القرآني عن الامة المسلمة .. الامة الوسط .
 الوسط: المعتدلة في «عقيدتها»، لا تسلك طريق «الغلو» ولا طريق «التقصير والشرك»، لا تنحومنحى «الجبر» ولا «التفويض»، لا تؤمن «بالتشبيه» في صفات الله ولا «بالتعطيل» .

معتدلة في قيمها المادية والمعنوية، لا تغط في عالم المادة و تنسى المعنويات، ولا تغرق في المعنويات و تنسى الماديات . ليست كمعظم اليهود لا يفهمون سوى المادة، وليست كرهبان النصارى يتركون الدنيا تماما .

معتدلة في الجانب العلمي .. لا ترفض الحقائق العلمية، ولا تقبل كل نعمة ترتفع باسم العلم . معتدلة في علاقاتها الاجتماعية .. لا تضرب حولها حصارا يعزلها عن العالم، ولا تفقد استقلالها وتذوب في هذه الكتلة أوتلك ، كما نرى الذائبين في الشرق والغرب اليوم !

معتدلة في سلوكها الاخلاقي .. في عباداتها .. في تفكيرها .. وفي جميع أبعاد حياتها .
 المسلم الحقيقي لا يمكن اطلاقاً أن يكون انسانا ذا بعد واحد، بل هو انسان ذو أبعاد مختلفة .. مفكر، مؤمن، عادل، مجاهد، مكافح، شجاع، عطوف، واع، فعال، ذوسماح .

عبارة الأمة الوسط توّضح من جانب مسألة شهادة الامة الاسلامية، لأن من يقف على خطّ الوسط يستطيع أن يشهد كل الخطوط الانحرافية المتجهة نحو اليمين واليسار .
 ومن جانب آخر تحمل العبارة دليلاً وتقول: إِنَّمَا كُنْتُمْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ

لَأَتَّكُم مَّعْتَدِلُونَ وَأَنْكُمْ أُمَّةٌ وَسَطٌ^١.

* * *

٣- الامة الشاهدة

لو اجتمعت الصفات التي ذكرناها للامة الوسط في امة، فهذه الامة دون شك رائدة للحق، وشاهدة على الحقيقة، لان مناهجها تشكل الميزان والمعيار تمييز الحق عن الباطل. ورد عن ائمة أهل البيت (عليهم السلام) قولهم: «نَحْنُ الْأُمَّةُ الْوَسْطَى، وَنَحْنُ شُهَدَاءُ اللَّهِ عَلَيَّ خَلْقِهِ وَحُجَجُهُ فِي أَرْضِهِ... نَحْنُ الشُّهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ... إِنَّا يَرْجِعُ الْغَالِي وَبِنَا يَرْجِعُ الْمُقْصِرُ»^٢ مثل هذه الروايات - كما ذكرنا - لا تحدد المفهوم الواسع للآية، بل تبين المصداق الامثل للامة الوسط، وتعطي نموذجاً متكاملأ لها.

* * *

٤- علم الله

عبارة «لَتَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ...» وامثالها من التعبيرات القرآنية، لا تعني أن الله لم يكن يعلم شيئاً، ثم علم به بعد ذلك، بل تعني تحقق هذه الواقعيات. بعبارة اوضح، الله سبحانه يعلم منذ الازل بكل الحوادث والموجودات، وان ظهرت بالتدرج على مسرح الوجود. فحدوث الموجودات والاحداث لا يزيد الله علماً، بل إن هذا الحدوث تحقق لما كان في علم الله. وهذا يشبه علم المهندس بكل تفاصيل البناء عند وضعه التصميم. ثم يتحول التصميم بالتدرج الى بناء عملي. والمهندس يقول حين ينقذ تصميمه على الارض: أريد أن أرى عملياً ما كان في علمي نظرياً. (علم الله يختلف دون شك عن علم البشر اختلافاً كبيراً كما ذكرنا ذلك في بحث صفات الله، وانما ذكرنا هذا المثال للتوضيح).

عبارة «وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ»، توضح حقيقة الصعوبة في مخالفة العادة الجارية، و في التخلص من سيطرة العواطف غير الصحيحة، الا على الذين آمنوا بالله حقاً، واستسلموا لأوامره.

(٢) نورالثقلين، ج ١، ص ١٣٤.

(١) المنار، تفسير الآية المذكورة.

الآية

١٤٤ - «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ».

التفسير

كل الوجوه شطر الكعبة

ذكرنا أن بيت المقدس كان القبلة الأولى الموقته للمسلمين. والرسول (صلى الله عليه وآله) كان ينتظر الامر الالهي بتغيير القبلة، خاصة وان اليهود استغلوا مسألة اشتراك المسلمين معهم في القبلة، ليوجهوا سهام اعلامهم المضاد للمجموعة المسلمة، مرددين أن المسلمين لا استقلال لهم، وانهم لا يعرفون معنى القبلة وانما اقتبسوه متا، وأن قبولهم قبلتنا يعني اعترافهم بديننا! وامثال هذه الاقاويل.

الآية تشير الى هذه المسألة وتقول:

«قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ».

ذكرت الرواية - كما أشرنا من قبل - أن هذا الأمر الالهي نزل في لحظة حساسة ملفتة للانتظار، حين كان الرسول والمسلمون يؤدون صلاة الظهر. فأخذ جبرائيل بذراع الرسول (صلى الله عليه وآله) و أدار وجهه نحو الكعبة. و تذكر الرواية أن صفوف المسلمين تغيرت على أثر ذلك وترك النساء مكانهن للرجال وبالعكس. (كان اتجاه بيت المقدس نحو الشمال تقريبا، بينما كان اتجاه الكعبة نحو الجنوب)

من المفيد أن نذكر أن تغيير القبلة من علامات نبي الاسلام المذكورة في الكتب السابقة. فقد كان أهل الكتاب على علم بأن النبي المبعوث «يصلّى الى القبلتين».

لذلك تضيف الآية: «وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ». أضف الى ذلك أن من دلائل نبوة رسول الاسلام، تحرره من التأثير بعبادات بيئته الاجتماعية، وتركه الكعبة التي كانت موضع تقديس العرب، واتجاهه نحو قبلة أقلية محدودة.

ثم تقول الآية: «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ».

فهؤلاء الذين يكتُمون ما جاء في كتبهم بشأن تغيير قبلة نبي الاسلام، ويستغلون هذه الحادثة لأثارة ضجة بوجه المسلمين، بدل أن يتخذوها دليلاً على صدق دعوى النبي، سيلاقون جزاء أعمالهم، والله ليس بغافل عن أعمالهم ونياتهم.

* * *

وقفات

١- نظم الآيات

محتوى هذه الآية يبين بوضوح أنها نزلت قبل الآية التي سبقتها في الترتيب القرآني. ذلك لأن القرآن لم تجمع آياته حسب نزوله، بل كان ترتيب الآيات يتم استناداً الى دلائل معينة بتعيين من رسول الله وبأمر من الباري سبحانه. (ومن الدلائل مثلاً رعاية الاولوية واهمية الموضوعات).

* * *

٢- انتظار صعب!

يستفاد من هذه الآية أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان مرتبطاً بالكعبة ارتباطاً خاصاً، ومنتظراً لأمر تغيير القبلة، ولعلنا نستطيع أن نتلمس سبب ذلك في ارتباط النبي (صلى الله عليه وآله) بابراهيم (عليه السلام) أضف الى ذلك أن الكعبة أقدم قاعدة توحيدية، وأنه كان يعلم بوقوع هذا التغيير، وكان يتربص حدوثه.

وهنا تبرز ظاهرة الاستسلام المطلق للرسول، حيث لم يتردد على لسانه طلب بهذا الشأن، بل كان يقلب طرفه في السماء منتظراً بتلقف نزول الوحي.

وتعبير «السماء» في الآية قد يشير الى انتظاره هبوط «جبرائيل» من الاعلى، والآ

فإنه لا مكان له، وهكذا وحيه المرسل.

٣- معنى الشطر

يثير الالتفات أن الآية لم تأمر المسلمين أن يصلوا تجاه الكعبة بل «شطر المسجد الحرام».

لعل ذلك يعود الى صعوبة بل تعذر محاذاة الكعبة على المصلين البعيدين عن الكعبة. لذلك ذكر المسجد الحرام بدل الكعبة لانه أوسع. ثم كلمة «شطر» تعني سمت والجانب، وبذلك كان الاتجاه شطر المسجد الحرام عملاً ميسوراً للجميع، وخاصة لصفوف الجماعة الطويلة التي يزيد طولها غالباً على طول الكعبة.

بديهي أن المحاذاة الدقيقة للكعبة - وحتى للمسجد الحرام - عمل صعب على المصلين البعيدين، لكن الوقوف شطره يخلو من كل صعوبة.^١

٤- خطاب عام

كل خطابات القرآن هي دون شك - شاملة لكل المسلمين - وان اتجهت الى النبي (صلى الله عليه وآله) (اللهم إلا في مواضع دل الدليل على أنها خاصة بالنبي)، من هنا يطرح سؤال بشأن سبب اتجاه الآية التي نحن بصددتها في الخطاب الى النبي تارة تأمره أن يصلي شطر المسجد الحرام، وتارة اخرى الى عامة المسلمين.

هذا التكرار قد يعود الى أنّ تغيير القبلة مسألة مثيرة حساسة. ومن الممكن أن تؤدي الضجة التي تثيرها هذه المسألة الى اضطراب بين المسلمين، وقد يتذرع بعض في وسط هذه الضجة بأن الخطاب موجه الى النبي، فلا يصلي تجاه الكعبة. لذلك خاطبت الآية الرسول مرة وعامة المسلمين مرة أخرى لتؤكد أن هذا التغيير غير خاص بالرسول بل يشمل عامة المسلمين أيضاً.

(١) من المفسرين من قال إن أحد معاني «شطر»: النصف، ومن هنا فإن مفهوم «شطر المسجد الحرام»

يساوي مفهوم «وسط المسجد الحرام»، ونعلم أن الكعبة تقع وسط المسجد الحرام. (التفسير الكبير، الفخر الرازي، الآية المذكورة).

٥- هل الهدف من هذا التغيير تحقيق رضا النبي؟

عبارة «قِبْلَةً تَرْضَاهَا» قد توهم أن هذا التغيير تم إرضاءً للنبي، ويزول هذا التوهم لو علمنا أن بيت المقدس كان قبلة موقته، وأن النبي كان ينتظر القبلة النهائية، و بصدور أمر التغيير وضع حدٌ لطعن اليهود، وتوفرت ارضية استمالة أهل الحجاز المرتبطين ارتباطاً خاصاً بالكعبة نحو الاسلام، كما ان اعلان القبلة الاولى فصل الاسلام عن الطابع القومي، وأسقط الأصنام المتواجدة في الكعبة.

* * *

٦- الكعبة مركز دائرة كبرى

لو نظر شخص من خارج الكرة الارضية الى المصلين المسلمين لرأى دوائر متعدّدة بعضها داخل بعض و تضيق بالتدرّج لتصل الى المركز الاصيلي المتمثل بالكعبة. وهذه الصورة توضح محورية ومركزية بيت الله الحرام. وهذه ظاهرة متميزة في الاسلام دون سواه من الأديان.

جدير بالذكر أن ضرورة اتجاه المسلمين شطر المسجد الحرام كان باعثاً على تطور الهيئة وعلم الجغرافيا والفلك عند المسلمين بسرعة مدهشة خلال العصور الاسلامية الاولى، لتطلب حساب السمات هذه العلوم.

* * *

الآية

١٤٥ - «وَلَكِنَّ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ، وَ
مَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ، وَلَكِنَّ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ»

التفسير

لا يرضون بأيّ ثمن

مرّ بنا في تفسير الآية السابقة أن تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة لا
يمكن أن يثير شبهة حول النبي، بل انه من دلائل صحة دعواه، فاهل الكتاب قد قرأوا عن
صلاة النبي الموعود إلى قبلتين، لكن تعصبهم منعهم من قبول الحق.
والانسان، حين لا يواجه المسائل بذهنية مسبقة، قابل للتفاهم ولتصحيح
مفاهيمه بالدليل والمنطق أو عن طريق اراءة المعجزة.
أما حينما يكون قد كوّن له رأياً مسبقاً قاطعاً، وخاصة حين يكون مثل هذا الفرد
جاهلاً متعصباً، فلا يمكن تغيير رأيه بأي ثمن.

لذلك تقول الآية: «وَلَكِنَّ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ» .
فلا تتعب نفسك إذن، لان هؤلاء يأبون الاستسلام للحق، ولا توجد فيهم
روح طلب الحقيقة.

كل الأنبياء واجهوا مثل هؤلاء الافراد، وهم إما أثرياء متنفذون، أو علماء
منحرفون، أو جاهلون متعصبون.

ثم تضيف الآية: «وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ» .

أي إن هؤلاء لا يستطيعون مها افتعلوا من ضجيج، أن يغيروا مرة أخرى قبلة
المسلمين، فهذه هي القبلة الثابتة النهائية.

وهذا التعبير القاطع الحاسم أحد سبل الوقوف بوجه الضجيج المفتعل، ومن الضروري في مثل هذه الظروف أن يعلن الانسان المسلم أمام الاعداء كلمته صريحة قوية، مؤكداً أنه لا ينثني أمام هذه الانفعالات.

ثم تقول الآية: «وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ».

لا النصرارى يتابعين قبلة اليهود، ولا اليهود يتابعين قبلة النصرارى.

ولزيد من التأكيد والحسم يندر القرآن النبي ويقول: «وَلَكِنَّ أَتَّبَعْتِ أَهْوَاءَهُمْ

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ».

وفي القرآن يكثر مثل هذا اللون من الخطاب التهديدي للنبي بأسلوب القضية

الشرطية، والهدف من ذلك ثلاثة اشياء:

الأول - أن يعلم الجميع عدم وجود أي تمييز بين الناس في اطار القوانين الالهية،

وحتى الانبياء مشمولون بهذه القوانين. ومن هنا فلو صدر عن النبي - على الفرض المحال -

انحراف، فسيشمله العقاب الالهي، مع استحالة صدور ذلك عن النبي (بعبارة اخرى

القضية الشرطية لا تدل على تحقق الشرط).

الثاني - أن يتنبه الناس الى واقعهم، فاذا كان ذلك شأن النبي، فمن الاولى أن

يكونوا هم ايضاً واعين لمسؤولياتهم، وان لا يستسلموا اطلاقاً لميول الاعداء وضجائهم

المفتعلة.

الثالث - ان يتضح عدم قدرة النبي على تغيير احكام الله، وعدم إمكان الطلب

اليه أن يغير حكماً من الاحكام، فهو عبد أيضاً خاضع لامرالله تعالى.

* * *

الآيتان

١٤٦ - «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ، وَ
إِنَّ قَرِيبًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» .
١٤٧ - «الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ»

التفسير

يعرفون حق المعرفة ولكن ...

استمراراً لحديث القرآن عن تعصب مجموعة من أهل الكتاب ولجاجهم، تقول
الآية: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ»
انهم يعرفون النبي واسمه وعلاماته من خلال كتبهم الدينية، «وَإِنَّ قَرِيبًا مِنْهُمْ
لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

وهناك طبعاً فريق سارع لاعتناق الاسلام بعد أن رأى هذه الصفات والعلامات
في نبي الاسلام، مثل عبدالله بن سلام وهو من علماء اليهود، ونقل عنه بعد اسلامه قوله:
«انا أعلم به مني بابني»^١.

هذه الآية تميّط اللثام في الواقع عن حقيقة هامة، هي إن صفات نبي الاسلام
الجسمية والروحية وخصائصه كانت بقدر من الوضوح في الكتب السماوية السابقة،
بحيث ترسم الصورة الكاملة له في أذهان المطلعين على هذه الكتب.

وهل من الممكن أن تصرح الآية بوجود اسم النبي وعلاماته في كتب أهل
الكتاب، اذا لم تكن بالفعل موجودة عندهم؟! ألا يدل عدم معارضة علماء اليهود
لهذا التصريح، بل اعتراف بعضهم به واستسلامهم للحق، أن اسم النبي الخاتم وصفاته

(١) المنار، ج ٢، والتفسير الكبير للفخر الرازي.

كانت معروفة لديهم!؟

هذه الآيات - إذن - دليل على صدق دعوة الرسول وصحة نبوته.

* * *

ثم تؤكد الآية ما سبق أن طرحته بشأن تغيير القبلة، أو بشأن احكام الاسلام بشكل عام: «أَلْحَقْ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» أي المترددين. وهذه العبارة تثبت الآية على قلب النبي، وتنهاه عن أي ترديد أمام افتراءات الاعداء بشأن تغيير القبلة وغيرها، وان جند هؤلاء الاعداء كل طاقتهم للمحاربة. المخاطب في الآية شخص النبي (صلى الله عليه وآله)، ولكن الهدف هو تربية البشرية كما ذكرنا من قبل، فن المؤكد أن النبي المتصل بالوحي الالهي لا يعتره تردد، لان الوحي بالنسبة له ذو جانب حسى وعين اليقين.

* * *

الآية

١٤٨ - «وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيْهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

التفسير

لكل أمة قبلة

هذه الآية الكريمة ترد على الضجة التي أثارها اليهود حول تغيير القبلة وتقول: «وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيْهَا».

كان للأنبياء على مر التاريخ وجهات عديدة يولونها، وليست القبلة كاصول الدين لا تقبل التغيير، ولا امراً تكوينياً لا يمكن مخالفته، فلا تطيلوا الحديث في أمر القبلة وبدل ذلك «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ»، لان معيار القيمة الوجودية للانسان هي أعمال البر والخير.

مثل هذا المعنى تضمنته الآية ١٧٧ من هذه السورة: «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ».

ان كنتم تريدون اختبار المسلمين، فاخبروهم بهذا الايمان لا بمسألة تغيير القبلة. ثم تتغير لهجة الآية الى نوع من التحذير والتهديد لاولئك المفترين والتشجيع للمحسنين فتقول: «أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً» في تلك المحكمة الكبرى حيث يتلقى كل جزاء عمله.

لا يتساوى المفترون المشاغبون المحربون مع المحسنين المؤمنين، ولا بد من يوم ينال كل فريق جزاءه.

وقد يخال بعض أن جمع الناس لمثل هذا اليوم عجيب، فكيف تجتمع ذرات

التراب المتناثرة لترتدي ثانية حلّة الحياة؟! لذلك تحجب الآية بالقول: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيُّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»

هذه العبارة الاخيرة في الآية بمثابة الدليل على العبارة السابقة: «أَيَّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا».

* * *

وقفتان

١- يوم يجتمع أصحاب المهدي (عليه السلام)

ورد عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في تفسير «أَيَّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا» أن المقصود بهم أصحاب المهدي (عليه السلام).

من ذلك ماورد في «روضة الكافي» عن «الامام الباقر» (عليه السلام) أنه تلا الفقرة المذكورة من الآية ثم قال: «بِعْنِي أَصْحَابَ الْقَائِمِ الثَّلَاثِمِائَةِ وَالْبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، وَهُمْ وَاللَّهِ الْأُمَّةُ الْمَعْدُودَةُ، قَالَ: يَجْتَمِعُونَ وَاللَّهِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ قَرَعَ كَقَرَعِ الْخَرِيفِ»^٢.

وروي عن الامام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) ايضاً: «وَذَلِكَ وَاللَّهِ أَنْ لَوْ قَامَ قَائِمُنَا يَجْمَعُ اللَّهُ إِلَيْهِ جَمِيعَ شَيْعَتِنَا مِنْ جَمِيعِ الْبُلْدَانِ»^٣.

هذا التفسير للآية دون شك يتحدث عن «بطن» الآية، والأحاديث ذكرت أن لكلام الله ظاهراً لعامة الناس، وباطناً لخاصتهم.

بعبارة أخرى: هذه الروايات تشير الى حقيقة، هي إن الله القادر على أن يجمع الناس من ذرات التراب المتناثرة في يوم القيامة، لقادر على أن يجمع اصحاب المهدي في ساعة بسهولة، من أجل انقذاح الشرارة الاولى للثورة العالمية الرامية الى اقامة حكم الله على ظهر الارض، وازالة الظلم والعدوان عن وجهها.

* * *

(١) أي يجتمعون كاجتماع قطع السحب الخريفية لدى هبوب الريح.

(٢) نورالتقلين، ج ١، ص ١٣٩.

(٣) مجمع البيان، الآية.

٢ - عبارة «وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا» فسرناها سابقا بانها اشارة للقبليات المتعددة للامم. ومن المفسرين من توسع في المعنى وقال انها تعبر عن القضاء والقدر التكوينيين أيضا (تأمل بدقة)^١.

ولو خلت الآية مما يحيطها من قرائن قبلها وبعدها لأمكن مثل هذا التفسير، لكن القرائن تدل على أن المراد هو المعنى الاول. ولو افترضنا أن الآية تشير الى المعنى الثاني، فلا تعني اطلاقا القضاء والقدر الجبريين، بل القضاء والقدر المنسجمين مع الارادة والاختيار.^٢

* * *

(١) تفسير الميزان، ج ١، ص ٣٣١.

(٢) لمزيد من التوضيح راجع (انگیزه پیدایش مذهب) = دافع وجود الدين، فصل القضاء والقدر.

الآيتان

١٤٩ - «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

١٥٠ - «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا يَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

التفسير

فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي

هذه الآيات تتابع الحديث عن مسألة تغيير القبلة ونتائجها. الآية الاولى تأمر النبي (صلى الله عليه وآله) وتقول: «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ».. من أية مدينة و أية ديار «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ».. ولزيد من التأكيد تقول الآية: «وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ».. وتنتهي الآية بتهديد المتأمرين: «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».. هذه التأكيدات المتوالية في الآية وفي الآية التالية تبين أن مسألة تغيير القبلة كانت صعبة و ثقيلة على مجموعة من المسلمين حديثي العهد بالاسلام، كما كانت ذريعة بيد أعداء الاسلام اللجوجين لبث سمومهم.

مثل هذه الحالة تتطلب دائماً موقفاً قاطعاً حاسماً ينهي كل شك وريبة، من هنا توالت التأكيدات القرآنية الفارعة، لتبعث العزم واليقين في نفوس الاتباع، وتعمق اليأس والحجية بين الأعداء. وهذا اسلوب اتبعه القرآن في مواقف عديدة. اضافة الى ماسبق، فالتكرار في هذه الآيات يتضمن أيضاً أحكاماً جديدة. على سبيل المثال، الآيات السابقة وضحت حكم القبلة في المدينة التي يسكنها المسلمون. وهذه

الآية والآية التالية أوضحت الحكم لدى السفر والخروج من المدن والديار.

الآية التالية كررت الحكم العام بشأن التوجه الى المسجد الحرام في أي مكان:
«وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ».

صحيح أن هذه العبارة القرآنية تخاطب النبي (صلى الله عليه وآله)، لكنها تقصد دون شك مخاطبة عامة المسلمين، ولزيد من التأكيد تخاطب الجملة التالية المسلمين وتقول: «وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ».

ثم تشير الآية الى ثلاث مسائل هامة:

١ - الجاه المعارضين - تقول الآية: «لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ».

قبل تغيير القبلة كانت السنة المعارضين من اليهود والمشركون تقذف المسلمين بالتهم والحجج، اليهود يعترضون قائلين: إن النبي الموعود يصلي الى قبلتين، وليس هذه العلامة وجود في محمد (صلى الله عليه وآله)، والمشركون يعترضون على النبي (صلى الله عليه وآله) قائلين: كيف ترك محمد الكعبة وهو يدعي أنه بعث لإحياء ملة ابراهيم. هذا التغيير أنهى كل هذه الاعتراضات.

لكن هذا لا يمنع الافراد اللجوجين المعاندين أن يصروا على مواقفهم وأن يرفضوا كل منطوق لذلك تقول الآية «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ».

فهؤلاء لا يستقيمون على طريق، حتى اتجهتم صوب بيت المقدس للصلاة اتهموكم بالذيلية وعدم الاصاله، وحين عدلتم الى الكعبة وصفوكم بعدم الثبات! هؤلاء المفترون ظالمون حقا... ظالمون لانفسهم، وظالمون لمن يقطعون عليه طريق الهداية.

٢ - حين وصفت الآية هؤلاء المعاندين أنهم ظالمون، فقد يثير هذا الوصف خوفا في نفوس البعض لذلك قالت الآية: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي».

وهذه الفقرة من الآية تطرح اصلا عاما أساسيا من أصول التربية التوحيدية الاسلامية، هو عدم الخوف من أي شيء سوى الله (أو بعبارة أصح الخوف فقط من معصية الله)، واذا ترسخ هذا المبدأ التربوي في نفوس الجماعة المسلمة فلن تفشل ولن

تنهزم قط.

أما المتظاهرون بالاسلام فهم يخافون من «الشرق» تارة، ومن «الغرب» تارة أخرى، ومن «المنافقين الداخلين» ومن «الاعداء الخارجيين» ومن كل شيء سوى الله. وهؤلاء دائماً أذلاء ضعفاء مهزومون.

٣ - و آخر هدف ذكر لتغيير القبلة هو اتمام النعمة: «وَلَا يُمَنِّعُ عَلَيْنَا وَمَا نَعْلَمُكُمْ تَهْتَدُونَ».

تغيير القبلة كان في الواقع نوعاً من التربية والتكامل والنعمة للمسلمين كي يتعرفوا على الانضباط الاسلامي ويتخلصوا من التقليد والتعصب، فالله سبحانه أمر المسلمين في البداية أن يصلوا تجاه بيت المقدس كي تنعزل صفوف المسلمين - كما قلنا - عن صفوف المشركين الذين كانوا يقدسون الكعبة. وبعدها هجرة و اقامة الدولة الاسلامية صدر الامر بالصلاة نحو الكعبة... نحو اقدم بيت توحيد، وبذلك تحقق اجتياز مرحلة من مراحل تكامل المجتمع الاسلامي.

* * *

الآيتان

- ١٥١ - «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَ
يُزَكِّيْكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ»
١٥٢ - «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ»

التفسير

مهمة رسول الله

ذكرت الفقرة الأخيرة من الآية السابقة أن أحد أسباب تغيير القبلة هو إتمام
النعمة على الناس وهدايتهم، والآية أعلاه ابتدأت بكلمة «كما» إشارة الى أن تغيير القبلة
ليس هو النعمة الوحيدة التي انعمها الله عليكم، بل منّ عليكم بنعم كثيرة «كَمَا أَرْسَلْنَا
فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ».

وكلمة «منكم» قد تعني أن الرسول بشرٌ مثلكم، والانسان وحده هو القادر على
أن يكون مربّي البشر وقدوتهم وأن يتحسس آمالهم وآلامهم، وتلك نعمة كبرى أن يكون
الرسول بشراً «مِنْكُمْ».

وقد يكون المعنى أنه من بني قومكم ووطنكم، فالعرب الجاهليون قوم متعصبون
عنصريون، وما كان بالامكان أن يخضعوا لنبي من غير قومهم، كما قال سبحانه في
الآيتين: ١٩٨ و ١٩٩ من سورة الشعراء: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ
مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ».

كان هذا طبعاً للمرحلة الأولى من الدعوة، وفي المراحل التالية ألغيت مسائل
العنصر والوطن (الجغرافي)، و ربّي الاسلام أبنائه على أساس مبادئ «العالمية» و
«الانسانية».

بعد ذكر هذه النعمة يشير القرآن الى أربع نعم عادت على المسلمين ببركة

هذا النبي:

١- «يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا»، و يتلوهن التلاوة، أي من إتيان الشيء متواليًا، والإتيان بالعبارات متوالية (و بنظام صحيح) هي التلاوة.
النبي إذن يقرأ عليكم آيات الله متتالية، لتنفذ الى قلوبكم، ولأعداد أنفسكم الى التعليم والتربية.

٢- «وَيُزَكِّيْكُمْ»

و «التزكية» هوالزيادة والانماء. أي إن النبي بفضل آيات الله يزيدكم كما لأ ماديًا ومعنويًا، و يتمي أرواحكم، و يربي في أنفسكم الطهر والفضيلة، و يزيل ألوان الرذائل التي كانت تغمر مجتمعكم في الجاهلية.

٣- «وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»

التعليم طبعًا مقدم بشكل طبيعي على التربية، ولكن القرآن - كما ذكرنا - يقدم التربية في مواضع تأكيديًا على أنها هي الهدف النهائي.

الفرق بين «الكتاب» و «الحكمة» قد يكون بلحاظ أن الكتاب إشارة الى آيات القرآن والوحي الالهي النازل على النبي بشكل إعجازي، والحكمة حديث النبي وتعاليمه المسماة بالسنة.

وقد يكون الكتاب إشارة الى أصل التعاليم الاسلامية والحكمة إشارة الى أسرارها وعللها ونتائجها.

ومن المفسرين من احتمال أن «الحكمة» إشارة الى الحالة والملكة الحاصلة من تعاليم الكتاب. وبامتلاكها يستطيع الفرد أن يضع الأمور في نصابها.^١

صاحب «المنار» يرفض أن يكون معنى الحكمة «السنة»، و يستدل على رفضه بالآية الكريمة «ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ» (الاسراء، ٣٩).

لكننا نعتقد أن الحكمة لها معنى واسع يشمل الكتاب والسنة معًا، أما استعمالها القرآني مقابل «الكتاب» (كما في هذه الآية) فيشير الى أنها «السنة» لاغير.

٤ - «وَيَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ» وهذا الموضوع طرحته الفقرات السابقة من الآية، حيث دار الحديث عن تعليم الكتاب والحكمة. لكن القرآن عاد فأكد ذلك في فقرة مستقلة تنبيهاً على أن الأنبياء هم الذين بيتوا لكم المعارف والعلوم، ولولاهم لختي كثير من ذلك عليكم. فهم لم يكونوا قادة اخلاقيين واجتماعيين حسب، بل كانوا هداة طريق العلم والمعرفة، وبدون هدايتهم لم يكتب النضج للعلوم الانسانية.

* * *

بعد استعراض جانب من النعم الالهية في الآية، تذكر الآية التالية أن هذه النعم تستدعي الشكر، وبالاستفادة الصحيحة من هذه النعم يؤدي الانسان حق شكر البارئ تعالى: «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ».

واضح أن عبارة «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ» لا تشير الى معنى عاطفي بين الله وعباده كما يقول الناس لبعضهم ذلك. بل تشير الى أصل تربوي وتكويني، أي اذكروني... اذكروا الذات المقدسة التي هي معدن الخيرات والحسنات والمبرات وتطهر ارواحكم و أنفسكم وتكون قابلة لشمول الرحمة الالهية. ذكركم هذه الذات المقدسة يجعل تحرككم أكثر اخلاصاً ومضاء وقوة واتحاداً.

كذلك المقصود من «الشكر وعدم الكفران» ليس تحريك اللسان بعبارات الشكر، بل المقصود استثمار كل نعمة في محلها وعلى طريق نفس الهدف الذي خلقت له، كي يؤدي ذلك الى زيادة الرحمة الالهية.

* * *

وقفتان

١ - اقوال المفسرين في تفسير «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ» للمفسرين آراء متنوعة في تفسير هذه الآية، وفي بيان كيفية ذكر العبد وذكر الله. الفخر الرازي في تفسيره الكبير لخصها في عشرة:

- ١ - اذكروني «بالاطاعة» كي اذكركم «برحمتي» والشاهد على ذلك قوله تعالى: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (آل عمران، ١٣٢).
- ٢ - اذكروني «بالدعاء» كي اذكركم «بالاجابة»، دليل ذلك قوله تعالى:

«أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ».

- ٣ - اذكروني «بالثناء والطاعة» لا ذكركم «بالثناء والنعمة».
- ٤ - اذكروني في «الدنيا» لا ذكركم في «الآخرة».
- ٥ - اذكروني في «الخلوات» كي اذكركم في «الجمع».
- ٦ - اذكروني «لدى وفور النعمة» لا ذكركم في «الصعاب».
- ٧ - اذكروني «بالعبادة» لا ذكركم «بالعون»، الشاهد على ذلك قوله: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

- ٨ - اذكروني «بالمجاهدة» لا ذكركم «بالهداية»، الشاهد على ذلك قوله سبحانه في الآية ٦٩ من سورة العنكبوت: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا».
- ٩ - اذكروني «بالصدق والاحلاص» لا ذكركم «بالخلاص ومزيدياً للاختصاص».

- ١٠ - اذكروني «بالربوبية» لا ذكركم بالرحمة. دليل ذلك مجموع آيات سورة

الحمد.^١

كل واحدة من التفسير المذكورة هي طبعاً مظهر من مظاهر المعنى الواسع للآية. ولا تقتصر هذه المظاهر على ما سبق فيشمل المعنى أيضاً: اذكروني «بالشكر» لا ذكركم «بزيادة النعمة» كما ورد في قوله سبحانه: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» (ابراهيم، ٧).

كل ذكر لله - كما قلنا - له أثر تربوي في وجود الانسان، إذ يجعل روحه مستعدة لنزول بركات جديدة متناسبة مع طريقة الذكر.

- ٢ - ما هو ذكرا لله؟ - من المؤكد أن ذكرا لله ليس بتحريك اللسان فقط، بل اللسان ترجمان القلب، الهدف هو التوجه بكل الوجود الى ذات الباري سبحانه، ذلك التوجه الذي يصون الانسان من الذنب ويدعوه الى الطاعة.
- من هنا ورد في أحاديث عديدة عن المعصومين: أن ذكرا لله ليس باللسان

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي، ج ٤، ص ١٤٤، مع شيء من التصرف.

حسب ومن ذلك حديث عن الرسول (صلى الله عليه وآله) يوصى به علياً قائلاً: «ثَلَاثٌ لَا تُطِيقُهَا هَذِهِ الْأُمَّةُ: الْمُوَاسَاةُ لِلْآخِ فِي مَالِهِ وَإِنصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِهِ، وَذِكْرُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَلَيْسَ هُوَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَكِنْ إِذَا وَرَدَ عَلَى مَا يَحْرُمُ عَلَيْهِ خَافَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَهُ وَتَرَكَهُ»^١.
على أي حال، لا ينبغي أن نغفل عن الروعة في هذا الاقتران.. الله سبحانه على عظمته وجلاله وجبروته يقرب ذكره بذكر عبده الضعيف المحدود الصغير انه تكريم ما بعده تكريم للانسان.

* * *

الآيتان

- ١٥٣ - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ».
- ١٥٤ - «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ».

النزول

روي عن ابن عباس بشأن نزول الآية الثانية إنها نزلت في قتلى بدر، وعددهم أربعة عشر، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار. وبعد إنتهاء الغزوة صدر عن بعض المسلمين تعبير «الأموات» بشأن هؤلاء الشهداء فهت الآية عن ذلك.

* * *

التفسير

الشهداء أحياء

الآيات السابقة عرضت مفاهيم التعليم والتربية والذكر والشكر، وهي مفاهيم ذات معنى واسع جداً، وتتضمن أغلب التعاليم الدينية، وفي الآية الأولى من آيتي بحثنا دارالحديث حول الصبر الذي لا تتحقق المفاهيم السابقة بدونه.

تقول الآية أولاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ».

واجهوا المشاكل والصعاب بهاتين القوتين، فالنصر حليفكم: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ».

خلافاً لما يتصور بعض الناس «الصَّبْر» لايعني تحمل الشقاء وقبول الذلة والاستسلام للعوامل الخارجية، بل الصبر يعني المقاومة والثبات أمام جميع المشاكل والحوادث.

لذلك قال علماء الاخلاق إن الصبر على ثلاث شعب:

الصبر على الطاعة: أي المقاومة أمام المشاكل التي تعتري طريق الطاعة.
 الصبر على المعصية: أي الثبات أمام دوافع الشهوات العادية وارتكاب المعصية.
 الصبر على المصيبة: أي الصمود أمام الحوادث المرّة وعدم الانهيار وترك الجزع والفرع.

قلّما كرر القرآن موضوعاً وأكد عليه كموضوع «الصبر»، ففي سبعين موضعاً قرآنيًا تقريباً دار الحديث عن الصبر. بينها عشرة تخصص بالنبي (صلى الله عليه وآله).
 تاريخ العطاء يؤكد أن أحد عوامل انتصارهم بل أهمها صبرهم واستقامتهم. والافراد الفاقدون لهذه الصفة سرعان ما يهزمون و يهارون. ويمكن القول أن دور هذا العامل في تقدم الافراد والمجتمعات يفوق دور الامكانيات والكفاءات والذكاء ونظائرها.
 من هنا طرح القرآن هذا الموضوع بعبارات مؤكدة كقوله تعالى: «إِنَّمَا يُؤَفِّقِي الصَّابِرِينَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» (الزمر، ١٠).
 وفي موضع آخر يقول سبحانه بعد أن ذكر الصبر أمام الحوادث: «إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» (لقمان، ١٧).

من خصائص الصبر أن بقية الفضائل لا يكون لها قيمة بدونها لأن السند والرصيد في جميعها هو الصبر، لذلك يقول أمير المؤمنين علي (عليه السلام): «وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، وَلَا خَيْرَ فِي جَسَدٍ لَا رَأْسَ مَعَهُ وَلَا فِي إِيْمَانٍ لَا صَبْرَ مَعَهُ»^١.

الروايات الاسلامية ذكرت أن اسمى مراحل الصبر ضبط النفس عند توفر وسائل المعاصي والذنوب.

الآية التي يدور حولها بحثنا تؤكد للجماعة المسلمة الثائرة في صدر الاسلام خاصة أن الاعداء يحيطونهم من كل حذب وصوب، وتأمروهم أن يستعينوا بالصبر أمام الحوادث، فنتيجة ذلك استقلال الشخصية والاعتماد على النفس والثقة بالذات في كنف الايمان

بالله. وتاريخ الاسلام يشهد بوضوح أن هذا الأصل كان أساس كل الانتصارات. الموضوع الآخر الذي أكدت عليه الآية أعلاه باعتباره السند الهام الى جانب الصبر هو «الصلاة». وروي أن عليا (عليه السلام) «كَانَ إِذَا أَهَالَهُ أَمْرٌ فَرَزِعَ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ...»^١ ولا عجب في ذلك، فالإنسان حين يرى نفسه أمام عواصف المشاكل المضنية، و يحس بضعفه في مواجهتها، يحتاج الى سند قوي لامتناه يعتمد عليه. والصلاة تحقق الارتباط بهذا السند، وتخلق الطمأنينة الروحية اللازمة لمواجهة التحديات. فالآية أعلاه تطرح مبدئين هامين: الاول- الاعتماد على الله ومظهره الصلاة، والآخر- الاعتماد على النفس، وهو الذي عبرت عنه الآية بالصبر.

* * *

وبعد ذكر الصبر والاستقامة تتحدث الآية التالية عن خلود الشهداء، الذين يجسّدون أروع نماذج الصابرين على طريق الله. تقول الآية: «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ» ثم تؤكد هذا المفهوم ثانية بالاستدراك «بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ». في كل حركة - أساسا - تنزوي مجموعة محبة للعافية، وتبتعد عن الأمة الثائرة، ولا تكتفي هي بالتعاس والتكاسل، بل تسعى الى تثبيط عزائم الآخرين وبث الرخوة والتماهل في المجتمع. ما أن تظهر حادثة مؤلمة حتى يعربون عن أسفهم وينقمون على الحركة التي أدت الى هذه الحادثة، غافلين أن كل هدف مقدس يحتاج الى تضحيات، وتلك سنة كونية.

القرآن الكريم يتحدث عن مثل هذه الفئة كرارا ويؤبهم بشدة. ثمة أفراد من هؤلاء كانوا يتظاهرون بالتأسف والتألم على (موت) شهيد من شهداء الاسلام في المعركة، ويبعثون بذلك القلق والاضطراب في النفوس. والله سبحانه يرد على هذه الأقاويل السامة بالكشف عن حقيقة كبرى هي إن

الذين يضحون بأنفسهم في سبيل الله ليسوا بأموات... هؤلاء أحياء.. و يتمتعون بنعم الله و رضوانه، لكن البشر المحدودين في عالم الحس لا يدركون هذه الحقائق.

* * *

وقفات

١- خلود الشهداء

للمفسرين آراء مختلفة في معنى حياة الشهداء وخلودهم. ظاهر الآية يشير دون شك الى أنهم يتمتعون بنوع من الحياة البرزخية الروحية لأن أجسامهم قد تلاشت. فهم يعيشون تلك الحياة بجسم مثالي -^١ كما يقول الامام الصادق (عليه السلام).^٢ من المفسرين من قال إنها «حياة غيبية» خاصة بالشهداء لا تتوفر لدينا تفاصيلها وخصائصها.

وقيل إن الحياة المذكورة في الآية تعني الهداية، والموت يعني الضلال، فتكون الآية قد نهت عن وصف الشهداء بالضلالة، بل هم مهتدون. وقيل إن الشهداء أحياء لأن هدفهم حي ورسالتهم حية.

لكن التفسير الأول للحياة اقرب الى ظاهر الآية، ولا حاجة لأن نتكلف التفسيرين التاليين. فهم يحيون حياة برزخية روحانية يتنعمون فيها بالقرب من رحمة الله و بأنواع نعمة..

* * *

٢- الشهادة سعادة في الاسلام

قرر الاسلام مسألة الشهادة و بين منزلتها العظيمة، في الآية أعلاه و آيات أخرى، لتكون عاملاً فعلاً هاماً على ساحة المواجهة بين الحق والباطل. وهذا العامل أمضى من أي سلاح أقوى من كل المؤثرات، وهو قادر على أن يجابه أخطر الأسلحة وأفتكها في عصرنا الراهن، وتجربة الثورة الاسلامية في إيران أثبتت ذلك بوضوح. وقد

(١) سنشرح ذلك في تفسير الآية ١٠٠ من سورة (المؤمنون).

(٢) تفسير نورالتقلين ج ٣، ص ٥٥٩.

شاهدنا بأمر أعيننا انتصار المندفعين نحو الشهادة - بالرغم من ضعف إمكاناتهم المادية - على أعتى القوى المتجبرة.

ولو ألقينا نظرة على تاريخ الإسلام، والملاحم التي سطرها المسلمون في جهادهم الدامي، والتضحيات التي قدمها المجاهدون على طريق الرسالة، لالفينا أن الدافع الأساس لكل هذه التضحيات هو درس الشهادة الذي لقنه الإسلام لابنائهم، وبموجبها آمنوا أن الشهادة على طريق الله، وطريق الحق والعدالة، لا تعني الفناء، بل السعادة والحياة الخالدة.

المقاتلون الذين تلقوا مثل هذا الدرس في مثل هذه المدرسة الكبرى، لا يقاسون بالمقاتلين العاديين الذين يحاربون لصيانة أرواحهم. أولئك يحاربون من أجل الرسالة، و يندفعون بشوق عظيم نحو كسب وسام الشهادة.

* * *

٣- الحياة البرزخية وبقاء الروح

هذه الآية تثبت بوضوح بقاء الروح والحياة البرزخية للبشر (الحياة بعد الموت وقبل البعث)، وتردّ بصراحة على أولئك الذين ينكرون تعرض القرآن للحياة البرزخية و بقاء الروح.

سنفصل الحديث في هذا الموضوع، وفي موضوع خلود الشهداء ومنزلة العظيمة، في المجلد الثالث من هذا التفسير عند تناولنا الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.

* * *

الآيات

- ١٥٥ - «وَلْتَبْلُوْكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ».
- ١٥٦ - «الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»
- ١٥٧ - «أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ».

التفسير

الدنيا دار اختبار الهي

بعد ذكر مسألة الشهادة في سبيل الله، والحياة الخالدة للشهداء، و مسألة الصبر والشكر... وكلها من مظاهر الاختبار الالهي، تعرضت هذه الآية للاختبار الالهي العام، ولمظاهره المختلفة، باعتباره سنة كونية لا تقبل التغيير: «وَلْتَبْلُوْكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ».

ولما كان الانتصار في هذه الاختبارات، لا يتحقق الا في ظل الثبات والمقاومة، قالت الآية بعد ذلك: «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ».

فالصابرون هم الذين يستطيعون أن يخرجوا منتصرين من هذه الامتحانات... لاغيرهم.

* * *

الآية التالية تعرف الصابرين وتقول: «الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

الاقرار التام بالعبودية المطلقة لله، يعلمنا أن لانحزن على ما فاتنا، لأنه سبحانه مالكا و مالك جميع ما لدينا من مواهب، إن شاء منحنا إياها، وإن استوجبت المصلحة أخذها منا، وفي المنح والسلب مصلحة لنا.

والإلتفات المستمر الى حقيقة عودتنا الى الله سبحانه، يشعرا بزوال هذه الحياة، و بأن نقص المواهب المادية ووفورها غرض زائل، ووسيلة لارتقاء الانسان على سلم تكامله، فاستشعار العبودية والعودة في عبارة «إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» له الأثر الكبير في تعميق روح المقاومة والاستقامة والصبر في النفس.

واضح أن المقصود من قول هذه العبارة، ليس ترديدها باللسان فقط، بل استشعار هذه الحقيقة، والإلتفات إلى ما تنطوي عليه من توحيد وإيمان.

* * *

وآخر آية في بحثنا هذا، تتحدث عن الألفاظ الإلهية الكبرى، التي تشمل الصابرين الصامدين المتخرجين بنجاح من هذه الامتحانات الالهية: «أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ»^١.

هذه الصلوات والرحمة تجعل هؤلاء على بصيرة من أمرهم، في مسيرتهم الحياتية المحفوفة بالمزالق والاحطار، لذلك تقول الآية: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ». و بهذه العبارات المختصرة المقتضية، يطرح القرآن مسألة الامتحان الكبير بأبعاده المختلفة، وعوامل النجاح فيه ونتائجه.

* * *

وقفات

١- لماذا الاختبار الإلهي؟

في مجال الاختبار الالهى تطرح بحوث كثيرة، و أول ما يتبادر للذهن في هذا المجال، هو سبب هذا الاختبار. فنحن نختبر الأفراد لنفهم ما نجعله بشأنهم. فهل الله سبحانه وتعالى بحاجة الى مثل هذا الاختبار لعباده، وهو العالم بكل الحفايا والأسرار؟! وهل هناك شيء خفي عنه حتى يظهر له بهذا الإمتحان؟! والجواب أن مفهوم الإختبار الإلهي يختلف عن الإختبار البشري.

(١) قيل إن الصلوات هنا ألوان التكريم والتأييد ورفعة المقام، وعن ابن عباس أنها غفران الذنوب

(المنار، ج ٢، ص ٤٠)، و واضح أن الصلوات لها مفهوم واسع يشمل هذه الأمور وسائر النعم الالهية.

اختباراتنا البشرية، هي كما ذكرت آنفا تستهدف رفع الإبهام والجهل، والإختبار الالهي قصده «التربية».

في اكثر من عشرين موضعاً تحدث القرآن عن الاختبار الالهي، باعتباره سنة كونية لا تنقض، من أجل تفجير الطاقات الكامنة، ونقلها من القوة الى الفعل، وبالتالي فالإختبار الإلهي من أجل تربية العباد، فكما أن الذهب يتخلص من شوائبه عند وضعه في التيزاب، كذلك الانسان يخلص وينقى في خضم الحوادث، و يصبح أكثر قدرة على مواجهة الصعاب والتحديات.

الاختبار الالهي يشبه عمل زارع خبير، ينثر البذور الصالحة في الأرض الصالحة، كي تستفيد هذه البذور من مواهب الطبيعة وتبدأ بالنمو، ثم تصارع هذه البذرة كل المشاكل والصعاب بالتدرج، وتقاوم الحوادث، المختلفة كالرياح العاتية والبرد الشديد والحر اللافح، لتخرج بعد ذلك نبتة مزهرة أو شجرة مثمرة، تستطيع أن تواصل حياتها أمام الصعاب.

ومن أجل تصعيد معنويات القوات المسلحة، يؤخذ الجنود الى مناورات وحرب اصطناعية، يعانون فيها من مشاكل العطش والجوع والحر والبرد والظروف الصعبة والحواجز المنيعه.

وهذا هو سر الاختبارات الالهية.

يقول سبحانه في موضع آخر من كتابه العزيز: «وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» (آل عمران، ١٥٤).

ويقول أمير المؤمنين على (عليه السلام) في بيان سبب الاختبارات الالهية: «... وَإِنَّ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنْ لِيُظْهِرَ الْأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ»^١.

أي ان الصفات الكامنة لا يمكن أن تكون وحدها معيارا للثواب والعقاب، فلا بد أن تظهر من خلال أعمال الانسان، والله يختبر عباده ليتجلى ما يضمرونه في

أعمالهم، ولكي تنتقل قابليّاتهم من القوة الى الفعل، وبذلك يستحقون الثواب أو العقاب. لولم يكن الاختبار الالهي لما تفجرت هذه القابليات، ولما أثمرت الكفاءات، وهذه هي فلسفة الاختبار الالهي في منطق الاسلام.

* * *

٢- الاختبار الالهي عام

نظام الحياة في الكون نظام تكامل وتربية، وكل الموجودات الحية تطوي مسيرة تكاملها، حتى الاشجار تعبّر عن قابليّاتها الكامنة بالأثمار، من هنا فان كل البشر، حتى الانبياء، مشمولون بقانون الاختبار الالهي كي تنجلي قدراتهم. الامتحانات تشمل الجميع و إن اختلفت شدّتها، يقول سبحانه: «أَحْسِبُ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» (العنكبوت، ٢). القرآن يعرض نماذج لاختبارات الأنبياء إذ يقول: «وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ» (البقرة، ١٢٤).

ويقول في موضع آخر بشأن اختبار سليمان: «فَلَمَّا زَاغَهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ: هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ...» (النمل، ٤٠).

* * *

٣- طرق الاختبار

ذكرت الآية أعلاه نماذج مما يختبر به الانسان، كالخوف والجوع والأضرار المالية والموت... لكن سبل الاختبار الالهي لا تنحصر بما تقدم، فذكر القرآن منها في مواضع أخرى: البنين، والانبياء، وأحكام الله، بل حتى بعض ألوان الرؤيا: «وَنَبَلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ» (الانبياء، ٣٥).

نعلم أن الناس إزاء الاختبارات الإلهية على نوعين: نوع فائز في الإمتحان، ونوع خاسر.

فحيثما تسوء حالة «الخوف» مثلا، ترى جماعة يتراجعون كي لا يصيبهم سوء، فينفضون أيديهم من المسؤولية، أو يلجأون الى المداهنة أو التماس الأعذار، كقولهم الذي يحكيه القرآن: «نَخَشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ» (المائدة، ٥٢).

و ثمة جماعة تقف كالطود الاشتم أمام كل المخاوف، و تزداد توكلأ و ايماناً، وهؤلاء الذين يقول عنهم القرآن: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»^١

وهكذا موقف الناس من ألوان الامتحانات الأخرى، و يعرض القرآن نماذج لموقف الناجحين والفاشلين في الاختبار الالهي، سنتناولها في مواضعها.

* * *

٤- عوامل النجاح في الامتحان

من المهم للانسان المسلم التّوآق الى اجتياز الاختبار الالهي بنجاح، أن يفهم سبل النجاح في هذا الاختبار، والقرآن يعرض هذه السبل في القسم الأخير من آية بحثنا و في آيات أخرى:

١ - أهّم عامل للانتصار، أشارت اليه الآية بعبارة: «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ»، فالآية تبشر بالنجاح أولئك الصابرين المقاومين، مؤكدة أن الصبر رمز الإنتصار.

٢ - استشعار العبودية التامة لله سبحانه، والرجوع اليه، يجعل كل المشاكل والصعاب عرضاً عابراً و سحابة صيف، وهذا الاستشعار تضمنته عبارة: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

«كلمة الاسترجاع» هذه خلاصة كل دروس التوحيد، والانقطاع الى الله، والاعتماد على ذاته المقدسة في كل شيء وفي كل زمان. و أولياء الله ينطلقون من هذا التعليم القرآني، فيسترجعون لدى المصائب كي لا تهزم الشدائد، و كي يجتازوا مرحلة الإختبار بسلام في ظل الإيمان بالكية الله والرجوع إليه.

قال أميرالمؤمنين علي (عليه السلام) في تفسير الاسترجاع: «إِنَّ قَوْلَنَا: إِنَّا لِلَّهِ إِقْرَارٌ عَلَىٰ أَنْفُسِنَا بِالْمُلْكِ، وَقَوْلُنَا: وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ إِقْرَارٌ عَلَىٰ أَنْفُسِنَا بِالْهَلْكِ»^٢.

٣ - الاستمداد من قوة الايمان والألطف الالهية، عامل مهم آخر في اجتياز

(١) (آل عمران، ١٧٣).

(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٩٩.

الاختبار دون اضطراب وقلق وفقدان للتوازن. ومثل هؤلاء السائرين على طريق الله بايمان، ينالون الهداية الالهية في اختيار الطريق الصحيح، يقول سبحانه: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا» (العنكبوت، ٦٩).

٤ - التدقيق في تاريخ الاسلاف، وإمعان النظر في مواقفهم من الاختبارات الالهية، عامل مؤثر في إعداد الانسان لاجتياز الامتحان الالهي بنجاح.

لوعرف الانسان بأن ما أصيب به ليس حالة شاذة، وإنما هو قانون عام شامل لكل الافراد والجماعات، لهان الخطب عليه، و لتفهم الحالة بوعي، ولاجتاز المرحلة بمقاومة وثبات. و لذلك يثبت الله سبحانه على قلب نبيه والمؤمنين باستعراض تاريخ الماضين، وما واجهه الأنبياء، والفئات المؤمنة من محن ومصائب خلال مراحل دعوتهم، يقول سبحانه: «وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ» (الانعام، ١٠).

ويقول: «وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا» (الانعام، ٣٤).

٥ - الالتفات الى حقيقة علم الله سبحانه بكل مجريات الأمور، عامل آخر في التثبيت و زيادة المقاومة.

المتسابقون في ساحة اللعب، يشعرون بالارتياح حينما يعلمون أنهم في معرض أنظار أصدقائهم من المتفرجين، ويندفعون بقوة أكثر في تحمل الصعاب.

إذا كان تأثير وجود الاصدقاء كذلك، فما بالك بتأثير استشعار رؤية الله لما يجري بالانسان وهو على ساحة الجهاد والمحنة؟! ما أعظم القوة التي يمنحها هذا الاستشعار لمواصلة طريق الجهاد وتحمل مشاق المحنة!

حين واجه نوح أعظم المصائب والضغوط من قومه وهو يصنع الفلك، جاءه نداء التثبيت الالهي ليقول له: «وَأَصْبَحَ الْفُكَّ بِأَعْيُنِنَا» (هود، ٣٧).

وعبارة «بِأَعْيُنِنَا» كان لها - دون شك - وقع عظيم في نفس هذا النبي الكريم، فاستقام وواصل عمله حتى المرحلة النهائية.

وَرَدَ عن سيد الشهداء الحسين بن علي (عليه السلام) أَنَّهُ قَالَ بعد أن تفاقم الخطب أمامه في كربلاء، واستشهد أصحابه وأهل بيته:

«هَوْنٌ عَلَيَّ مَا نَزَلَ بِي أَنَّهُ بَعِينِ اللَّهِ»^١.

* * *

٥- الاختبار بالخير والشر

الامتحان الالهي لايجري عن طريق الحوادث الصعبة القاسية فحسب، بل قد يمتحن الله عبده بالخير و بوفور النعمة، كما يقول سبحانه: «وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً» (الانبياء، ٣٥).

ويقول سبحانه على لسان نبيه سليمان: «هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ» (النمل، ٤٠).

وهنا ينبغي أن نشير الى عدة مسائل:

أولاً ليس من الضروري أن يُختَبَر جميع الناس بجميع وسائل الإختبار، بل من الممكن أن يكون إختبار كل فئة بلون من الإمتحان يتناسب مع الوضع الفردي والاجتماعي لتلك الفئة.

ومن الممكن أن يجتاز الانسان بعض الإمتحانات، بينما يفشل في إمتحانات أخرى.

وقد يكون امتحان فرد من الأفراد موضع امتحان فرد آخر، كأن يكون موت وليد لانسان موضع امتحان أصدقائه وأقاربه، لئرى مدى اتخاذهم موقف المواساة من صاحبهم.

و اخيراً فالإختبار الالهي - كما ذكرنا - شامل عام يدخل في نطاقه حتى الأنبياء، بل إن إختبارهم بسبب ثقل مسؤوليتهم أشد بكثير من إختبار الآخرين.

القرآن الكريم يعرض صوراً لإختبارات شديدة مرّ بها الأنبياء، و بعضهم مرّ بمراحل طويلة شاقّة قبل وصوله إلى مقام الرسالة، كي يكون على أتم الإستعداد لتحمل أعباء قيادة أمتة.

و بين أتباع مدرسة الأنبياء نماذج رائعة للصابرين المحتسبين، كل واحد منهم قدوة

على ساحة الإمتحان الإلهي .

فقد روى «أَنَّ أُمَّ عَقِيلٍ كَانَتْ امْرَأَةً فِي الْبَادِيَةِ فَتَزَلَّ عَلَيْهَا ضَيْفَانٍ وَ كَانَ وَلَدُهَا عَقِيلٌ مَعَ الْإِبِلِ فَأُخْبِرَتْ بِأَنَّهُ ازْدَحَمَتْ عَلَيْهِ الْإِبِلُ فَرَمَتْ بِهِ فِي الْبِئْرِ فَهَلَكَ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلتَّاعِي انْزِلْ وَأَفْضِ ذِمَامَ الْقَوْمِ وَ دَفَعَتْ إِلَيْهِ كَبْشًا فَذَبَحَهُ وَ أَصْلَحَهُ وَ قَرَّبَ إِلَى الْقَوْمِ الطَّعَامَ فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ وَ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ صَبْرِهَا (قال الراوى) فَلَمَّا فَرَعْنَا خَرَجْتَ إِلَيْنَا وَ قَالَتْ يَا قَوْمِ هَلْ فِيكُمْ مَنْ يَحْسَنُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ شَيْئًا فَقُلْتُ نَعَمْ قَالَتْ: فَأَقْرَأْ عَلَيَّ آيَاتِ اتَّعَزَى بِهَا عَنْ وَلَدِي فَقَرَأْتُ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ إِلَى قَوْلِهِ الْمُهْتَدُونَ» .

«فَقَالَتْ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ثُمَّ صَفَّتْ قَدَمَيْهَا وَصَلَّتْ رُكْعَاتٍ ثُمَّ قَالَتْ اللَّهُمَّ إِنِّي فَعَلْتُ مَا أَمَرْتَنِي فَأَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي. وَلَوْ بَقِيَ أَحَدٌ لِأَحَدٍ - قَالَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي لَبَقِيَ ابْنِي لِحَاجَتِي إِلَيْهِ - فَقَالَتْ لَبَقِيَ مُحَمَّدٌ (صلى الله عليه وآله) لِأُمَّتِهِ فَخَرَجْتُ» .^١

* * *

الآية

١٥٨ - «إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرَوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ».

النزول

كان المشركون في الجاهلية يأتون مكة لأداء مناسك الحج، وكانت هذه المناسك ذات أصل إبراهيمي مع شيء كثير من التحريف والخرافات والشرك. كانوا أيضاً يقفون بعرفات ويضحون ويطوفون ويسعون بين الصفا والمروة، ولكن بشكل خاص بالجاهليين.

وجاء الاسلام وأصلح هذه المناسك وطهرها مما علق بها من تحريف، وأقر ما كان صحيحاً منها.

والجاهليون كانوا يطوفون بين الصفا والمروة، وقد وضعوا - استناداً الى الروايات - على الصفا صنماً اسمه «أساف» وعلى المروة صنماً آخر سموه «ناثلة» وكانوا يتمسحون بهما لدى السعي، من هنا خال المسلمون أن السعي بين الصفا والمروة عمل غير صحيح، وكرهوا أن يفعلوا ذلك الآية المذكورة نزلت لتعلن أن الصفا والمروة من شعائر الله، و تلويثها بالشرك على يدا الجاهليين لا يبرر إعراض المسلمين عن السعي بينهما.

واختلف المفسرون في وقت نزول الآية، منهم من قال إنها نزلت في (عمرة القضاء) في السنة السابقة للهجرة، وكان من شروط النبي (صلى الله عليه وآله) مع المشركين في هذه السفارة رفع الصنمين من الصفا والمروة، وقد عملوا بهذا الشرط، لكنهم أعادوها الى محلها. وهذا أدى الى كراهة المسلمين السعي بين الصفا والمروة، فنزلت الآية لتنهاهم عن هذه الكراهة.

وقيل إنها نزلت في حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة. ومن المؤكد أن مكة

كانت في هذه السنة خالية من الأصنام. ومن هنا يلزمنا أن نعتبر كراهة المسلمين السعي بين الصفا والمروة بسبب السوابق التاريخية لهذين المكانين حيث انتصب فيها «أساف ونائلة».

التفسير

أعمال الجهلة لا توجب تعطيل الشعائر

هذه الآية الكريمة تستهدف إزالة ما علق في ذهن المسلمين بشأن الصفا والمروة كما مر في النزول، و تقول للمسلمين: «إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ». ومن هذه المقدمة تخرج الآية بنتيجة هي: «فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا».

لا ينبغي أن تكون أعمال المشركين الجاهليين عاملاً على إيقاف العمل بهذه الشعيرة، وعلى تقليل أهمية هذين المكانين.

ثم تقول الآية أخيراً: «وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ». فالله يشكر عباده المتطوعين للخير بأن يجازيهم خيراً، وهو سبحانه عالم بسرائرهم، يعلم من تعلق قلبه بهذه الأصنام ومن تبرا منها.

* * *

وقفات

١- الصفا والمروة

الصفا والمروة اسمان لجبلين صغيرين في مكة، يقعان اليوم بعد توسيع المسجد الحرام، في الضلع الشرقي للمسجد، في الجهة التي يقع فيها الحجر الاسود ومقام ابراهيم.

يفصل بين الجبلين ٤٢٠ متراً تقريبا، والمسعى اليوم بدل بصالة كبيرة مسقفة ذات طابقين يسعى الحجاج فيها، وارتفاع الصفا خمسة عشر متراً، والمروة ثمانية أمتار. واللفظان اليوم علمان لهذين الجبلين، وفي الأصل الصفا هي الصخرة الملساء القوية المختلطة بالحصى والرمل، والمروة الصخرة القوية المتعرّجة.

والشعائر جمع شعيرة أي العلامة، وشعائر الله أي العلامات التي تذكّر الإنسان بالله، وتعيد إلى الأذهان ذكريات مقدسة.

و «اعتمر» أي أدى العمرة، والعمرة في الأصل الملحقات الإضافية في البناء، وفي الشريعة تطلق على الاعمال الخاصة، التي يؤديها المسلم إلى جانب أعمال الحج، أو يؤديها لوحدها في العمرة المفردة. وبينها وبين أعمال الحج أوجه اشتراك وافتراق.

* * *

٢- من أسرار السعي بين الصفا والمروة

صحيح أن قراءة تاريخ حياة عطاء التاريخ يدفع الإنسان إلى الاقتداء بهم، لكن هناك طريقاً أكثر تأثيراً، وهو مشاهدة المعالم الأثرية التي كافح عليها هؤلاء الرجال، وسجلوا فيها بطولاتهم.

هذه المعالم هي في الواقع تاريخ حيّ ناطق، يستطيع أن يُحلق بالإنسان عبر القرون والاعصار، ليحمله يعيش مع الحوادث الماضية بكل مشاعره. الأثر التربوي لهذه المشاهدات أعمق بكثير من تأثير الكتب والخطب وأمثالها.. فهنا الشعور لا الإدراك، والتصديق لا التصور، والعينية لا الذهنية.

من جهة أخرى، قلّ أن يوجد بين الأنبياء نبيّ كإبراهيم (عليه السلام)، خاض ألوان النضال وتعرض لأنواع الامتحان، حتى قال القرآن عمّا اختبره: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ» (الصافات، ١٠٦).

وهذه المعاناة الطويلة التي عاشها إبراهيم هي التي أهلتته لأن ينال مقام «الإمامة».

مناسك الحج تجسّد في الأذهان دورة كاملة من مشاهد كفاح إبراهيم ومراحل تكامله التوحيدي وعبوديته وتضحياته وإخلاصه.

لوفهم المسلمون - لدى أدائهم مناسك الحج - روح الحج وأسراره، وتعمّقوا في جوانبه «الرمزية» لكان الحج دورة تربوية في حقل معرفة الله والنبوة والشخصية الإنسانية.

بعد هذه المقدمة نعود إلى الخلفية التاريخية للصف والمروة.

ابراهيم (عليه السلام) بلغه الكبر ولم يُرزق ولداً، فدعى ربه أن لا يتركه فرداً، فاستجاب له، ورزقه من جاريته هاجر ولداً سَمَاهُ «إِسْمَاعِيلُ».

لم تستطع «سارة» زوجته الاولى أن تطيق الحالة الجديدة، وقد رزق ابراهيم ولداً من غيرها، فأمر الله إبراهيم أن يهاجر بالطفل والام الى مكة حيث الأرض القاحلة المجدبة آنذاك، ويسكنها هناك .

امتثل إبراهيم أمر ربه، وذهب بها الى صحراء مكة وأسكنهما في تلك الأرض، وهم بالرجوع، فضجت زوجته بالبكاء، إذ كيف تستطيع أن تعيش امرأة وحيدة مع طفل رضيع في مثل هذه الارض؟!!

بكاء هاجر ومعه بكاء الطفل الرضيع هزَّ ابراهيم من الأعماق، لكنه لم يزد على أن ناجى ربه قائلاً: «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» (ابراهيم، ٣٧) ، ثم ودَّع زوجته وطفله مجزئ وألم عميقين.

لم يبيض وقت طويل حتى نفذ طعام الأمِّ وماؤها، وجفت لبنها. بكاء الطفل أضرم في نفس الأمِّ نارا، ودفعها لأن تبحث بقلق واضطراب عن الماء. اتجهت أولاً الى جبل «الصفاء» فلم تجد للماء أثراً، لفت نظرها بريق ماء عند جبل «المروة» فأسرعت اليه فوجدته سرايا، ثم رأت وهي عند المروة بريقاً لدى الصفا أسرع اليه فما وجدت شيئاً، وهكذا جالت سبع مرات بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء. وفي النهاية، وبعد أن أشرف الطفل على الموت، انفجرت عند رجليه فجأة عين زمزم، فشرب الطفل وأمه ونجيا من الموت المحقق.

الماء رمز الحياة، وانفجار العين جرَّ الطيور من الآفاق نحو هذه الارض، والقوافل شاهدت حركة الطيور، فاتجهت هي أيضاً نحو الماء وبركة هذه العائلة تحولت أرض مكة الى مركز كبير عظيم.

ويقع جوار الكعبة حجر اسماعيل حيث مدفن تلك المرأة وابنها، وعلى الحاج أن يضمه الى البيت في طوافه، أي يجب على الحاج أن يطوفوا خارج هذا الحجر وكأنه جزء من الكعبة.

في الصفا والمروة درس في التضحية بكل غال و نفيس، حتى بالطفل الرضيع،
من أجل المبدأ والعقيدة.

والسعي بينهما يعلمنا أن نعيش دائماً أمل النجاح والانتصار، حتى في أشد
لحظات الشدة، فهاجر بذلت سعيها وجاءها رزق الله من حيث لا تحتسب.

السعي بين الصفا والمروة يقول لنا: إن هاتين الشعيرتين كانتا يوماً وكرراً
لصنمين من أصنام العرب، و أصبحتا اليوم معلمين من معالم التوحيد بفضل جهاد رسول
الله (صلى الله عليه وآله)، من حق جبل الصفا أن يفخر ويقول: انا أول منطلق لدعوة
رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فحينما كانت مكة تغظ في ظلمات الشرك بزغ من عندي
فجر الهداية: اعلموا أيها الساعون بين الصفا والمروة أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) صعد
يوماً على هذا الجبل ليدعو الناس الى الله، فلم يجبه أحد، واليوم فان الآلاف المؤلفة
تحيب الدعوة و تحج بيت الله على النهج المحمدي الابراهيمي. و إنه لدرس لكم يعلمكم
أن تسيروا على طريق الحقّ دونما يأس، وإن قلّ الناصر والمجيب.

السعي بين الصفا والمروة يقول لنا: إعرفوا قدر نعمة هذا الدين وهذا المركز
التوحيدي، فثمة أفراد حفظوا الشريعة وشعائرها لنا بدمائهم على مرّ التاريخ.

من أجل إحياء كل تلك الأحاسيس والمشاعر في النفوس، أمر الله الحجيج أن
يسعوا سبع مرات بين الصفا والمروة.

أضف الى ما تقدم أن السعي يقضى على كبر الانسان وغروره، فلا أثر للتبختر
والتصنع في السعي، بل لابدّ من قطع هذه المسافة ذهاباً ومجيئاً مع كافة الناس، وبنفس
لباس الناس، وبهرولة أحياناً!! ولذلك ورد في الروايات أن السعي إيقاظ للمتكبرين.

على أية حال، بعد أن ذكرت الآية ان الصفا والمروة من شعائر الله، أكدت عدم
وجود جناح على من يطوّف بهما، والطواف بين الصفا والمروة هو السعي بينهما، لأن
الحركة التي يعود فيها الانسان الى حيث ابتدا هي طواف وإن لم تكن الحركة دائرية.

٣- جواب على سؤال

لفظ (لاجناح) يشير الى عدم حرمة السعي بين الصفا والمروة وجواز ذلك ، وقد

يسأل سائل عن سبب وجوب السعي في الفقه الاسلامي، بينما الآية تبيحه فقط؟
الجواب على هذا السؤال نفهمه بوضوح من سبب نزول الآية. فالمسلمون
كرهوا السعي بين الصفا والمروة، بعد أن شاهدوا بأمر أعينهم مدى عيش المشركين بهذا
المكان، ومدى تلوّثهم إياه بالاصنام. فخالوا أن من غير اللائق بالمسلم أن يسعى في
هذا المكان.

جاءت الآية لتقول لهم: إنّ الصفا والمروة من شعائر الله، وعبارة (لاجناح)^١
لازالة ما تصوروه من كراهة لهذا العمل.

و ثمة تعبيرات مشابهة ذكرها القرآن لأحكام أخرى كصلاة المسافر في قوله
تعالى: «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ» (النساء،
١٠١).

ونعلم أن القصر واجب في صلاة المسافر، لا جائز. بشكل عام قد تستعمل كلمة
(لاجناح) لازالة التوهم بجرمة الشيء أو بكراهته، وهذا المعنى يؤكده حديث عن الامام
محمد بن علي الباقر (عليه السلام) في كتاب «من لا يحضره الفقيه».

* * *

٤- معنى التطوع

التطوع في اللغة: قبول الطاعة والانصياع للأوامر، وفي الفقه يطلق على الأعمال
المستحبة، من هنا أغلب المفسرين يذهبون الى تفسير «وَمَنْ تَطَوَّعَ..» بالحج المستحب
والعمرة المستحبة أو الطواف أو أي عمل مستحب آخر. فالعبارة تعني إذن أن الله شاكر
لمن يعمل الخيرات تمثلاً أو امره سبحانه، والله عليم بكل هذه الأعمال.

ومن المحتمل أيضاً أن تكون العبارة تأكيداً لما سبقها، ويكون المقصود بالتطوع
حينئذ قبول الطاعة في أداء الأعمال الشاقة.

معنى العبارة، على هذا، على الحجاج السعي بين الصفا والمروة بكل ما فيه من

(١) (الجناح) في الاصل الميل نحو اتجاه معين، وقيل للذنب جناح لانه يميل بالانسان عن طريق الحق.

(قاله الراغب في المفردات).

مشاق ورغم كراحتكم لذلك... هذه الكراهة الناتجة عن سوء تصرف الجاهليين
بهذا المكان المقدس.

* * *

٥- شكر الله

ينبغي الالتفات هنا الى عبارة الشاكر في الآية، وهو تعبير في غاية الروعة، وإنه
لتكريم ما بعده تكريم للانسان، أن يشكره الله على أعماله الخيرة.
وحين يكون الله شاكراً لعبده على برّه، فمن الأولى أن يكون العبد شاكراً لربه
على نعمه التي لا تحصى، و شاكراً لمن أحسن اليه من العباد.

* * *

الآيتان

١٥٩ - «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ».

١٦٠ - «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

النزول

روي عن ابن عباس، أن عددا من المسلمين سألوا أبحار اليهود عن مسائل في التوراة قد ترتبط بظهور النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله)، فأبى الأبحار أن يجيبوا وكتموا ما عندهم من علم.^١

التفسير

حرمة كتمان الحق

الآية - وإن خاطبت كما في أسباب النزول، علماء اليهود - غير محدودة بمخاطبيها، بل تبين حكماً عاماً بشأن كاتمي الحق.

الآية الكريمة تتحدث عن هؤلاء بشدة وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ، أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ».

فالله سبحانه وعباده الصالحون وملائكته المقربون يلعنون من يكتم الحق، وبعبارة أخرى، كل أنصار الحق يفضون على من كتم الحق. وأية خيانة للعالم أكبر من خيانة

(١) لباب النقول في أسباب النزول، ص ٢٢.

كتمان آيات الله المودعة عندهم، من أجل مصالحهم الشخصية ولتضليل الناس.
 و عبارة «مَنْ بَعُدَ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ» إشارة الى أن هؤلاء الأفراد يصادرون في الواقع جهود الأنبياء وتضحيات أولياء الله الصالحين، وهو ذنب عظيم.
 والفعل (يلعن) تكرر في الآية للتأكيد، واستعمل بصيغة المضارع لبيان استمرار اللعن، ومن هنا فإن لعنة الله ولعنة اللاعنين تلاحق هؤلاء الكاتمين لآيات الله باستمرار، وذلك أقسى العقاب.
 «البنات» و «الهدى» لهما معنى واسع يشمل كل وسائل الهداية والتوعية والايقاظ وإنقاذ الناس.

* * *

لما كان القرآن كتاب هداية، فانه لا يغلق منافذ الأمل والتوبة أمام الأفراد، ولا يقطع أملهم في العودة مها ارتكسوا في الذنوب، لذلك تبين الآية التالية طريق النجاة من هذا الذنب الكبير وتقول: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

عبارة «أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» جاءت بعد عبارة «فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ» للدلالة على كثرة محبة الله وسبق عطفه على عباده التائبين. فيقول الله سبحانه هؤلاء: إن تبتم، أي عدتم الى نشر الحقائق، فانا أعود أيضاً الى إغداق الرحمة والمواهب عليكم.
 ومن الملفت للنظر، أن الله لم يقل أنه يقبل التوبة ممن تاب، بل يقول: من تاب فأنا أيضاً أتوب عليه، والفرق في التعبيرين واضح، فالثاني فيه من التودد والتحنن واغداق اللطف مالا يمكن وصفه.

ثم استعمال الضمير (انا) في هذا الموضع يستهدف نوعاً من التودد والاستعطاف لا يوجد في ضمير (نحن).

وكلمة «تَوَّابُ» صيغة مبالغة تبعث الأمل في نفوس المذنبين وتبعد عنهم اليأس، خاصة و انها اقترنت بكلمة (رحيم).

* * *

وقفات

١- مفاسد كتمان الحق

كتمان الحقائق من المسائل التي ماتت منها المجتمعات البشرية على مر التاريخ، وكان لها دوماً آثار سيئة عميقة، استمرت قروناً وأعصاراً. ويتحمل تبعه هذه المساويء دون شك، أولئك العلماء الذين يعلمون تلك الحقائق ويكتمونها.

لعل القرآن لم يهدد ويذمّ فئة كما هدد وذم هذه الفئة الكاتمة للحقائق. ولم لا؟ فان عمل هؤلاء يجرّ أجيالاً متعاقبة الى طريق الضلال والفساد، كما ان نشر الحقائق يدفع بالامم الى طريق الهداية والصلاح.

البشرية توافق للحقائق بفطرتها وكتمان الحقائق عنها يعني صدالبشرية عن طريق تكاملها الفطري المرسوم لها.

لو أن علماء اليهود والنصارى أعلنوا ما عندهم من حقائق بشأن النبي الخاتم (صلّى الله عليه وآله)، ونشروا ماجاء في العهدين من بشائر حول رسول الاسلام، لانضوى أهل الكتاب تحت راية الاسلام، ولاصبحوا مع المسلمين أمة واحدة.

كتمان الحقائق لا ينحصر دون شك في كتمان علامات النبوة والبشائر بالنبي الخاتم (صلّى الله عليه وآله)، بل يشمل كتمان كل حقيقة تستطيع أن تدفع الناس إلى الفهم الصحيح بالمعنى الواسع لهذه الكلمة.

السكوت في مواضع يجب أن ينطلق فيها اللسان قد يكون من مصاديق كتمان الحق، وذلك يكون في موارد يحتاج الناس فيها بشدة الى فهم الحقائق، ويستطيع العلماء فيها أن يلّبوا هذه الحاجة.

بعبارة أخرى نشرالحقائق التي يعاني منها الناس لا يتوقف على السؤال وما يذهب اليه صاحب المنار من أن كتمان الحقائق يكون في مواضع السؤال ليس بصحيح. خاصة وأن القرآن لا يتحدث عن كتمان الحقائق فحسب، بل يتحدث في مواضع أخرى عن تبين الحقائق أيضاً. وهذا يردّ على أولئك الذين يلتزمون جانب الصمت أمام الانحرافات، بحجة عدم وجود سائل يطرح عليهم سؤالاً بشأن تلك الانحرافات. يقول

سبحانه:

«وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ»

(آل عمران، ١٨٧).

جدير بالذكر أن إلهاء الناس بالمسائل الفرعية، لصرف أنظارهم عن المسائل الأساسية الحياتية نوع من كتمان الحقائق. وإذا لم يشمله فرضاً تعبير «كتمان الحقائق» فهو مشمول حتماً بملك و فلسفة كتمان الحق.

* * *

٢- كتمان الحق في الأحاديث

جملت الأحاديث بشدة أيضاً على كاتمي الحق، فروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَهُ أَجَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»^١.
ونعيد هنا القول أن ابتلاء الناس بمسألة يحل محل السؤال. وبيان الحقائق في هذه الحالة واجب.

وسئل الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام):

«مَنْ شَرُّ خَلْقِ اللَّهِ بَعْدَ إِبْلِيسَ وَفِرْعَوْنَ؟ قَالَ: أَلْعُلَمَاءُ إِذَا فَسَدُوا، هُمْ الْمُظْهِرُونَ لِلْأَبَاطِيلِ، أَلْكَائِمُونَ لِلْحَقَائِقِ، وَفِيهِمْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ»^٢.

* * *

٣- معنى اللعن

اللعن في الأصل: الطرد والابعاد الممزوج بالغضب والاستياء. فاللعن الإلهي إذن إبعاد الإنسان عن رحمة الله وعن جميع المواهب المغدقة على عباده.
وما قيل بشأن تقسيم اللعن إلى لعن في الآخرة، وهو العذاب والعقوبة، ولعن في الدنيا وهو سلب التوفيق، إنما هو من قبيل بيان المصداق لا حصر اللعن بهذين القسمين.

(١) مجمع البيان، في تفسير الآية.

(٢) الاحتجاج للطبرسي، نقلاً عن نور الثقلين، ج ٢ ص ١٣٩.

وكلمة (اللاعنون) لها معنى واسع لا يقتصر على الملائكة والمؤمنين، بل يشمل كل الموجودات التي تتحدث بلسان القال أو الحال. وفي بعض الروايات نرى أن كل الموجودات تدعو لطالب العلم كقول المعصوم: (وَإِنَّهُ يَسْتَغْفِرُ لَطَالِبِ الْعِلْمِ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْخُوتِ فِي الْبَحْرِ)^١.
وان استغفرت هذه الموجودات لطالب العلم، فمن الطبيعي أن تلعن كاتمه.

* * *

٤ - كلمة (تَوَاب) صيغة مبالغة من تاب: عاد، و تبين حقيقة انفتاح باب التوبة أمام الانسان، حتى ولو انخدع الانسان بوسوس الشيطان بعد توبته، فيستطيع أن يتوب ثانية، ويعود الى الله، فالله تَوَاب، ولا يجوز اليأس من رحمته.

* * *

الآيات

١٦١ - «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

١٦٢ - «خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ».

١٦٣ - «وَالْهُكْمُ لِلَّهِ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ».

التفسير

الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ

تحدثت الآيات السابقة عن نتيجة كتمان الحقائق، وهذه الآيات تكمل الموضوع السابق، وتتناول جزاء الذين يواصلون طريق الكفر والكتمان والعناد الى آخر عمرهم. تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

هؤلاء ايضاً مثل كاتمي الحق، مستحقون للعنة الله والملائكة وجميع الناس، مع اختلاف هو إن هؤلاء المصرين على الكفر حتى نهاية حياتهم لارجعة لهم طبعاً ولا توبة.

* * *

ثم تقول الآية التالية إن هؤلاء الكفار المصرين على كفرهم حتى اللحظات الأخيرة من حياتهم «خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ».

* * *

ولما كان التوحيد ينهي كل هذه المصائب فالآية الثالثة تطرح هذا الأصل وتقول: «وَالْهُكْمُ لِلَّهِ وَاحِدٌ».

ثم تؤكد هذا الأصل وتقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

بعد ذلك تصف الآية الله بأنه «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» لتقول إن الله الذي تشمل

رحمته العامة لكل الموجودات، ورحمته الخاصة المؤمنين، هو اللائق بالعبودية لا الموجودات المحتاجة.

* * *

وقفات

١ - يوضح القرآن في مواضع متعدّدة، أن الذين ماتوا على كفرهم لانجاة لهم، وهذا أمر طبيعي، لأن سعادة الحياة الآخرة وشقاءها، نتيجة مباشرة لما أدّخره الانسان من أعمال في هذه الحياة. ومن أحرق جناحيه في الحياة الدنيا بنار الكفر والانحراف لا يستطيع طبعاً أن يخلق في الآخرة، ولا بدّ من سقوطه في درك الجحيم. وواضح أيضاً أن هذا الفرد سبق على وضعه هذا في عالم الآخرة، لأن ذلك العالم ليس عامل الحصول على وسيلة.

هذا يشبه إنساناً فقاً عينيه عمداً، فلا بدّ له أن يعيش أعمى طول حياته. وبيهي أن هذا مصير الكافرين الذين سلكوا طريق الكفر عن علم وعمد. (سنوضح مسألة الخلود أكثر في تفسير الآيتين ١٠٧ و ١٠٨ من سورة هود، في المجلد التاسع من هذا التفسير).

* * *

٢ - الآية الثالثة في بحثنا هذا تبين أحدية الله بشكل ينفى كل شرك وانحراف. قد نرى أحياناً موجودات متفردة في صفة من صفاتها، لكن هذه الموجودات تتفرد في صفة أو عدة صفات. أما الله فهو أحد في ذاته، وأحد في صفاته، وأحد في أفعاله، أحديته لا تقبل التعدد عقلاً، انه أحد أزلي وأبدي لا تؤثر الحوادث على أحديته. إنه أحد في الذهن وخارج الذهن. إنه أحد في أحديته!

* * *

٣- ألا يكفي لعن الله؟!

الآية أعلاه ذكرت أن الذين ماتوا وهم كفار، مشمولون بلعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وهنا قد يسأل سائل: أليست لعنة الله كافية؟ الجواب واضح، فلعنة الملائكة والناس زيدت على لعنة الله للتأكيد، ولبيان

كراهية الناس لمثل هؤلاء المذنبين.

ولو قيل لِمَ ذكرت الآية (الناس) بشكل عام، بينما يوجد بين الناس من هم شركاء في الجريمة، وهؤلاء لا يلعنون أولئك المجرمين؟
والجواب: أن هؤلاء أيضا كارهون لأعمال أولئك، فهؤلاء يكرهون مثلاً كتمان الحقائق عنهم، و يلعنون من يستر عنهم الحقيقة، لكنهم يفعلون هم أيضاً هذه السيئة إن اقتضت مصلحتهم ذلك.

* * *

الآية

١٦٤ - «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ، وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

التفسير

مظاهر عظمة الله في الكون

آخر آية في المبحث الماضي دارت حول توحيد الله، وهذه الآية تقدم الدليل على وجود الله ووحدانيته.

قبل أن ندخل في تفسير الآية، لابد من مقدمة موجزة. حيثما كان «النظم والانسجام»، فهو دليل على وجود العلم والمعرفة، وأينما كان «التنسيق» فهو دليل على الوحدة. من هنا، حينما نشاهد مظاهر النظم والانسجام في الكون من جهة، والتنسيق ووحدة العمل فيه من جهة أخرى، نفهم وجود مبدأ واحد للعلم والقدرة صدرت منه كل هذه المظاهر.

حينما نمنع النظر في الأغشية الستة للعين الباصرة ونرى جهازها البديع، نفهم أن الطبيعة العمياء الصماء لا يمكن إطلاقاً أن تكون مبدأ مثل هذا الاثر البديع، ثم حينما ندقق في التعاون والتنسيق بين هذه الأغشية، والتنسيق بين العين بكل اجزائها وبين جسم الانسان، والتنسيق الفطري الموجود بين الانسان وبين سائر البشر، والتنسيق بين بني البشر وبين كل مجموعة نظام الكون، نعلم أن كل ذلك صادر من مبدأ واحد، وكل ذلك من آثار قدرة ذات مقدسة واحدة.

ألا تدل القصيدة الجميلة العميقة المعنى على ذوق الشاعر وقريحته؟!
ألا يدل التنسيق الموجود بين قصائد الديوان الواحد على أنها جميعاً صادرة من
قريحة شاعر مقتدر واحد؟

بعد هذه المقدمة نعود الى تفسير الآية هذه الآية الكريمة تشير الى ستة أقسام من
آثار النظم الموجود في عالم الكون، وكل واحد آية تدل على وحدانية المبدأ الاكبر.

١- إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...

من العلامات الدالة على ذات الله المقدسة وعلى قدرته وعلمه ووحدانته، السواء
وكرات العالم العلوي، أي هذه المليارات من الشمس المشرقة والنجوم الثابتة والسيارة،
التي ترى بالعين المجردة أو بالتلسكوبات، ولا يمكن رؤية بعضها بأقوى أجهزة الإرصاد
لبعدها الشاسع... الشاسع للغاية، والتي تنتظم مع بعضها في نظام دقيق مترابط.
وهكذا الأرض بما على ظهرها من حياة، تتجلى بمظاهر مختلفة وتلبس بلباس
آلاف الأنواع من النبات والحيوان.

ومن المدهش أن عظمة هذا العالم وسعته وامتداده تظهر أكثر كلما تقدم العلم،
ولا ندري المدى الذي سيبلغه العلم في فهم سعة هذا الكون!

يقول العلم لنا اليوم: إن في السماء آلاف مؤلفة من المجرات، ومنظومتنا الشمسية
جزء من واحدة من المجرات، وفي مجرتنا وحدها مئات الملايين من الشمس والنجوم
الساطعة، وحسب دراسات العلماء يوجد بين هذه الكواكب مليون كوكب مسكون،
بمليارات الموجودات الحية! حقاً ما أعظم هذا الكون! وما أعظم قدرة خالقه!!

٢- «وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»

من الدلائل الأخرى على ذاته المقدسة وصفاته المباركة تعاقب الليل والنهار،
والظلمة والنور بنظام خاص، فينقص أحدهما بالتدريج ليزيد في الآخر، وما يتبع ذلك من
تعاقب الفصول الأربعة، وتكامل النباتات وسائر الأحياء في ظل هذا التكامل.

لو انعدم هذا التغيير التدريجي، أو انعدم النظام في هذا التدريج، أو انعدم تعاقب
الليل والنهار لانمحت الحياة من وجه الكرة الأرضية، ولو وجدت - فرضاً - لأصابها

الفوضى والخبط.^١

٣- «وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ».

الانسان يبحر عباب البحار والمحيطات بالسفن الكبيرة والصغيرة، مستخدماً هذه السفن للسفر و لنقل المتاع. وحركة هذه السفن وخاصة الشراعية منها تقوم على عدة أنظمة:

الاول، نظام هبوب الرياح على سطح مياه الكرة الارضية، فهناك الرياح القارية التي تهب من القطبين الشمالي والجنوبي نحو خط الاستواء و بالعكس. وهناك الرياح الاقليمية التي تهب وفق نظام معين، وتعتبر قوة طبيعية لتحريك السفن نحو مقاصدها.

وهكذا خاصية القوة الدافعة التي يسلمها الماء على الأجسام الغاطسة فيه، فيجعل هذه السفن تطفو على سطح الماء.

أضف الى ذلك خاصة القطبين المغناطيسيين للكرة الأرضية، التي تساعد البحارة باستخدام البوصلة أن يعرفوا اتجاههم في وسط البحار، إضافة الى استفادتهم من نظام حركة الكواكب في معرفة جهة السير.

كل هذه الأنظمة تساعد على الاستفادة من الفلك^٢، وتعطي دليلاً محسوساً على قدرة الله وعظمته، وتعتبر آية من آيات وجوده.

استعمال المحركات الوقودية بدل الأشرعة في السفن اليوم، لم يقلل أهمية هذه الظاهرة بل زادها عجباً و دهشة، إذ نرى اليوم السفن العملاقة التي تشبه مدينة بجميع مراققها، تطفو على سطح الماء و تنتقل بفنادقها وساحات لعبها وأسواقها... على ظهر البحار والمحيطات.

٤ - «وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَتَّ فِيهَا

(١) «الاختلاف» قد يعني التعاقب أي مجيء شيء وذهاب آخر، وقد يعني الزيادة والنقصان في الليل والنهار، وعلى المعنيين تتحدث الآية عن نظام خاص لليل والنهار لا يمكن أن يكون قائماً على الصدفة.

(٢) الفلك. هي السفينة أو السفن، فاللفظ مفرد وجمع.

مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ..»

من مظاهر قدرة الله وعظمته المطر الذي يحيي الأرض، فتهتز ببركته وتنمو فيها النباتات وتحيا الدواب بحياة هذه النباتات، وكل هذه الحياة تنتشر على ظهر الأرض من قطرات ماء لاهياة فيها.

٥ - «وَتَضْرِبُ الرِّيحُ...»، لا على سطح البحار والمحيطات لحركة السفن فحسب، بل على اليابسة أيضاً لتلقيح النباتات و لتلطيف الجو، ولمنع تراكم السموم في الفضاء.

٦ - «وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...» والسحب المتراكمة في أعالي الجو، المحملة بمليارات الاطنان من المياه، والمتحركة من نقطة الى أخرى، من مظاهر عظمة الله سبحانه، اضافة الى أن هذا الودق (المطر) الذي يخرج من خلال السحاب يحيي الأرض و بحياة الارض تحيا النباتات والحيوانات والانسان، ولولا ذلك لتحولت الكرة الارضية الى أرض مقفرة موحشة. وهذا مظهر آخر لعلم الله سبحانه وقدرته. وكل تلك العلامات والمظاهر «لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»، لا للغافلين الصم البكم العمي.

* * *

الآيات

- ١٦٥ - «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا، يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ».
- ١٦٦ - «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ».
- ١٦٧ - «وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ».

التفسير

أئمة الكفر يتبرؤون من أتباعهم!

تناولت الآيات السابقة دلائل وجود الله سبحانه واثبات وحدانيته، عن طريق عرض مظاهر لنظام الكون. وهذه الآيات تتحدث عن أولئك الذين أعرضوا عن كل تلك الدلائل الواضحة، و ساروا على طريق الشرك والوثنية وتعدّد الآلهة.. عن أولئك الذين يحنون رؤوسهم تعظيماً أمام الآلهة المزيفة، ويتعشقونها ويشغفون بها حباً يليق إلا بالله سبحانه مصدر كل الكمالات وواهب جميع النعم.

تقول الآية: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا»^١.

ولم يتخذ المشركون هؤلاء الأنداد للعبادة فحسب، بل «يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ». «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ»، لأنهم أصحاب عقل وادراك، يفهمون أن الله

(١) الانداد جمع (ند) وهو (المثل)، وقال جمع من علماء اللغة، هو المثل المشابه في الجوهر، أي إن المشركين

كانوا يعتقدون بأن هذه الأنداد تحمل الصفات الالهية!

سبحانه مصدر كل الكمالات، وهو وحده اللائق بالحب، ولا يحبون شيئاً آخر إلا من أجله. غمر الحب الالهي قلبهم حتى أصبحوا يرددون مع أمير المؤمنين علي (عليه السلام): «فَهَيَّنِي صَبْرْتُ عَلَىٰ عَذَابِكَ، فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَىٰ فِرَاقِكَ»؟!١.

الحب الحقيقي يتجه دائماً نحو نوع من الكمال، فالإنسان لا يجب العدم والنقص، بل يسعى دوماً وراء الوجود والكمال، ولذلك كان الأكمل في الوجود والكمال أحق بالحب.

الآية أعلاه تؤكد أن حب المؤمنين لله أشد من حب الكافرين لمعبوداتهم. ولم لا يكون كذلك؟! فلا يستوى من يحب عن عقل و بصيرة ومن يحب عن جهل و خرافة و تخيل.

حب المؤمنين ثابت عميق لا يتزلزل، وحب المشركين سطحي تافه لا بقاء له ولا استمرار.

لذلك تقول الآية: «وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا، إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ، أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ» لرأسوء فعلهم و سوء عاقبتهم ٢.

* * *

في هذه اللحظات تزول حجب الجهل والغرور والغفلة من أمام أعينهم، وحين يرون أنفسهم دون ملجأ أو ملاذ، يتجهون الى قادتهم ومعبودهم، ولات حين ملاذ بغير الله «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا، وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ».

واضح أن المعبودين هنا ليسوا الاصنام الحجرية أو الخشبية، بل الطغاة الجبابرة الذين استعبدوا الناس، فقدم لهم المشركون فروض الولاء والطاعة، واستسلموا لهم دون قيد أو شرط.

* * *

هؤلاء الغافلون المغفلون حين يروا ما حل بهم يمتون أنفسهم: «وَقَالَ الَّذِينَ

(١) من دعاء علي (عليه السلام) المروي على لسان كميل بن زياد. المعروف بدعاء (كميل).

(٢) هذا على تفسير «لو» شرطية وجوابها محذوف، ومن المفسرين من قال ان (لو) هنا للتمني.

أَتَّبِعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَّرَآ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأْنَا». لكنها أمنية لا تتحقق، وعبرت آية أخرى عن مثل هذا التمني على لسان كافر يقول لمعبوده المزيف: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَنِي وَبَيْتِكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ» (الزخرف، ٣٨).
ثم تقول الآية: «كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ».

ليس لهم إلا أن يتحسروا، يتحسرون على أموالهم التي كنزوها واستفاد منها غيرهم.. وعلى فرصة الهداية والنجاة التي هيئت لهم فلم يستثمروها.. وعلى عبادتهم لآلهة زائفة بدل عبادة الله الواحد الأحد.
لكنها حسرة باقية.. فالיום يوم الجزاء على ما جنته يد الانسان من أخطاء، وليس يوم تلافي الاخطاء.

* * *

الآيتان

١٦٨ - «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ»
١٦٩ - «إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَإِنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ»

النزول

عن ابن عباس أن طوائف من العرب مثل ثقيف وخزاعة، حرموا على أنفسهم
بعض النباتات والحيوانات دونما دليل، (ونسبوا التحريم الى الله أيضا)، فنزلت الآيتان
تنهاهم عن ذلك.

التفسير

خطوات الشيطان!

ذمّت الآيات السابقة الشرك والمشركين، وأحد أنواع الشرك إيكال أمر التقنين
والتشريع وتقرير الحلال والحرام الى غير الله.

الآية أعلاه اعتبرت هذا العمل شيطانيا وقالت: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي
الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ».

تكرر في القرآن طلب الاستفادة من الأطعمة، وورد الطلب عادة مقيداً بالحلال
وبالطيب.

و «الحلال» ما أبيح تناوله، والطيب ما طاب ووافق الطبع السليم، ويقابله
«الخبيث» الذي يشمأز منه الانسان.

و «الخطوات» جمع «خطوة» وهي المرحلة التي يقطعها الشيطان للوصول الى
هدفه و للتغريب بالناس.

عبارة «لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ» تكررت خمس مرات في القرآن الكريم، وكانت في موضعين بشأن الاستفادة من الأطعمة والرزق الالهي. وهي تحذير من استهلاك هذه النعم الالهية في غير موضعها. وحث على الاستفادة منها على طريق العبودية والطاعة لا الفساد والطغيان في الارض.

النهي عن اتباع خطوات الشيطان في استثمار مواهب الطبيعة، توضحه آيات أخرى تنهى أيضاً عن الافساد في استثمار ما وهبه الله للناس، كقوله تعالى: «كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» (البقرة، ٦٠). و كقوله سبحانه «كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ» (طه، ٨١).

هذه المواهب والامكانات ينبغي أن تكون طاقة دافعة نحو الطاعة لا وسيلة لارتكاب الذنوب.

عبارة «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» تكررت في القرآن بعد الحديث عن الشيطان، كي تحفز الانسان، وتجعله متأهباً لمجاهة هذا العدو اللدود الظاهر.

* * *

الآية التالية تؤكد على عداة الشيطان، وعلى هدفه المتمثل في شقاء الانسان، و تقول: «إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ».

منهج الشيطان يتلخص في ثلاثة أبعاد هي السوء، والفحشاء، والتقول على الله. الفحشاء من «الفحش» وهو كل عمل خارج عن حد الاعتدال، ويشمل كل المنكرات والقبائح المبطنة والعلنية. واستعمال اليوم بمعنى الاعمال المنافية للعفة هو من قبيل استعمال اللفظ الكلي في بعض مصاديقه.

عبارة «تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» قد تشير الى تحريم بعض الاطعمة المحللة، كما مر بنا في سبب النزول. وهو عمل بعض القبائل العربية في الجاهلية، وقيل إن رواسته كانت باقية في ذهن بعض المسلمين الجدد.^١

وقد يتسع معناها ليشمل الشرك والتشبيه بالله أيضاً.

على أية حال، العبارة تشير الى القول غيرالقائم على العلم، وهو قول شيطاني مذموم، خاصة إذا كان متضمناً نسبة شيء الى الله.

الاسلام يحثّ دوماً على الانطلاق من العقل والمنطق في اتخاذ المواقف وفي اصدار الأحكام، ولو كان دأب أفراد المجتمع ذلك لزال من المجتمع الشقاء.

كل ما دخل في الأديان الالهية من تحريف ومسح إنما كان على يد أفراد بعينين عن المنطق، والجانب الاكبر من الانحرافات العقائدية يعود الى عدم رعاية هذا الاصل، لذلك كان محوراً من محاورالنشاط الشيطاني والخطوات الشيطانية في المجتمعات البشرية.

* * *

وقفات

١- أصل الحليّة

هذه الآية تدل أن الأصل في كل الاغذية الموجودة على ظهرالارض الحلية، والمستثناة هي الاغذية المحرمة. من هنا فان الحرمة تحتاج الى دليل لا الحلية. وهذا ما يقتضيه أيضاً طبيعة الخليقة، إذ لا بد من وجود تنسيق بين القوانين التشريعية والقوانين التكوينية.

عبارة أوضح ما خلقه الله لا بد أن ينطوي على فائدة لعباده. من هنا فلا معنى أن يكون الأصل الأوّلي للطعمة على ظهرالارض التحريم. فكل غذاء إذن حسب هذه الآية الكريمة حلال ما لم تثبت حرمة دليل صحيح، وما دام لا يشكل ضرراً على الفرد والمجتمع.

* * *

٢- الانحرافات تدريجية

عبارة «حُطُواتِ الشَّيْطَانِ» قد تشير الى مسألة تربوية دقيقة، هي إنّ الانحرافات تدخل ساحة الانسان بشكل تدريجي، لا دفعي فوري. فتلوّث شاب بالقمار أوبالمخدرات يتم على مراحل:

يشترك أولاً متفرجاً في جلسة من جلسات الخمارين أوالمقامرين، ظانا أنه عمل اعتيادي لا ضيرفيه.

ثم يشترك في القمار للترويح عن النفس (دون ربح او خسارة)، أو يتناول شيئاً من المخدرات بجمعة رفع التعب أو المعالجة أو أمثالها من الحجج. وفي الخطوة الاخرى يمارس العمل المحرم قاصداً أنه يمارسه مؤقتاً. وهكذا تتولى الخطوات واحدة بعد أخرى ويصبح الفرد مقامراً محترفاً أو مدمناً خطراً.

وساوس الشيطان تدفع بالفرد على هذه الصورة التدريجية نحو هاوية السقوط. وليست هذه طريقة الشيطان الاصيلي فحسب، بل كل الأجهزة الشيطانية تنفذ خططها المشؤومة على شكل «خطوات»، لذلك يحذّر القرآن كثيراً من اتخاذ الخطوة الاولى على طريق الانزلاق.

جدير بالذكر أن الأعمال الخرافية غير القائمة على أساس منطقي، اعتبرتها النصوص الاسلامية من «خُطُواتِ الشَّيْطَانِ».

بشأن رجل أقسم أن يذبح ابنه قال الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام): «ذَلِكَ مِنْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ»^١.

وعن الامام محمد بن علي الباقر (عليه السلام): «كُلُّ يَمِينٍ يَغَيِّرُ اللهُ فَهَؤُمِنْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ»^٢.

وعن الامام الصادق أيضاً: «إِذَا حَلَفَ الرَّجُلُ عَلَى شَيْءٍ وَالَّذِي حَلَفَ عَلَيْهِ إِتْيَانُهُ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِهِ فَلْيَاتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَلَا كَفَّارَةَ لَهُ وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ»^٣.

* * *

٣- الشيطان عدو قديم

الآية الكريمة وصفت الشيطان أنه «عَدُوٌّ مُبِينٌ»، وذلك إما لعدائه لآدم بعد أن أبى السجود له، وخسر كل شيء على أثر ذلك. وإما بسبب إغوائه الواضح لبني البشر و دفعهم على طريق الاجرام. وواضح أن هذا الدفع لا يصدر إلا من عدو لدود. أو لأن الشيطان أعلن عداه صراحة للانسان، وعاهد نفسه على إغوائهم إذ

قال: «لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ».

* * *

٤- طريقة الوسوسة الشيطانية

الآية الكريمة تحدث عن أمر الشيطان: فقالت: «إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ...» وهذا الأمر هو الوسوسة الشيطانية. وقد يطرح سؤال بشأن هذه الأوامر الشيطانية، إذ لا يحسّ الانسان بأمر خارجي يصدر اليه حين يرتكب السيئات، ولا يتلمس سعيا شيطانيا لا ضلاله.

الجواب هو أن هذه «الوسوسة» تأثير خفي عبّرت عنه بعض الآيات بالايحاء:

«وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ» (الانعام، ١٢١). والايحاء من «الوحي»

الذي هو تأثير غيبي خفي أو التأثيرات اللاواعية أحيانا.

وثمة فرق بين «الالهام الالهي» و «الوسوسة الشيطانية» هو إن الإلهام الإلهي

لانسجامه مع الفطرة الانسانية ومع تركيب الجسم والروح. يترك في النفس حالة انبساط وانسراح.

بينما الوسوسة الشيطانية لتناقضها مع الفطرة الانسانية السليمة، تجعل القلب يحسّ

بظلام وانزعاج وثقل. وإن لم يحدث فيه مثل هذا الاحساس قبل ارتكاب السيئة فإنه

يحسّ بها بعد الارتكاب. هذا هو الفرق بين الالهامات الشيطانية والالهامات الالهية.

* * *

الآيتان

- ١٧٠ - «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ».
- ١٧١ - «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ».

التفسير

التقليد الأعمى

تشير الآية الى منطلق المشركين الواهي في تحريم ما أحل الله، وتقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا».

ويدين القرآن هذا المنطق الخرافي، القائم على أساس التقليد الأعمى لعادات الآباء والاجداد، فيقول: «أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ».

أي إن اتباع الآباء صحيح لو أنهم كانوا على طريق العقل والهداية. أما إذا كانوا لا يعقلون ولا يهتدون، فما اتباعهم إلا تركيز للجهل والضلال.

الانسان الجاهلي لا يستند الى قاعدة ايمانية يحس معها بوجوده وبشخصيته و بأصالته، لذلك يستند الى مفاخر الآباء وعاداتهم وتقاليدهم، ليصطنع له شخصية كاذبة وأصالة موهومة. وهذه عادة الجاهليين قديماً وحديثاً.

الاسلام أدان المنطق الرجعي القائم على تقديس ما عليه الآباء والأجداد، لأنه ينفي العقل الانساني. ويرفض تطور التجارب البشرية، ويصادر الموضوعية في معالجة قضايا السلف.

هذا المنطق الجاهلي يسود اليوم في بقاع مختلفة من عالنا، ويظهر هنا وهناك بشكل «صنم» يوحي بعادات وتقاليد خرافية مطروحة باسم «آثار الآباء» ومؤمراة

بأسم الحفاظ على المآثر القوميّة والوطنية، مشكّلاً بذلك أهم عامل لانتقال الخرافات من جيل الى جيل آخر.

لا مانع طبعاً من تحليل عادات الآباء وتقاليدهم، فما انسجم منها مع العقل والمنطق حُفِظَ، وما كان وهماً وخرافة أُفِظَ. المقدار المنسجم مع العقل والمنطق من العادات والتقاليد يستحق الحفظ والصيانة باعتباره تراثاً قومياً. أما الاستسلام التام الاعمى لتلك العادات والتقاليد فليس إلا الرجعية والحماقة.

جدير بالذكر أن الآية أعلاه تتحدث عن آباء هؤلاء المشركين وتقول عنهم إنهم لا يعلمون، ولا يهتدون. وهذا يعني إمكان الاقتداء بآئتين: بمن كان يملك الفكر والعقل والعلم، ومن كان قد اهتدى بعلم عالم آخر.

أما أسلاف هؤلاء فلم يكونوا يعلمون، ولم يكونوا قد اهتدوا بمن يعلم.

الآية التالية تبين سبب تعصّب هؤلاء واعراضهم عن الانصياع لقول الحق تقول: «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً». أي كمثل الذي يصوت بما لا يسمع من البهائم إلا الصياح. بعبارة واضحة إن مثل الذين كفروا في دعائك إياهم، أي مثل الداعي لهم الى الايمان، كمثل الناقع في دعائه المنعوق به من البهائم التي لا تفهم وانما تسمع الصوت. و بعبارة أوضح: كما إن الانعام لا يحصل لها من دعاء الراعي إلا السماع دون تفهم المعنى، فكذلك الكفار لا يحصل لهم من دعائك إياهم الى الايمان الا السماع دون تفهم المعنى، لانهم يعرضون عن قبول قولك وينصرفون عن تأمله، فيكونون بمنزلة من لم يعقله ومن لم يفهمه. وهذا كما تقول العرب: فلان يخافك كخوف الاسد، أي كخوفه من الاسد.^١

ثم تضيف الآية لمزيد من التأكيد والتوضيح أن هؤلاء «صُمُّ بُكْمٌ عُُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ».

ولذلك يتمسكون بالتقاليد الخاطئة لآبائهم، ويعرضون عن كل دعوة بتاء.

وقيل في تفسير الآية أيضاً إن معناها: مثل الذين يدعون أصنامهم وأهتهم الكاذبة كالذي يدعوا بهائم، لالحيوانات تفهم النداء ولا تلك الاصنام، لأن هذه الاصنام صماء بكاء عمياء لا تعقل.
أكثر المفسرين على التفسير الاول للآية، والروايات الاسلامية تؤيده.

* * *

وقفتان

١ - سبل المعرفة - يحتاج الانسان في ارتباطه بالخارج دون شك الى سبل، تسمى سبل المعرفة. أهم هذه السبل العين والأذن للرؤية والسمع، واللسان للسؤال. لذلك، بعد أن تصف الآية هؤلاء بأنهم صم بكم عمى، تستنتج باستعمال فاء التفریع وتقول: «فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ».
من هنا يقرر القرآن أن أساس العلوم العين والأذن واللسان، العين والاذن للفهم المباشر، واللسان لاقامة الارتباط بالآخرين وكسب علومهم. والفلسفة أثبتت أيضاً حقيقة انطلاق العلوم غيرالحسية أيضاً من العلوم الحسية، وهو بحث واسع لا مجال هنا لشرحه. (لمزيد من التوضيح في حق نعمة سبل المعرفة راجع المجلد الحادي عشر من هذاالتفسير، في شرح الآية ٧٨ من سورة النحل).

* * *

٢ - نعق، و نَعَقَ الغراب: إذا صَوَّت دون أن يمدَّ عنقه، فإذا مدَّ عنقه وحركها ثم صاح قيل: نَعَبَ.
ثم توسَّعوا في نعق لتشمل كل صوت تنادى به البهائم، وواضح أن هذه البهائم لا تفهم شيئاً من هذا النداء، وإن أبدت رد فعل تجاه هذاالنداء، فانما هو لدوي هذاالصوت وطريقة أدائه الخاصة.

الآيات

١٧٢ - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ».

١٧٣ - «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

التفسير

الطيبات والحباث

القرآن يهيج أسلوب التأكيد والتكرار بأشكال مختلفة في معالجته للانحرافات المزمنة. وفي هذه الآيات عودة الى مسألة تحريم المشركين في الجاهلية لبعض الأطعمة دونما دليل. مع فارق هو أن الخطاب يتجه في هذه الآيات إلى المؤمنين، بينما خاطبت الآيات السابقة جميع الناس.

تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ، وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ».

هذه النعم الطيبة المحللة المتناسبة مع الفطرة الانسانية السليمة، قد خلقت لكم، فلم لا تستفيدون منها؟!

هذه الاطعمة تمنحكم القوة على أداء مهامكم، و تذكركم بشكر خالقكم وعبادته.

لو قارنا هذه الآية بقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ» (الآية ١٦٨ من هذه السورة) لألقت نظرنا مسألتان:

تقول الآية هنا: «مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ»، بينما تقول تلك «مِمَّا فِي الْأَرْضِ». ولعل هذا الاختلاف يشير الى أن النعم الطيبة مخلوقة أصلاً للمؤمنين، وغير المؤمنين

يتناولون هذه الأطعمة ببركة المؤمنين، فالبستاني يسقي أشجاره وأغراسه، بينما تستفيد من هذا الماء أيضاً الأعشاب والنباتات الطفيلية.

والأخرى، أن الآية تقول لعامة الناس: «كُلُوا.. وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وهذه الآية تحاطب المؤمنين وتقول: «كُلُوا... وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ» أي لا تكتفي هذه الآية بالطلب من المؤمنين أن لا يسيئوا الاستفادة من هذه النعم، بل تحثهم على حسن الاستفادة منها.

فالمتوقع من الناس العاديين أن لا يذنبوا في استهلاك هذه النعم، بينما المتوقع من المؤمنين أن يستثمروها في أفضل طريق.

وقد يثير تكرار التأكيد في القرآن الكريم على الاستفادة من الاطعمة الطيبة، تساؤلاً بشأن سبب هذا التكرار. أما لو عدنا الى تاريخ العصر الجاهلي لفهمنا السبب. فالجاهليون قد حرّموا على أنفسهم بعض الاطعمة دونما دليل، وتناقلت أجيالهم هذا التحريم و كأنه وحى منزل، ونسبوه أحياناً بصراحة الى الله، والقرآن استهدف اقتلاع جذور هذه الأفكار الخرافية من أذهانهم.

ثم إن التركيز على كلمة «طيب» يتضمن أيضاً دعوة الى اجتناب ما خبث من الأطعمة، كالميتة والمفترسات والحشرات، و كالمسكرات السائقة بين الناس بشدة آنذاك .

في تفسير الآية ٣٢ من سورة الاعراف تحدثنا بالتفصيل عن استثمار المؤمنين الأطعمة الطيبة والزينة المعقولة (المجلد السادس من هذا التفسير).

* * *

الآية التالية تبين بعض ألوان الأطعمة المحرمة، وتقول: «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ».

تذكر الآية ثلاثة أنواع من اللحوم المحرمة إضافة الى الدم، وهي من أكثر المحرمات انتشاراً في ذلك العصر، في بعضها خبث ظاهر لا يخفى على أحد، كالميتة والدم ولحم الخنزير، وفي بعضها خبث معنوي كالتي ذبحت من أجل الاصنام.

الحصر في الآية بكلمة «إنما» هو «حصر إضافي» لا يستهدف منه بيان جميع

المحرمات، بل نفي ما ابتدعوه بشأن بعض اللحوم المحللة. بعبارة أخرى، هؤلاء الجاهليون حرّموا بعض الأطعمة الطيبة استناداً الى ماتوارثوه من خرافات و أوهام، لكنهم بدلا من ذلك كانوا يعمدون عند قلة الطعام الى أكل الميتة أو الخنزير أو الدم.

القرآن يقول لهؤلاء إن هذه هي الاطعمة المحرمة لا تلك (وهذا هو معنى الحصر الاضافي).

ولما كانت بعض الضرورات تدفع الانسان الى تناول الاطعمة المحرمة حفظا لحياته، فقد استثنت الآية هذه الحالة وقالت: «فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ». ومن أجل أن تقطع الآية الطريق أمام من يتذرع بالاضطرار، أكدت على كون المضطر «غير باغ» و «لا عاد». والباغي هو الطالب، والمراد هنا طالب اللذة، والعادي هو المتجاوز للحد، أي المتجاوز لحدّ الضرورة. فالرخصة هنا إذن لمن لا يريد اللذة في تناول هذه الاطعمة، ولا يتجاوز حدّ الضرورة اللازمة لنجاته من الموت.

و لأن معنى البغي الظلم أيضا، ذهب بعض المفسرين الى أن الرخصة ممنوحة لأولئك الذين يضطرون خلال سفر محلل، لا خلال سفر المعصية.

فالمسافرون لهدف ينطوي على ذنب ومعصية، لا رخصة لهم في تناول الأطعمة المحرمة حتى ولو اضطروا الى ذلك، ولو تناولوها لازدادوا إثما.

بعبارة أخرى، هؤلاء العاصون قد يستوجب عليهم عقلا في أسفارهم المحرمة أن يتناولوا شيئا من الأطعمة المحرمة لدى الاضطرار، لكن هذا الوجوب لا يرفع عنهم المسؤولية لأنهم أجبروا على ذلك وهم على مسير خاطي.

وهناك روايات تذكر أن الآية تشير الى السائرين على طريق الخروج على أمام المسلمين، فهؤلاء مستثنون من هذه الرخصة. وهذه الروايات تشير في الواقع الى نفس الحقيقة المذكورة، وهكذا الامر في أحكام صلاة المسافر، فالمسافر يقصر الصلاة في السفر، الا ما كان سفراً حراماً، و لذلك يستدلّ بعبارة (غير باغ ولا عاد) للحكمين معاً، حكم صلاة المسافر، وحكم ضرورة تناول اللحوم المحرمة.^١

(١) روي عن الامام الصادق (عليه السلام) أنّ (الباغي) هُوَ الدَّاهِبُ لِلصَّيْدِ عَلَى سَبِيلِ التَّنَزُّو، وَ

وقفات

١ - فلسفة تحريم اللحوم المحرمة

الاغذية المحرمة التي ذكرتها الآية الكريمة أعلاه، لها - كسائر المحرمات الالهية - فلسفتها الخاصة. وقد شرّعت انطلاقاً من خصائص الانسان جسمياً وروحياً. والروايات الاسلامية ذكرت علل بعض هذه الاحكام، والعلوم الحديثة أماطت اللثام أيضاً عن بعض هذه العلل.

على سبيل المثال، روي عن الامام الصادق (عليه السلام) قال: «... أَمَا الْمَيْتَةُ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَلْ مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا ضَعُفَ بَدَنُهُ، وَذَهَبَتْ قُوَّتُهُ، وَأَنْقَطَعَ نَسْلُهُ، وَلَا يَمُوتُ إِلَّا كَيْلُ الْمَيْتَةِ إِلَّا فُجَاءَةً»^١.

ولعل هذه المفاصد تعود الى أن جهاز الهضم لا يستطيع أن يصنع من الميتة دماً سالماً حياً، إضافة الى أن الميتة مرتع أنواع الميكروبات، والاسلام اعتبر الميتة نجسة، كي يبتعد عنها المسلم فضلاً عن عدم تناولها.

والمحرّم الثاني في هذه الآية «الدم»، وشرب الدم له مفاصد أخلاقية وجسمية، فهو وسط مستعد تماماً لتكاثر أنواع الميكروبات.

الميكروبات التي تدخل البدن تتجه أول ما تتجه الى الدم، و تتخذه مركز النشاطها، ولذلك اتخذت الكريات البيضاء مواقعها في الدم للوقوف بوجه توغل هذه الأحياء المجهرية في الدم المرتبط بكل أجزاء الجسم.

وحين يتوقف الدم عن الحركة و تنشل الحياة فيه، يتوقف نشاط الكريات البيض أيضاً، و يصبح الدم بذلك وسطاً صالحاً لتكاثر الميكروبات دون أن تواجه عقبة في التكاثر. و لذلك نستطيع القول إن الدم - حين يتوقف عن الحركة - يكون أكثر أجزاء

(العادي) هُوَ السَّارِقُ. وَ هَذَا مِنْ مُسْتَشْتَبَاهِ مَنْ رُخِصَ أَكْلُ الْمَيْتَةِ وَقَضِيَ الصَّلَاةُ (وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٥٠٩).

(١) وسائل الشيعة، ج ١٦ ص ٣١٠.

جسم الانسان والحيوان تلوثا.

ومن جهة أخرى ثبت اليوم في علم الأغذية، أن الأغذية لها تأثير على الأخلاق والمعنويات عن طريق التأثير في الغدد وإيجاد الهورمونات. ومنذ القديم ثبت تأثير شرب الدم على تشديد قسوة الانسان، وأصبح ذلك مضرب الأمثال. لذلك نرى الرواية عن الامام جعفر بن محمد (عليه السلام) تقول:

أما الدم فانه يورث القسوة في القلب وقلّة الرأفة والرحمة حتى لا يؤمن ان يقتل ولده والديه ولا يؤمن على حميمه ولا يؤمن على من يصحبه.^١

ثالث المحرمات المذكورة في الآية «لحم الخنزير»

الخنزير - حتى عند الاوربيين المولعين بأكل لحمه - رمز التحلل الجنسي. وهو حيوان قدر للغاية، وتأثير تناول لحمه على التحلل الجنسي لدى الانسان مشهود.

حرمة تناول لحمه صرحت بها شريعة موسى (عليه السلام) أيضاً، وفي الأناجيل شُبه المذنبون بالخنزير، كما ان هذا الحيوان مظهر الشيطان في القصص.

ومن العجيب أن أناساً يرون بأعينهم قذارة هذا الحيوان حتى إنه يأكل عذرتة، و يعلمون احتواء لحمه على نوعين خطرين من الديدان، ومع ذلك يصرون على أكله.

دودة «التريشين» التي تعيش في لحم هذا الحيوان تتكاثر بسرعة مدهشة، وتضع في الشهر خمسة عشر الف بيضة، وتسبب للانسان امراضا متنوعة كفقرا الدم، والغثيان، وحمى خاصة، والاسهال، وآلام المفاصل، وتوثر الاعصاب، والحكة، وتجمع الشحوم داخل البدن، والاحساس بالتعب، وصعوبة مضغ الطعام وبلعه، والتنفس...

وقد يوجد في كيلو واحد من لحم الخنزير (٤٠٠) مليون دودة من هذه الديدان!! ولذلك أقدمت بعض البلدان الاوربية في السنوات الماضية على منع تناول لحم هذا الحيوان.

وهكذا تتجلى عظمة الاحكام الالهية بمرور الأيام أكثر فأكثر.

ولو افترضنا أن العلم تطور بحيث استطاع أن يقضي على ديدان هذا الحيوان، فان

أضراره الأخرى ستبقى. وقد ذكرنا أن للأطعمة تأثيراً على أخلاق الانسان عن طريق تأثيرها على الغدد والهورمونات. من هنا تبقى للحم الخنزير خطورته في التأثير على التحلل الجنسي للآكلين، وهي صفة بارزة في هذا الحيوان.

ولعل تناول لحم هذا الحيوان واحد من عوامل التحلل الجنسي في اوربا. رابع المحرمات في الآية «ما أهلَّ به لغير الله»، وهي الحيوانات التي يذبح على غير اسم الله، كالتي كانت تقدم للاصنام في الجاهلية. وتحريم لحوم هذه الحيوانات له جانب معنوي واخلاقي وتربوي، فهذه اللحوم تبعد الانسان عن الله، ولها تأثير نفسي وتربوي سلبي على الآكل، لانها من سنن الشرك والوثنية وتعيد الى الذهن تلك التقاليد الخرافية.

* * *

٢ - التكرار والتأكيد - تحريم المواد الاربع المذكورة تكرر في أربع سور من القرآن، سورتين مكيتين (الانعام - ١٤٥ و النحل-١١٥)، وسورتين مدنيتين (البقرة- ١٧٣ والمائدة- ٣).

يبدو أن تحريم هذه اللحوم أعلن أولاً في أوائل البعثة، ثم أعلن ثانية في أواخر إقامة الرسول (صلى الله عليه وآله) في مكة، وتكرر الإعلان الثالثة في أوائل الهجرة الى المدينة، ثم أعيد التأكيد رابعة في أواخر عمر الرسول في سورة المائدة وهي آخر سور القرآن. كل هذا التأكيد يعود الى أهمية الموضوع و الى ما في هذه المواد من أخطار جسمية و روحية، و الى اتساع نطاق تلوث الناس آنئذ بها.

* * *

٣ - حقن الدم - واضح أن تحريم تناول الدم في الآية لا يشمل موارد الاستفادة المعقولة من هذه المادة مثل حقن الدم لانقاذ الجرحى والمرضى كما لا يتوفر لدينا دليل على حرمة بيع الدم وشرائه في هذه الموارد، لأنها موارد استفادة عقلانية مشروعة عامة.

* * *

الآيات

- ١٧٤ - «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا التَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»
- ١٧٥ - «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى التَّارِ»
- ١٧٦ - «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَيِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ»

النزول

أجمع المفسرون على نزول هذه الآية في أهل الكتاب، وقيل إنها نزلت خاصة في علماء اليهود. فقد كانوا قبل ظهور الاسلام ييشرون بصفات النبي المرتقب وبعلاماته. و بعد البعثة خاف هؤلاء الاحبار على مصالحهم فكفوا عن طريقتهم السابقة، وكتبوا ما عندهم في التوراة من صفات النبي، فنزلت الآيات تؤنبهم.

التفسير

ادانة كتمان الحق أيضاً

هذه الآيات تأكيد على ما مر في الآية ١٥٩ بشأن كتمان الحق. وهي - وان كانت تخاطب أحبار اليهود - لها مفهوم عام، لا يقتصر - كما ذكرنا مراراً على سبب نزولها. فسبب النزول - في الواقع - وسيلة لبيان الاحكام الكلية العامة، ومصدق من مصاديق الحكم الكلي للآية.

فكل الذين يكتمون أحكام الله وما يحتاجه الناس من حقائق، طلباً للرئاسة

أوالشروة، قد ارتكبوا خيانة كبرى، وعليهم أن يعلموا أنهم باعوا حقيقة نفيسة بثمن بخس، وهي تجارة خاسرة.

الآية الاولى تقول: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا التَّارَ».

هذه الهدايا والعطايا التي ينالونها من هذا الطريق نيران محرقة تدخل بطونهم. هذا التعبير يوضح ضمناً مسألة تجسيم الأعمال، في الآخرة، وتدل أن الاموال المكتسبة عن هذا الطريق المحرم، هي في الواقع نيران تدخل في بطونهم ستتجسم بشكل واقعي في الآخرة.

ثم تتعرض الآية الى عقاب معنوي سينال هؤلاء أشد من العقاب المادي، وتقول: «وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

و في موضع آخر ذكر القرآن مثل هذا اللون من العقاب لأولئك الذين ينكثون عهد الله من أجل مصالح تافهة، فقال: «إِنَّ الَّذِينَ بَشَّرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». (آل عمران، ٧٧).

يستفاد من هذه الآية والآية التالية أن واحدة من أعظم المواهب الالهية في الآخرة ان يكلم الله المؤمنين تلطفاً بهم. أي إن المؤمنين سينالون في الآخرة نفس المنزلة التي نالها أنبياء الله في الدنيا، وسيلتذون بما التذبه الانبياء من تكليم الهي... واية لذة أعظم من هذه اللذة؟!!

أضف الى ذلك إن الله ينظر اليهم بعين لطفه، ويطهرهم بماء عفوه ورحمته، واية نعمة أعظم من هذه النعمة؟!!

بديهي أن تكليم الله عباده لايعني أن الله جسم وله لسان، بل إنه بقدرته الواسعة يخلق في الفضاء أمواجاً صوتية خاصة قابلة للسمع والادراك ، (كما كلم الله موسى عند جبل الطور)، أو انه يتكلم مع خاصة عباده بلسان القلب عن طريق الالهام.

على أية حال، هذا اللطف الالهي الكبير، وهذه اللذة المعنوية المنقطعة النظير، للعباد المخلصين الذين ينطقون بالحق ويعرفون الناس بالحقائق، و يلتزمون بعهودهم

ومواثيقهم، ولا يضحون برسالتهم من أجل مصالحهم المادية.
وقد يسأل سائل عن تكليم الله المجرمين يوم القيامة، استناداً الى ما ورد في الآيات كقوله تعالى: «قَالَ: أَحْسَبُ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ» (المؤمنون - ١٠٨). وهذا جواب من الله لأولئك الذين يطلبون الخروج من النار. ومثل هذا الحوار نجده في الآيتين ٣٠ و ٣١ من سورة الجاثية.

والجواب أن المقصود من التكليم في آيات بحثنا، هو تكليم عن لطف وحب واحترام، لا عن تحقير وطرده و عقوبة فذلك من أشد الجزاء.
من الواضح أن عبارة «يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا» لا تعني السماح بأن يشتروا به ثمننا باهضاً، فالمقصود أن الثمن المادّي مهما زاد فهو تافه لا قيمة له أمام كتمان الحقّ، حتى ولو كان الثمن الدنيا وما فيها.

* * *

الآية التالية تحدد وضع هذه المجموعة وتبين نتيجة صفقتها الخاسرة وتقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ».
فهؤلاء خاسرون من ناحيتين: من ناحية تركهم الهداية واختيار الضلالة، ومن ناحية حرمانهم من رحمة الله واستحقاقهم بدل ذلك العقاب الالهي، وهذه مبادلة لا يقدم عليها إنسان عاقل.

لذلك تتحدث الآية عن هؤلاء بلغة التعجب وتقول: «فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ»؟!

* * *

آخر آية في بحثنا تقول إن ذلك التهديد والوعيد بالعذاب لكاتمين الحق، يعود الى أن الله أنزل القرآن بالدلائل الواضحة، حتى لم تبق شبهة لأحد: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ».

مع ذلك فإن زمرة محرفة تعمد الى كتمان الحقائق صيانة لمصالحها، وتثير الاختلاف في الكتاب السماوي لتتصيد في الماء العكر.
مثل هؤلاء الذين يثيرون الاختلاف في الكتاب السماوي بعيدون عن الحقيقة:

«وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَيَشِقُّونَ بَعِيدٌ».

كلمة «شقاق» تعني في الاصل الشق والانفصال، ولعل المراد به أن الايمان والتقوى ونشر الحقائق رمز وحدة المجتمع الانساني، أما الخيانة وكتمان الحقائق فعامل التفرقة والتبعثر والانشقاق لا الانشقاق السطحي.. بل البعيد.

* * *

الآية

١٧٧ - «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ»

النزول

تغيير القبلة أثار بين الناس ضجة، وخاصة بين اليهود والنصارى الذين كانوا يرون في أتباع المسلمين لقبلتهم سند افتخارهم. القرآن الكريم رد في الآية ١٤٢ من هذه السورة على اعتراضاتهم، وفي هذه الآية يطرح المعيار الصحيح لتقييم المجموعة البشرية.

* * *

التفسير

أساس البر

ذكرنا في تفسير آيات تغيير القبلة، أن النصارى كانوا يتجهون في عباداتهم نحو الشرق واليهود نحو الغرب، وقرر الله الكعبة قبلة للمسلمين، وكانت في اتجاه الجنوب وسطا بين الاتجاهين. ومر بنا الحديث عن الضجة التي أثارت بين أعداء الاسلام والمسلمين الجدد بشأن تغيير القبلة.

الآية أعلاه تخاطب هؤلاء وتقول: «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ

وَالْمَغْرِبِ».

«البرّ» في الأصل التوسع، ثم أطلق على أنواع الاحسان، لأن الانسان بالإحسان يخرج من إطار فانه ليتسع و يصل عطاؤه الى الآخرين.
و «البرّ» بفتح الباء، فاعل البرّ، وهي في الأصل الصحراء والمكان الفسيح، واطلقت على المحسن بنفس اللحاظ السابق.

ثم يبين القرآن أهم أصول البرّ والاحسان وهي ستة، فيقول: «وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ».

هذا هو الأساس الأول: الإيمان بالمبدأ، والمعاد، والملائكة المأمورين من قبل الله، والمنهج الالهي، والنبیین الدعاة الى هذا المنهج. والايان بهذه الامور يُضيء وجود الانسان، و تخلق فيه الدافع القوي للحركة على طريق البناء والأعمال الصالحة.

جدير بالذكر أن الآية تقول: «وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ...» ولم تقل ولكن البرّ بفتح الباء، أو البار بصيغة اسم الفاعل. أي إن الآية استعملت المصدر بدل الوصف، وهذا يفيد بيان أعلى درجات التأكيد في اللغة العربية. فحين يقول أحد: على عدل، فهو يقصد أنه عادل للغاية وحين يقول: بني أمية ذلك الاسلام، فيعني أن كل وجودهم ذلك للاسلام.
ثم تذكر الآية الإنفاق بعد الايمان، وتقول: «وَأَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَارْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ».

إنفاق المال ليس بالعمل اليسير على الجميع، خاصة إذا بلغ الإنفاق درجة الايثار، لأن حبّ المال موجود بدرجات متفاوتة في كل القلوب. و عبارة «عَلَىٰ حُبِّهِ» إشارة الى هذه الحقيقة. هؤلاء يندفعون للإنفاق رغم هذا الحبّ للمال من أجل رضا الله سبحانه.

الآية عددت ستة أصناف من المحتاجين الى المال:

ذكرت بالدرجة الاولى ذوي القربى، ثم اليتامى والمساكين، ثم أولئك الذين اعترتهم الحاجة موقتا كابن السبيل وهو المسافر المحتاج، ثم تذكر الآية بعد ذلك السائلين إشارة الى أن المحتاجين ليسوا جميعا أهل سؤال. فقد يكونون متعفين لا تبدو على سيماهم الحاجة، لكنهم في الواقع محتاجون، وعن هؤلاء قال القرآن في موضع آخر: «يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ» (البقرة - ٢٧٣).

والأصل الثالث من أصول البر: إقامة الصلاة: «وَأَقَامَ الصَّلَاةَ». والصلاة إن أداها الفرد بشروطها وحدودها، وباخلاص وخضوع، تصده عن كل ذنب وتدفعه نحو كل سعادة وخير.

والاصل الرابع أداء الزكاة والحقوق المالية الواجبة: «وَأَتَى الزَّكَاةَ».

فَالآيَةُ سَبَقُ أَنْ ذَكَرْتَ الْإِنْفَاقَ الْمُسْتَحَبَّ، وَهَذَا تَذَكُّرُ الْإِنْفَاقِ الْوَاجِبِ. بعض الناس يكثر من المستحبات في الإنفاق ويتساهل في الواجب، وبعضهم يلتزم بالواجب فقط ولا ينفق درهما في إيثار. والمحسنون الحقيقيون هم الذين ينفقون في المجالين معاً. يلفت النظر أن الآية ذكرت عبارة «عَلَى حُبِّهِ» بعد الإنفاق المستحب. ولم تذكر ذلك مع الزكاة الواجبة. ولعل ذلك يعود الى أن أداء الحقوق الواجبة وظيفية إلهية واجتماعية، والفقراء- في منطلق الاسلام - شركاء في أموال الاغنياء، ودفع المال للشريك لا يحتاج الى العبارة المذكورة.

الخامس من الأصول: الوفاء بالعهد: «وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا»، فالثقة المتبادلة رأس مال الحياة الاجتماعية. وترك الوفاء بالعهد من الذنوب التي تنزل الثقة وتوهن عرى العلاقات الاجتماعية، من هنا وجب على المسلم أن يلتزم بثلاثة أمور تجاه المسلم والكافر، وازاء البرّ والفاجر، وهي: الوفاء بالعهد و أداء الأمانة واحترام الوالدين^١.

الاساس السادس والأخير من أسس البرّ في نظر الاسلام: الصبر: «وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ»^٢. ثم تؤكد الآية على أهمية الأسس الستة وعلى عظمة من يتحلّى بها، فتقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ».

صدقهم يتجلّى في انطباق أعمالهم وسلوكهم مع إيمانهم ومعتقداتهم، وتتجلّى

(١) اصول الكافي، ج ٢، باب البر بالوالدين، ص ١٢٩، حديث ٥.

(٢) البأساء من البؤس وهو الفقر، والضراء تعني الأُم والمرض، وحين البأس أي حين الحرب

(مجمع البيان الآية).

تقواهم في التزامهم بواجبهم تجاه الله وتجاه المحتاجين والمحرومين وكل المجتمع الانساني. والصفات الست المذكورة تشمل الاصول الاعتقادية والاخلاقية والمناهج العملية. فتضمنت الآية كل أسس العقيدة، وأشارت الى الانفاق والصلاة والزكاة بين المناهج العملية، وهي أسس ارتباط المخلوق بالخالق، والمخلوق بالمخلوق. و في الحقل الاخلاقي ركزت الآية على الوفاء بالعهد، وعلى الصبر والاستقامة والثبات، وهي أساس كل الصفات الأخلاقية السامية.

* * *

الآيتان

١٧٨ - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ، وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ، وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى، فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءً إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ، فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

١٧٩ - «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

النزول

شاع بين القبائل العربية انتقام قبيلة من قبيلة أخرى، ولم يكن لهذا الانتقام حدود، فقد يقتل رجل فتهدد قبيلته قتل كل رجال قبيلة القاتل، فنزلت الآية وشرعت حكم القصاص.

وهذا الحكم الاسلامي جاء ليقرر الموقف من عرفين قائمين عند العرب، عرف يرى حتمية القصاص، وعرف يرى حتمية الدية. فجاءت الآية لتقرر القصاص عند عدم موافقة أولياء المقتول على أخذ الدية، وإن وافقوا فالدية.

التفسير

في القصاص حياة

الآيات السابقة طرحت المنهج الاسلامي في «البر»، وهنا يقدم القرآن الكريم - وهكذا في الآيات التالية - مجموعة من الأحكام الإسلامية، إكمالاً لبيان المنهج الاسلامي في الحياة.

تبدأ هذه الأحكام من مسألة حفظ حرمة الدماء، وهي مسألة هامة في الحياة الاجتماعية، فتنفي العادات والتقاليد الجاهلية، وتقول للمؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ».

عبارة «كُتِبَ عَلَيْكُمُ» تبين أهمية الموضوع، وتوحي بالتأكيد عليه، وذكرت في آيات أخرى بشأن الصوم والوصية، ولا يكتب من المسائل عادة إلا ما كان قاطعاً و جاداً.

و «القصاص» من «قص»، يقال قصّ أثره: أي تلاه شيئاً بعد شيء. ومنه القصاص لأنه يتلوا أصل الجناية ويتبعه، وقيل هو أن يفعل بالثاني مثل ما فعله هو بالأول، مع مراعاة المماثلة، ومنه أخذ القصص كأنه يتبع آثارهم شيئاً بعد شيء^١. الآية كما ذكرنا تستهدف بيان الموقف الصحيح من المجرم، ولفظ القصاص يدل على إنزال عقوبة بالمجرم مماثلة لما ارتكبه هو، لكن الآية لا تكتفي بذلك بل بينت التفاصيل فقالت: «الْحُرُّ بِالْحُرِّ، وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ، وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى».

سنوضح إن شاء الله مسألة قصاص الأنثى بالأنثى، ونبين أنّ الرجل قاتل المرأة يمكن إنزال عقوبة القتل بحقه ضمن شروط.

ثم تبين الآية أنّ القصاص حق لأولياء المقتول، وليس حكماً الزامياً إن شاؤوا أن يعفوا ويأخذوا الدية، وإن شاؤوا ترك الدية أيضاً فلهم ذلك، وتقول: «فَمَنْ غَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ»، فبعد تبدل حكم القصاص عند عفو أولياء المقتول الى دية «فَاتَّبَاعِ بِالْمَعْرُوفِ» أي فعل العافي اتباع بالمعروف، وهو أن لا يُشَدَّدَ في طلب الدية و ينظر من عليه الدية، «وَأَدَاءِ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ» أي على المعفوع عنه أن يبادر الى دفع الدية عند الإمكان، وأن لا يماطل.

التوصية الى من له الدية أن لا يشدد في طلبه، وأن يستوفي حقه بشكل معقول.. وعلى من عليه الدية أن يؤديها باحسان، وأن لا يسوّف ويماطل.

ثم تؤكد الآية على ضرورة الالتزام بحدود ما أقره الله، وعدم تجاوز هذه الحدود: «ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ، فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

وهذا الامر بالقصاص وبالعفو يشكل تركيباً انسانياً منطقياً. فهو من جهة يدين

التقاليد السائدة في الجاهلية الأولى والجاهليات التالية الى يومنا هذا، القاضية بالانتقام للمقتول الواحد بقتل الآلاف.

ومن جهة أخرى، يفتح باب العفو أمام المذنب، مع الحفاظ على احترام الدم وردع القتالين.

ومن جهة ثالثة، لا يحقّ بعد العفو وأخذ الدية، للطرفين التعدي، خلافاً للجاهليين الذين كانوا يقتلون القتال أحياناً حتى بعد العفو وأخذ الدية.

* * *

الآية التالية قصيرة العبارة وافرة المعنى، تجيب على كثير من الاسئلة المطروحة في حقل القصاص، و تقول: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

هذه الآية بكلماتها العشر، تضع الاطار العام - ببلاغة و فصاحة متناهيين - للقصاص في الاسلام، وتبين أن القصاص ليس انتقاماً، بل السبيل الى الحياة، الحياة الانسانية.

إنه يضمن حياة المجتمع، إذ لو انعدم حكم القصاص، وتشجع القتل القساة على تعريض أرواح الناس للخطر - كما هو الحال في البلدان التي ألغت حكم القصاص - لارتفعت إحصائيات القتل والجريمة بسرعة.

وهو من جهة أخرى، يصون حياة القتال، بعد أن يصدّه الى حدّ كبير عن ارتكاب جريمته.

كما أنه يصون المجتمع من الانتقام والإسراف في القتل على طريقة التقاليد الجاهلية. وهو بذلك يصون حياة المجتمع.

و عبارة «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» تحذير من كل عدوان لتكميل هذا الحكم الإسلامي العادل الحكيم.

* * *

وقفات

١- القصاص والعفو تركيب عادل

النظرة الاسلامية نظرة شمولية في كل المجالات، قائمة على احتساب جميع جوانب

الامر الذي تعالجه. مسألة صيانة دم الابرياء، عاجلها الاسلام بشكل دقيق بعيد عن كل افراط أو تفريط، لا كما عاجلتها الديانة اليهودية المحرّفة التي اعتمدت القصاص، ولا الديانة المسيحية المحرّفة التي ركزت على العفو.. لأن في الاولى خشونة وانتقاماً، و في الثانية تشجيعاً على الاجرام.

ولو افترضنا أنّ القاتل والمقتول أخوان أو قريبان أو صديقان، فإن الاجبار على القصاص يدخل لوعة أخرى في قلب أولياء المقتول، خاصة إذا كان هؤلاء من ذوي العواطف الإنسانية المرفهة. وتحديد الحكم بالعفو يؤدي الى تجرؤ المجرمين وتشجيعهم. لذلك ذكرت الآية حكم القصاص باعتباره اساساً للحكم، ثم ذكرت الى جانبه

حكم العفو.

بعبارة أوضح، لأولياء المقتول أن ينتخبوا أحد ثلاثة أحكام:

- ١ - القصاص.
- ٢ - العفو دون اخذ الدية.
- ٣ - العفو مع اخذ الدية (وفي هذه الحالة تشترط موافقة القاتل أيضاً).

* * *

٢ - هل يتعارض القصاص مع العقل والعواطف الانسانية؟

ثمة فئة يحلو لها أن توجه إلى الإسلام - دون تفكير - إعتراضات وكثير شبهات، خاصة بالنسبة لمسألة القصاص. تقول:

١ - الجريمة لا تزيد على قتل انسان، والقصاص يؤدي إلى تكرار هذا العمل

الشييع.

٢ - القصاص ينم عن روح الإنتقام والتشفيّ والقسوة، ويجب ازالة هذه الروح

عن طريق التربية، بينما يعمق القصاص هذه الروح.

٣ - القتل لا يصدر عن إنسان سالم، لا بدّ أن يكون القاتل مصاباً بمرض

نفسى، و يجب علاجه، والقصاص ليس بعلاج.

٤ - قوانين النظام الاجتماعي يجب أن تتطور مع تطور المجتمع. ولا يمكن لقانون

سُنّ قبل أربعة عشر قرناً أن يطبق اليوم.

٥ - من الأفضل الاستفادة من القاتل بتشغيله في معسكرات العمل الاجباري،
وبذلك نستمد طاقاته ونصون المجتمع من شروره.
هذا ملخص ما يوجه للقصاص من اعتراضات.

* * *

الجواب

لو أمعنا النظر في آيات القصاص، لرأينا فيها الجواب على كل هذه
الاعتراضات: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ».
فالحياة الاجتماعية لا يمكن أن تطوي مسيرتها الحياتية التكاملية، دون اقتلاع
العوامل المضرة الهدامة فيها. ولما كان القصاص في هذه المواضع يضمن استمرار الحياة
والبقاء، فان الشعور بضرورة القصاص أودع على شكل غريزة في وجود الانسان.
انظمة الطب والزراعة والرعي قائمة على أساس هذا الأصل العقلي، وهو إزالة
الموجودات المضرة الخطرة. فنرى الطب يجيز قطع العضو الفاسد إذا شكل خطورة على بقية
أعضاء الجسد، وتقتلع النباتات والأغصان المضرة من أجل استمرار نمو النباتات المفيدة
بشكل صحيح.

أولئك الذين يرون في الاقتصاص من القاتل قتلا لشخص آخر، ينظرون إلى
المسألة من منظور فردي. ولو أخذوا بنظر الاعتبار مصلحة المجتمع، وعلموا ما في القصاص
من دور في حفظ سائر أفراد المجتمع وتربيتهم، لأعادوا النظر في أقوالهم.
إزالة مثل هؤلاء الأفراد الخطرين المضرين من المجتمع، كقطع العضو الفاسد من
جسد الانسان، و كقطع الغصن المضر من الشجرة. ولا أحد يعترض على قطع ذلك العضو
وهذا الغصن. هذا بشأن الاعتراض الاول.

و بشأن اعتراض الثاني، لا بد من الالتفات الى أن تشريع القصاص لا ارتباط
له بمسألة الانتقام. لان الهدف من الانتقام إطفاء نار الغضب المتأججة لمسألة شخصية،
بينما القصاص يستهدف الحيلولة دون استمرار الظلم في المجتمع، و حماية سائر الابرياء.
و بشأن الاعتراض الثالث القائل إن القاتل مريض نفسياً، ولا تصدر هذه
الجريمة من إنسان طبيعي، لا بد أن نقول: هذا الكلام صحيح في بعض المواضع،

والاسلام لم يشرع حكم القصاص للقاتل المجنون وامثاله، ولكن لا يمكن اعتبارالمرضى عذراً لكل قاتل، إذ لا يخفى مايجرّ اليه ذلك من فساد، ومن تشجيع القتل على ارتكاب جرائمهم. لوصح هذا الاستدلال بالنسبة للقاتل، لصح أيضاً بشأن جميع المعتدين على حقوق الآخرين. لأن الانسان العاقل المعتدل لا يعتدي إطلاقاً على الآخرين. و بذلك يجب حذف كل القوانين الجزائية، ويجب إرسال المعتدين والمجرمين الى مستشفيات الامراض النفسية بدل السجن.

أما ادعاء عدم إمكان قبول قانون القصاص اليوم بسبب تطور المجتمع، وبسبب قدم هذا القانون، فمردود أمام إحصائيات الجرائم الفظيعة التي ترتكب في عصرنا الراهن، و أمام التجاوز الوحشية التي تنتشر في بقاع مختلفة من عالمنا بسبب الحروب وغيرالحروب.

ولو أتيح للبشرية أن تقيم مجتمعاً إنسانياً متطوراً تطوراً حقيقياً، فان مثل هذا المجتمع يستطيع أن يلجأ الى العفوبدل القصاص، فقد أقرّ الاسلام ذلك، ومن المؤكد أن المجتمع المتطور في آفاه الانسانية سيعضل عفوالقاتل. أما في مجتمعاتنا المعاصرة حيث ترتكب فيها أفظع الجرائم تحت عناوين مختلفة، فان الغاء قانون القصاص لا يزيد في جرائم المجتمع إلا اتساعاً و ضراوة.

وحول حفظ القتلة في السجن، فان هذه العملية لا تحقق هدف الاسلام من القصاص. فالقصاص - كما ذكرنا - يستهدف حفظ حياة المجتمع، والحيلولة دون تكرار القتل والجريمة. السجن وأمثالها لا تستطيع أن تحقق هذاالهدف (خاصة السجن الحالية حيث هي أفضل من أكثر بيوت المجرمين). ولا أدل على ذلك من ارتفاع احصائيات جرائم القتل خلال فترة قصيرة، في البلدان التي ألغت حكم الإعدام. ولو كانت أحكام السجن عرضة للتقلص بسبب أحكام العفو- كما هوالسائد اليوم - فان المجرمين يعمدون الى ارتكاب جرائمهم دون تحوُّف أو تردّد.

* * *

٣- هل انتقص قانون القصاص المرأة؟

قد يظن بعض أن قانون القصاص الاسلامي قد انتقص المرأة ، حين قرّر أن

«الرجل» لا يقتل «بالمراة»، أي إن الرجل - قاتل المراة - لا يقتص منه .
 وليس الأمر كذلك، مفهوم الآية لا يعني عدم جواز قتل الرجل بالمراة، بل - كما هو مبين في كتب الفقه - يجوز لأولياء المقتولة أن يطلبوا القصاص من الرجل القاتل، بشرط أن يدفعوا نصف ديته .
 بعبارة أخرى: المقصود من عدم قصاص الرجل بالمراة، هو القصاص دون شرط، أما إذا دُفعت نصف ديته فيجوز قتله .

واضح أن دفع نصف دية الرجل القاتل، لا يعني إنتقاص الإسلام للمراة، بل يعني جبران الضرر المالي الذي يصيب عائلة الرجل القاتل بعد قتله، (تأمل بدقة) .
 و لمزيد من التوضيح نقول: الرجال يتحملون غالباً مسؤوليات إعالة الاسرة، و يؤمنون نفقاتها الاقتصادية، ولا يخفى الفرق بين أثر غياب الرجل و غياب المراة على العائلة اقتصادياً، ولولم يراع هذا الفرق لاصيبت عائلة المقتص منه بأضرار مالية، ولوقعت في حرج اقتصادي، و دفع نصف الدية يحول دون تزلزل تلك العائلة اقتصادياً. ولا يسمح الإسلام أن يتعرض أفراد أسرة لخطر اقتصادي و تغمط حقوقهم تحت شعار «المساواة» .
 قد تكون أمراة في أسرتها عضوة فعالة اقتصادياً أكثر من الرجل، ولكن الاحكام والقوانين لا تقوم على أساس الحالات الاستثنائية بل على أساس الوضع العام، وفي هذه الحالة يجب أن نقارن كل الرجال بكل النساء. (تأمل بدقة) .

* * *

٤- يلفت النظر أيضاً في الآية عبارة «من أخيه»، فالقرآن يركز على مفهوم الأخوة بين المسلمين، حتى يطلق هذا التعبير على القاتل. و بهذا التعبير يضرب القرآن على وترالعاطفة الأخوية بين المسلمين، كي يشجع أولياء المقتول على العفو!!
 هذا طبعاً بالنسبة للقاتل الذي انزلت في هاوية الجريمة، في ظروف عصبية خاصة، و ندم بذلك على فعلته. أما المجرمون الذين يفخرون بجرائمهم، ولا يشعرون بندم على ما ارتكبوه فلا يستحقون اسم الأخ ولا العفو.

* * *

الآيات

- ١٨٠ - « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ».
- ١٨١ - « فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ».
- ١٨٢ - « فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ».

التفسير

الوصية بالمعروف

الآيات السابقة ذكرت تشريع القصاص، وهذه الآيات تذكر تشريع الوصية، باعتباره جزءاً من النظام المالي، وتذكر ذلك بأسلوب الحكم الإلزامي فتقول: « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ».

ثم تضيف الآية أن هذه الوصية كتبت « حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ».

ذكرنا أن تعبير « كُتِبَ عَلَيْكُمْ » يدل على الوجوب، من هنا كان هذا التعبير وقع

بجث لدى المفسرين في هذه الآية، ولهم فيها أقوال مختلفة:

١ - جاء في الآية الكريمة بشأن كتابة الوصية كونها « حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ »، من

هنا فانها مستحبة استحباباً مؤكداً، ولو كانت واجبة لقات الآية: « حَقًّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ».

٢ - قيل أيضاً: إن هذه الآية نزلت قبل نزول أحكام الارث، وكانت الوصية

آنئذ واجبة، كي لا يقع نزاع بين الورثة. ثم نسخ هذا الوجوب بعد نزول آيات الارث، و

أصبح حكماً استجابياً. وفي تفسير «العياشي» حديث يؤيد هذا الاتجاه.
 ٣ - يحتمل أيضاً أن يكون حديث الآية عن موارد الضرورة والحاجة، أي حين يكون الانسان مديناً، أو في ذمته حق، والوصية واجبة في هذه الحالات.
 يبدو أن التفسير الأول أقرب من بقية التفاسير.

يلفت النظر أن الآية الكريمة عبرت عن المال بكلمة «خَيْرٌ» فقالت: «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا». وهذا يعني أن الاسلام يعتبر الثروة المستحصلة عن طريق مشروع، والمستخدمه على طريق تحقيق منافع المجتمع ومصالحه خيراً وبركة. ويرفض النظرات الخاطئة التي ترى الثروة شراً ذاتياً، ويردّ على أولئك المتظاهرين بالزهد، القائلين أن الزهد مساو للفقر، مسبباً بذلك ركود المجتمع الاسلامى اقتصادياً، ومؤيدين بمواقفهم الإنزوائية الى فسح المجال لاستثمار الطامعين خيرات أمتهم.

هذا التعبير يشير ضمناً الى مشروعية الثروة، لأن الأموال غير المشروعة ليست خيراً بل شراً وبالاً.

ويستفاد من بعض الروايات أن تعبير «خَيْرًا» يراد به الأموال الموفورة، لأن المال اليسير لا يحتاج الى وصية، ويستطيع الورثة أن يقسموه بينهم حسب قانون الإرث. بعبارة أخرى المال اليسير ليس بشيء يستدعي أن يفصل الانسان ثلثه عن طريق الوصية.^١

وجملة «إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ» تبين آخر فرصة للوصية، وهذه الفرصة الأخيرة إن فاتت أيضاً فلا فرصة بعدها.. أي لا مانع أن يكتب الانسان وصيته قبل ذلك، بل يستفاد من الروايات أن هذا عمل مستحسن.

ولا قيمة لتلك التصورات المتشائمة من كتابة الوصية، فالوصية، إن لم تكن باعثاً على طول العمر، لا تبعث اطلاقاً على تقريب أجل الانسان! بل هي دليل على بعد النظر وتحسب الاحتمالات.

تقييد الوصية «بِالْمَعْرُوفِ» إشارة الى أن الوصية ينبغي أن تكون موافقة للعقل

من كل جهة، لأن «أَلْمَعْرُوفَ» هو المعروف بالحُسْنِ لدى العقل. يجب أن تكون الوصية متعلقة في مقدارها وفي نسبة توزيعها، دون أن يكون فيها تمييز، ودون أن تؤدي الى نزاع وانحراف عن أصول الحق والعدالة.

* * *

حين تكون الوصية جامعة للخصائص المذكورة فهي محترمة ومقدسة، وكل تبديل وتغيير فيها مخطور وحرام. لذلك تقول الآية التالية: «فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ». ولا يظننَّ المحرفون المتلاعبون أن الله غافل عما يفعلون، كلاً «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

ولعل هذه الآية تشير الى أن تلاعب «الوصي» (وهو المسؤول عن تنفيذ الوصية) لا يصادر أجر الموصي. فالموصي ينال أجره، والاثم على الوصي المحرف في كمية الوصية أو كيفيتها أو في أصلها.

ويحتمل أيضاً أن الآية تبرئ ساحة الورثة الذين قسم بينهم الإرث في حالة عدم التزام الوصي بمفاد الوصية. وتقول إن الورثة (الذين لا يعملون بتلاعب الوصي) لا إثم عليهم، بل الإثم على الوصي المحرف ولا تناقض بين التفسيرين، فالآية تجمع التفسيرين معاً.

* * *

بين القرآن فيما سبق الأحكام العامة للوصية، وأكد على حرمة كل تبديل فيها، ولكن في كل قانون إستثناء، والآية الثالثة من آيات بحثنا هذا تبين هذا الاستثناء وتقول: «فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

الاستثناء يرتبط بالوصية المدونة بشكل غير صحيح، وهنا يحق للوصي أن ينبه الموصي على خطئه إن كان حياً، وأن يعدل الوصية إن كان ميتاً، وحدد الفقهاء مواضع جواز التعديل فيما يلي:

١ - إذا كانت الوصية تتعلق بأكثر من ثلث مجموع الثروة، فقد أكدت نصوص

- المعصومين على جواز الوصية في الثلث، وحظرت ما زاد على ذلك .^١
- من هنا لو وصى شخص بتوزيع كل ثروته على غير الورثة الشرعيين فلا تصح وصيته، وعلى الوصي أن يقلل ذلك الى حد الثلث.
- ٢ - اذا كان في الوصية ما يؤدي الى الظلم والاثم، كالوصية باعانة مراكز الفساد، أو الوصية بترك واجب من الواجبات.
- ٣ - إذا أدت الوصية الى حدوث نزاع وفساد و سفك دماء، وهنا يجب تعديل الوصية بإشراف الحاكم الشرعي.
- عبرت الآية «بِالْجَنَفِ» عن الانحرافات التي تصيب الموصي في وصيته عن سهو، و «بِالْأَثْمِ» عن الانحرافات العمدية.
- عبارة «إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ» تشير الى ما قد يقع فيه الوصي من خطأ غير عمدي عند ما يعدل الوصية المنحرفة، وتقول: إن الله يعفو عن مثل هذا الخطأ.

* * *

وقفات

١- فلسفة الوصية

الارث يوزع حسب القانون الاسلامي بنسب معينة على عدد محدود من الأقارب، وقد يكون بين الأقارب والأصدقاء والمعارف من له حاجة ماسة الى المال، ولكن لا سهم له في قانون الارث. وقد يكون بين الورثة من له حاجة أكبر الى المال من بقية الورثة.

من هنا وضع الاسلام قانون الوصية الى جانب قانون الارث، وأجاز للمسلم أن يتصرف في ثلث امواله (بعد الوفاة) بالشكل الذي يرشد لمع هذا الفراغ. أضف الى ما سبق، قد يرغب إنسان أن يعمل بعد مماته، الخيرات التي ما أتيج له أن يعملها في حياته، ومنطق العقل يفرض أن لا يحرم هذا الشخص من مثل هذا العمل الخيري.

(١) وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ٣٦١ (كتاب أحكام الوصايا، الباب العاشر).

الوصية غير محصورة بالموارد المذكورة طبعاً، بل على الانسان أن يشخص في وصيته ما لديه من أمانات وما عليه من ديون وأمثالها، حتى لا يبقى في أمواله شيء مبهم من حقوق الناس و حقوق الله.

النصوص الإسلامية أكّدت على ضرورة الوصية كثيراً، من ذلك ما روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): «مَا يَنْبَغِي لِأَمْرِي مُسْلِمٍ أَنْ يَبِيتَ لَيْلَةً إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ تَحْتَ رَأْسِهِ»^١.

والمقصود بوضع الوصية تحت الرأس إعدادها وتهيئتها طبعاً.
وفي رواية أخرى: «مَنْ مَاتَ بِغَيْرِ وَصِيَّةٍ مَاتَ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً»^٢.

* * *

٢- العدالة في الوصية

في الروايات الاسلامية تأكيد وافر على «عدم الجور» و «عدم الضرر» في الوصية، يستفاد منها جميعاً أنّ تعدي الحدود الشرعية المنطقية في الوصية عمل مذموم ومن كبائر الذنوب.

روي عن الامام الباقر (عليه السلام): «مَنْ عَدَلَ فِي وَصِيَّتِهِ كَانَ كَمَنْ تَصَدَّقَ بِهَا فِي حَيَاتِهِ، وَمَنْ جَارَ فِي وَصِيَّتِهِ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ عَنْهُ مُغْرَضٌ»^٣.
والجور في الوصية هو الوصية بأكثر من الثلث، وحرمان الورثة من حقهم المشروع، أو التمييز بين الورثة بسبب عواطف شخصية سطحية. وأوصت النصوص الاسلامية أيضاً بعدم الوصية بالثلث إن كان الورثة فقراء محتاجين، و تقليل النسبة الى الربع و الى الخمس^٤.

موضوع العدالة في الوصية يبلغ درجة من الأهمية نراها في هذه الرواية: «أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ تَوَقَّى وَلَهُ صَبِيَّةٌ صِغَارٌ وَلَهُ سِتَّةٌ مِنَ الرَّقِيقِ فَأَعْتَقَهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِ وَلَيْسَ لَهُ

١ (٢٠١) وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ٣٥٢.

٢ (٣) وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ٣٥٩.

٣ (٤) وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ٣٦٠.

مَا كُفِّرْتُمْ فَلَمَّا عَلِمَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) سَأَلَ قَوْمَهُ مَا صَنَعْتُمْ بِصَاحِبِكُمْ قَالُوا دَقَّقْنَا قَالَ: أَمَا إِنِّي لَوَعَلِمْتُمْ مَا تَرَكْتُكُمْ تَدْفِنُونَهُ مَعَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ تَرَكَ وُلْدَهُ صِغَارًا يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ!.

* * *

٣- الوصايا الواجبة والمستحبة .

الوصية وان كانت مستحبة بطبيعة حالها - كما اشرنا اليه - ولكن قد تكون واجبة لامور طارئة مثل ان يكون على الانسان حقوق واجبة للناس او لله قصر في ادائها او كانت عنده امانات وديون او مثل ذلك بحيث لولم يوص كان رضاته فيها واهم من الكل ان يكون للانسان مكانة خاصة في المجتمع لولم يوص لمن بعده وقعت اضطرابات وامور موسفة كوصية النبي (صلى الله عليه وآله) لمن بعده.

* * *

٤- الوصية قابلة للتغيير خلال الحياة.

القوانين الاسلامية اُجازت للموصي أن يعيد النظر في وصيته مادام على قيد الحياة. و جواز هذا التغيير يشمل الوصي وكيفية الوصية. ذلك لأن مرور الزمان قد يغير نظرات الموصي، ويغير المصالح المرتبطة بالوصية.

* * *

٥- جدير بالذكر أن الانسان ينبغي أن يجعل وصيته وسيلة لتلافي ما مضى من تقصير، و أن يتودد بها إلى من جفاه من أقاربه أيضاً. وفي الروايات أن قادة الاسلام كانوا يوصون خاصة لمن جفاهم من أقاربهم ويخصصون لهم مبلغاً من المال، كي يعيدوا ما انقطع من أوصالهم، ويحرمون عبيدهم، أو يوصون بتحريرهم.

* * *

الآيات

١٨٣ - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

١٨٤ - «أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

١٨٥ - «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمُ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

التفسير

الصوم مدرسة التقوى

في سياق طرح مجموعة من الاحكام الاسلامية، تناولت هذه الآيات أحكام واحدة من أهم العبادات، وهي عبادة الصوم، وبلهجة مفعمة بالتأكيد قالت الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ».

ثم تذكر الآية مباشرة فلسفة هذه العبادة التربوية، في عبارة قليلة الالفاظ، عميقة المحتوى، وتقول: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

نعم، الصوم - كما سيأتي شرح ذلك- عامل فعال لتربية روح التقوى في جميع المجالات والابعاد.

لما كانت هذه العبادة مقرونة بمعاناة وصبر على ترك اللذائذ المادية، وخاصة في فصل الصيف، فان الآية طرحت موضوع الصوم بأساليب متنوعة، لتهيء روح الانسان

لقبول هذا الحكم.

تبتدئ الآية أولاً بأسلوب خطابي وتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» وهو نداء يفتح شغاف القلب، ويرفع معنويات الانسان، ويشحذ همته، وفيه لذة قال عنها الامام الصادق (عليه السلام): «لَدَّةٌ مَا فِي التَّدَايِ أَزَالَ تَعَبَ الْعِبَادَةِ وَالْعَنَاءِ»^١.
ثم تبين الآية أن الصوم فريضة كتبت أيضاً على الامم السابقة.
ثم تبين الآية فلسفة الصوم وما يعود به على الإنسان من منافع، لتكون هذه العبادة محبوبة ملتصقة بالنفس.

* * *

الآية التالية تتجه أيضاً الى التخفيف من تعب الصوم وتقول:
«أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ» فالفريضة لا تحتل إلا مساحة صغيرة من أيام السنة.
ثم تقول: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ»،
فالمريض والمسافر معفون من الصوم، وعليها أن يقضيا صومهما في أيام أخرى.
ثم تصدر الآية عفوًا عن الطاعنين في السن، وعن المرضى الذين لا يرجى شفاؤهم، وترفع عنهم فريضة الصوم ليدفعوا بدلها كفارة، فتقول: «وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ»^٢.
ثم تقول الآية: «فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ»^٣ أي من تطوع للاطعام أكثر من

(١) جمع البيان في تفسير الآية.

(٢) «يطيقونه» من «الطوق» وهو الحلقة التي تلتقي على العنق، أو توجد عليه بشكل طبيعي (كطوق الحمام)، ثم أطلقت الكلمة على نهاية الجهد والطاقة، والضمير في «يطيقونه» يعود على الصوم، أي الذين يبذلون غاية طاقتهم لدى الصوم، أو بعبارة أخرى: الذين يجهدهم الصوم وينقل عليهم، وهم الطاعنون في السن والمرضى الذين لا يرجى علاجهم، فهؤلاء معفون من الصوم وعليهم أن يدفعوا الفدية بدل ذلك (وعلى المرضى الذين يشفون أن يقضوا صومهم).

وقيل «الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ» يعني الذين كانوا يطيقونه، ولم يعودوا اليوم قادرين على الصوم (وهذا المعنى جاء في بعض الروايات).

(٣) قيل في عبارة «تَطَوَّعَ خَيْرًا» إنها إشارة الى الصوم المستحب، وقيل أيضاً: إنها تأكيد على أن الصوم ينبغي أن يكون عن رغبة وطوعية، لاعتن إيجاب وإكراه.

ذلك فهو خيرٌ له.

وأخيراً تبين الآية حقيقة هي: «وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ». استدل بعض هذه الآية على أن الصوم كان في بداية التشريع واجبا تخييراً، وكان المسلمون مخيرين بين الصوم والفتية، ثم نسخ هذا الحكم بعد أن تعود المسلمون على الصوم و أصبح واجبا عينياً، ولكن ظاهر الآية يدل على تأكيد آخر على فلسفة الصوم، وعلى أن هذه العبادة - كسائر العبادات - لا تزيد الله عظمة أو جلالاً، بل تعود كل فوائدها على الناس.

الشاهد على ذلك ما جاء في القرآن من تعبير مشابه لذلك، كقوله سبحانه بعد ذكر وجوب صلاة الجمعة: «ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (الجمعة، ٩). وقوله تعالى: «وَأَبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (العنكبوت، ١٦).

وبهذا تبين أن عبارة «وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ» موجهة الى كل الصائمين لا الى مجموعة خاصة.

* * *

آخر آية في بحثنا نتحدث عن زمان الصوم و بعض أحكامه ومعطياته تقول: «شَهْرُ رَمَضَانَ» هو الشهر الذي فرض فيه الصيام. وهو «الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ».

ثم تؤكد ثانية حكم المسافر والمريض وتقول: «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ»^١. تكرار حكم المسافر والمريض في هذه الآية والآية السابقة، قد يكون سبب كراهية بعض المسلمين أن لا يصوموا أيام شهر رمضان حتى ولو كانوا مرضى أو مسافرين.

(١) اي من كان في حضر فليصم شهر رمضان، وقيل إن جملة «مَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ» تعني رؤية

الهلال، وهو بعيد، والحق ما ذكرناه وروايات أئمة اهل البيت تؤيد ذلك.

والقرآن بهذا التكرار يفهم المسلمين أن الصوم في حالة السلام والحضر حكم الهي، والافطار في حال السفر والمرض حكم الهي أيضاً لا تجوز مخالفته. وفي آخر الآية إشارة أخرى الى فلسفة تشريع الصوم، تقول «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ». فالصوم - وإن كان على الظاهر نوعاً من التضيق والتحديد - مؤداه راحة الانسان ونفعه على الصعيدين المادي والمعنوي، (و سيأتي تفصيل ذلك في بحث فلسفة الصوم).

ولعل هذه العبارة إشارة الى أن الأوامر الالهية ليست كأوامر الحاكم الظالم، ففي الصوم رخص حيثما كان فيه مشقة على الصائم، لذلك رفع تكليف الصوم - على أهميته - عن المريض والمسافر والضعيف.

ثم تقول الآية: «وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ» أي يلزم على كل إنسان سليم أن يصوم شهراً، فذلك ضروري لتربية جسمه ونفسه. لذلك وجب على المريض والمسافر أن يقضي مافاته من شهر رمضان ليكمل العدة، وحتى الحائض - التي أعفيت من قضاء الصلاة - غير معقوة عن قضاء الصوم.

والعبارة الأخيرة من الآية تقول: «وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمُ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» لتكبروه على ما وفر لكم من سبل الهداية، ولتشكروه على ما أنعم عليكم. الشكر في الآية مسبوق بكلمة «لَعَلَّ»، لكن التكبير مؤكداً بشكل قاطع غير مسبوق بترج. وقد يعود الاختلاف في التعبير الى أن عبادة (الصوم) هي على كل حال تكبير لله وتعظيم له سبحانه، أما الشكر - وهو انفاق النعم في مواضعها والاستفادة من الآثار العملية للصوم - فله شروط أهمها الاخلاص التام، وفهم حقيقة الصوم، والاطلاع على أبعاده وأعماقه.

* * *

وقفات

١- الآثار التربوية والاجتماعية والصحية للصوم

للصوم أبعاد متعددة وآثار غزيرة مادية ومعنوية في وجود الانسان، وأهمها البعد الاخلاقي، التربوي.

من فوائد الصوم الهامة «تلطيف» روح الانسان، و «تقوية» ارادته، و «تعديل» غرائزه.

على الصائم أن يكف عن الطعام والشراب على الرغم من جوعه وعطشه، وهكذا عليه أن يكف عن ممارسة العمل الجنسي، ليثبت عمليا أنه ليس بالحيوان الاسير بين الملعف والمضجع، وأنه يستطيع أن يسيطر على نفسه الجاحمة وعلى أهوائه وشهواته. الأثر الروحي والمعنوي للصوم يشكل أعظم جانب من فلسفة هذه العبادة. مثل الانسان الذي يعيش الى جوار أنواع الاطعمة والاشربة، لا يكاد يحس بمجموع أو عطش حتى يميده الى مالدّ وطاب كمثل شجرة تعيش الى جوار نهر وفيروالمياه، ما أن ينقطع عنها الماء يوما حتى تذبل وتصحّر.

اما الاشجار التي تنبت بين الصخور وفي الصحارى المقفرة، و تتعرض منذ أوائل انباتها الى الرياح العاتية، و حرارة الشمس المحرقة حيناً، و برودة الجوّ القارصة حيناً آخر، و تواجه دائماً أنواع التحديدات، فانها اشجار قوية صلبة مقاومة. والصوم له مثل هذا الأثر في نفس الانسان، فهذه القيود الموقته يمنحه القدرة وقوة الارادة و عزيمة الكفاح، كما يبعث في نفسه النور والصفاء بعد أن يسيطر على غرائزه الجاحمة.

بعبارة موجزة ، الصوم يرفع الانسان من عالم البهيمية الى عالم الملائكة، و عبارة «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» تشير الى هذه الحقائق.

وهكذا الحديث المعروف: «أَلصَّوْمُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ»^١ يشير الى هذه الحقائق. و عن علي (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه سئل عن طريق مجابهة الشيطان، قال: «الصَّوْمُ يَسَوِّدُ وَجْهَهُ، وَالصَّدَقَةُ تُكْسِرُ ظَهْرَهُ، وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْمُوَاطَبَةُ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ يَفْطَعُ دَابِرَهُ، وَالْإِسْتِغْفَارُ يَفْطَعُ وَتَيْبُهُ»^٢. و في نهج البلاغة عرض لفلسفة العبادات، و فيه يقول أميرالمؤمنين علي

(١) بحار الانوار ج ٩٦ ص ٢٥٦.

(٢) بحار الانوار، ج ٩٦، ص ٢٥٥.

(عليه السلام): «وَالصَّيَامَ ابْتِلَاءً لِإِخْلَاصِ الْخَلْقِ»^١.

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: «إِنَّ لِلْجَنَّةِ بَابًا يُدْعَى الرَّيَّانُ، لَا يَدْخُلُ فِيهَا إِلَّا الصَّائِمُونَ»

يقول المرحوم الصدوق في «معاني الاخبار» معلقا على هذا الحديث: إنما سمي هذا الباب بالريّان لأن مشقة الصائم إنما تكون في الاغلب من العطش، وعند ما يدخل الصائمون من هذا الباب يرتونون حتى لا يظمأوا بعده أبدا.^٢

الأثر الاجتماعي للصوم لا يخفى على أحد. فالصوم درس المساواة بين أفراد المجتمع. الموسرون يحسون بما يعانيه الفقراء المعسرون، وعن طريق الاقتصاد في استهلاك المواد الغذائية يستطيعون أن يهبوا لمساعدتهم.

قد يمكن تحسيس الاغنياء بما يعانيه الفقراء عن طريق الكلام والخطابة، لكن المسألة حين تتخذ طابعا حسيّا عينيا لها التأثير الأقوى والأبلغ. الصوم يمنح هذه المسألة الهامة الاجتماعية لونا حسيا، لذلك يقول الامام الصادق (عليه السلام) في جواب عن سؤال بشأن علة الصوم: «إِنَّمَا فَرَضَ اللَّهُ الصَّيَامَ لِيَسْتَوِيَ بِهِ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ، وَذَلِكَ إِنَّ الْغَنِيَّ لَمْ يَكُنْ لِيَجِدَ مَسَّ الْجُوعِ فَيَرْحِمَ الْفَقِيرَ، وَإِنَّ الْغَنِيَّ كَلَّمَا أَرَادَ شَيْئًا قَدَرَ عَلَيْهِ فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُسَوِيَ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَأَنْ يُذِيقَ الْغَنِيَّ مَسَّ الْجُوعِ وَالْأَلَمِ، لِيَرُقَّ عَلَى الضَّعِيفِ وَيَرْحَمَ الْجَائِعَ»^٣.

ترى، لو أن الدول الغنية في العالم صامت عدة أيام في السنة وذاقت مرارة الجوع، فهل يبقى في العالم كل هذه الشعوب الجائعة؟! *

الآثار الصحية للصوم

أهمية «الامسك» في علاج أنواع الامراض ثابتة في الطب القديم والحديث.

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٢٥٢.

(٢) بحار الانوار، ج ٩٦، ص ٢٥٢.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٧، اول كتاب الصوم، ص ٣.

المبحوث الطبية لا تخلو عادة من الحديث عن هذه المسألة، لأن العامل في كثير من الأمراض الإسراف في تناول الأطعمة المختلفة. المواد الغذائية الزائدة تتراكم في الجسم على شكل مواد دهنية، وتدخل هي والمواد السكرية في الدم، وهذه المواد الزائدة وسط صالح لتكاثر أنواع الميكروبات والامراض، وفي هذه الحالة يكون الإمساك أفضل طريق لمكافحة هذه الامراض، وللقضاء على هذه المزابل المتراكمة في الجسم.

الصوم يحرق الفضلات والقمامات المتراكمة في الجسم، وهو في الواقع عملية تطهير شاملة للبدن، اضافة الى أنه استراحة مناسبة لجهاز الهضم وتنظيف له، وهذه الاستراحة ضرورية لهذا الجهاز الحساس للغاية، والمنهك في العمل طول أيام السنة. بديهي أن الصائم ينبغي أن لا يكثر من الطعام عند «الإفطار» و «السُّحُور» حسب تعاليم الإسلام، كي تتحقق الآثار الصحية لهذه العبادة، والآ فقد تكون النتيجة معكوسة.

العالم الروسي «الكسي سوفورين» يقول في كتابه:

«الصوم سبيل ناجح في علاج أمراض فقرالدم، وضعف الأمعاء، والإلتهابات البسيطة والمزمنة، والدمامل الداخلية والخارجية، والسل، والا سكليروز، والرماتيزم، والنقرس والاستسقاء، وعرق النساء، والخزاز (تناثر الجلد)، وامراض العين، ومرض السكر، و أمراض الكلية، والكبد والأمراض الأخرى.

العلاج عن طريق الإمساك لا يقتصر على الأمراض المذكورة، بل يشمل الامراض المرتبطة بأصول جسم الانسان وخلاياه مثل السرطان والسفليس، والسل والطاعون أيضاً»^١.

عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: «صُومُوا تَصِحُّوا»^٢.

وعنه (صلى الله عليه وآله) أيضاً: «أَلْمِعْدَةُ بَيْنَتْ كُلَّ دَاءٍ وَالْحَمِيَّةُ رَأْسُ كُلِّ

دَوَاءٍ» (بجاء الانوار، المجلد ١٤ من الطبعة القديمة).

(١) كتاب «الصوم طريقة حديثة لعلاج الامراض» ص ٦٥، الطبعة الأولى.

(٢) بجاء الانوار، ج ٩٦، ص ٢٥٥.

٢- الصوم في الامم السابقة

يظهر من النصوص الموجودة في التوراة والانجيل، أن الصوم كان موجودا بين اليهود والنصارى، و كانت الامم الاخرى تصوم في أحزانها و مآسيها، فقد ورد في «قاموس الكتاب المقدس»: «الصوم بشكل عام وفي جميع الاوقات كان متداولاً في أوقات الاحزان والنوائب بين جميع الطوائف والملل والمذاهب»^١.

و يظهر من التوراة أن موسى (عليه السلام) صام أربعين يوماً، فقد جاء فيها: «أَقَمْتُ فِي الْجَبَلِ أَرْبَعِينَ نَهَاراً وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً لَا آكُلُ خُبْزاً وَلَا أَشْرَبُ مَاءً»^٢.

وكان اليهود يصومون لدى التوبة والتضرع الى الله: «اليهود كانوا يصومون غالباً حينما تتاح لهم الفرصة للاعراب عن عجزهم و تواضعهم أمام الله، ليعترفوا بذنوبهم عن طريق الصوم والتوبة، وليحصلوا على رضا حضرة القدس الالهي»^٣.

«الصوم الاعظم مع الكفارة كان على ما يبدو خاصا بيوم من أيام السنة بين طائفة اليهود، طبعاً كانت هناك أيام اخرى موقته للصوم بمناسبة ذكرى تخريب اورشليم وغيرها»^٤
السيد المسيح (عليه السلام) صام أيضاً أربعين يوماً كما يظهر من «الانجيل»: «ثم اصعد يسوع الى البرية من الروح ليَجْرَبَ من ابليس فبعدهما صام اربعين نهراً و اربعين ليلة جاع اخيراً»^٥

ويبدو من نصوص إنجيل «لوقا» أن حوارِّي السيد المسيح صاموا أيضاً^٦.
و جاء في قاموس الكتاب المقدس أيضاً: «.. من هنا كانت حياة الحوارتيين والمؤمنين مملوءة بالابتعاد عن اللذات وبالأتعاب و بالصوم»^٧.

(١) قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٢٧.

(٢) التوراة، سفرالتثنية، الفصل ٩، الرقم ٩.

(٣) قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٢٨.

(٤) انجيل متى، الإصحاح الرابع، الرقم ١ و ٢.

(٥) انجيل لوقا، الإصحاح الخامس، الرقم ٣٥ - ٣٣.

(٦) قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٢٨.

بهذا نستطيع أن نجد في نصوص الكتب الدينية القديمة (حتى بعد تحريفها) شواهد على ما جاء في القرآن الكريم «كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ».

* * *

٣- امتياز شهر رمضان

هذا الشهر - إما اختير شهرا للصوم - لأنه يمتاز عن بقية الشهور. والقرآن الكريم بين مزية هذا الشهر في الآية الكريمة بأنه «الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ» أي القرآن الذي يفصل الصالح عن الطالح ويضمن سعادة البشرية. وفي الروايات الاسلامية أن كل الكتب السماوية: «التوراة» و«الانجيل» و«الزبور» و«الصحف» و«القرآن» نزلت في هذا الشهر.^١ فهو إذن شهر تربية و تعليم، لان التربية غير ممكنة دون تعليم صحيح، ومنهج الصوم التربوي يجب أن يكون مرافقاً لوعي عميق منطلق من تعاليم السماء لتطهير الانسان من كل إثم.

في آخر جمعة من شهر شعبان، التقى رسول الله (صلى الله عليه وآله) خطبة أعدت فيها المسلمين لاستقبال شهر رمضان المبارك قال فيها:

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ قَدْ أَقْبَلَ إِلَيْكُمْ شَهْرُ اللَّهِ بِالْبَرَكَاتِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، شَهْرٌ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلُ الشُّهُورِ، وَأَيَّامُهُ أَفْضَلُ الْأَيَّامِ، وَلَيَالِيهِ أَفْضَلُ اللَّيَالِي، وَسَاعَاتُهُ أَفْضَلُ السَّاعَاتِ، هُوَ شَهْرٌ دُعِيتُمْ فِيهِ إِلَى ضِيَاقَةِ اللَّهِ، وَجُعِلْتُمْ فِيهِ مِنْ أَهْلِ كَرَامَةِ اللَّهِ. أَنْفَاسُكُمْ فِيهِ تَسْبِيحٌ، وَنَوْمُكُمْ فِيهِ عِبَادَةٌ، وَعَمَلُكُمْ فِيهِ مَقْبُولٌ، وَدُعَاؤُكُمْ فِيهِ مُسْتَجَابٌ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ بِنِيَّاتٍ صَادِقَةٍ، وَقُلُوبٍ طَاهِرَةٍ أَنْ يُوَفِّقَكُمْ لِصِيَامِهِ وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ غُفْرَانَ اللَّهِ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْعَظِيمِ، وَادْكُرُوا بِجُوعِكُمْ وَعَطَشِكُمْ فِيهِ جُوعَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَعَطَشِهِ، وَتَصَدَّقُوا عَلَى فَقَرَائِكُمْ وَ مَسَاكِينِكُمْ، وَوَقَرُوا كِبَارَكُمْ، وَارْحَمُوا صِغَارَكُمْ، وَصَلُّوا أَرْحَامَكُمْ، وَاحْفَظُوا أَلْسِنَتَكُمْ، وَغُضُّوا عَمَّا لَا يَحِلُّ النَّظْرُ إِلَيْهِ أَبْصَارَكُمْ، وَعَمَّا لَا يَحِلُّ الْإِسْتِمَاعُ إِلَيْهِ

(١) وسائل الشيعة، ج ٧، أبواب احكام شهر رمضان، الباب ١٨، الحديث ١٦.

أَسْمَاعِكُمْ، وَتَحَنَّنُوا عَلَى آيَاتِ النَّاسِ يُتَحَنَّنْ عَلَى آيَاتِكُمْ...»^١.

* * *

٤- قاعدة «لا حرج»

آيات بحثنا فيها إشارة الى أن الله يريد بالناس اليسر ولا يريد بهم العسر، وهذه الإشارة تدور طبعاً هنا حول موضوع الصوم و فوائده وحكم المسافر والمريض، لكن أسلوبها العام يجعلها قاعدة تشمل كل الاحكام الاسلامية، ويصير منها سنداً لقاعدة «لا حرج» المعروفة.

هذه القاعدة تقول: لا تقوم قوانين الاسلام على المشقة، وإن أدّى حكم إسلامي الى حرج و مشقة، فانه يرفع عنه مؤقتاً، و لذلك أجاز الفقهاء التيمم لمن يشق عليه الوضوء، والصلاة جلوساً لمن يشق عليه الوقوف.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول سبحانه: «هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» (الحج، ٧٨).

وعن الرسول (صلى الله عليه وآله) قال: «يُبْعَثُ عَلَى الشَّرِيعَةِ السَّمْحَةَ السَّهْلَةَ».

* * *

الآية

١٨٦ - «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ».

النزول

سأل رجل رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الله سبحانه، أهو قريب ليناجيه بصوت خفي أم بعيد ليدعوه بصوت مرتفع؟ فنزلت الآية^١.

التفسير

سلاح اسمه الدعاء

بعد أن ذكرت الآيات السابقة مجموعة هامة من الاحكام الإسلامية، تناولت هذه الآية موضوع الدعاء باعتباره أحد وسائل الارتباط بين العباد والمعبود سبحانه. و مجيئ هذه الآية في سياق الحديث عن الصوم، يعطيه مفهوماً جديداً، إذ أن الدعاء والتقرب الى الله روح كل عبادة.

هذه الآية تخاطب النبي وتقول: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ». أقرب مما تتصورون، أقرب منكم اليكم «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ».

(ق، ١٦).

ثم تقول الآية: «أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ». إذن «فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي، وَلْيُؤْمِنُوا بِي، لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ». ويلفت النظر في هذه الآية، أن الله سبحانه أشار الى ذاته المقدسة سبع مرات، و أشار الى عباده سبعا! مجسداً بذلك غاية لطفه وقربه وارتباطه بعباده.

(١) مجمع البيان، في تفسير الآية.

روى عبدالله بن سنان عن الامام الصادق (عليه السلام) قال: «اللُّدْعَاءُ يَرُدُّ الْقَضَاءَ بَعْدَ مَا أُبْرِمَ إِزْمَامًا فَكَثُرَ مِنَ الدُّعَاءِ فَإِنَّهُ مِفْتَاحُ كُلِّ رَحْمَةٍ وَنَجَاحُ كُلِّ حَاجَةٍ وَلَا يُنَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِلَّا بِاللُّدْعَاءِ وَإِنَّهُ لَيْسَ بِأَبْ يُكْتَرُ قَرْعُهُ إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ لِصَاحِبِهِ»^١.

نعم، إنه قريب مّا، وكيف يتعد وهو سبحانه «يُحَوِّلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ»

(الانفال، ٢٤).

وقفات

١- فلسفة الدعاء

اولئك الجاهلون بحقيقة الدعاء و آثاره التربويّة والنفسية، يطلقون أنواع التشكيك بشأن الدعاء.

يقولون: الدعاء عامل مخدّر، لأنه يصرف الناس عن الفعالية والنشاط وعن تطوير الحياة، ويدفعهم بدلاً من ذلك الى التوسّل ب عوامل غيبية.

ويقولون: إن الدعاء تدخّل في شؤون الله، والله يفعل ما يريد، وفعله منسجم مع مصالحنا، فما الداعي الى الطلب منه والتضرّع اليه؟!؟

و يقولون أيضاً: إنّ الدعاء يتعارض مع حالة الإنسان الراضي بقضاء الله المستسلم لإرادته سبحانه!

هؤلاء ، كما ذكرنا، يطلقون هذا التشكيك لجهلهم بالآثار التربوية والنفسية والاجتماعية للدعاء، فالإنسان بحاجة أحياناً الى الملجأ الذي يلوذ به في الشدائد، والدعاء يضيئ نور الأمل في نفس الانسان.

من يتعد عن الدعاء يواجه صدمات عنيفة نفسية واجتماعية.

وعلى حد تعبير أحد علماء النفس المعروفين:

(١) اصول الكافي، ج ٢ كتاب الدعاء (باب ان الدعاء يرد البلاء) الحديث ٧.

«ابتعاد الامة عن الدعاء يعني سقوط تلك الامة! المجتمع الذي قمع في نفسه روح الحاجة الى الدعاء سوف لا يبقى مصوناً عادة من الفساد والزوال.

ومن نافلة القول أنه من العبث الاكتفاء بالدعاء لدى الصباح وقضاء بقية اليوم كالوحش الكاسر، لابد من مواصلة الدعاء، ومن اليقظة المستمرة، كي لا يزول أثره العميق من نفس الانسان»^١.

و اولئك الذين يصفون الدعاء بأنه تخديري لم يفهموا معنى الدعاء، لأن الدعاء لا يعني ترك العلل والوسائل الطبيعية واللجوء بعدها الى الدعاء، بل المقصود أن نبذل نهاية جهدنا للاستفادة من كل الوسائل الموجودة، بعد ذلك إن انسدت أمامنا الطرق، وأعيّتنا الوسيلة، نلجأ الى الدعاء، وبهذا اللجوء الى الله يحى في أنفسنا روح الأمل والحركة، ونستمد من عون المبدأ الكبير سبحانه.

الدعاء إذن لا يحل محل العوامل الطبيعية.

«الدعاء - إضافة الى قدرته في بث الطمأنينة في النفس - يؤدي الى نوع من النشاط الدماغي في الانسان، والى نوع من الانشراح والانبساط الباطني وأحيانا الى تصعيد روح البطولة والشجاعة فيه. الدعاء يتجلى بخصائص مشخصة فريدة .. صفاء النظرة، وقوة الشخصية، والانشراح والسرور، والثقة بالنفس، والاستعداد للهداية، واستقبال الحوادث بصدر رحب، كل هذه مظاهر لكثز عظيم دفين في نفوسنا. وانطلاقاً من هذه القوّة يستطيع حتى الافراد المتخلفون أن يستثمروا طاقتهم العقلية والاخلاقية بشكل أفضل، و اكثر. لكن الافراد الذين يفهمون الدعاء حق فهمه قليلون جداً - مع الأسف - في عالمنا اليوم»^٢.

مما تقدم نفهم الرد على من يقول أن الدعاء يخالف روح الرضا والتسليم، لأن الدعاء - كما ذكرنا - نوع من كسب القابلية على تحصيل سهم أكبر من فيض الله اللامتناهي.

(١) الدعاء، الطبيب وعالم النفس الشهير «الكسيس كاريل».

(٢) الدعاء الكسيس كاريل.

بعبارة أخرى، الانسان ينال بالدعاء لياقة أكبر للحصول على فيض الباري تعالى. وواضح أن السعي للتكامل ولكسب مزيد من اللياقة هو عين التسليم أمام قوانين الخليقة، لا عكس ذلك .

أضف الى ذلك ، الدعاء نوع من العبادة والخضوع والطاعة، والانسان - عن طريق الدعاء - يزداد ارتباطاً بالله تعالى، وكما ان كلّ العبادات ذات أثر تربويّ كذلك الدعاء له مثل هذا الأثر.

والقائلون أن الدعاء تدخل في أمر الله وأن الله يفعل ما يشاء، لا يفهمون أن المواهب الالهية تغدق على الانسان حسب استعداده وكفاءته و لياقته، وكلّما ازداد استعداده ازداد ما يناله من مواهب.

لذلك يقول الامام الصادق (عليه السلام): «إِنَّ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مَنْزِلَةً لَا تُنَالُ إِلَّا بِمَسْأَلَةٍ»^١.

ويقول أحد العلماء: «حينما ندعوفاننا نربط أنفسنا بقوة لامتناهية تربط جميع الكائنات مع بعضها»^٢.

ويقول: «إنّ أحدث العلوم الانسانية - أعنى علم النفس - يعلمنا نفس تعاليم الانبياء، لماذا؟ لأن الاطباء النفسانيين أدركوا أن الدعاء والصلاة والايمان القوي بالدين يزيل عوامل القلق والاضطراب والخوف والهيجان، التي هي الباعث على أكثر من نصف أمراضنا»^٣.

٢- المفهوم الحقيقي للدعاء

علمنا أنّ الدعاء إنّما يكون فيما خرج عن دائرة قدرتنا، بعبارة أخرى الدعاء المستجاب هو ما صدر لدى الاضطرار و بعد بذل كل الجهود والطاقات «أَمَّنْ يُجِيبُ

(١) اصول الكافي، ج٢، ص ٣٣٨، باب فضل الدعاء والحثّ عليه، حديث ٣.

(٢) آئين زندگي (فارسي) ص ١٥٦.

(٣) ن . م . ص ١٥٢.

الْمُضْطَرِّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ الشُّوْعَ» (النمل، ٦٢). يتضح من ذلك أن مفهوم الدعاء طلب تهيئة الاسباب والعوامل الخارجة عن دائرة قدرة الانسان، وهذا الطلب يتجه به الانسان الى من قدرته لامتناهية ومن يهون عليه كل أمر.

هذا الطلب، طبعاً، يجب أن لا يصدر من لسان الانسان فقط، بل من جميع وجوده، واللسان ترجمان جميع ذرات وجود الانسان وأعضائه وجوارحه. يرتبط القلب والروح بالله عن طريق الدعاء ارتباطاً وثيقاً، ويكتسبان القدرة عن طريق اتصالهما المعنوي بالمبدأ الكبير، كما تتصل القطرة من الماء بالمحيط الواسع العظيم.

جدير بالذكر أن هناك نوعاً آخر من الدعاء يردده المؤمن حتى فيما اقتدر عليه من الامور، ليعبر به عن عدم استقلال قدرته عن قدرة البارئ تعالى، وليؤكد أن العلل والعوامل الطبيعية إنما هي منه سبحانه، وتحت إمرته. فإن بحثنا عن الدواء لشفاء دائناً، فإنما نبحث عنه لأنه سبحانه أودع في الدواء خاصية الشفاء (هذا نوع آخر من الدعاء أشارت اليه الروايات الاسلامية أيضاً).

بعبارة موجزة: الدعاء نوع من التوعية وإيقاظ القلب والعقل، وارتباط داخلي بمبدأ كل لطف واحسان، لذلك نرى أمير المؤمنين علياً (عليه السلام) يقول: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ دُعَاءَ قَلْبٍ لَاهٍ»^١.

وعن الامام الصادق (عليه السلام): «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ بَظْهِرِ قَلْبٍ سَاهٍ»^٢.

* * *

٣- شروط استجابة الدعاء

دراسة شروط استجابة الدعاء توضح لنا كثيراً من الحقائق الغامضة في مسألة الدعاء، وتبين لنا آثاره البناءة، والروايات الاسلامية تذكر شروطاً لاستجابة الدعاء منها:

(٢٠١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٤٢، باب الاقبال على الدعاء، الحديث ١.

١ - ينبغي لمن يدعو أن يسعى أولاً لتطهير قلبه وروحه، وأن يتوب من الذنب، و أن يستلهم العطاء من حياة قادة البشرية الالهيين.

عن الامام الصادق (عليه السلام): «إِيَّاكُمْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ شَيْئًا مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حَتَّى يَبْدَأَ بِالنَّيِّ عَلَى اللَّهِ، وَالْمِدْحَةِ لَهُ وَالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ، وَالْإِعْتِرَافِ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ الْمَسْأَلَةَ»^١.

٢ - أن يسعى الداعي إلى تطهير أمواله من كل غصب وظلم، و أن لا يكون طعامه من حرام. عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسْتَجَابَ دُعَاؤُهُ فَلْيَطْبِ مَطْعَمُهُ وَمَكْسَبُهُ»^٢.

٣- أن لا يفترق الدعاء عن الجهاد المستمرضة كل ألوان الفساد، لأن الله لا يستجيب ممن ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، عن النبي (صلى الله عليه وآله): «لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيَسْلَطَنَّ اللَّهُ شِرَارَكُمْ عَلَى خِيَارِكُمْ فَيَدْعُو خِيَارَكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ»^٣.

ترك هذه الفريضة الالهية (فريضة المراقبة الاجتماعية) يؤدي الى خلو الساحة الاجتماعية من الصالحين، وتركها للمفسدين، وعند ذاك لا أثر للدعاء، لان هذا الوضع الفاسد نتيجة حتمية لأعمال الانسان نفسه.

٤- العمل بالمواثيق الالهية - الايمان والعمل الصالح والامانة والصلاح من شروط استجابة الدعاء، فن لم يف بعهده أمام بارئه لا ينبغي أن يتوقع من الله استجابة دعائه.

جاء رجل الى أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، وشكا له عدم استجابة دعائه، فقال الامام:

«إِنَّ فُلُوبَكُمْ خَانَتْ بِثَمَانِ خِصَالٍ:

أَوَّلُهَا: إِنَّكُمْ عَرَفْتُمْ اللَّهَ فَلَمْ تُؤَدُّوا حَقَّهُ كَمَا أَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَمَا أَعْتَتُّ عَنْكُمْ مَعْرِفَتَكُمْ شَيْئًا»

(٢٠١) سفينة البحار، ج١، ص٤٤٨ و٤٤٩.

(٣) نفس المصدر السابق.

وَالثَّانِيَةُ: إِنَّكُمْ آمَنْتُمْ بِرَسُولِهِ ثُمَّ خَالَفْتُمْ سُنَّتَهُ، وَأَمْتُمْ شَرِيعَتَهُ فَأَيْنَ
ثَمَرَةُ إِيمَانِكُمْ؟!
وَالثَّالِثَةُ: إِنَّكُمْ قَرَأْتُمْ كِتَابَهُ الْمُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ فَلَمْ تَعْمَلُوا بِهِ، وَقُلْتُمْ سَمِعْنَا وَ
أَطَعْنَا ثُمَّ خَالَفْتُمْ!
وَالرَّابِعَةُ: إِنَّكُمْ قُلْتُمْ تَخَافُونَ مِنَ النَّارِ، وَأَنْتُمْ فِي كُلِّ وَفِي تَقْدُمُونَ إِلَيْهَا
بِمَعَاصِيكُمْ فَأَيْنَ خَوْفِكُمْ؟!
وَالخَامِسَةُ: إِنَّكُمْ قُلْتُمْ تَرْغَبُونَ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنْتُمْ فِي كُلِّ وَفِي تَفْعَلُونَ مَا
يُبَاعِدُكُمْ مِنْهَا فَأَيْنَ رَغْبَتُكُمْ فِيهَا؟
وَالسَّادِسَةُ: إِنَّكُمْ آكَلْتُمْ نِعْمَةَ الْمَوْلَى فَلَمْ تَشْكُرُوا عَلَيْهَا!
وَالسَّابِعَةُ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ بِعَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ، وَقَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ
فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، فَعَادَيْتُمُوهُ بِلا قَوْلٍ، وَوَالَيْتُمُوهُ بِلا مَخَالَفَةٍ.
وَالثَّامِنَةُ: إِنَّكُمْ جَعَلْتُمْ غُيُوبَ النَّاسِ نَضَبَ أَعْيُنِكُمْ وَغُيُوبَكُمْ وَرَاءَ
ظُهُورِكُمْ تَلُومُونَ مَنْ أَنْتُمْ أَحَقُّ بِاللُّؤْمِ مِنْهُ فَأَيُّ دُعَاءٍ يُسْتَجَابُ لَكُمْ مَعَ هَذَا، وَقَدْ
سَدَدْتُمْ أَبْوَابَهُ وَطَرَفَهُ؟ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا أَعْمَالَكُمْ وَأَخْلِصُوا سَرَائِرَكُمْ وَأْمُرُوا
بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَسْتَجِيبُ اللَّهُ لَكُمْ دُعَاءَكُمْ»^١.

* * *

هذا الحديث يقول بصراحة: إن وعد الله باستجابة الدعاء وعد مشروط لا مطلق.
مشروط بتنفيذ المواثيق الالهية، و ان ابتعد الانسان عن نقض المواثيق الثمانية المذكورة،
فه ان يتوقع استجابة الدعاء، والآ فلا.
العمل بالامور الثمانية المذكورة، باعتبارها شروطا لاستجابة الدعاء، كاف
لتربية الانسان ولاستثمار طاقاته على طريق مثمر بقاء.

* * *

٥ - من الشروط الاخرى لاستجابة الدعاء العمل والسعي عن علي

(عليه السلام): «الدَّاعِي بِلَا عَمَلٍ كَالرَّامِي بِلَا وَتَرٍ»^١.
الوتر بحركته يدفع السهم نحو الهدف، وهكذا دور العمل في الدعاء.

* * *

من مجموع شروط الدعاء المذكورة نفهم أن الدعاء لا يغنينا عن التوسل بالعوامل الطبيعية، بل أكثر من ذلك يدفعنا الى توفير شروط إستجابة الدعاء في أنفسنا، ويحدث بذلك تغييراً كبيراً في حياة الانسان وتجديداً لمسيرته، واصلاحاً لنواقصه.
أليس من الجهل أن يصف شخص الدعاء بهذا المنظار الاسلامي أنه مخدر؟!

* * *

الآية

١٨٧ - «أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثَ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

سبب النزول

روي أن الأكل كان محرماً في شهر رمضان بالليل بعد النوم، وكان النكاح حراماً بالليل والنهار في شهر رمضان. وكان رجل من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقال له مطعم بن جبير شيخاً ضعيفاً، وكان صائماً، فأبطأت عليه أهله بالطعام فنام قبل أن يفطر، فلما انتبه قال لأهله: قد حُرِّمَ عليّ الأكل في هذه الليلة. فلما أصبح حضر حفرة الخندق فأغمي عليه، فرآه رسول الله فرق له.

وكان قوم من الشباب ينكحون بالليل سراً في شهر رمضان، فأنزل الله هذه الآية فأحلّ التكاح بالليل في شهر رمضان والأكل بعد النوم الى طلوع الفجر.^١

التفسير

رخصة في أحكام الصوم

مرّ بنا في سبب نزول الآية أن النكاح كان محرماً في ليالي شهر رمضان اضافة

(١) مجمع البيان، في تفسير الآية.

الى نهاره، و أن الاكل والشرب كانا محرمين في الليل أيضاً بعد النوم، و لعل ذلك كان اختباراً للجليل الاسلامي الأوّل وإعداداً له كي يتقبل احكام الصوم الثابتة.

الآية الكريمة تتضمن أربعة أحكام اسلامية في حقل الصوم والاعتكاف. تقول أولاً: «أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ».

ثم تذكر الآية سبب الحكم فتقول: «هُنَّ لِيَأْسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَأْسَ لَهُنَّ» واللباس يحفظ الجسم من الحر والبرد وأنواع الاخطار من جهة، و يستر عيوب الجسم من جهة أخرى، أضف الى أنه زينة للانسان، وتشبيه الزوج باللباس يشمل كل هذه الجوانب.

الزوجان يحفظ كل منهما الآخر من الانحراف والعيوب، و يوفر كل منهما سبل الراحة والطمأنينة للآخر، وكل منهما زينة للآخر.

هذا التعبير يوضح غاية الارتباط المعنوي بين الرجل والمرأة و مساواتها في هذا المجال، فالتعبير جاء للرجل كما جاء للمرأة، بدون تغيير.

ثم يبين القرآن سبب تغيير هذا القانون الالهي ويقول: «عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ».

فالله سبحانه وسع عليكم الأمر و خففه، وجعل فيه رخصة بلطفه و رحمته، كي لا تتلوثوا بالذنوب.

«فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ».

و هذا الأمر لا يعني طبعاً الوجوب، بل هو رخصة بعد المنع، أو هو بتعبير الاصوليين «الامر عقيب الخطر»، و يدل على الجواز.

عبارة «وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ» إشارة الى أن الاستفادة من هذه الرخصة الكائنة في مسير قوانين الخلقة وحفظ النظام وبقاء النسل لا مانع فيها.

ثم تبين الآية الحكم الثاني وتقول: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ».

للمسلم - إذن - أن يأكل ويشرب في الليل، حتى اذا طلع الفجر يمسك .
وتبين الآية الحكم الثالث: «ثُمَّ آتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ» .
هذه الجملة تأكيد على حظر الاكل والشرب والنكاح في أيام شهر رمضان
للصائمين، وتشير الى أن الحظر يبدأ من طلوع الفجر وينتهي عند الليل .
تطرح الآية بعد ذلك الحكم الرابع وتقول: «وَلَا بُأَشْرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي
الْمَسَاجِدِ» .

هذا الحكم يرتبط بالاعتكاف، وهو شبيه بالاستثناء من الحكم السابق، ففي
الاعتكاف الذي لا تقل مدته عن ثلاثة أيام، لا يحق للمعتكف الصائم أن يباشر زوجته
لا في الليل ولا في النهار .
في ختام الآية عبارة تشير الى كل ماورد فيها من أحكام تقول: «تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
فَلَا تَقْرَبُوهَا» لأن الاقتراب من الحدود يبعث على الوسوسة، وقد يدفع الانسان الى تجاوز
الحدود والوقوع في الذنب .
نعم، «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» .

* * *

وقفات

١- الحدود الالهية

بعد أن ذكرت الآية الكريمة بعض أحكام الصوم والاعتكاف، عبرت عن هذه
الأحكام بالحدود الالهية، وهي الحدود بين الحلال والحرام .. بين الممنوع والمجاز . ومن
الملفت للنظر أن الآية لم تقل لا تتجاوزوا هذه الحدود، بل قالت: «فَلَا تَقْرَبُوهَا»، لأن
الاقتراب منها يؤدي الى إثارة الوسواس، وقد يؤدي أحيانا الى تجاوز هذه الحدود .
لذلك نهى الإسلام عن الولوج في مناطق تؤدي الى إنزلاق الانسان في المحرمات،
كالنهي مثلاً عن الاشتراك في مجالس شرب الخمر حتى مع سبق الإصرار على عدم التلوث
بالخمر، أو النهي عن الاختلاء بالمرأة الأجنبية .

هذا النهي ورد في النصوص الاسلامية تحت عنوان «حماية الحمى» .
ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: «إِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، فَمَنْ

يَرْتَعِ حَوْلَ الْجَمِي يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ»^١.

من هنا فالمتقون لا يبتعدون عن الوقوع في المحرمات حسب، بل يسعون الى عدم الاقتراب من حدود السقوط.

* * *

٢ - الاعتكاف - العكوف والاعتكاف أصله اللزوم، يقال: عكفت بالمكان، أي أقمت به ملازمًا له، وهو في الشرع اللبث في المساجد للعبادة، وأقله ثلاثة أيام يصوم خلالها المعتكف ويكف عن بعض المباحات.

هذه العبادة لها الاثر العميق على تصفية الروح والقرب من الله، وذكرت كتب الفقه آدابها وشروطها، هذه العبادة مستحبة، وقد تتخذ أحياناً في ظروف استثنائية طابع الوجوب. في الآية التي نبحت فيها ورد ذكر أحد شروط الاعتكاف وهو حظر النكاح ليلاً ونهاراً، وهذه الإشارة جاءت لارتباطها بمسألة الصوم.

* * *

٣ - طلوع الفجر - الفجر في الاصل شقّ الشيء شقاً واسعاً، وسمى الصبح فجراً لأنه فجر الليل.

وعبرت الآية عن الفجر أيضاً بأسلوب «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ». ومن الظريف أن «عدي بن حاتم» قال للنبي: اني وضعت خيطين من شعر أبيض واسود فكنت أنظر فيها فلا يتبين لي، فضحك رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى رؤيت نواجذه ثم قال: «يَا ابْنَ حَاتِمٍ إِنَّمَا ذَلِكَ بَيَاضُ النَّهَارِ وَسَوَادُ اللَّيْلِ فَاتِّدَاءُ الصَّوْمِ مِنْ هَذَا الْوَقْتِ»^٢.

وهذا التعبير يوضح أيضاً الفرق بين الصبح الصادق والصبح الكاذب. لان الفجر فجران: الفجر الكاذب وهو على شكل عمود من الضوء يظهر في السماء كذنب السرحان (الثعلب)، وبعده يظهر الفجر الصادق وهو بياض شفاف أفقي يظهر في أفق السماء،

(١) تفسير الصافي، في تفسير الآية المذكورة.

(٢) مجمع البيان، في تفسير الآية.

كخيط ابيض يظهر الى جوار الخيط الاسود. وهذا هو الصبح الصادق و به يتعلق حكم الصوم والصلاة. ولا يشبه الفجر الكاذب.

٤ - التقوى ، هي الأول والآخر- في أول آية ترتبط باحكام الصوم ورد ذكر التقوى على أنها الهدف النهائي للصوم، وفي آخر آية أيضاً وردت عبارة «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» وهذا يؤكد أن كل مناهج الاسلام وسيلة لتربية الروح والتقوى والفضيلة والارادة والاحساس بالمسؤولية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس الجزء الأول

٣	المقدمة
١٣	سورة الحمد
١٥	خصائصها
١٧	محتوى السورة
١٩	لماذا سميت فاتحة الكتاب؟
٢٠	سؤال وجواب
٢٢	تفسير الآية: ١
٢٥	هل البسمة من سورة الحمد؟
٢٧	لفظ الجلالة جامع لصفاته تعالى
٢٨	الرحمة الالهية الخاصة والعامّة
٣٠	لِمَ لَمْ ترد بقية صفات الله في البسمة؟
٣٢	تفسير الآية: ٢
٣٥	رفض الآلهة
٣٧	ربوبية الله طريق لمعرفة الله
٣٨	تفسير الآية: ٣
٣٨	تفسير الآية: ٤
٣٨	مبدأ الإيمان بيوم القيامة
٤١	تفسير الآية: ٥
٤١	الانسان بين يدي الله
٤٢	وقفات

- ٤٤ تفسير الآية: ٦
- ٤٤ السير على الصراط المستقيم
- ٤٦ ما هو الصراط المستقيم؟
- ٤٨ تفسير الآية: ٧
- ٤٨ ههنا خطان منحرفان
- ٤٨ وقفتان
- ٥١ سورة البقرة
- ٥٢ محتوى سورة البقرة
- ٥٢ فضيلة هذه السورة
- ٥٤ تفسير الآيتين: ١ - ٢
- ٥٤ تحقيق في «الحروف المقطعة» في القرآن
- ٥٥ الأدب في العصر الجاهلي
- ٥٥ شاهد ناطق
- ٥٧ لماذا الاشارة الى البعيد؟
- ٥٧ معنى «الكتاب»
- ٥٨ ماهي «الهداية»؟
- ٥٩ لماذا اختصت الهداية بالمتقين؟
- ٦٠ تفسير الآيات: ٣ - ٥
- ٦٠ خصائص المؤمنين
- ٦٠ ١ - الإيمان بالغيب
- ٦٢ ٢ - الارتباط بالله
- ٦٣ ٣ - الارتباط بالناس
- ٦٤ ٤ - الإيمان بالأنبياء
- ٦٥ ٥ - الإيمان بيوم القيامة
- ٦٦ مواصلة طريق الإيمان والعمل
- ٦٧ ماهي حقيقة التقوى؟
- ٦٨ تفسير الآيتين: ٦ - ٧

- ٦٩ سلب قدرة التشخيص و مسألة الجبر
- ٧٠ لماذا يصّر الأنبياء على هداية العصاة؟
- ٧١ الحتم على القلوب
- ٧٢ «القلب» في القرآن
- ٧٣ لماذا استعملت قلوب و أبصار بصيغة الجمع، والسمع بصيغة المفرد؟
- ٧٤ تفسير الآيات: ٨ - ١٦
- ٧٧ ظهور النفاق و أسبابه
- ٧٨ ضرورة معرفة المنافقين في كل مجتمع
- ٧٩ سعة معنى «النفاق»
- ٨٠ تأمر المنافقين
- ٨١ خداع الضمير
- ٨٣ التجارة الخاسرة
- ٨٤ تفسير الآيات: ١٧ - ٢٠
- ٨٤ مثالان رائعان لوصف حالة المنافقين
- ٨٩ تفسير الآيتين: ٢١ - ٢٢
- ٩٠ نَعَم الأرض والسماء
- ٩٣ الشرك في أشكال مختلفة
- ٩٥ تفسير الآيتين: ٢٣ - ٢٤
- ٩٧ لماذا يحتاج الأنبياء الى المعجزة؟
- ٩٨ الخلود والعالمية
- ٩٨ هل تحدّى القرآن؟
- ٩٩ هل جيئ بمثله؟
- ١٠١ شهادات حول القرآن
- ١٠٤ تفسير الآية: ٢٥
- ١٠٥ الايمان والعمل
- ١٠٦ الأزواج المطهرة
- ١٠٦ النعم المادية والمعنوية في الجنة

- ١٠٨ تفسير الآية: ٢٦
- ١١٠ أهمية المثال في بيان الحقائق
- ١١١ لماذا التمثيل بالبعوضة؟
- ١١٢ هداية الله وإضلاله
- ١١٤ تفسير الآية: ٢٧
- ١١٤ الخاسرون الحقيقيون
- ١١٦ أهمية صلة الرحم في الاسلام
- ١١٧ القطع بدل الوصل
- ١١٨ تفسير الآيتين: ٢٨ - ٢٩
- ١١٨ نعمة الحياة
- ١٢١ التناسخ أو عودة الأرواح
- ١٢١ السماوات السبع
- ١٢٣ عظمة الكائنات
- ١٢٥ تفسير الآيات: ٣٠ - ٣٣
- ١٢٥ الانسان خليفة الله في الارض
- ١٢٨ الملائكة في بودقة الاختبار
- ١٢٩ جواب على سؤالين
- ١٣١ تفسير الآيات: ٣٤ - ٣٦
- ١٣٢ لماذا أبى إبليس؟
- ١٣٣ هل كان السجود لله أم لآدم؟
- ١٣٥ ماهي جنة آدم؟
- ١٣٦ ماهو ذنب آدم؟
- ١٣٧ المقارنة بين معارف القرآن والتوراة
- ١٤٠ المقصود من الشيطان في القرآن
- ١٤١ لماذا خلق الشيطان؟
- ١٤٣ تفسير الآيات: ٣٧ - ٣٩
- ١٤٣ عودة آدم الى الله

- ١٤٤ الكلمات التي تلقاها آدم
- ١٤٥ سبب تكرار جملة «اهبطوا»
- ١٤٥ من هم المخاطبون في جملة «اهبطوا»؟
- ١٤٦ تفسير الآيات: ٤٠
- ١٤٦ ذكر النعم الإلهية
- ١٤٧ اليهود في المدينة
- ١٤٨ ميثاق بني إسرائيل
- ١٤٨ وفاء الله بعهده
- ١٤٩ لماذا سمي اليهود «بني إسرائيل»؟
- ١٥١ تفسير الآيات: ٤١ - ٤٣
- ١٥١ جشع اليهود
- ١٥٣ هل القرآن يصدق ما جاء في التوراة والإنجيل؟
- ١٥٧ تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٦
- ١٥٩ ما هو لقاء الله؟
- ١٦٠ سبيل التغلب على الصعاب
- ١٦١ تفسير الآيتين: ٤٧ - ٤٨
- ١٦١ أوهام اليهود
- ١٦٣ القرآن ومسألة الشفاعة
- ١٦٤ المفهوم الحقيقي للشفاعة
- ١٦٥ الشفاعة في عالم التكوين
- ١٦٦ مستندات الشفاعة
- ١٦٧ الشروط المختلفة للشفاعة
- ١٦٨ الشفاعة في الحديث
- ١٦٩ التأثير المعنوي للشفاعة
- ١٧٢ فلسفة الشفاعة
- ١٧٣ شروط توفر الشفاعة
- ١٧٤ شبهات حول مسألة الشفاعة

- ١٧٥ الشفاعة والتوحيد
- ١٧٨ نظرة على منطق الوهابيين في حقل الشفاعة
- ١٨٢ تفسير الآيات: ٤٩
- ١٨٢ نعمة الحرية
- ١٨٤ تفسير الآيات: ٥٠
- ١٨٤ النجاة من آل فرعون
- ١٨٦ تفسير الآيات: ٥١ - ٥٤
- ١٨٦ أكبر انحرافات بني إسرائيل
- ١٨٧ ذنب عظيم و توبة فريدة
- ١٨٩ تفسير الآيتين: ٥٥ - ٥٦
- ١٨٩ طلب عجيب!
- ١٩١ تفسير الآيات: ٥٧
- ١٩١ النعم المتنوعة
- ١٩٢ الحياة الجديدة بعد التحرر
- ١٩٢ المن والسلوى
- ١٩٤ لماذا قالت الآية «أنزلنا»؟
- ١٩٥ ما هو الغمام؟
- ١٩٦ تفسير الآيتين: ٥٨ - ٥٩
- ١٩٦ عناد بني إسرائيل
- ١٩٨ تفسير الآيات: ٦٠
- ١٩٨ انفجار العيون في الصحراء
- ١٩٩ الفرق بين العثي والإفساد
- ١٩٩ المعاجز في حياة بني إسرائيل
- ٢٠٠ الفرق بين «الانفجار» و «الانبجاس»
- ٢٠١ تفسير الآيات: ٦١
- ٢٠١ المطالبة بالأطعمة المتنوعة
- ٢٠٢ آراء المفسرين في كلمة «مصر»

- ٢٠٣ التنوع وطبيعة الإنسان
- ٢٠٣ هل المنّ والسلوى خير الأَطعمة؟
- ٢٠٤ ذلّة بني إسرائيل ومسكنتهم
- ٢٠٥ تفسير الآية: ٦٢
- ٢٠٥ القانون العامّ للنجاة
- ٢٠٦ تساؤل هام
- ٢٠٧ قصة سلمان الفارسي
- ٢٠٩ من هم الصابئون؟
- ٢١١ معتقدات الصابئين
- ٢١٣ تفسير الآيتين: ٦٣ - ٦٤
- ٢١٣ الميثاق
- ٢١٤ رفع جبل الطور
- ٢١٤ الإلتزام والإرهاب
- ٢١٥ جبل الطور
- ٢١٥ خذوا تعاليم السماء بقوة
- ٢١٦ تفسير الآيتين: ٦٥ - ٦٦
- ٢١٦ عصاة يوم السبت
- ٢١٨ تفسير الآيات: ٦٧ - ٧٤
- ٢١٨ قصة بقرة بني إسرائيل
- ٢٢١ أسئلة كثيرة تافهة
- ٢٢٣ ما هو دافع القتل؟
- ٢٢٣ العبر في هذه القصة
- ٢٢٤ الإحسان الى الأب
- ٢٢٥ تفسير الآيات: ٧٥ - ٧٧
- ٢٢٥ لا أمل في هؤلاء
- ٢٢٨ تفسير الآيتين: ٧٨ - ٧٩
- ٢٢٨ خطّة اليهود في استغلال الجهلة

- ٢٣٠ تفسير الآيات: ٨٠ - ٨٢
- ٢٣٠ غرور وادعاء فارغ
- ٢٣١ كسب السيئة
- ٢٣١ إحاطة الخطيئة
- ٢٣٢ عنصرية اليهود
- ٢٣٣ تفسير الآيات: ٨٣ - ٨٦
- ٢٣٣ الناكثون
- ٢٣٥ إشارة تاريخية
- ٢٣٦ الازدواجية في الالتزام
- ٢٣٧ منج البقاء وعوامل السقوط
- ٢٣٨ تفسير الآيتين: ٨٧ - ٨٨
- ٢٣٨ القلوب المغلفة
- ٢٣٩ رسالة الأنبياء في مسيرة التاريخ
- ٢٤٠ ما هو «روح القدس»؟
- ٢٤٠ مفهوم «روح القدس» لدى المسيحيين
- ٢٤١ قلوب غافلة محجوبة
- ٢٤٢ تفسير الآيتين: ٨٩ - ٩٠
- ٢٤٣ كفروا بما عرفوا من قبل
- ٢٤٤ صفقة خاسرة
- ٢٤٤ غضب على غضب
- ٢٤٦ تفسير الآيات: ٩١ - ٩٣
- ٢٤٦ عنصرية اليهود
- ٢٤٧ وقفتان
- ٢٤٩ تفسير الآيات: ٩٤ - ٩٦
- ٢٤٩ فئة مغرورة
- ٢٥٠ وقفات
- ٢٥١ جرائم العنصريين

- ٢٥١ عوامل الخوف من الموت
- ٢٥٣ تفسير الآيتين: ٩٧-٩٨
- ٢٥٣ قوم محجاجون
- ٢٥٥ جبرئيل وميكال
- ٢٥٦ تفسير الآيات: ٩٩-١٠١
- ٢٥٦ الناكثون من اليهود
- ٢٥٨ وقفات
- ٢٥٩ تفسير الآيتين: ١٠٢-١٠٣
- ٢٦١ قصة «هاروت» و «ماروت»
- ٢٦٢ لفظ «هاروت» و «ماروت»
- ٢٦٣ كيف يكون الملك معلماً للإنسان؟
- ٢٦٣ لا قدرة لأحد على عمل دون إذن الله
- ٢٦٣ «السحر» و تاريخه
- ٢٦٥ «السحر» في رأي الاسلام
- ٢٦٥ «السحر» في التوراة
- ٢٦٦ «السحر» في عصرنا
- ٢٦٨ تفسير الآيتين: ١٠٤-١٠٥
- ٢٦٩ لا توفروا للأعداء فرصة الطعن
- ٢٧٠ وقفة
- ٢٧١ تفسير الآيتين: ١٠٦-١٠٧
- ٢٧٢ هل يجوز النسخ في الأحكام
- ٢٧٦ تفسير الآية: ١٠٨
- ٢٧٦ حجج واهية
- ٢٧٨ تفسير الآيتين: ١٠٩-١١٠
- ٢٧٨ حسد و عناد
- ٢٧٩ وقفات
- ٢٨٠ تفسير الآيتين: ١١١-١١٢

٢٨٠	احتكار الجنة
٢٨١	وقفات
٢٨٣	تفسير الآية: ١١٣
٢٨٣	تعصّب و تناقض
٢٨٥	تفسير الآية: ١١٤
٢٨٥	أظلم-الناس
٢٨٧	تخريب المساجد
٢٨٨	أكبر ظلم
٢٨٩	تفسير الآية: ١١٥
٢٩٠	فلسفة القبلة
٢٩١	تفسير الآيتين: ١١٦-١١٧
٢٩١	خرافات اليهود والنصارى والمشرّكين
٢٩٢	دلائل نبي الولد
٢٩٢	معنى «كن فيكون»
٢٩٣	كيف يوجد الشيء من العدم؟
٢٩٥	تفسير الآيتين: ١١٨-١١٩
٢٩٥	حجج أخرى
٢٩٦	تشابهت قلوبهم
٢٩٧	أصلان تربويّان
٢٩٩	تفسير الآيتين: ١٢٠-١٢١
٣٠٠	إرضاء الضالّين محال
٣٠٠	عصمة الأنبياء
٣٠١	للاسترضاء حدود
٣٠١	هدى الله
٣٠١	حقّ التلاوة
٣٠٣	تفسير الآيتين: ١٢٢-١٢٣
٣٠٤	تفسير الآية: ١٢٤

- ٣٠٤ الإمامة قمة مفاخر إبراهيم
- ٣٠٥ المقصود من الكلمات
- ٣٠٥ من هو الامام؟
- ٣٠٧ الفرق بين النبوة والإمامة والرسالة
- ٣٠٨ الإمامة أو آخر مراحل مسيرة إبراهيم التكاملية
- ٣٠٩ من الظالم؟
- ٣١٠ الإمام يعينه الله
- ٣١١ سؤالان
- ٣١٢ شخصية إبراهيم المثالية
- ٣١٣ تفسير الآية: ١٢٥
- ٣١٣ عظمة بيت الله
- ٣١٤ الآثار الاجتماعية والتربوية للبيت الآمن
- ٣١٥ بيت الله
- ٣١٦ تفسير الآية: ١٢٦
- ٣١٦ إبراهيم يدعوربه
- ٣١٨ تفسير الآيات: ١٢٧ - ١٢٩
- ٣١٨ إبراهيم يبني الكعبة
- ٣٢٠ هدف بعثة الأنبياء
- ٣٢١ التعليم والتربية
- ٣٢١ النبي من الناس
- ٣٢٢ تفسير الآيات: ١٣٠ - ١٣٢
- ٣٢٢ إبراهيم الانسان النموذج
- ٣٢٥ تفسير الآيتين: ١٣٣ - ١٣٤
- ٣٢٧ تفسير الآيات: ١٣٥ - ١٣٧
- ٣٢٧ نحن على حق لاغيرنا
- ٣٢٩ وحدة دعوة الأنبياء
- ٣٢٩ من هم الأسباط؟

- ٣٣٠ الخيف
- ٣٣١ تفسير الآيات: ١٣٨ - ١٤١
- ٣٣١ اتبعوا صبغة الله
- ٣٣٣ نهاية الجزء الأول من كتاب الله العزيز
- ٣٣٧ تفسير الآية: ١٤٢
- ٣٣٧ تغيير القبلة
- ٣٣٨ وقفات
- ٣٣٩ تفسير الآية: ١٤٣
- ٣٤١ أسرار تغيير القبلة
- ٣٤٢ الأئمة الوسط
- ٣٤٣ الأئمة الشاهدة
- ٣٤٣ علم الله
- ٣٤٤ تفسير الآية: ١٤٤
- ٣٤٤ كلّ الوجوه شطر الكعبة
- ٣٤٥ نظم الآيات
- ٣٤٥ انتظار صعب
- ٣٤٦ معنى الشطر
- ٣٤٦ خطاب عام
- ٣٤٧ الهدف من التغيير
- ٣٤٧ الكعبة مركز دائرة كبرى
- ٣٤٨ تفسير الآية: ١٤٥
- ٣٤٨ لا يرضون بأيّ ثمن
- ٣٥٠ تفسير الآيتين: ١٤٦ - ١٤٧
- ٣٥٠ يعرفون حق المعرفة
- ٣٥٢ تفسير الآية: ١٤٨
- ٣٥٢ لكلّ أمة قبلة
- ٣٥٣ يوم يجتمع أصحاب المهدي (ع)

٣٥٥	تفسير الآيتين: ١٤٩ - ١٥٠
٣٥٨	تفسير الآيتين: ١٥١ - ١٥٢
٣٥٨	مهمّة رسول الله (ص)
٣٦٠	أقوال المفسرين في «اذكروني أذكركم»
٣٦٣	تفسير الآيتين: ١٥٣ - ١٥٤
٣٦٣	الشهداء أحياء عند ربهم
٣٦٦	خلود الشهداء
٣٦٦	الشهادة سعادة في الإسلام
٣٦٨	تفسير الآيات: ١٥٥ - ١٥٧
٣٦٨	الدنيا دار اختبار إلهي
٣٦٩	لماذا الاختبار الإلهي؟
٣٧١	الاختبار الإلهي عام
٣٧١	طرق الاختبار
٣٧٢	عوامل النجاح في الامتحان
٣٧٤	الاختبار بالخير والشر
٣٧٦	تفسير الآية: ١٥٨
٣٧٧	أعمال الجهلة لا توجب تعطيل الشعائر
٣٧٧	الصفاء والمروة
٣٧٨	من أسرار السعي بين الصفا والمروة
٣٨٠	جواب على سؤال
٣٨١	معنى التطوّع
٣٨٢	شكر الله
٣٨٣	تفسير الآيتين: ١٥٩ - ١٦٠
٣٨٣	حرمة كتمان الحق
٣٨٥	مفاسد كتمان الحق
٣٨٦	كتمان الحق في الأحاديث
٣٨٦	معنى اللعن

٣٨٨	تفسير الآيات: ١٦١ - ١٦٣
٣٨٩	وقفات
٣٩١	تفسير الآية: ١٦٤
٣٩١	مظاهر عظمة الله في الكون
٣٩٥	تفسير الآيات: ١٦٥ - ١٦٧
٣٩٨	تفسير الآيتين: ١٦٨ - ١٦٩
٣٩٨	خطوات الشيطان
٤٠٠	أصل الحلية
٤٠٠	الانحرافات تدريجية
٤٠١	الشيطان عدو قديم
٤٠٢	طريقة الوسوسة الشيطانية
٤٠٣	تفسير الآيتين: ١٧٠ - ١٧١
٤٠٣	التقليد الأعمى
٤٠٥	وقفتان
٤٠٦	تفسير الآيتين: ١٧٢ - ١٧٣
٤٠٦	الطيبات والخبائث
٤٠٩	فلسفة تحريم اللحم المحرمة
٤١٢	تفسير الآيات: ١٧٤ - ١٧٦
٤١٢	إدانة كتمان الحق
٤١٦	تفسير الآية: ١٧٧
٤١٦	أساس البر
٤٢٠	تفسير الآيتين: ١٧٨ - ١٧٩
٤٢٠	في القصاص حياة
٤٢٢	القصاص والعفو تركيب عادل
٤٢٣	هل القصاص يتعارض مع العقل والعواطف الانسانية؟
٤٢٥	هل انتقص قانون القصاص المرأة؟
٤٢٧	تفسير الآيات: ١٨٠ - ١٨٢

الوصية بالمعروف

فلسفة الوصية

العدالة في الوصية

تفسير الآيات: ١٨٣ - ١٨٥

الصوم مدرسة التقوى

الآثار التربوية والاجتماعية والصحية للصوم

الصوم في الأمم السابقة

امتياز شهر رمضان

قاعدة «لا حرج»

تفسير الآية: ١٨٦

سلاح اسمه «الدعاء»

فلسفة الدعاء

المفهوم الحقيقي للدعاء

شروط استجابة الدعاء

تفسير الآية: ١٨٧

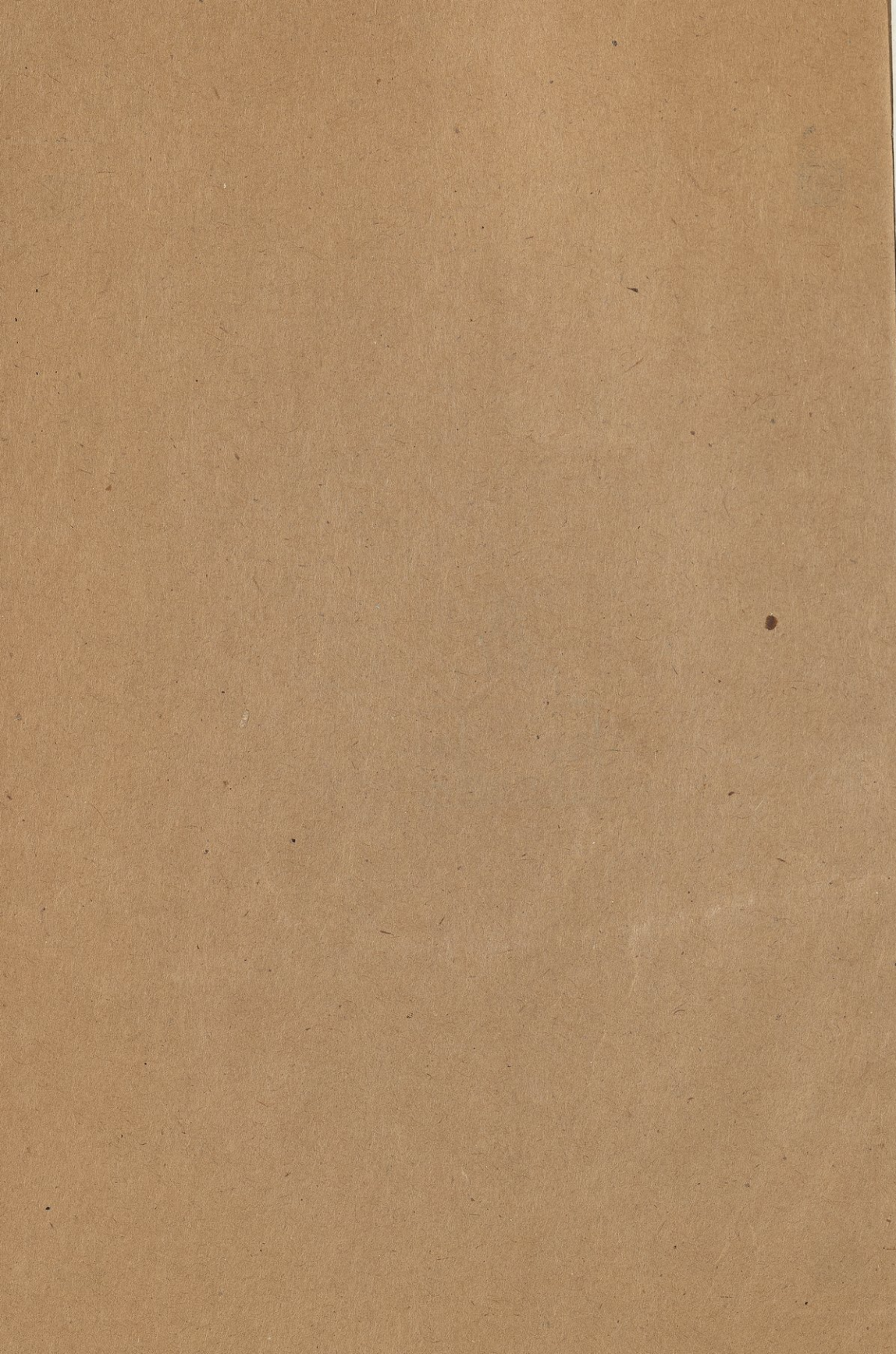
رخصة في أحكام الصوم

الحدود الإلهية

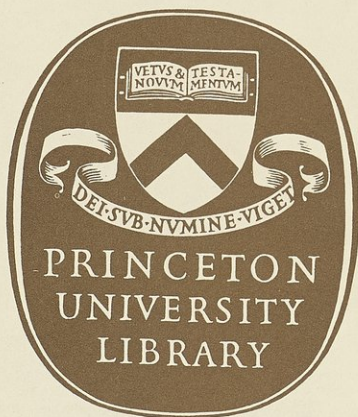
الاعتكاف

طلوع الفجر

التقوى هي الأول والآخر







PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

Princeton University Library



32101 057499350